

مدونة أبو عبدو

الطبعة الثانية

رواية

أبناء الجبلاوي

إبراهيم فرغلي

أبناء الجبلاوي

أبناء الجبلاوي

إبراهيم فرغلي

الطبعة الثانية - ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥
WWW.elainpublishing.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف : أحمد اللباد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٥٢٩٣ /٢٠٠٩
I.S.B.N 978 - 977 - 6231 - 91 - 7

أبناء الجبلاوي

(سيرة رواية)

رواية

إبراهيم فرغلي

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

إبراهيم، فرغلي.

أبناء الجبلاوي: سيرة رواية/ إبراهيم فرغلي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٠

ص؛ سم.

تدمك: ٧ ٩١ ٦٢٣١ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٥٢٩٣ / ٢٠٠٩

إلى هايدي

الأسباب.. أعمق من أن توصف أو تُختزل

هذه رواية، مختلَقة بالكامل من الخيال، بكل ما يدور بها من وقائع، وكل ما فيها من شخصيات، باستثناء بعض أسماء الأحياء أو المكتبات، وهي مذكورة بأسمائها للإيهام، بينما الوقائع والأشخاص متخيلة في إطار من الفانتازيا، ولو صودف تشابه أي مما جاء بها من وقائع أو أسماء مع نظائر من الواقع فسيكون ذلك بمحض المصادفة.

المؤلف

المحتويات

الجزء الأول 13

- **القسم الأول:** كبرياء 15
- **القسم الثاني:** صدى النسيان 81
- **القسم الثالث:** الأصوات الأربعة 133

الجزء الثاني

فصول من سيرة كاتب الكاشف 177

الجزء الثالث 235

- **القسم الأول:** الشيطان يعظ 237
- **القسم الثاني:** أبناء الجبلاوي 293

الجزء الرابع

حكاية بلا بداية ولا نهاية 359

تمهيد

"ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير ونقول في حزن وحسرة: "هنا يقيم الجبلاوي، صاحب الأوقاف، هو الجد ونحن الأحفاد".

"لكن الناس تحملوا البغي في جلد، وكانوا كلما أضر بهم العسف قالوا: لابد للظلم من آخر، ولليل من نهار".

"ولكن آفة حارتنا .. النسيان".

نجيب محفوظ (أولاد حارتنا)

تمهيد (**)

"الرواية لا تروي الحقيقة، وإن أوهمت بذلك، فهي مملكة الخيال والفانتازيا والكذب".

ماريو فارجاس يوسا

"نحن لا نشبه أنفسنا في كل الظروف، وكل واحد منا هو أشخاص مختلفون في ظروف مختلفة".

بول أوستر

(**) المقتطفان من حوارين أجرتهما الشاعرة اللبنانية جمانة حداد مع الكاتبين وضمنتهما كتابها "صحبة لصوص النار" الصادر عن دار النهار.

الجـزء الأول

القسم الأول

كبرياء

1

شقت الصرخة صمت الليل، فانتفضتُ. صرخة كئيبة ملتاعة، مثل ومضة في سماء معتمة. انتبهت حواسي جميعًا، وسرعان ما رعَدَت الصرخة مرة أخرى. لكنها بددت انطباعاتي الأولى عنها. ليست صرخة ألم؛ بل لغة شهوانية لروح ترفل في نشوتها، إشارة حسية تكتسي صوت امرأة، شهقةُ جسدٍ يكتشف لذته، متوسلاً صوتًا بدائيًا ضاربًا في القدم، تعود جذوره إلى بذرة اللذة الأولى. نعم ليس هذا الصوت سوى آهات حارة تطلقها امرأة في أوج لذتها. من أين يأتي الصوت؟ من جهة نافذة غرفة النوم على الأرجح. توجهت صوب الغرفة، ببطء، بينما أسترق السمع. اختلستُ النظر عبر فتحات الشيش المتتابعة. نوافذ البناية المقابلة كلها مغلقة، ومعتمة. كيف استطاعت هذه السيدة أن تتخلى عن خجلها وأصول اللياقة، مطلِقة العنان لشهوتها الفضائحية على هذا النحو؟

لكن أليست نبرة الصراخ هذه مألوفة على نحو ما؟ أليس هذا هو صوت....؟ لا، لا. الأصوات تتشابه، خاصة تأوهات النساء في غلمتهن.

ألقى بي الصوت في لهيب الشهوة، ونيران الغضب المتراكم من فقدان الصبر. خرجت إلى الصالة. نظرتُ باتجاه ساعة الحائط الخشبية العتيقة على الجدار. بدأتْ متوالية القلق، والتوتر، ثم الغضب. هذه هي المرة الثانية، على التوالي، التي تتأخر فيها عن الموعد دون أن تعتذر. ليس لديَّ طاقة لتبرير غيابها هذه المرة. الفعل الوحيد الذي استطعته هو إشعال سيجارة، بينما أواجه الوقت الضائع بانتظار عجول يفتقر لفضيلة الصبر. للحظة أدركت إمكانية مقاومة الزمن الضائع، والتعامل معه بوصفه زمنًا حقيقيًا، وشحذت مخيلتي: بدأتُ بتخيل الثياب التي قد يروق لها أن ترتديها. اخترتُ لها تَنُّورتَها "الجينز" القصيرة؛ التي تبرز جمال ساقيها، ذواتي السمانتين المدملجتين، "تي شيرت" ملون بالأرجواني والأبيض والأزرق والأخضر، بلا أكمام؛ ما يتيح لي تأمل كتفيها العاجيين، بتكوينهما الفاتن. ستعقص شعرها الأسود الطويل، وتترك خصلات من أطرافه تنسدل على الكتف. تخطو الخطوات القليلة الفاصلة بين الباب والأريكة المواجهة لباب الشقة، بتؤدة وهي تلهث. تغمض عينيها وتقول بنبرة عتاب هامسة: "مش هتصلَّحوا الأسانسير بتاعكم ده؟"، وقبل أن أجيب ستسألني أن أحضر لها كوب ماء. سأقترب منها لأداعب وجنتيها، لكنها، ستمسك يدي بحسم، وتؤكد لي أنها عطشانة. بوصولي للثلاجة سيأتيني صوتها بكلمات مبهمة، أحاول كتم ضحكتي في أثناء إجابتي

عنها بأنني لا أسمعها جيدًا؛ إذ أعرف أنها تحاول إثبات معاناتي في السمع، منذ مازحتها مرة بقولي إن سمْعها ضعيف، في إحدى سهراتنا الصاخبة. لم تقبل الدعابة. اعتبرتها محاولة للسخرية منها. وتحولت السهرة من المرح إلى العتاب.

لاحقًا، وفي مناسبات عديدة، كانت تتعمد أن أبتعد عنها، لترفع عقيرتها بكلمات بلا معنى، وإذا طلبت منها أن تكرر ما تقوله، تهز كتفيها بلا اكتراث وتقول، وملامح الضيق مرسومة على وجهها، إنها ليست مستعدة لتكرر ما تقوله عشرات المرات حتى أسمعها. ستتردد ضحكتي في الطرقة الطويلة الخالية من أي أثاث. سأندهش قليلاً من وقع صوت الضحكة التي تنتهي بقغقعة يعقبها صرير. أعود بالكوب الزجاجي، وزجاجة المياه. أصب لها الماء في الكوب وأقدمه إليها فتلتقطه متحاشية تلاقي عينينا. ستمد لي يدها بالكوب الفارغ. سأسألها بينما أتأمل جمال ساقها المرفوعة فوق الأخرى: "عايزة ماية تاني؟" فتسدد لي نظرة عتاب قاسية. عندئذ سأدرك أنني نقضت عهدنا بالتحدث باللغة الإنجليزية فقط، وهذه قصة يطول شرحها على أية حال. ولعلني سأعاود السؤال بصيغته المثلى بالنسبة لها: "هل تريدين مزيدًا من الماء؟" وستهز رأسها بالنفي.

تدرك أنني بسؤالي أتعجل انتقالها من مكانها هذا إلى الغرفة في الداخل. فهي تعرف كراهيتي للانتظار المتلكئ في الركن المواجه للباب؛ متوترًا، بلا أدنى قدرة على التجاوب معها، خوفًا من الجيران، الذين لا أشك في أنهم يتنصتون عليَّ كلما سمعوا صوتًا نسائيًا يتردد في الشقة.

لكنها ستستمر جالسة في مكانها حتى يصيبني الملل. لن أبدي تذمرًا،

حتى لا تستفزني بأي كلمة. سيتوتر الموقف. أتجه للغرفة مستفزًا، فتقرر المغادرة من دون أن تودعني أو تنطق بحرف. بطرقة الباب الصاخبة المستفزة تعلن رحيلها. وتنطلق إشارة البدء لمرحلة من التوتر والترقب، ومحاولات الصلح العبثية، بعد يومين كاملين لا ترد خلالهما على هاتفي. ما الذي يجعلني ألتصق بها طالما أنها تتقمص دور القنبلة الموقوتة هذا؟ أستمتع معها بممارسة الجنس؟ لا أعتقد، لأنني لا أمارس معها سوى حالة من مراقبة جسدها العاري، كأنني فيتيشي تلصص، وهذه قصة أخرى. لأكن أكثر دقة وأقول إنني أحب جسمها. كنت أظن أنني أحب النحيفات، لكني تبينت أن جسدها المدملج المكتنز هو الجسد النموذجي. ثمة مسحة عاطفية في تعرِّيها، فيض من تيار عاطفي خفي يشع من الجسد، ويستفز التعاطف والحنو، مع حس إيروتيكي، تفصله شعرة عن الاهتياج الشهواني. فكرت كثيرًا في ذلك، خاصة وأنني استسلمت لقانونها الذي يمنع اللمس بلا كثير من الجدل.

ربما لأن روحها تتحرك في مساحة أكبر، قد لا تتاح لأرواح النحيفات. أو لأن الجسد المبطن بالدهون يشحن صاحبته عاطفيًا بدرجة أكبر من الجسم الجاف الخالي من الدهون. سمعت هذه الجملة في أحد الأفلام. لم أعد أذكر منه شيئًا سوى هذه الجملة. استهواني التناقض الحاد بين لون بشرتها الخمري، ولون شعرها الذي يذكرني بلون الكحل، والليل. هل يكون للتناقض في شخصيتها دور في إجابة السؤال؟ لماذا أحبها؟ يظل سؤالاً استثنائيًا، ليس في حالتي معها فقط، وإنما في تاريخ العواطف البشرية. وإجاباته، على تنوعها ليست سوى محض افتراضات.

هل أنتظرها الآن لاشتياقي إلى فعل الحب معها؟ لكي أستمع إلى صرختها الأخيرة التي تكتمها طوال فعل الحب الاستعرائي، الذي تفرضه علينا، ولا تطلقها إلا بعد وصول جسدينا – افتراضيًا – إلى الذروة؟ الإجابة هنا بالنفي التام. فغريبة أطوار مثلها، لها دائمًا شروطها الخاصة، وفي هذه الحالة هو "ممنوع اللمس"؛ أي أن فعل الحب معها ليس سوى عملية افتراضية محضة. أم تراني أشتاق لعريها؟ لجوع عيني وهما تلتهمان جمال الجسد العاري. للألفة التي لم أعرفها مع غيرها؛ حيث أستمع لثرثراتها التافهة بشغف، وبالحوارات المطولة بيننا التي قد تبدأ بالشكوى من مشكلات العمل، ثم نمائم الصحف، وطرائف الفضائيات أو عجائبها، وتمر على الترجمة والأدب، وتطل على السياسة، ومنها إلى الحب والجنس. هل أحبها؟ كان السؤال ملحًا. لكني ابتسمت لأنني لم أسأله لنفسي في مواجهة مرآة الحمام، التي أدقق فيها النظر، عادة، مواجهًا نفسي بالأسئلة الصعبة التي أجيب عنها بلا مراوغة. هي الآن تعرف، بيقين كامل، أنني أنتظرها؛ متوترًا. أذرع الشقة يمينًا ويسارًا، أحترق بخيبة الأمل، بينما هي، من مكان قصي، تنتشي باحتراقي في شهوتي وقلقي.

انتقلت إلى غرفة المعيشة القريبة لمدخل الشقة، رفعت صوت التليفزيون. كانت الشاشة تعرض برنامجًا حواريًا على قناة الجزيرة. قلّبت القنوات حتى لمحت "روبرت دي نيرو"، فانتبهت، وقررت أن أتابع الفيلم حتى النهاية. غفوت في أثناء عرض الفيلم. استيقظت على رنين الهاتف الموجود في غرفة النوم، فاتجهت إليها بخطوات متعثرة. رفعت السماعة وكان صوتها الناعس مفاجئًا ومربكًا ببحته المثيرة. هذا ما يحدث لصوتها

عندما تكون مستشارة. برق في ذهني خاطر أنها مرت بعلاقة جسدية مع شخص غامض لا أعرفه.

قالت: "مساء الخير". "مساء الخير". "إنت كنت نايم"؟ "أيوه". "آسفة إني صحيتك، بس أنا راحت عليَّ نومة، أصل كنت تعبانة شوية، ماعرفتش إنك اتصلت إلا لما صحيت". "سلامتك". "الله يسلمك". "أنا آسفة، بس كان لازم أعتذر لك، وكمان في حاجة غريبة حصلت". "خير.. إيه اللي حصل"؟ "إنت ما شفتش تليفزيون النهاردة"؟ "لأ". "معقولة"؟ "ما كانش عندي وقت، خير؟ قولي لي إيه اللي حصل". "أصلهم بيقولوا إن روايات نجيب محفوظ اختفت من البلد". "إيه ؟ يعني إيه اختفت من البلد"؟ "مش عارفة، بس بيقولوا إن المكتبات كلها اتفاجئت إن ما فيش أي واحدة عندها نسخة من أي كتاب لمحفوظ". ضحكتُ، وكنت بدأت أشعر باستعادة وعيي. قالت: "بتضحك على إيه"؟ "مش عارف، أصل الموضوع غريب قوي. إنت صاحية شوية"؟ "أيوه". "طيب أنا هاعمل قهوة في خمس دقايق وأكلمك على طول". "أوكي بس ما تتأخرش". "خمس دقايق". "أوكي". "باي". "باي".

2

جلست أمام التليفزيون مستثارًا، أبحث عن أي محطة إخبارية؛ "الجزيرة"، "العربية"، "الحرة"، ثم البرامج الأجنبية: "سي إن إن"، "بي بي سي". لا أثر لأي خبر عن غياب كتب نجيب محفوظ. ابتسمتُ بسخرية لأنني، بكل سذاجة، صدَّقت ما قالته لي بلا مراجعة. لا تتعب من "اشتغالي"، بينما لا أكلّ من لعب دور الساذج، الذي يأخذ الأمور كلها بجدية، تجعل منه مادة سخرية جذابة في أغلب الدوائر التي يتحرك فيها، بما فيها الدائرة الضيقة الخاصة التي لا يوجد فيها سواي وسواها.

هذه هي شخصية نجوى بامتياز: غريبة الأطوار، متقلبة المزاج، ذات الاستعداد المَرَضي للنزعات الهستيرية؛ المتطلبة، بينما تؤكد لي بمرح أنها مرنة جدًا، وأن بإمكانها أن تتكيف مع كل الأجواء.

تقول إنها كانت فتاة خجولًا، هادئة، بينما لا تقترح عليَّ سوى أكثر الملاهي الليلية صخبًا. تعلن لي في أمسياتنا الرومانسية أنني الرجل الوحيد الذي عشقته في حياتها، بينما تَقُصُّ لي بين آن وآخر، علاقة غرامية عابرة مرت بها، بشكل يوحي بأنها لم تفعل شيئًا آخر طوال مراهقتها إلا اصطياد العشاق. تحدثني عن تواضعها وبساطتها، ولا تخلو حواراتها من نزعات برجوازية، في علاقاتها المتعجرفة ببعض صديقاتها، أو أفراد العائلة من طرف أمها الذين كانت تصفهم بالفقراء. ثم تمارس نوعًا من انتزاع الاعتراف، لأؤكد لها أنها جميلة، وأن جسدها هو أجمل ما شاهدته، وأن ردفيها أجمل ما رأته عيناي. من جهتي كنت أردد ذلك، تحت ضغط نرجسيتها المفرطة. وكالعادة استدرجتني لمنطقها، وأوهمتني أن ما نفعله هو ممارسة جنسية، بينما الأمر لا يعدو كونه طقسًا للاستعراض. تتعرى تدريجيًا. تجلس على الفراش أو أريكة غرفة النوم المواجهة للمكتب، وفقًا لمزاجها، ثم تتيح لي، بكرم بالغ، أن أتأملها كيفما شئت. أما الشرط الذي بموجبه تمنحني عريها هذا بهذه الأريحية فهو "ممنوع اللمس". "إذا لمستني هالبس هدومي وامشي، ومش هتشوفني تاني أبدًا". هذه هي الجملة الوحيدة التي تنطقها بالعربية، مع استثناء مكالماتنا الهاتفية، لأنها ربما الجملة الوحيدة التي تخرج من أعماقها بلا فلترة، ولا تحذلق، ولأنها تعنيها بصدق يفوق الكثير مما تقوله من قبيل اللغو أو الثرثرة.

***

انتهيتُ من إعدادِ القهوة، وانحسرت رغبتي في مهاتفتها. عاودني شعوري بالغبن لأنها لم تعتذر، حتى، عن عدم حضورها في الموعد.

تلكأتُ بتدخين سيجارة، وانتابتني الرغبة في الاستماع للموسيقى. هبطت معنوياتي فجأة. سقطت في جب اكتئاب عميق، بلا قرار. افتقدتْ الحياة جدواها. ولم يعد يناسبني سوى الاتجاه إلى الفراش، والنوم في الظلام محدِّقًا إلى السقف. بعد فترة من الصمت والسكون، فكرت في معاودة الاتصال. لكنني لم أسمع سوى صوت صفارة متقطعة. هذا يعني أن الرقم مشغول. اتجهت إلى جهاز "الستريو". سمعت "تكّات" إعداد الاسطوانات من الجهاز، ثم انطلق صوت موسيقى "إنيجما".

عدت للفراش وأطفأت الضوء، قبل أن أضع رأسي على الوسادة متزامنًا مع الإيقاع. "مبادئ الرغبة من السهل أن تفهمها.. مبادئ الرغبة طير في عقلك". عاودت التحديق في السقف. حلت الهواجس كلها فجأة: تُرى مع من تتحدث هي في ذلك الوقت من الليل؟ اتصلت بهاتف منزل صديقتها المقربة فاطيما. سمعت صفارة الجرس فأغلقت السماعة فورًا. هذا يعني أنها لا تهاتف فاطيما. تفاقمت هواجسي. اتصلت بها مرة أخرى. ما زال مشغولاً. شعرت بدقات متوالية في رأسي. تدفق الدم مندفعًا بلوثة الغيرة والارتياب. ترى مع من تتحدث في هذه الساعة؟ استعدت حواراتنا طوال الأسبوع الماضي. أغلبها ثرثرات أكاد لا أذكر منها شيئًا: مشاكل العمل مع زميلاتها في البنك. ضغط تقفيل الحسابات السنوية، اضطرارها للعمل ثلاث ساعات بعد انتهاء المواعيد الرسمية بسبب عمليات الجرد. حلمها القديم في تصوير فيلم تسجيلي عن مصر الجديدة، وصفها المكرر لجمال منطقة "الكربة" وعماراتها العتيقة الجميلة، وشوارع روكسي، الفيللات والمباني الأوروبية الطابع، قصر البارون، الميريلاند، صباحاتها في "شانتييه"

(المقهى السويسري) مع صديقات الطفولة وزميلات المدرسة ثم الجامعة. ليس في هذا كله ما يستدعي الشكوك. أطفأت السيجارة، وعاودت الاتصال. الهاتف مشغول. ".. أحبك .. سوف أقتلك". تسلل صوت الأغنية، بعد فترة صمت فصلت بين أغنيتين. خلعت قميصي والبنطلون ونمت عاريًا. قبل أن أغفو بقليل سمعت تنهدات أنثوية كأنها تصدر عن امرأة تمارس الحب. تهيأ لي أنه مقطع من "مبادئ الرغبة" كما يغنيها فريق "إنيجما". شهيق وزفير، آهة مكتومة، ثم صرخة، بدت إعلانًا جليًا عن نشوة جسد يحاول التخلص من خرسه، عبر الظلام والغرف المغلقة.

أين يكمن هذان العاشقان، ولماذا يلوذ "صانع الحب" بالصمت، بينما رفيقته لا تكف عن الصراخ مثيرة جوًا حسيًا شبقيًا، يستيقظ له الجيران جميعًا؟ ترتطم نوافذ غرف نومهم بالجدران. يتألق بياض عيونهم في الظلام. قبل أن تتفجر كرات من وهج أحمر، ينفثون خلفها سحب الدخان من تبغ، يحاولون به أن يهدئوا نيران الرغبة؛ إذ تتحول شقق البنايتين المتقابلتين إلى كتلة من الشبق، كل يعبر عن شهوته التي تلح على الأجساد تنشد الذرى. نهضتُ من الفراش وتوجهت إلى النافذة، مرة أخرى. نظرت عبر الشيش، فلم أر شيئًا لافتًا للنظر. فتحت النافذة بحرص. تسللت بنظري. كانت أغلب نوافذ الجيران مغلقة، والغرف غارقة في الظلام.

أصختُ السمع، بدا الصوت قادمًا من صوب نافذة شقة الجيران

المهجورة في العمارة المقابلة. ما زال صداه يتردد، بعد متوالية الصراخ؛ التي أحيت الجيران جميعًا من موت المشاعر، وصمت الأرواح، ورتابة الملل، وأقنعة الزيف، ومرارة الواقع الذي كانوا يعيشونه قبل دقائق قليلات.

3

أغلقتُ هاتفي المحمول بعد المشادة الصباحية التي بدأت بها اليوم. كنت اتصلت بها لأعتذر عن عدم مهاتفتي لها بالأمس. قالت إنها انتظرت مكالمتي حتى شروق الشمس. قلت: "ولماذا لم تتصلي بي"؟ "قلت إنك ستتصل بعد خمس دقائق". "اتصلت بالفعل، وكان هاتفك مشغولاً". "بإمكانك أن تحاول مرة أخرى". "هذا هو ما فعلته بالضبط، اتصلت بك أكثر من مرة، وكان الهاتف مشغولاً باستمرار، هل يمكن أن أسأل: مع من كنت تتحدثين طول الليل"؟

(صمت)

(صمت متبادل)

(صمت مصحوب بتوتر)

(صمت)

"هل سأنتظر ردك طويلاً"؟ "أنت تخطئ في حقي، والآن تريد أن تقلب المسألة في صالحك". "لسنا في مبارزة، فلست أكذب عليك، ولا أريد ذلك". "إذن لماذا لم تتصل"؟

(صمت)
(صمت متبادل)
(صمت عميق متبادل)

"هل سأنتظر ردك طويلاً"؟ "أنت تسألين أسئلة معادة، وتريدين أن أكرر ما أقوله، كأنك تتذاكين عليَّ وتسألين السؤال نفسه على أمل الإيقاع بي". "لماذا اتصلتَ بي إذن إذا كان كل ما أفعله يثير قرفك وغيظك وشكوكك"؟ "هل أنهيت كلامكِ"؟ "ليس لديَّ ما أقوله". "أنا أيضًا". "أوكي مع السلامة". "مع السلامة" (يلعن ميتين أمك).

شعرت بضيق شديد. هل يمكن أن يكون الشخص قادرًا على افتعال أزمة هكذا في الصباح؟ نكدية، تعشق الجدل والنكد، ما الذي أوقعني في امرأة كهذه؟ سببْتها مرة أخرى (يلعن ميتين أمك). تقافزت دقات قلبي. أكره أن أبدأ يومي متوترًا هكذا، وهذا اليوم سيكون طويلاً، لديَّ موعد مع الأستاذ رفيق فهمي، بعد انتهاء عملي في هيئة المخطوطات. في اليوم المخصص للقائه، عادة ما ينشغل ذهني بالتفاصيل الخاصة بسيرته التي يمليها عليَّ، كلما كان مزاجه يسمح بذلك. أفتح الأوراق وأطالع ما كتبته

فيها، مرات عدة. أحذف فقرة، أو أضيف كلمة، أو أعيد صياغة جملة. هذه الكتابة الأولى التي تقتضي التعديل، لكن ما إن يُبدي الأستاذ فهمي موافقته على الصيغة بشكلها النهائي، حتى أسرع إلى البيت لأنقلها على أوراق بردي قديم، معدة للكتابة، حتى يبدو ما يكتب بخط اليد سيرة تنتمي لزمن آخر، زمنٍ قديم له مجده وألقه.

هل كنت مشغولاً بسيرة الرجل وتفاصيل حياته، التي كثيرًا ما كانت تبدو بالنسبة لي ضربًا من الخيال؟ أم أنني مهتم بإنجازي أنا؟ بكتابة مخطوط كامل يضم سيرة حياة رجل قارب الثمانين بخط يدي المنمق على ذلك الورق الأصفر الداكن. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن وجه الأهمية في هذا العمل. لكنني متحمس لإنجازه، بوحي من قوة باطنية غامضة.

قبل الموعد بخمس دقائق ترجلت من سيارة الأجرة المتهالكة مودعًا السائق العجوز، ذا النظارة الطبية الغليظة، الذي ظل يثرثر مع نفسه، حتى بعد انصرافي، وكنت أظنه، طوال الطريق، من حي المنيل إلى حي مصر الجديدة، يتحدث إليّ. أوليت ظهري للمبنى العتيق الذي يتسمى الميدان على اسمه، محاولاً العبور للجهة الأخرى من الطريق. سرت بجوار المبنى ذي الطوابق الأربعة. اختلست النظر إلى الشرفة الخالية التي تطل على الميدان. مررت بجوار السور المضلع بقوالب الطوب الوردية الصغيرة، ثم النوافذ الزجاجية الداكنة المجاورة لمدخل المكان. دلفت من الباب الزجاجي الذي لا يسمح لمن في الخارج إلا برؤية صورته معكوسة على سطح الزجاج المصقول.

ابتسمت للرجل الأصلع ذي النظارة الطبية السميكة، على الباب، فابتسم. سرت في الممر الطويل حتى وصلت إلى غرفة المشرف على الدار. استقبلني مرحبًا بابتسامة عريضة اتسع لها فمه وضاقت عيناه المحمرتان خلف النظارة الطبية ذات الإطارين الواسعين وكرر: "تعرف النظام بالتأكيد، أرجوك ألا تتأخر عن نصف ساعة. حالته الصحية لا تسمح بأكثر من ذلك". فضلت استخدام الدرج بدلاً من المصعد؛ حتى أتمكن من رؤية السيدات اللائي كن يخرجن من غرفهن، عادة، في تلك الفترة، إلى الصالة الكبيرة التي تشبه غرفة استقبال واسعة.

صرخت السيدة النحيفة ذات العينين الرماديتين: "إزيك يا حبيبي؟ أخبارك إيه؟ ما عدتش بتيجي تسأل عليَّ ليه"؟ ابتسمت لها دون أن أتوقف، واعتذرت بصوت مرتبك؛ واعدًا إياها بزيارة خاصة في الأسبوع المقبل. لمحت "عالية"؛ السيدة الجميلة الأنيقة، تجلس بمفردها، كعادتها، على أريكة جلدية تجاورها حلقة من الكراسي الفوتيه، التي تحيط بمنضدة أنيقة. أمامها فنجان قهوة صغير كانت تتأمله بشرود. صعدت للطابق الثالث مهرولاً وأنا أنظر إلى الساعة في يدي. طرقت باب الأستاذ رفيق. انتظرت للحظات، فلم يفتح الباب. شعرت بالقلق. لكن سرعان ما فُتح الباب وأطل جرجس من خلفه. رحب بي، وأخبرني أن الأستاذ رفيق ينتظرني في الشرفة. مد لي يده وهو يبتسم، ابتسامة ضاقت لها عينه اليمنى، أما اليسرى الزجاجية، فظلت خالية من أي تعبير. حيّيته بمودة، واعتذرت له عن التأخير، فرفع يدًا مرتعشة تقبض على الغليون العتيق الأسود المطرز بنقوش آسيوية جميلة.

أشار لي بالجلوس في مواجهته تتوسطنا منضدة خشبية مستطيلة، وُضعت عليها: عبوة ورقية بنيّة اللون مغطاة بالسوليفان، مكتوب عليها بحروف لاتينية بيضاء كلمة "كريستال"، تحتوي دخان الغليون، علبة ثقاب ضخمة، قطعة معدنية تشبه ميدالية متعددة الاستخدامات لتنظيف الغليون، كوب مياه ممتلئ. ألقيت نظرة سريعة على الميدان المزدحم بالسيارات والبشر، وبصخب نفير المترو الذي يحاول سائقه أن يمر من السيارات التي تقف أمام مسار المترو كحاجز سد منيع.

فاح عبق التبغ الكثيف بينما شرعت في قراءة الجزء من المذكرات التي انتهيت من تفريغها: "تلك التجربة تعلمت منها الكثير. لكنها، في الوقت نفسه، وسمت حياتي بطابع مأساوي. ما زلت أذكر الألم الرهيب، مقترنًا بضربات السوط. انهال أبي بطرفه الدقيق على ظهري، بينما أنا طريح الأرض لا أقوى على الحركة، لأنني لو تحركت فمعنى ذلك أن حفلة الضرب المجنونة سوف تبدأ مرة أخرى. ولولا أزمة الربو التي فاجأته، لما توقف عن ضربي حتى ألفظ آخر أنفاسي على الأرجح. وبعدها عرف جسدي رحلة ألم أخرى على يد أمي وهي تطهر جروحي، فيما أقاوم الإحساس بأنني سأواجه شبح الموت بين لحظة وأخرى. وبالرغم من كل شيء". تحشرج صوتي، فتوقفت. التفتُ إلى الأستاذ رفيق، فوجدته يتأملني، محدقًا، بعينه الزجاجية، وملامح وجهه متقلصة قليلاً، وغليونه مستندًا إلى جانب شفته، فعاودت القراءة:

" بالرغم من كل شيء لم أفكر إلا في "روحية". في ملامح الذعر على وجهها. كنت قريبًا من الذروة، ألمح تقلص ملامحها، ظانًا أنها تغيب في

أوج نشوتها، بينما لم يكن ذلك إلا فزعها الذي أصابها بالخرس؛ عندما شاهدت وجه أبي، بعد أن فتح الباب عنوة، وكان صراخه الجهير (يا أولاد الكلب) أول نذر تلك الليلة الحالكة التي استمر تأثيرها على حياتي، حتى هذه اللحظة، وربما سيستمر حتى آخر أيام عمري".

انتابت الأستاذ رفيق نوبة سعال، فتوقفتُ، وكنت أشعر بالإحراج لأنني استخدمت أسلوبًا يخصني وأنا أشرح الطريقة التي كان يمارس بها الجنس. استمر في السعال، فأحضر له جرجس كوب ماء. تناول منه رشفة بصعوبة، واحمر وجهه. طلب من جرجس أن يسانده للدخول إلى الغرفة، والاستلقاء على الفراش.أغمض عينيه، وهو يلهث. سألته إن كان بإمكاني أن أساعده، فرفع لي يده شاكرًا بالطريقة التي أفهم منها انتهاء وقت الزيارة. خرجت للشرفة ولملمت أوراقي. عند خروجي وجدت جرجس يميل إليه ليسمع منه عبر حشرجة لاهثة لم أستطع أن أميز منها شيئًا. على الباب، قبل انصرافي مباشرة ناداني جرجس. قال لي هامسًا إن الأستاذ طلب أن أحضر له كتاب "الحرافيش" لنجيب محفوظ في زيارتي التالية.

4

لم أتصور، مدى حياتي، أن شراء كتاب لنجيب محفوظ سيكون صعبًا إلى هذه الدرجة. بعد انتهاء ساعات العمل الرسمية في هيئة المخطوطات، استقليت تاكسيًا إلى وسط البلد، مررت على مكتبة "الشروق" في ميدان طلعت حرب. فوجئت بأن الرفوف المخصصة لأعمال محفوظ كلها خاوية. سألت أحد العاملين إذا ما كانوا قد نقلوا أعماله إلى مكان آخر، فنفى ذلك مبتسمًا، بعد تردد قال إن الكتب كلها تحت الطبع. توجهت إلى مكتبة "مدبولي" التي تقع على الرصيف المقابل. سألت أحد الموجودين عن "الحرافيش"، فأجاب شاب من العاملين بأنها نفدت وفي انتظار الطبعة الجديدة. دلفت إلى الداخل سمعت صوت الشاب من خلفي: "بتدور على حاجة تانية يا أستاذ"؟ كتمت غيظي، وقلت "باخد فكرة يمكن ألاقي حاجة تعجبني". لكنه لم يقتنع بل ظل واقفًا خلفي حتى قررت الانصراف.

المدهش أن الحوار المقتضب الذي كان متطابقًا تقريبًا في هاتين المكتبتين تكرر مع اختلافات طفيفة؛ وفقًا لشخصيات الباعة في مكتبات وسط البلد كافة: مكتبة سندباد بجوار البورصة قريبًا من شارع طلعت حرب، ثم مكتبة ليلى، قريبًا منها، ثم مكتبة البلد، وصولاً لمكتبات شارع شريف، وغيرها.

لم أتردد في الذهاب إلى مكتبة "ديوان" في الزمالك. توجهت إلى الركن المخصص لأعمال محفوظ فوجدته ممتلئًا بالكتب. تنفست بارتياح. اقتربت من الرفوف مدققًا النظر في العناوين المكتوبة على كعوب الكتب المتجاورة: "أنا حرة"، "لا أنام"، "الوسادة الخالية". ناديت أحد العاملين، ولفت انتباهه إلى أن بعض كتب إحسان عبد القدوس وضعت خطأ في الرف المخصص لمحفوظ. ابتسم قائلاً: لا، ليس إحسان فقط، هناك أعمال يوسف إدريس، وبعض أعمال يوسف السباعي، والصف السفلي به أعمال يحيى حقي. سألته عن كتب محفوظ، فابتسم قائلاً لي إنها ستأتي في أقرب فرصة، وأن الرفوف المخصصة لأعماله ستستبدل بكتبه فور وصولها. أحسست أن المسألة أصبحت مريبة، وتذكرت ما قالته لي نجوى عن اختفاء أعمال محفوظ.

كان الجو حارًا، والرطوبة خانقة. أجّلت الذهاب إلى مكتبة "كتب خان" بالمعادي. قررت أن أذهب إلى المنيل أولاً، وأنتظر حتى المساء لأعاود النزول. و لم يكن في "كتب خان" جديدًا على أية حال، كما أكدت لي صاحبة المكتبة الودودة.

بمجرد دخولي البيت اندفعت إلى المكتبة التي تتوسط أحد جدران

غرفتي.. قفز قلبي من فرط المفاجأة. وجدت المساحة التي كنت أضع فيها كتبه خالية. مساحة لا تقل عن متر كانت تضم عددًا من أعماله: "أولاد حارتنا"، "الثلاثية"، "الحرافيش"، "رادوبيس"، "زقاق المدق"، "السراب"، "الكرنك". أعتقد أيضًا أنني كنت أقتني نسختين من "ثرثرة فوق النيل"، و"القاهرة الجديدة"، ونسخة من الطبعات الجديدة من "يوم مقتل الزعيم" و"أولاد حارتنا" التي كنت أقتني نسختها اللبنانية حين كانت ممنوعة من الصدور في مصر. تفحصت المكتبة، وأخرجت مجلدات الكتب القديمة التي كنت أحرص عليها حرصي على كنز، ونظرت خلف كل الكتب المرصوصة، كل شيء كما هو بالضبط باستثناء تلك المساحة الخالية المريبة. اتصلت بنجوى. كان هاتفها النقال مغلقًا، وهاتف البيت مشغولاً كالعادة. راودني شعور مقلق أن البيت تعرض للسرقة. توجهت صوب المكتب الخشبي الذي يتوسط ركنًا في الغرفة. فتحت الأدراج التي أحتفظ فيها ببعض الأوراق، والدفتر المخصص ليوميات الأستاذ رفيق، وصندوق صغير به بعض الهدايا التي أحتفظ بها من عشيقات قديمات، وبعض الرسائل. كل شيء في مكانه.

فتحت الدولاب، ثم الدُرج الوحيد الذي أحرص على إغلاقه بالمفتاح لأنه يحوي تذكارات خاصة من نيروز، ومن نجوى، تذكار نجوى، في تقديري أهم كثيرًا؛ لأنه يضم سروالاً داخليًا بلون جلد النمر، كانت نسيته، في إحدى المرات إثر اضطرارها لارتداء ثيابها بسرعة، واختبائها، بعد أن سمعنا صوت طرقات عنيفة على الباب، لم تكن سوى لضيوف الجيران الذين تقع شقتهم أسفل شقتي، وضلوا الطريق إلى الشقة المقصودة.

توترَتْ يومذاك، وأصرَّت على الانصراف بسرعة. لكنها لم تكتشف أنها نسيت سروالها إلا بعد أن ركبت سيارتها. ماطلتها، رافضًا إعادته، مقاومًا كل حيَلها، واثقًا أنها لن تقرر الدخول في مرحلة العناد النهائي الذي يجعلها تهدد بقطع العلاقة قبل أن تستعيده. ونجحت خطتي، حتى اليوم على الأقل؛ إذ أوهمتها أنني فقدته بالخطأ، وأنه وقع في شرفة الجيران، ولا يمكنني أن أطلبه منهم، وإلا سيظنون بي الظنون. النقود في مكانها. قلادة أمي الذهبية، وأساورها التي تسلّمتها مع أغراضها من دار المسنين بعد وفاتها كلها موجودة. أسطواناتي وجهازي "الهاي فاي"، والكمبيوتر الشخصي كل شيء في مكانه، فأين ذهبت كتب محفوظ إذن؟!! توجهت للحمام، تأملت ملامح وجهي. هالني وجود هالتين داكنتين أسفل عيني، لم ألتفت لهما في الصباح، كما لاحظت أن الشمس لفحت وجهي، فمنحتْ وجهي درجة من السمرة بدلاً من بشرتي القمحية الداكنة. مسحت حبات العرق المتناثرة على جبهتي. تحسست شعري الخشن. فتحت الصنبور ووضعت رأسي فورًا تحت المياه الباردة، التماسًا لتخفيف حدة التوتر ولأجل ترطيبه.

لاحظت أن شاربي يحتاج لتشذيب. لم أكن أكترث إلا إذا علقت نجوى على ذلك. اقترحتْ عليَّ قبل فترة أن أحلق شاربي مؤكدة أنني سأكون أكثر وسامة، أبديت استخفافًا باقتراحها، وابتسمت ساخرًا دون أن أعلق. ثم غنيت لها مغلقًا عيني وفاتحًا ذراعي كمطرب عاطفي رومانسي "قولي أحبك كي تزيد وسامتي"، فابتسمتْ باستخفاف. الحقيقة أنني تجنبت برد فعلي ذاك مواجهة عنيفة. كانت تحاول استفزازي لتؤكد لي أنني

لا أستطيع ضبط انفعالاتي، وأنها، لذلك، لا يمكن أن تأتمنني على جسدها. لو كنت عقبت على ملاحظتها بأي تعليق كان الجدل بيننا سيصل إلى ذروة الجنون، وفي موضوع يخص شاربي، أعتقد أنني لم أكن لأنحني للعاصفة مهما تكن النتائج. تأففتُ بضيق. بدت فكرة الذهاب إلى الأستاذ رفيق بدون الكتاب الذي طلبه مني ثقيلة إلى درجة لا تحتمل. يغمرني شعور بالضعف حياله، فضلاً عن الامتنان. فهو الشخص الوحيد الذي قدم لأمي في أيامها الأخيرة دعمًا غير محدود، بعدما شفيت من اكتئابها الذي اقتضى ستة أشهر من العلاج، قالت لي إنها تفضل الذهاب إلى دار للمسنين، وإنها ستجد فيها الصُحبة التي تحتاجها، خصوصا أنني أقضي أغلب وقتي خارج المنزل، ولا وقت لدي لرعايتها. أسقط في يدي. ظننتها تضغط عليّ عاطفيًا. أقسمت لها أنني سأنظم وقتي لأجلها، وأوفر من يرعاها في فترة الصباح. وأصطحبها في نزهة أسبوعية إلى المكان الذي تريده. لكنها قالت: "إذا كنت حقًا تهتم بسعادتي، فاتركني أفعل ما أحب". لوَّنت نبرة صوتها الحاسمة بطيف من الرقة كأنها ترجوني. لكنني فهمت الرسالة. فهذه النبرة تعني أن سقوط السماء على الأرض لن يثنيها عما قررته. استسلمتُ لقرارها وأنا أشعر بغصُة. استعدت، في مدى لحظات، تاريخًا طويلاً من الحياة المشتركة، لأم وابن عاشا كصديقين. أدركت أيضًا أنه لم يسبق لي أن افترقت عنها ألبتة، خاصة أنها لم تقترن بأي شخص آخر بعد رحيل أبي.

رحيل أبي؟ هأنذا أصدق كذبتي الكبرى، دون أن أواجه الحقيقة المُرّة: أنا لا أعرف حقيقة والدي. قضيت سنواتي الأولى في ملجأ للأيتام،

وجاءت أمي إلى الملجأ، وقدمت نفسها كامرأة موسرة تريد أن تتبنى طفلاً. وكنت أنا هذا الطفل ذا الثلاثة أعوام. محظوظ، إذن، أن أمي التي ألقت بي في الطريق، عادت إلى صوابها بعد ثلاث سنوات كاملة. بررتْ لي ذلك بأنها كانت فقدتني في طفولتي في أحد الأماكن المزدحمة، وأنها ظلت تبحث عني حتى وجدتني هنا. وصدقتها، فهذا أفضل بكثير من فكرة أنني بلا أب أو أم. منحني الأستاذ رفيق اسمه، إشفاقًا على أمي، وتقديرًا لظروف لم أعرف عنها شيئًا، ولم أكترث بمعرفتها. لكن امتنانها له انتقل لي كأنه صفة وراثية. بعد انتهاء الإجراءات الرسمية، لم يعد له وجود في حياتنا، باستثناء الاتصال الهاتفي الذي تتلقاه أمي منه مرة كل شهر يسألها إذا ما كانت تحتاج إلى شيء، وتشكره بامتنان حقيقي على اهتمامه. وأصبح اسمي في الأوراق الرسمية هو "كبرياء رفيق فهمي". أي سخافة أوحت لأمي بهذا الاسم!

لهذا كله لا يمكنني الذهاب إلى الأستاذ رفيق مثل التلميذ الفاشل، حاملاً أوراقي وجهاز التسجيل، معتذرًا عن إمكانية توفير كتاب. الأكرم لي أن أعتذر عن زيارته حتى أتبين حقيقة هذا الموضوع المريب. هل يعقل أنني لا أستطيع توفير نسخة من الحرافيش!

5

أين ذهبتْ كتب نجيب محفوظ؟

أصبح السؤال حديث الساعة، بعد إذاعة لقاء تليفزيوني مع المسئول الأول عن جهاز الثقافة. ظهر على الشاشة مبتسمًا، ابتسامة مشوبة بشيء من السخرية، مقاطعًا المذيعة ذات الشعر الأصفر والعدسات الزرقاء، قائلاً: إن الخبر الذي بثته بعض القنوات الفضائية دون أن تتحرى الدقة هو خبر عار من الصحة، ولا أساس له على الأرض.

قاطعته المذيعة: "معك حق يا سيدي، فمما يشيع على ألسنة الناس في الشوارع أن الكتب طارت في السماء، و لم يعد لها وجود على الأرض". اصفرت ابتسامة المسئول الثقافي الكبير، وتنحنح، ثم قال: "كيف يتصور أي مخلوق، أن كتب أديب نوبل، ورائد الرواية العربية، الذي ترجمت أعماله لكل لغات العالم، لم يعد لها وجود؟! الحقيقة أن مثل هذه الشائعات

التي يطلقها البعض للنيْل من مكانة مصر الثقافية، ويصدقها عامة الناس، من شأنها أن تهز سمعة مصر في الخارج. وهي مسألة لا يمكن لأحد أن يصدقها. ولو كانت بعض النسخ من أعمال هذا الكاتب الكبير نفدت في بعض المكتبات؛ فهي موجودة في مكتبات أخرى. وهي في النهاية مؤشرات على الجماهيرية الكبيرة التي تتمتع بها أعمال أديبنا الراحل الكبير". قاطعت المذيعة المسئول، من أجل فاصل إعلاني. وبعد انتهاء الفاصل، عرضت فقرة مسجلة، صوّرت مقابلات في المكتبات ومع أفراد ممن يسيرون في الشوارع.

تنقّلت الكاميرا بين رفوف المكتبات، ثم توقفت أمام رفوف خالية، بعضها تعلوها بطاقات مكتوب عليها "نجيب محفوظ". ثم بدأت اللقاءات مع الجمهور. كان كل من يظهر على الشاشة يبدو غافلاً، ذاهلاً، ليس لديه ما يقوله سوى تكرار السؤال نفسه الذي تسأله المذيعة: "معقولة؟ كتب نجيب محفوظ مش موجودة"؟

أما مديرو المكتبات فقد بدوا وكأن كلاً منهم يقرأ من ورقة مكتوبة أمامه: "لم ننتبه إلى نفاد النسخ في الوقت المناسب. طلبنا أعدادًا من كل العناوين من الناشر، وأوضح أنه سيطبع الكتب بأغلفة جديدة أكثر عصرية لمواكبة الثورة الجديدة في الأغلفة في العالم، وأوضح أن المسألة سوف تستغرق بعض الوقت". عادت الكاميرا للاستوديو.. اقتربتْ من وجهي المذيعة والمسئول في لقطة قريبة، ثم ركزت على وجه المسئول بحيث أصبح يملأ كادر الشاشة كاملاً. نظر لمضيفته، وقال: "كما هو متوقع، ها هو الناشر أكد على قرب صدور الطبعات الجديدة".

ابتسمت المذيعة وهي تستعد لسؤالها التالي: "سعادة المسئول، صباح اليوم ظهرت الصحف اليومية وهي تحمل الخبر نفسه، ولكن من وجهات نظر متضاربة؛ فبينما نشرت الصحف القومية خبرًا له نفس الصياغة تقريبًا يقول: إن اختفاء أعمال نجيب محفوظ، هو خبر لا أساس له من الصحة، وأن دار النشر ستقوم بطبع كميات إضافية من كل أعمال الكاتب الكبير لمواجهة الطلب المتوقع في الفترة المقبلة". بدا الرجل راضيًا عن صياغة الخبر وبالطريقة التي قرأته بها المذيعة الفصيحة، وهو يهز رأسه إستحسانًا. واستطردت المذيعة: "أما الصحف المستقلة والمعارضة فقد نشرت عددًا من الأخبار والتقارير المختلفة حول الموضوع، فقد ذكرت إحداها أن أقسام الشرطة تلقت بلاغات مختلفة من أكثر من خمسة وثمانين شخصًا بسرقة مقتنياتهم من كتب نجيب محفوظ. والبعض طرح التساؤل حول ما أسماه "لغز اختفاء أفكار محفوظ"، بينما كتب رئيس تحرير إحدى هذه الصحف مقالاً بعنوان "اندثار أعمال محفوظ.. صدفة أم مخطط مدبر"؟ أخيرًا طرحت إحدى الصحف افتراضًا يقول: إن هناك مخططًا إرهابيًا يخطط له تنظيم له طابع ديني يستهدف إخفاء التراث الثقافي الإنساني، وأن كتب محفوظ هي الخطوة الأولى في هذا المخطط".

تقلصت ملامح المسئول وهو ينظر للسقف، بينما يهز رأسه مستنكرًا، بين كل فقرة وأخرى، وعندما انتهت المذيعة، اندفع قائلاً: "هل يمكن لعاقل أن يصدق شيئًا من هذه المتناقضات التي لا يقبلها العقل؟ كل ما ذكرته هذه الصحف لا يستحق جهد الرد عليه. أنا أريد أن أطمئنك وأطمئن الجمهور من القراء ومحبي كاتبنا العظيم أن الطبعات الجديدة من الكتاب

سوف تصدر في المواعيد المقررة، كما وعدتنا دار النشر المسئولة، وإذا لم يحدث ذلك فإن المؤسسة الثقافية ستصدر طبعات شعبية من الكتب في غضون أيام".

أسهم هذا اللقاء في خفوت نبرة الاهتمام بالموضوع من الصحافة القومية، وجمهور لا يتجاوز حظه من القراءة، الصحيفة التي يستعيرها من جاره. أما المثقفون، ومحبو الكاتب، والأجيال الجديدة من الكتاب فقد أبدوا اهتمامًا كبيرًا بالموضوع وأثاره كل منهم بطريقته. الصحف الحزبية والمستقلة، اعتبرت لهجة المسئول الثقافي عدائية تعكس نوعًا من الترفع، وينقصها تواضع المثقفين، وكياسة وذكاء طالما عرف بهما المسئول الكبير من قبل. لكن تلك الصحف أوضحت أنها ليست في موقع الرد أو التعقيب قبل حلول المواعيد التي حددها المسئول لنشر الكتب.

انتهيت من شرح تطورات قضية كتب محفوظ للأستاذ رفيق، جالسًا على الكرسي الصغير المجاور لفراشه، بينما يصغي باهتمام، لكنه، رغم التقلص الطفيف الذي وسم ملامح وجهه، بدا شاردًا. كانت هذه المرة الثانية التي أكرر له فيها تفاصيل موقف كتب نجيب محفوظ المختفية. لكن حماستي في سرد الوقائع لم تخفت كأنني بذلك أخفف وطأة الشعور بالذنب من عدم قدرتي على توفير الكتاب الذي طلبه مني. شعوره بالتوعك حرّضه على الانتقال من الشرفة إلى الغرفة. تمدد على الفراش ثم ابتسم وهو يطلب مني أن أكرر ما قلته معللاً ذلك بشدة الضجيج في الخارج.

كان مستلقيًا، يرتدي "بيجاما" من الصوف لونها أخضر باهت. يده

اليمنى موضوعة على صدره، مبرقشة ببقع بنية داكنة رقيقة. شعرات صدره البيضاء تتوهج تحت الضوء المنعكس من الأباجورة المجاورة له. سمعت صوت أنفاسه: مزيجًا من خوار منتظم، ولهاث. لملمت أوراقي، وأشرت لجرجس صوب الباب، فحيّاني بيده من الشرفة مودعًا وهو في طريقه للحاق بي.

6

لأجل هذا الموعد، خرجت مبكرًا. طلبت، عبر زميل من زملاء القسم، إجازة اضطرارية من هيئة المخطوطات. مشيت في الشارع الصغير الذي يفصل بين شارع "جزيرة الروضة" وشارع "المَنْيَل" حتى وصلت إلى الناصية المعروفة بـ "محطة الباشا". كان الجو صحوًا. داعبتْ وجهي نسمات هواء صباحية لطيفة. انتعشتُ للفحة الهواء، وأنا أتخيل الحرارة عندما تصل إلى ذروتها في منتصف النهار. أوقفت سيارة أجرة. وطلبت من السائق أن يوصلني إلى حي الزمالك. ترجلت من السيارة في الميدان المطل على السفارة الإيطالية ومقهى "بينوس". دلفت من الباب الزجاجي، ألقيت نظرة على الطابق السفلي فلم أجدها. صعدت للطابق الثاني. وجدت الركن القصي خاليًا فاتجهت إليه، جلست على الأريكة وأوْليت ظهري للميدان الصغير الذي يطل المقهى عليه.

على المنضدة المواجهة جلس شاب ببنطلون جينز، وقميص رمادي مفتوح حتى منتصف صدره. أطلق شعره الأسود بلا تصفيف. عيناه، من خلف نظارته الطبية الأنيقة تتنقل بين النافذة المطلة على السفارة إلى يساره، وبين الشاشة المواجهة له التي تنقل صورًا مما تبثه قناة فضائية إخبارية على خلفية موسيقى خفيفة أسبغت مزاجًا حيويًا على المكان. طلبت قهوة "إسبريسو دوبل". توجهتَ إلى ركن الصحف وتناولت إحداها. ألقيت نظرة على المانشيتات، وقعت عيناي على خبر صغير في صفحة المحليات يقول: "المؤسسة الثقافية تقرر إنشاء لجنة خاصة لمتابعة نشر أعمال نجيب محفوظ". لم تكن هناك تفاصيل كثيرة. برق إلى ذهني مشهد المساحة الخالية من مكتبتي التي كانت مشغولة بكتب محفوظ قبل اختفائها. بدا الخبر المنشور مثيرًا للشكوك والقلق أكثر من كونه داعيًا للاطمئنان. أين ذهبت كتب نجيب محفوظ؟ سألت نفسي السؤال مرة أخرى وأنا أقلب المسألة على كل وجوهها. من الطبيعي أن تنفد أعمال كاتب وتعاد طباعتها، وكان هذا شأن كتبه منذ الستينيات. لكن كيف اختفت من رفوف مكتبتي الخاصة؟

لم يستعر كتبه أحد. نجوى لا تقرأ إلا بالإنجليزية، ولو احتاجت إلى كتاب من الكتب فسوف تطلبه مني؛ بالإضافة إلى أن أحدًا غيرها لا يدخل الشقة في حضوري أو غيابي، باستثناء "عيشة" التي تحضر للتنظيف يوم الجمعة، وهذه لا يمكن أن أشك بها؛ فهي لم تقرأ صفحة جريدة في حياتها، ولا أعتقد أنها ترى في الكتب أي قيمة تغري بسرقتها.

أصدقائي جميعًا ليس بينهم من يهتم بالقراءة سوى جاسر، لكنه انتهى من قراءة محفوظ منذ زمن بعيد، ولا يمكن أن يطمع في كتبي، فلديه مكتبة بها مئات الكتب، وبينها الأعمال الكاملة لمحفوظ. فكرت أن أتصل به لسؤاله عن كتب محفوظ في مكتبته. أحضر النادل القهوة، نظرت للطبقة البنية الثخينة على سطح القهوة، قبل أن أضيف إليها محتوى كيس سكر صغير، وأقلبها بهدوء. لمحت نجوى قادمة باتجاهي. دققت النظر واكتشفت أنها ليست نجوى، وإنما فتاة تشبهها كثيرًا. كانت فتاة طويلة، ترتدي بنطلونًا جينز ضيقًا، وتي شيرتًا أبيض يبرز تضاريس جسدها اللين، بينما تنتعل خفًا صيفيًا صغيرًا تتلألأ أطرافه بزخارف فضية رقيقة. قدماها الرشيقتان نظيفتان، أصابعها متناسقة، رقيقة، وأظافرها مطلية بلون أحمر قاتم. وجهها خال من المساحيق، وشعرها الأسود الطويل يبدو مبتلاً، كأنها خرجت من بيتها بعد أن أنهت حمامها مباشرة. نظرتُ إلى الساعة في معصمي، وكانت تجاوزت التاسعة والنصف.

كانت الفتاة الرشيقة تتحرك بتثاقل، ووقف الفتى ليحييها. تبادلا قبلة لم أستطع تجاهل حسّيتها. جلسَتْ إلى جواره، فالتصق بها، ووضع ذراعه خلف رقبتها.. نظرتْ إليه بنعومة ثم تلفتت حولها تبحث عن شيء ما. أدركت أنها تريد أن تشرب شيئًا. من بين سحب الدخان التي أطلقتُها رشفتُ رشفةً من القهوة، ومن بين سحب الدخان التي نفثها ذلك الشاب رأيته يلتقط سيجارة ويقدمها للفتاة. التقَطَتْها من بين يديه بنعومة ووضعتها بين شفتيها، أشعلها لها. جذبت نفسًا عميقًا من سيجارتها،

دون أن تغير ملامح وجهها. ضبطتُ نفسي وأنا في حالة تركيز شديد مع الفتاة حين باغتتني بنظرة متأملة سريعة، حولت نظري عنهما وأنا أمسك بطرف شاربي. خلعتْ الشبشب من قدمها اليسرى، ومدّدت ساقها على الكرسي البرتقالي الوثير المواجه لها. تأملت أصابع قدميها التي يختلط فيها لون بشرتها الخمري بحمرة طفيفة. التقطتُ الهاتف المحمول، بينما أرتشف القهوة، بحثت عن رقم جاسر. اتصلت به. ظهر اسمه منكمشًا على شاشة الهاتف دليلاً على بدء الاتصال، لمحت نجوى عند السلم. كانت تتحرك بسرعة. ترتدي جينزًا أزرق، ضيقًا، و"تي شيرتًا" أصفر اللون. جعّدت شعرها الذي لاحظت أنها صبغته بطبقة من اللون البني، وكان صدرها المكشوف البض يلتمع من بعيد بسلسلة تتدلى منها قلادة ذهبية على هيئة إبريق متوسط الحجم، بينما أذناها تتلألآن بقرطين دائريين واسعين يتدليان حتى منتصف الرقبة. رفعتُ لها يدي، أنبهها إلى وجودي، وبالأخرى أضع الهاتف على أذني: " الرقم الذي طلبته قد يكون خارج نطاق الخدمة". تبينت خلو وجهها من مساحيق التجميل. قبّلتها. تسلل عطرها الكثيف المنعش. "آسفة على التأخير". "لا بأس. أنا أيضًا آسف اضطررت لتناول القهوة الأولى بدونك".

لاحظتُ انتفاخ جفنيها قليلاً، وهو ما أكد إحساسًا إضافيًا بعمق عينيها. قلت لها: "يبدو أنك إما تعانين من السهر، أو الأرق". "أجلس كثيرا أمام شاشة الكمبيوتر، العمل لا ينتهي". "ماذا تشربين"؟ "تعرف أنني أفضل القهوة الأمريكية السوداء في الصباح". "صحيح، صحيح.".

ناديت النادل، وطلبت لها القهوة، ولنفسي كابوتشينو.

داعب شذاها أنفي مرة أخرى بينما أختلس النظر إلى المعبر الرشيق بين نهديها. سألتها: "ما الموضوع المهم الذي قلت إنك ترغبين في أن تفتحيه معي اليوم"؟ ابتسمت وهي تعتدل في جلستها، ثم نظرت لي بجدية. قالت: "أعطني سيجارة". "هل عدت للتدخين"؟ "سأفعل الآن". "كما تريدين". أشعلت لها السيجارة. جذبتْ نَفَسًا، ونفثت الدخان مختلطًا بسؤالها: "عيناك شاردتان؟". انتبهتُ، وابتسمت لها: "دوخني عطرك، أنت تدوخيني دائمًا". أحب تأمل فمها مفتوحًا، ومع التدخين بدا مثيرًا، ابتسمتْ، وهزّت رأسها انتشاء، وهي تعود به للخلف بحركة عصبية. ثم قالت: "سأعيش معك في البيت". لمحت الفتاة ذات القدم الحافية، مرة أخرى، وكانت تضع رأسها على كتف صديقها، وهو يمسِّد شعرها برقة.

"ماذا تقصدين بأنك ستعيشين معي"؟ "أعيش معك في البيت؛ نغلق الباب، وندخل، نأكل ونعمل ونقضي اليوم وفي المساء نأوي إلى الفراش معًا بدلاً من الذهاب إلى حضن أمي". لم أعرف ماذا أقول، لكنني في النهاية قلت: "عظيم، وأمك"؟ "ماذا عنها"؟ "هل ستغلق هي أيضًا الباب على نفسها، وتنام في الفراش دون أن تسمع صوت أنفاسك"؟ قطّبت جبينها، حتى تجعدت جبهتها. هزت رأسها بالإيجاب. نظرت إلى الأرض. هزت رأسها مرة أخرى. ثم قالت: "نعم" بصوت هامس. قالت "نعم" بصوت حاد، ثم قالت "نعم" بصوت عال. نظر النادل إلينا من بعيد، مؤكدًا أن طلبنا سيكون في طريقه حالاً.

ضحكتُ، ثم قلت: "يبدو أن عصبيتك، أحيانًا تكون لها بعض الفوائد". أشاحت بيدها وهي ترسم تكشيرة مبتسمة، أو ابتسامة مكشرة.

وتذكرتْ قهوتها فقالت: "نعم، معك حق، لم أعد قادرة على الكلام. أريد قهوتي. أين قهوتي"؟

7

دلفت من بوابة مبنى هيئة المخطوطات، مررت على الغرفة التي تتوسط الردهة الطويلة المؤدية إلى مكاتب الموظفين للتوقيع في دفتر الحضور والانصراف. الإقرار اليومي بأنني أبيع وقتي بثمن بخس لهذا المكان. صعدت للطابق الثالث، على الدرج، ومشيت في الرواق الطويل حتى وصلت للغرفة التي يستقر بها مكتبي مع زملائي الأربعة. جلست لدقائق، وقبل أن أقف متوجهًا للبوفيه المجاور وجدت عم صابر؛ عامل البوفيه القصير السمين، يحييني بصوته المبحوح، قائلاً إنه سيحضر لي الشاي على الفور. وصل الزملاء تباعًا محدثين صخبًا في الغرفة. لم أرتح لهذا الضجيج الصباحي. برقت في ذهني صورة نجوى التي اتصلت بي مساء أمس، لتخبرني أنها أخرت حضورها إلى الشقة عندي حتى الغد، لأسباب أجلت توضيحها حتى نلتقي.

تسلل طارق إلى جواري وهو يحمل كرسيه. أشعلت السيجارة، ونفثت الدخان، وأنا أنظر له راسمًا ملامح سؤال لم أسأله: "ما جديدك أيها الثرثار"؟ كان تسلله بهذه الطريقة، بعد أن يمسح الغرفة بعينيه، كأنه يبحث عن مكان سري لجهاز تنصت أو كاميرا خفية، إشارة جلية يعلن بها أنه سيبدأ تقريره اليومي للنميمة. لكنه، على غير العادة، لم يبدأ بسؤاله التقليدي: "شفت البيه عمل إيه إمبارح"؟ ملمِّحًا إلى رئيس المؤسسة، وهو سؤال عادة لا ينتظر إجابته؛ إذ يبدأ بعده في تلاوة مجموعة من الأخبار المرتبة والمنمقة عن مدير المؤسسة والمقابلات التي أجراها خلال اليومين الأخيرين، والمدة التي استغرقها، وما سمعه "عم سيد" عامل البوفيه في أثناء تقديمه القهوة للضيف، والتكهنات التي ثارت بعدها، وما ذكره المقربون من المدير.

لم يقل شيئًا من هذا، إنما فاجأني بما تتداوله الصحف والثرثرات حول لجنة "كتب نجيب محفوظ" موضحًا أنها لجنة مشكلة من أساتذة أدب وسينمائيين، وكتّاب وناشرين، ورجال أمن متقاعدين، ومترجمين، ثم أكد بثقة العالمين ببواطن الأمور: "الموضوع كبير وفيه إنَّ". الكتب اختفت بشكل غامض. النصوص الأصلية في دار النشر تحولت إلى أوراق بيضاء اختفت حروفها. كل مخزون الكتب انتهى. كل من امتلك أعماله أصبح عاجزًا عن الوصول إليها. المكتبات، أيضًا، فوجئت بأن كتبه لم يعد لها وجود. تحقيقات الشرطة الموسعة مع أصحاب البلاغات بفقدان كتب محفوظ من مكتباتهم، ومع أصحاب المكتبات، وتجار الكتب المستعملة

في سور الأزبكية، ومقتني الكتب النادرة، انتهت إلى لا شيء. عمليًا تم إغلاق الملف، وبدأت اللجنة في عملها، وتوسعت خطتها على عدد من المحاور؛ تبدأ بتوزيع مجموعات من الكتب التي لا تضم سوى أوراق خالية، أو مكتوب بها أي نصوص، أو ثرثرات بلا معنى، لكنها مغلّفة بأغلفة كتب محفوظ الأصلية، على طريقة الأفلام المصرية التي تحشو حقائب الأموال الافتراضية بأوراق مغطاة بعدد من ورقات النقود الحقيقية، حتى يتمكن المسئول عن المؤسسة الثقافية من أن يؤكد للجمهور أنه أوفى بوعده. إستراتيجية قصيرة المدى، قد تحدث أثرًا قصيرًا للمماطلة؛ حيث ستتواجد الكتب بالأغلفة في رفوف المكتبات، وتسرع إليها عدسات المصورين لالتقاط صور للكتب التي كانت في عداد النوادر، وبينما تبث الصور وتخرج القنوات الفضائية بتقارير عن عودة كتب محفوظ، دون التحقق مما تحتويه تلك "الفزّاعات" الورقية، يكسبون الوقت اللازم للتفكير في وسيلة مناسبة تمكنهم من استعادة النصوص المفقودة.

كانوا قد اعتمدوا بالفعل خطة من عدة محاور: تبدأ بالإعلان عن مكافأة لكل من يحفظ أي نص من نصوص محفوظ، خاصة الأشخاص الذين يتسمون بقوة الذاكرة، ثم إعداد لجنة سينمائية تقوم بحصر الأعمال السينمائية التي اقتبست أعماله ومحاولة كتابة الأعمال استنادًا للفيلم، وتشكيل لجنة من المترجمين لإعادة نقل أعماله المترجمة من الإنجليزية للعربية، على أن تعرض نتائج عمل هذه الجهات الثلاث على لجنة مركزية من كبار الكتاب العارفين بأعماله، والمتخصصين في دراستها، للوصول لصيغ نهائية لأعمال محفوظ.

أخيرًا: التوصية بمنع نشر أي خبر عن كتب نجيب محفوظ في الإعلام المرئي أو المسموع حتى تنتهي اللجنة من عملها وتوفير النصوص الضائعة بأي شكل. بدا لي ما يقوله طارق مدهشًا وغريبًا، وموجعًا، لأنه يقرر حقيقة لا تقبل الشك: اختفت كتب نجيب محفوظ، ربما إلى الأبد، مثلما اختفت قارة أطلانتس، واندثار الفراعنة، والغياب في الزمن، والموت.

أين ذهبت كتب محفوظ؟ هل هبطت من السماء مخلوقات غامضة ليلاً، جمعت كتبه كلها وعادت بها إلى السماء. أم أن بعض أصحاب القوى الخارقة، أو السحرة، اختلقوا تعويذة أخفت النصوص على هذا النحو، أو ربما قامت مجموعة من الإرهابيين الذين سبق أن شجعوا على قتله حيًا، بالتخطيط لاغتياله معنويًا، بوأد أفكاره بهذا الشكل؟ هل هذه هي الجريمة الكاملة؟

أحضر عم صابر الشاي. وقف أمامي وهو يمسك الصينية بإحدى يديه بينما يقلب السكر في الكوب بالأخرى. وضع الكوب مبتسمًا. صبَّ القهوة لطارق الذي كان يداعب لحيته الشقراء. أشعل سيجارة وقدم لي واحدة. لاحظت أن ذهني مشغول بمحاولة استعادة ما قد تسعفني به الذاكرة مما قرأته من رواياته. وصفه الدقيق لأمينة وهي تنتظر حضور السيد أحمد عبد الجواد ليلاً في الثُّلاثية، الليلة التي عثر فيها "الشيخ عفرة" الضرير على الطفل اللقيط، في أحد الأزقة، والذي أصبح رمزًا لسلالة الحرافيش كلها: "عاشور الناجي". تذكرت، أيضًا، لاعب البلياردو الذي رسمه في "أصداء السيرة الذاتية" وهو يضرب كرات البلياردو بمهارة، وثقة، ظانًا

أن الجمهور يتابعه بشغف، دون أن يدرك أنهم يجلسون على مقاعدهم يبدون كأنهم يتابعون مهارته بشغف، بينما يغطون في نوم عميق. وصفه لياسين بن أحمد عبد الجواد وهو يواقع الفتاة اللعوب في منزل زوجته: مريم؛ حبيبة فهمي؛ الشقيق الوطني، المناضل الثوري الذي مات شهيدًا في إحدى المظاهرات. وصف بطن ركبة "بهية"؛ الفتاة الجميلة التي أراد "حسنين" أن يتزوجها في "بداية ونهاية". وصف الترنيمات الغامضة التي تصدر من التكية ليلاً في "الحرافيش". والصوت الغاضب الهادر الذي صرخ به "الجبلاوي" غضبًا من ابنه العاصي؛ "إدريس" قبل أن يطرده من قصره في "أولاد حارتنا". وصف "رادوبيس"، في الرواية التي تحمل اسمها وهي تسبح في حمام السباحة في حديقة قصرها، قبل أن يهبط النسر من السماء ليخطف الصندل الموضوع بجوار ثيابها. الحوارات الفلسفية الوجودية المغزولة بأرق إنساني ووجودي حقيقي، التي كان حفيد جعفر الراوي يتبادلها مع صديقه في "قلب الليل". قلت لطارق إنني مضطر للانصراف، وإن عليه أن يغطيني إذا سأل عني أحد. لم أخبره شيئًا عن الهاجس الذي انتابني.. كنت أتحرق للعودة للبيت.

توجهت إلى غرفتي، قربت الكرسي المواجه للمكتب، ووضعته بجوار الدولاب. اعتليت الكرسي. تحسست بيدي الأشياء المتراصة أعلى الدولاب. نبشت أوراقًا، ودفاتر قديمة، ومغلفات بلاستيكية وورقية أحتفظ فيها ببعض الأوراق الرسمية المهمة. عثرت أخيرًا على الصندوق الكرتوني الذي يضم عددًا من الأوراق القديمة كنت أتدرب فيها على

أنواع الخطوط. تذكرت أن بين ما خططته بالرقعة فقرات من نصوص محفوظ. أخرجت الأوراق وقرأت:

"في ظلمة الفجر العاشقة، في الممر العابر بين الموت والحياة، على مرأى من النجوم الساهرة، على مسمع من الأناشيد البهيجة الغامضة، طرحت مناجاة متجسدة للمعاناة والمسرات الموعودة لحارتنا".

هكذا وجدت السطور الأولى من "الحرافيش" مسطورة بخط الثلث، ومكررة بالكوفي. ثم وجدت الفقرة التالية: **"مضى يتلمس طريقه بطرف عصاه، بعصا غليظة، مرشدته في ظلامه الأبدي. مولاي يعرف مواقعه بالرائحة وحساب الخطوات ودرجة وضوح الأناشيد والإلهام الباطني. بين مسكنه عند مشارف القرافة وبين الحارة يخوض أشق مرحلة في طريقه إلى الحسين وأعذبها. على غير المعهود تناهى إلى أذنيه الحادتين بكاء وليد".** كنت أرى في الشيخ عفرة روح الرجل الذي التقطني من عرض الطريق ذاهبًا بي إلى القسم أو الملجأ. أتماهى في طفولة عاشور الناجي. وأرى في سيرة طفولته ماضيَّ الذي لا يعرفه كثيرون.

"هام عاشور على وجهه. مأواه الأرض. هي الأم والأب لمن لا أم ولا أب له. يلتقط الرزق حيثما اتفق. في الليالي الدافئة ينام تحت سور التكية. في الليالي الباردة ينام تحت القبو. ما قاله درويش عن أصله قد صدقه. طاردته الحقيقة المرة وأحدقت به".

ثارت مشاعري وأنا أقرأ ما خطته يداي. شعرت أنني أمتلك كنزًا. تذكرت أن بين الأوراق أيضًا مقاطع من "رادوبيس" التي اعتبرتها، لسنوات، فتاة أحلامي.

سمعت رنين الهاتف. تلكأت قليلاً، لكنني خشيت أن يكون المتصل زميلاً من المؤسسة؛ فأسرعت إلى الهاتف. سمعت جاسر يحييني فبادرته بالسؤال: "إيه يا ابني إنت فين"؟ "معلش أصلي كنت مسافر. تعاقدات على أدوية جديدة". "حمد الله على السلامة". "الله يسلمك. إنما إيه الموضوع الغريب بتاع كتب نجيب محفوظ ده"؟ "إنت سمعت عنه"؟ "سمعت عنه! أوروبا كلها مهتمة بالموضوع كأن الكتب بتاعتهم". "طيب أخبار الكتب بتاعته اللي عندك إيه"؟ "لسه مش عارف. بس أنت عارف أنا شايل أعماله الكاملة في مجلدات في المكتبة المقفولة. مش متأكد لسه إيه اللي حصل لهم". "طيب ممكن تشوف وتقول لي بسرعة"؟ "أوكي، خمسة وهاتصل بيك، سلام".

8

قبل زيارتي للأستاذ رفيق وددت أن أقطع شوطًا أكبر في كتابة المذكرات، وتدوين كل ما يرغب في قوله على النحو الأكمل. بالأحرى، ما سرده لي وهو يتأمل سقف الغرفة بعينيه الزرقاوين: الزجاجية والطبيعية، وكأنه يرى بالأولى ما يلتقطه من بين ضباب الذاكرة، وبالثانية يرتب الأحداث: الطفولة المدللة، التي احتجزت بين ضفتين نائيتين قوامهما القسوة الصارمة من الأب، والتدليل المفرط حد الإفساد من الأم. كانت أمه تختار الخادمات بمنطق الجواري اللائي سيرفِّهن عن الابن، بدعوى أن ممارسة الجنس تحت رقابتها أفضل من النوم مع فتيات الليل، والتعرض للإصابة بأمراض جنسية قد تؤدي إلى فضائح وكوارث لا تحتملها سمعة العائلة.

مع ذلك، لم تمنعه ترتيبات الأم أن يصطحب يومًا فتاة إلى المنزل،

ويضاجعها في غرفة البواب، ويفتضح أمره من قبل الأب الذي يدخل الغرفة فيشهد الفعل الفاضح فيضربه بالكرباج قبل أن يفيق من نشوته، وتهرب الفتاة شبه عارية، بينما يضرب الابن حتى يفقد الوعي. وتظل آثار الكرباج جروحًا حفرت ندوبًا لا تختفي. أما الفتاة فقد حملت سفاحًا، فتزوجها دون علم أهله.

كان الانفجار، في علاقة الأب بالابن الملتبسة والمتوترة، متوقعًا؛ فقد نشبت بينهما مشادة، وجه فيها الأب نيران غضبه للابن فتلقاها جميعًا بصبر يحسد عليه، بينما كان ذهنه يختمر بفكرة الهروب من البيت للأبد، ومع تزايد اقتناعه بالفكرة، أخبر أباه بما انتواه فما كان من الأب إلا أن صفعه معميًا بجنون لحظي سببته المفاجأة. أمسك الأستاذ رفيق بذراع والده بقوة وهو ينظر في عينيه بشراسة، وكانت تلك الحركة سببًا في انفجار الأب الذي لم يكن أحد يجرؤ في التطلع إلى عينيه رهبة، ومهابة، لم يكن يبذل جهدًا في تحقيقهما، فإذا بابنه "الفسل، المستهتر، المتهتك، هذا"؛ كما وصفه آنذاك غاضبًا، يفعل ما لم يسبقه إليه أحد، فضاعف من قسوته وضرب ابنه علقة موت. لم ير الابن أباه بعد ذلك ألبتة، وحتى بعد وفاته لم يحضر دفنه وجنازته.

هنا يعرف الإنسان معنى العدل، لا شيء يذهب سدى، ما تفعله يُرد إليك، هكذا قال الأستاذ رفيق وهكذا كتبت: "كن عصيًا، وستجد من يعصاك. اعبث بنساء لسن لك، وستجد، وربما قد لا تعرف ذلك، من يعبث بنسائك. اسرق وانهب ما لا يحق لك، ستذوق مرارة الفقر شئت أم أبيت. كما تدين تدان. ثق بي يا بني".

كنت أشعر أنه يوجه لي رسالة خاصة من أب لابنه الذي لم ينجبه. هل كانت مساندة الأستاذ رفيق لي ولأمي نوعًا من الإحساس بالتوبة، أو التكفير عن ذنوب، أشعلتْ ضميره بالحياة في كهولته؟ كتبت الجزء الذي أعجبتني صياغته في شكله النهائي. ارتديت ثيابي، وتوجهت إلى دار المسنين، أو فندق رعاية كبار السن، كما يحب الأستاذ رفيق أن يسمي المكان. حييت كل من التقيت قبل صعودي على الدَّرج المفروش بالبساط ذي اللون الأحمر القاتم. سمعت اسمي، وميزت في نبرة الصوت صورة السيدة عزة، التي تتسم بالطيبة الشديدة وكرمها البالغ في الثرثرة، بينما تتناثر الكلمات من فمها بسرعة لا تتناسب مع سنها:

"إزيك يا حبيبي؟". "أهلاً وسهلاً".

كانت تقف أمام باب غرفتها. توقفتُ. وتقدمتْ هي بضع خطوات وهي تقول: "عاوزاك في موضوع ضروري. إنت مستعجل"؟

بالرغم من تعجلي تباطأت قليلاً. اتجهت إليها حتى توقفت أمامها مبتسمًا. بادرتني قائلة: "النهارده اتكلمت مع واحد ماعرفوش، ولقيت نفسي باحكيله عن ولادي. قلت له إن ظروفهم مش سامحة إني أعيش معاهم عشان هما بيسافروا على طول". "طيب وإيه المشكلة"؟ "أنا خايفة يا ابني لحسن يعرفو إني قلت الكلام ده وبعدين يزعلو مني". "طيب وهما هيعرفوا منين بس"؟ "أصل الست فريدة قالت لي إنه كان معاه واحد صاحبه بيشتغل صحفي وبيعملوا موضوع للجرنال". "لا ما تخافيش، هما أكيد لو صحفيين هيعملوا موضوع عن الرعاية اللي موجودة هنا مش عن أولاد المسنين". "تفتكر"؟

أمسكتُ يدها بكلتي يدي ثم ربتُّ عليها محاولاً تطمينها، فابتسمت، ثم انكسرت نظرة عينيها العسليتين وهي تطرق بهما إلى الأرض، ثم انقبضت ملامح وجهها للحظة، قبل أن تباغتني ببكائها الذي بدا لي مفتعلاً، لكنه سرعان ما انقلب نشيجًا يعبر عن حزن عميق . قالت لي بصوت ممرور إنها تُقّدر ظروف ابنيها، ولا تعتب عليهما: "أصلهم مشغولين أوي، وأنا والله عارفة ظروفهم كويس ومسامحاهم من قلبي".

فتحت لي دار المسنين عالمًا جديدًا، مكملاً لدائرة الحياة كما عايشتها في الملاجئ. أصبحت أعرف مركز الدائرة، ثم اكتمال دورتها الأخيرة. نأتي من حيث لا نعلم، نرفل في وحدتنا، محاطون بالسكينة، بصمت آمن، إلى صخب هادر، لا رحمة فيه، ولا أمل، وأخيرًا نرحل إلى مجهول، عنوانه الوحدة الأبدية. لكن وحدتنا الأولى تكللها البراءة، نكاد لا نعيها أو نشعر بها، بينما نقاد إلى وحدتنا الأبدية، وعقولنا ملوثة بالأوهام والمخاوف والخرافات، والهاجس من الوحشة اللانهائية. في المبتدأ، أيضًا، قد تطالنا الوحدة الأبدية، فيلفظنا آباء وأمهات من فصائل حيوانية، يلقون بنا في الطرقات، بدم بارد، وتتلقفنا أياد مشفقة، إلى حيث مثوانا في الملاجئ.

نعيش كأيتام تخلى عنهم أهلهم أو غابوا لسبب أو لآخر، وندور في متاهة الوجود حتى نصل إلى الفصل الأخير، في دور المسنين؛ نعاني من وحشة العزلة، والنبذ، كأننا نتدرب على الوحشة الأبدية، قبل موعدها. ما بين الدائرتين كانت هناك الكثير من العيون التي عرفتها في كلا العالمين:

"رجاء" الطفلة الشقراء ذات العينين الخضراوين التي تضحك في فراشها الصغير المغطى بالأغطية الملونة كلما رأتني. "عادل" الصبي الصامت ذو الشعر الأسود الناعم الثقيل، صاحب النظرات الحزينة الذي يرفض الحديث مع أي أحد باستثناء مربيته في الملجأ. "تامر" صاحب العينين السوداوين الحزينتين، الذي تربطني به علاقة روحية عميقة كأنه ابني. وعيون كثيرة أخرى: إخوتي الذين صنعهم الحب، وألقت بهم الظروف التي لم يصنعوها، أو يختَرها أي منهم إلى الطرقات والشوارع: أمام البيوت الفخمة، وبجوار أقسام الشرطة، وأمام المساجد، وإلى أيدي الكهنة والراهبات في الكنائس؛ مدثرين بمزق من أقمشة ، باكين، كأنهم يشعرون بالبؤس الذي ينتظرهم في حياة اختارها لهم آخرون، أوجْدوهم وفروا هاربين.

أما دائرة الماضي حيث نقف على أعتاب مستقبل لن نراه، فتجسدها دار المسنين؛ حيث نعيش لنجتر هزائمنا الصغيرة جميعًا. وهناك عرفت عيونًا كانت تلاحقني في الصحو والمنام.

من بين تلك العيون تعلقت بعيني"عالية"؛ الأرستقراطية الصموت، هادئة الجمال، التي تستدعي ملامحها ملاحة ميرفت أمين. تجلس شاردة، تشرب قهوتها في فنجانها المزركش بالذهب، وتدخن سجائرها المستوردة، وترتدي ثيابًا بالغة الأناقة، تكشف عن ذوق رفيع، ترسم لمن يجالسها ابتسامة هادئة وجميلة، وحتى إذا اجتمعت مجموعة الثرثارات التي كانت أمي تعيش معهن في غرفة واحدة ليجالسنها، تتلقى دعاباتهن المرحة، وقفشاتهن، بابتسامة، وتهز رأسها تأمينًا على ما يقلنه. فإذا طالت

الجلسة، تعتذر لهن، وتشير إلى رأسها ولا تردد سوى كلماتها الرقيقة: "أنا آسفة جدًا، بس عندي صداع"، ثم تنصرف إلى غرفتها. كانت غالبية من يحضرن إلى تلك الدار من المسنات، يفضلن مشاركة نزيلات أخريات في الغرفة نفسها، خوفًا من الوحدة، وانتظار الموت، وهواجس الأفكار السوداوية، ووهن الجسد المنتهك بأمراض الشيخوخة. حتى أمي فضلت أن تعيش مع سيدتين أخريين ارتاحت لهما منذ تعرفت إليهما.

أما "عالية" فقررت أن تعيش بمفردها في غرفة، تكلفت الكثير من النفقات لكي ترضخ الإدارة لطلباتها: إعادة طلاء الغرفة. استبدال الدولاب العتيق بآخر أحدث قليلاً، وطلاؤه مرة أخرى. طلبت حشية وثيرة تناسب ما اعتادته. قالت لهم إن المراتب القطنية المتوافرة تحتاج تنجيد، ولا تناسبها، واشترت سجادة جديدة، كما استبدلت أطقم السرير الجديدة الخاصة بها الملاءات الرثة، وطلبت استبدال الإضاءة النيون بمصابيح لها إضاءة خافتة، لأن وهج الضوء يوتر أعصابها.

"عالية" كانت، وما زالت، مصدر الوهج الذي يجتذب الجميع. الرجال مفتونون؛ يرون فيها ملاذًا من إحساس يسود أجواء المكان؛ باعتباره مقرًا لترقب الموت، لكن عالية بجمالها المميز، وطلتها الأرستقراطية، وبعينيها الفاتنتين، ومظهرها الذي لا يكشف حقيقة عمرها، أسبغت بهذه الروح الأمل، فبدا المكان، بفضلها، ملاذًا يحاط فيه الجميع بصحبة لا تتاح لهم في أي مكان آخر. على بُعد ثلاث غرف من غرفة عالية، تملأ السيدة "فاتن" روح غرفتها بكل ما قد يبدو متعارضًا مع شخصية عالية. فاتن هي العجوز المتصابية، التي اختارت الغرفة التي تبدأ

بعدها حدود غرف الرجال، لكي تكون قريبة من الأستاذ رفيق. صوتها الجاف الصاخب يبدو مضحكًا وهي تحاول أن تنغِّمه، وتمنحه ما فقده من أنوثة بددها الزمن. تصبغ شعرها بلون أشقر وتختار من الفساتين ما يتسم بالألوان الفاقعة، كانت تطلق ضحكات صاخبة بسبب، أو حتى من دون أي سبب، وتسعل باستمرار، بسبب تدخينها السجائر بشراهة لا يضاهيها سوى تناولها لأقراص "الأسبرين" التي تستهلك منها شريطًا كل يوم. تدعي أنها تتناوله للصداع مخفية أنها تحافظ به على سيولة الدم في جسدها اتقاء للجلطات.

ولولا الببغاء، لاحتفظ الأستاذ رفيق بصداقتها طويلاً. أشار للببغاء الملون في القفص المعلق على جدار الشرفة، وحكى لي أنه من شدة إعجابه بفاتن، أهداها الببغاء لأنها أبدت إعجابها به، لكن في إحدى المرات التي قرر فيها أن يفتتحه بزيارتها في غرفتها، وجد الببغاء عندما ذهب للتودد إليه يردد سبًّا متواصلاً: "يا ابن.... الشرموطة". فأدرك أنها تسب الببغاء. انتشل القفص من مكانه، في ذروة غضبه، وخرج إلى غرفته، وقطع علاقته بها وحتى اليوم.

9

سمعت صوت جاسر على جهاز الرد الآلي "الموضوع طلع جد، كلمني لمّا ترجع البيت". لم أهاتفه. كنت أفكر في الأوراق التي كتبت فيها فقرات مطولة من رواية رادوبيس. بحثت في كل مكان: تحت الفراش، وعلى المنضدة المجاورة له، على الكومود المجاور للسرير، و لم أجد شيئًا فخرجت لغرفة المعيشة. لكن دون جدوى. تذكرت الغرفة الثانية، التي جهزتها قبل وفاة أمي. فتحت الدولاب. وجدت المظروف الأبيض الذي أحتفظ فيه بأوراقي الرسمية كلها. أخرجت الأوراق: صور من شهادة الميلاد، شهادة التخرج، شهادة إعفائي من أداء الخدمة العسكرية. مكاتبات من "نيروز" بنت الجيران. تأملت خطها الرشيق الجميل. استرجعت صورتها. نزهاتنا على كوبري الجامعة. تزويغاتنا للذهاب إلى السينما، نختار صف المقاعد الأخير حيث تتأجج نشوتنا في تلك العتمة الباهرة.

وبينما أقلب الأوراق، داعب الخط الكوفي الجميل عيني بالكلمات المنمنمة التي خططتها، قبل سنوات، بشغف:

"ومشت الغانية تتهادى، وهبطت درجات البركة المرمرية على مهل، ومضى الماء يغمر القدمين، فالساقين، فالفخذين ثم ألقت بجسمها الهادئ يأخذ منه عطرًا ويعطيه بردًا وسلامًا. واستسلمت لمداعبة الماء في رخاوة، ولعبت فيه ما شاء لها الهوى والمرح، وسبحت طويلا تارة على بطنها، وتارة على ظهرها، وثالثة على أحد جانبيها. وما كانت لتعير شيئًا اهتمامًا لولا أن صك أذنيها صراخ فزع يرسله جواريها، فتوقفت عن السباحة، والتفتت إليهن، فراعها أن رأت نسرًا هائلاً يحلق من علو قريب من شاطئ البركة، ويرف بجناحيه، ففرت من بين شفتيها صرخة فزع، وغاصت في الماء تنتفض فزعًا ورعبًا، وتصبرت بجهد جهيد، وحبست أنفاسها طويلا حتى أحست بالاختناق، ونفدت قدرتها فرفعت رأسها في خوف وحذر، ونظرت فيما حولها وهي تخشى، فلم تر شيئًا. فنظرت إلى السماء فوجدت النسر يولي بعيدًا يوشك أن يلج باب الأفق". (رادوبيس ص 39).

سمعت رنين الهاتف، فانتبهت. تركت الأوراق في مكانها منطلقًا للغرفة المجاورة. أتاني صوت نجوى: "آسفة، لم أستطع الحضور إلى شقتك اليوم". " ماذا حدث"؟ " لا شيء خطيرًا، اندلعت بيني وبين أمي مشادة عنيفة كادت تتحول إلى مأساة".

قلت لها: "وإلام انتهت"؟ "أخذتُ حقيبتي وانطلقت صوب الباب، وقبل لحظة واحدة من خروجي فوجئت بها تنادي عليَّ بنوع من الهيستيريا، انهارت، وبكت وهي ترجاني ألا أخرج من البيت. هل تعرف

أنني رغم غضبي، أشعر بالتعاسة لأنني خدشت كبرياء أمي، واضطررتها لأن تغير صورتها الصلبة القاسية وتتحول من حال القوة إلى ضعف يرثى له". بكت نجوى، وانتابتني حالة صمت تام. طلبت منها أن تهدئ نفسها حتى نرى ما سوف تصل إليه الأمور في الصباح، لكنها اختتمت المكالمة الهاتفية بقولها: "المهم توقَّعني في أي لحظة، ممكن أتجنن وأطب عليك الفجر أو الصبح بدري".

***

لم أرتح لفكرة التعايش المشترك مع نجوى. ساورني إحساس بالضيق. اكتشفت أنني أحب إحساسي بالوحدة، وأكره الالتزام. وجودها معي سيفرض طقوسًا جديدة قد تشعرني بالاختناق. لن أكون على كامل راحتي. أحب، مثلاً، أن أترك باب الحمام مفتوحًا، وأخرج عاريًا ومبتلاً، لأشعل سيجارة بينما أستمع للموسيقى. حتى لو اعتدت عليها لدرجة إمكانية فعل كل ذلك في وجودها، فلا أحب أن أكون في مرمى بصرها مشاعًا لملاحظاتها. ثم إنها متقلبة؛ اليوم تنازعت مع أمها لأنها طلبت منها ألا تخرج لأنها تحتاج إليها بجوارها لتمرِّضها، لكنها اشتعلت غضبًا، واستسلمت لشيطانها بابتذال. قررت أن تهرب من أمها، ويمكنها أن تفعل ذلك معي لأوهن الأسباب.

10

أدمنت تأمل وجهي في المرآة، آملاً أن أُركِّب في مخيلتي صورة لأبي؛ للرجل الذي أحب أمي. والذي قذف فيها سبب وجودي. رسمت صورته النهائية في خيالي كرجل أسمر، شعره خشن، يتسم بجسد رياضي ممشوق، وجهه مربع، وله ابتسامة تكشف عن أسنان بيضاء جذابة، لعلها تساقطت تباعًا، كما تساقط شعر رأسه الخشن الذي غزاه المشيب وتغضنت وجنتاه ووجهه بالتجاعيد.

كنت، بين آن وآخر، أعيد تركيب الوجه، باحتمالات أخرى عديدة، أكبّر الأنف قليلاً، أخفف له شعره ليصبح أصلع. أو بشفتين غليظتين، وجبهة ضيقة وحاجبين غزيرين. لم أكلّ عن اختلاق الصورة والتعديل فيها يوميا. أحيانًا أستسلم لفكرة أنني ضحية، وأن حياتي كانت ستختلف بشكل تام، لو أن ضمير أمي لم يستيقظ، دافعًا إياها لاستعادتي من الملجأ.

لكن، من يدري؟ ألم يكن من المحتمل أن تفقد أمي أثري، لسبب أو لآخر؟ نعم، كان ذلك واردًا، ولربما كان ذلك أفضل. أليست هذه هي حال كل إخوتي في الملاجئ، ممن يعيشون على جهل مطلق بمن تسبب في وجودهم بهذه الحياة؟ أليسوا جميعًا سعداء، بشكل ما؟ يمتلكون المواهب والمشاعر، وحياتهم ليست تعيسة كما قد يتصور الكثيرون، لا يفتقدون أبًا أو أمًا، لأنهم، من الأساس، لم يعرفوا معنى التعلق بأم أو أب، على عكس الكثير من أصدقائي "الطبيعيين"، المتعبة أرواحهم، أسرى الاكتئاب، والهواجس، بسبب المشكلات اليومية المزمنة بين آبائهم وأمهاتهم.

أحاول أن أقتل الشعور بالذنب؛ فلو أنني لم أولد، لربما استمرت علاقتهما، ولأصبحت هي سعيدة. لقد دمر وجودي حياتهما.

***

لماذا أصرت أمي أن تقضي أيامها الأخيرة في دار المسنين، وتترك لي شقة "المنيل"؟ قالت إنها أنهت مهمتها على خير وجه، منحتني حياتها؛ عبرت معي سنوات الطفولة والصبا، بلا مآس كبيرة. ومر الزمن وهي تحاول أن تجعل مني رجلا. تجاوزت معي محن سنوات المراهقة. ساعدتني في النجاة من أي محاولة مراهقة لتدمير الذات. لم يكن من الصعب عليها إدراك تعاطيَّ للمخدرات، فلم أكن حذرًا بما يكفي لإخفاء الأمر عنها، لكنني امتثلت لرغبتها، في النهاية. لم يلحظ أحد من شلة المنيل شيئًا. استمريت في مجاراتهم، لم أكن أبتلع شيئًا من أقراص المخدر فيما كنت أحاول أن أتقمص دور المسطول بإتقان.

لماذا خشيت من إعلان امتناعي عن تناول المخدرات؟ كأنني كنت

أعاني خوفًا مرضيًا من أن ينبذوني لو تبين لهم أنني أصبحت "مهذبًا"! ربما كنت أخشى الخروج من جنتهم. فتلك كانت أجمل أيامنا؛ نضحك بصخب، ونثرثر، بلا وازع أو رقيب، بكل ألوان الفجور والهلاوس الجنسية. نغازل الفتيات، خاصة من نعرف أنهن لسن من سكان "المنيل". نستند إلى العربات المتوقفة على ناصيتنا المفضلة في "محطة الباشا"، أو ننتقل إلى شارع عبد العزيز آل سعود، نجلس على السور الإسمنتي القصير، المجاور للمطاعم النيلية، نرقب العشيقات الباحثات عن موعد غرامي، أو الفتيات اللائي كن يواعدن عشاقهن، ويحضرن مبكرًا. نذهب، مع جاسر وناصر ورياض وسعد، إلى مقهانا المفضل، بعد تناول سندوتشات الجمبري والكبدة من "عجيبة"، أو نتمشى وصولاً للروضة؛ بعد أن نقطع شارع المنيل لنهايته، ونتخذ طريقًا متعرجًا حول البنايات العتيقة والفيللات، تحيط بنا الأشجار، وصولاً لمبنى "قصر المنسترلي"، بجوار مقياس مياه النهر الشهير، في أقصى طرف جزيرة الروضة؛ حيث تحيط به مياه النيل من كل الاتجاهات. ثم ننطلق إلى إحدى الغرز، في أحياء مصر القديمة، لندخن الحشيش.

رياض كان أكثرنا جرأة، في مطاردة الفتيات. كما كان الوحيد القادر على شرب البيرة جهارًا في الشارع، خلال جلساتنا الليلية على النيل.

كنا، في تلك الأيام، نستدعي الذكريات، ولا نتوقف عن الضحك، رغم مآسي كل منا الصغيرة، وعلاقاتنا المبتورة مع آباء وأمهات يرون الحياة من منظور الموظفين الصغار الضيق، الذي أكل عليه الدهر وشرب،

وما نراه نحن من رؤانا المشوشة، بينما تمتلئ رئاتنا جميعًا بذلك العبق الغامض، تلك الرائحة، التي كانت تغمر أنوفنا بينما نسير بمحاذاة النيل على أي من ضفتي الحي العتيق، والتي كنت أعرفها لنفسي بوصفها "رائحة المنيل".

امتنعت عن كل ما أرادت أمي أن أمتنع عنه، راضيًا ومقتنعًا، باستثناء السجائر والكحول. اعترفت لها بذلك، وتقبلت الأمر على مضض. لم أرغب في أن أزيد من تعاستها. كنت أريد أن أصبح رجلاً. أتولى مسئوليتها بعد أن أدت هذا الدور معي بما يفوق طاقتها. استنفدت كل طاقتها في عملها الروتيني بالبنك، واقترضتْ من الأقارب، وأحيانًا من البنوك.

فاجأتني بأنها لا تريد مني شيئًا، وأنها ستنتقل لدار المسنين. ما زلت أشعر حتى اليوم، وبعد عامين من وفاتها، بنوع من الإهانة، وبالخجل من اتهامات، لم يوجهها لي أحد، بالتخلي عن أمي في سنوات عجزها. في دار المسنين وجدت أمي نوعًا من السعادة، أظنها لم تعرفه قبل ذلك. كانت سعيدة بصحبتها الجديدة. صحيح أن الأمهات من صحبتها كن حزينات وتعيسات، بسبب تخلي أبنائهن عنهن، وبوقوعهن، بلا سابق إنذار، في دوامة من دوامات الحياة، مما لم يرد على ذهن أي منهن يومًا. أما وجود أمي في الدار فكان محض اختيار. كأنها قررت عقوبتها بنفسها؛ أن تقضي السنوات الثلاث الأخيرة من عمرها في دار المسنين، تمامًا كما قضيت أنا سنواتي الثلاث الأولى في الملجأ.

11

لم أتمكن من النوم. سمعت آهات المرأة الشبقية المثيرة، مرة أخرى. تقلبت في الفراش. نهضت متجهًا صوب النافذة. فتحت الشيش، و لم أر شيئًا. الشقة، في العمارة المقابلة، بدت غارقة في الظلام كالعادة، مع ذلك كان جليًا أن الصوت الأنثوي الحار يصدر عنها. فوجئت بالفتاة النحيفة، الفارعة، التي تقطن في الشقة المجاورة للشقة المجهولة، وهي شقة نيروز التي انتقلت منها إلى بيت زوجها. أضاءت غرفتها فجأة. كانت ترتدي بنطلونًا جينزًا أزرق وتي شيرتًا أصفر. شعرها يتدلى حول وجهها. تبين لي أنها تبحث عن شيء ما، من طريقة تحركها المتوترة في الغرفة جيئة وذهابًا. فوجئت بها ترفع التي شيرت بذراعيها لتنضوه عنها، ثم تتهادى، باتجاه الدولاب، في أقصى الغرفة. لم تكن ترتدي سوى مشد صدر وسروال داخلي لونهما أبيض. تألق لون بشرتها البيضاء، برزت إليتاها فهالني أنهما

مشدودتان بلا ترهل، تقاومان الجاذبية بعناد. فكرت أن نهديها أيضًا لا بد أن يكونا كاعبيْن، مشدودين. بدت متحررة من أي قيد، كأنها تتحرك في البيت كله بمفردها.

لكنها، وهذا هو ما أدهشني فعلاً، بدت كأنها لا تأبه بانكشاف النافذة. كما لا تأبه بالصوت الشبقي اللحوح الصادر من الشقة المجاورة لشقتها، والذي تسبب في إثارة حالة حسية طاغية مثل الرطوبة الخانقة التي تشيع في الجو. أحسستُ بالعطش، فتوجهت صوب المطبخ. أخرجت من الثلاجة زجاجة مياه باردة، وشربت نصفها.. التقطت ثلاث حبات من البلح الأحمر من الطبق الموضوع في الرف العلوي. اخترت أكثرها احمرارًا، وبدأت أقضمها. بوصولي للغرفة، شعرت برغبة في التدخين، بحثت عن علبة السجائر فلم أجدها. تكدرت. توجهت إلى الركن المواجه لباب الشقة، ووجدت قميصي الذي خلعته فور دخولي الشقة. أخرجت علبة السجائر من جيب القميص، وعدت بها إلى الغرفة. أشعلت سيجارة، ومسحت البلل الذي لاحظته على طرف شاربي إثر ما تجرعته من مياه. جلست على السرير وأنا أشعر أن عقلي يعمل بشكل سريع، وفهمت أن هذا هو سر أرقي.

استعدت ما قالته لي نجوى: "آتي إليك. نغلق الباب ونكون معًا. ننام على نفس الفراش". أليس هذا تصريحًا بممارسة الحب، أم أنها ستدور بنا في دوائرها المجنونة، وتطلب مني أن أتعّرى معها بشرط ألا ألمسها مثلاً؟ نظرت صوب الفتاة عبر النافذة: كانت قد أشعلت سيجارة، وهي تتجول

في الغرفة وتضع هاتفها المحمول على إحدى أذنيها. هل تهاتف صديقها؟ أم تواعد شخصًا؟ أم أنها تحادث صديقة من صديقاتها. لا بأس، فكلما طالت المكالمة، كلما أتيحت لي فرصة التمتع برؤية هذا الجسد الفاتن.

قارنتُ الفتاة بما كانت عليه عندما كانت صبية صغيرة تقف في شرفة منزلهم وهي بصحبة أختها الأكبر، التي كانت نموذجًا للأنوثة كما عرفتها في صدر مراهقتي. بعد عدد من المحاولات المستمرة لتقصي خط سيرها، استطعت أن أتعرف إليها في تاكسي كانت قد استوقفته قبلي يوما من الجامعة. تعمدتُ الإشارة للتاكسي صارخا: "المنيل" .

تبادلنا، بعد نزولنا من التاكسي كلمات مقتضبة سريعة، عرفت خلالها أن اسمها "نيروز". انطبع الاسم في خيالي مرادفًا للسحر، ومن الشرفة كنا نتبادل الابتسامات والإيماءات، حتى تبادلنا أرقام الهاتف، وأصبح سماع صوتها جزءًا أساسيًا من برنامج أي يوم. بعدها بدأنا نلتقي في المتنزهات، بعيدًا عن المنيل، أحيانًا في شارع الهرم، أو في أحد مقاهي الدقي. وغالبًا في الزمالك؛ الحي الأكثر أمانًا، الذي نطمئن أننا لن نصادف فيه أحدًا من معارفنا كما يشيع في المنيل. ارتفع الصوت الشبقي مرة أخرى، وكانت الفتاة في النافذة قد أغلقت الإضاءة، وغرقت غرفتها في ظلام دامس يماثل حال الغرفة التي تصدر منها تلك الأصوات في الشقة المقابلة. أطفأت الإضاءة بدوري؛ لأواجه الظلام وشياطين الشهوة التي تفوح بصوت تلك المرأة، وتستثير خبراتي الحسية، وهلاوسي الجنسية، وتؤجج رغبتي في وجود نجوى بجواري؛ عارية على الفراش، تتأوّد وتطلق تلك الأصوات

التي أسمعها بينما أكون غارقًا بذاتي كلها، أبحث عن نفسي فيها؛ جسدًا وعاطفة، وروحًا.

***

تمددتُ على الفراش. أغمضت عيني، ولم أر شيئًا، لكني سمعت الصوت الشبقي مرة أخرى. حاولت أن أكوِّن لها صورة بلا جدوى. استدعيت صورة "نيروز" في فراشي، ونحن نتقلب عاريين يجن جنونها من أي لمسة ألمسها لنهديها أو ردفيها فتكاد تمزق ظهري بأظافرها. فتحت عيني، ولمحت ضوءًا خافتًا فنهضت. وجدت فتاة النافذة، شقيقة نيروز، وقد عقصت شعرها ووقفت عارية النهدين، تلوح لي. نظرت حولي مرتبكًا، فعادت تشير بيدها بإلحاح، وكانت الإشارة واضحة لا مجال فيها لأي لبس، تدعوني أنا وليس أحد آخر. ارتديت بنطلوني الجينز، وأدخلت ذراعيّ في كمي التي شيرت الذي وجدته أمامي. نزلت الدرج بسرعة، وبعد عدة دقائق كنت أجتاز البوابة الحديدية المغطاة بالزجاج المبرقش في مدخل العمارة المقابلة. وصلت إلى الطابق الأخير، وأنا ألهث. كان باب شقة نيروز مغلقا، بينما باب الشقة التي يفترض أن أصوات الشبق تصدر منها مفتوحًا.

ساد صمت مخيف، لم يتسن لي اختباره من قبل. صمت مربك، يتحول، بمرور الوقت إلى وشيش مربك. وضعت قدمي على عتبة المدخل المظلم. دخلت الشقة بحذر، وأنا أتوقع أن أرى شقيقة نيروز في مكان ما. لكني لم أر شيئًا. كان البيت خاليًا من أي شيء، باستثناء خشب الأرضيات البني العتيق. لاحظت طيفًا شاحبًا من الضوء

يتسلل عبر نهاية ردهة طويلة. توجهت إليها بحذر. لم أعد أسمع سوى صوت أنفاسي. لكني أكملت سيري، بتأثير خوف مضاعف من أن أولي ظهري لمصدر الضوء ذاك. أخيرًا وجدت غرفة بابها شبه المغلق يسمح بمرور طيف من الضوء. توقفت قليلاً. تماسكت، ودفعت الباب بحذر. كانت الغرفة خالية إلا من فراش وثير محاط بستائر بيضاء شفافة، تتدلى من عمدان ذهبية معلقة أعلاه. رأيت جسدًا عاجيًا نحيفًا، لفتاة لها قدمان صغيرتان ورشيقتان، وساقاها مزينتان بسوارين من الذهب.

تصورت أولاً أنها شقيقة "نيروز"، لكني اكتشفت أن الملامح مختلفة. ملامحها فاتنة، تمامًا مثل تكوين جسدها العاري المستلقي على الفراش بدلال، وبجوار رأسها كان هناك تاج ملكي فرعوني يلتمع بلون الذهب. بدأ اسم الفتاة يتردد في أذني، كأنها هي التي توحي إليّ بالاسم، باستخدام قوة روحية خارقة. "رادوبيس"، "رادوبيس". استعدت وصف محفوظ لها، وشعرت بشهوة جامحة، وبأن جسدي متوهج بالحرارة. اقتربت منها بحذر. وضعت كفي على ساقها، لكني رفعتها بسرعة؛ إذ شعرت بمس من السحر بسبب ملمس الساق الذي لم أختبر مثل نعومته. فتحتْ عينيها فهالني جمالهما. ليس لأنهما فاتنتان، وإنما للمعرفة العميقة التي تفيض بهما. بللني العرق. ثم شعرت فجأة بأن روحي تسحب مني. تسللت البرودة إلى جسدي حتى ارتعدت كمريض محموم، ففتحت عيني مفزوعًا. وتنفست الصعداء لأنني كنت أحلم، لكني سرعان ما تكدرت لإدراكي أن وجود تلك الفتاة الساحرة ليس سوى وهمٌ صنعه خيالي في ذلك الحلم الغريب. كنت غارقًا في العرق. فنهضت لأتخفف من ثيابي،

ثم أغلقت مفتاح الضوء. تسللت إلى الفراش حاولت استدعاء النوم بينما كان الصمت سيد كل شيء.

12

عندما وقعت عيناي على الرسالة المرسلة لي من جاسر على هاتفي المحمول: "تعيش وتفتكر"، امتلأت روحي بهم ثقيل. اليوم يوافق ذكرى وفاة أمي الثالثة. نسيت الأمر خلال الأسبوع الماضي كله، لكنني لم أستطع تأجيل موعد زيارتي للملجأ. فكرت أن أصطحب جاسر، لأنني أحضرت بعض الأغراض مما قد يحتاج إليه إخوتي، ووجوده بسيارته، سيسهل كثيرًا عملية النقل. أما في المساء فسوف أذهب إلى دار المسنين؛ حيث يقوم كل المقيمين هناك بإحياء ذكرى وفاة أمي؛ بالجلوس في حلقة واسعة بالطابق الثاني، يشربون القهوة، ويستعيدون مآثرها، ثم تبدأ طقوس قراءة القرآن، والدعوة لها بالرحمة. انطلقنا إلى حي المعادي، وصولاً للملجأ. أنزلنا الحقيبتين الممتلئتين بالملابس المخصصة لـ"إخوتي" بالملجأ. حييت الجميع، وصافحت تامر بحرارة. صافحني بدوره؛ باشًا ومرحًا، ثم سألني إذا ما كنت قد أوفيت بوعدي. أخرجت من إحدى

الحقائب، أدوات الرسم كاملة، ومعها مجموعة من أنابيب ألوان الزيت، فظل يقفز في مكانه كالمجانين من شدة الفرح. سألت عن "رجاء"، الطفلة الشقراء، التي كنت أتمنى أن أُثْرِيَ يومًا لكي أستطيع أن أتبناها، ولكني فوجئت بالوجوم يعلو الوجوه. قبل أن أعيد السؤال جاءت "صباح" المشرفة على قسم الأطفال، وأخبرتني أن ربنا كرمها برجل ثري وامرأته، وأنهما تطوعا لتبنيها وأجريا كل الإجراءات، ثم أضافت أن رجاء سعيدة جدًا بأبيها وأمها الجديدين. رددت بطريقة آلية، وبإيقاع لا يخلو من النشاز: "مفهوم. مفهوم. طبعا مفهوم".

أشعر في أعماقي أنني غير مرغوب فيّ، إلى درجة جعلت أمي تلقي بي في قارعة الطريق، وأدت إلى اختفاء أبي من حياتي للأبد. غبت في خيالاتي، حتى إنني سئلت أكثر من خمس مرات عن أسباب شرودي؟

لم أتبادل الحديث مع تامر، كما هو شأننا، ولم أقترح عليه أيًا من الأفكار التي عادة ما أقترحها عليه للخروج من دائرة الملل، رمقني بغضب قبل انصرافي مباشرة. لم أكن متأكدًا من سبب هذا الغضب. هل يعود إلى نقمته على انصرافي المبكر؟ أم بسبب إحساسه بالغبن، ومن أنني تكدرت من غياب "رجاء" على حساب كل شيء آخر بما فيه الوقت المخصص له ووعودي التي لم أنفذ منها شيئًا.

اقتربت منه، وضعت يدي على كتفه واعتذرت له عن انصرافي المبكر، وأوضحت له أن اليوم يوافق ذكرى وفاة أمي، فتعلق برقبتي، واحتضنني بقوة. كان هذا هو العزاء الوحيد الصادق الذي تلقيته في حياتي كلها.

القسم الثاني

صدى النسيان

1

يقال إن كل دخان أصله نار، لكن أحدًا لم يستطع معرفة سر الجمرة التي أشعلت نيران الشائعات التي تناقلت ظهور شخصيات روايات نجيب محفوظ في أنحاء متفرقة من القاهرة. ردد بعض مطلقي الشائعات أنهم رأوا بعيونهم "كمال عبد الجواد"، ليس كما صوّرته أفلام حسن الإمام، وإنما كما وصفه محفوظ نفسه في الثلاثية. بينما انطلقت شائعات أخرى تناقلت أن "حميدة" كانت تظهر ليلاً في "زقاق المدق".

انتشرت شائعة أخرى عن تعالي صوت صراخ يقارب العويل لامرأة تقاوم الغرق في مياه النهر، في وقت متأخر من الليل بجوار أحد الكباري المطلة على النيل. قال مطلقو تلك الشائعة إنهم شاهدوا "نفيسة" تتخبط في النهر، لاهثة، تنادي على المارة أن يأتوا لينقذوها من مصيرها المروع. وتناسوا أنها قد غرقت منتحرة، وفقًا لرواية محفوظ في "بداية ونهاية"؛

امتثالاً لرغبة شقيقها الأصغر "حسنين" الذي ألقى بنفسه في النهر بعدها مباشرة، خلاصًا من دنس العار الذي لحق بعائلتها بسبب تعهرها. تناقل آخرون وصفًا دقيقًا لشخصية "السيد أحمد عبد الجواد"، يسير في شوارع وأزقة حي الجمالية ليلاً يتأمل أحوال الحي الذي عاش بين ربوعه، عمرًا طويلاً، ومنه أطلق ولعقود نموذج الرجل الشرقي إيجابًا وسلبًا على السواء. أكدوا أنه بدا طويل القامة، حتى إن رأسه، في حي "خان الخليلي" كادت توازي ارتفاع الطوابق الأولى في البنايات العتيقة الموجودة في المكان.

إزاء هذا الوصف لتلك الشخصية العملاقة، انتشرت شائعات مضادة؛ أكدت أن ذلك العملاق ليس سوى "الجبلاوي". لكن مجموعة من سكان المقابر نشروا في اليوم التالي إشاعة مغايرة تقول إن العملاق الذي شوهد في الجمالية، وخان الخليلي هو"عاشور الناجي". ولأن تلك الشخصيات، وفقًا للحكايات التي ذاعت، لم تظهر إلا ليلاً، فلم يكن ممكنًا للكثيرين، التيقن من صحتها.

.بمرور الوقت، اختلطت الشائعات، ولم يعد أحد يستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال، خاصة بعد أن بدأت بعض المرويات تُقحم، عن جهل، شخصيات، لم يتناولها محفوظ في أي من أعماله، ومنها ما زعمه أحد المتطوعين بالشهادة، في مقابلة تليفزيونية، مؤكدًا رؤيته لمن أسماها "آمال"، التي جسدت دورها النجمة "لبنى عبد العزيز" في فيلم "الوسادة الخالية"، مع عبد الحليم حافظ. قدّم الشخص وصفًا دقيقًا لملامح النجمة الشهيرة التي كانت أحد ملامح فتنتها هي أنها سمراء، بعينين خضراوين. بينما

أصر ثالث على أنه شاهد شخصية "ميرفت" ترتدي فستانًا أحمر عاريًا في أحد الشوارع الجانبية المتفرعة من "شارع الهرم" بصحبة شاب وسيم، في طريقهما إلى منزله. ثم أردف ضاحكًا، إن هذه الشخصية هي في الأصل اسمها "ناهد"، وأنها فتاة طيبة، لكن عفريتا يتلبسها في الليل ويحولها من فتاة رومانسية حالمة، إلى داعرة لعوب، تمنح جسدها بسخاء لمن تهوى؛ من عشاق تنتقيهم من الملاهي الليلية. قاطعه المذيع قائلاً إن هذه الشخصية لم تكن شخصية من شخصيات نجيب محفوظ، وإنما هي النجمة الراحلة "سعاد حسني" بطلة فيلم "بئر الحرمان" الذي أخرجه صلاح أبو سيف في نهاية الستينيات، موضحا أن القصة لإحسان عبد القدوس وليس لنجيب محفوظ. لكن المواطن أصر على أن ما يقوله هو الحقيقة، وأنه رأى السيدة اللعوب بعينيه، فاضطر المذيع للانتقال إلى شخص آخر.

آثرت القنوات الفضائية التريث في إذاعة البرامج الخاصة بالشائعات؛ خصوصًا بعد أن بثت إحدى القنوات الفضائية مقابلة مع واحد من الجمهور، زعم أنه شاهد "ياسين عبد الجواد"، الابن الأكبر للسيد أحمد عبد الجواد من زوجته الأولى. شوهد ياسين وفقًا لشهادة الرجل في منطقة الجمالية يسير خلف امرأة تلف حولها الملاية السوداء وتتمايل بدلال. قدم الرجل وصفًا لياسين يختلف عن وصف "عبد المنعم إبراهيم" كما ظهر بالفيلم، فقال:

" كان شأنه إذا سار أن يسير متمهلاً في هوادة ورفق، مختالاً في عجب وزهو، كأنه لا يغفل لحظة واحدة عن أنه صاحب هذا الجسد العظيم، وهذا الوجه الفائض حيوية وفحولة".

ابتسمت المذيعة إعجابًا بذاكرة الرجل وفصاحته. ويبدو أن الرجل كان صاحب ذاكرة استثنائية؛ إذ كان يحفظ ما ورد على لسان ياسين في "بين القصرين" كما كتب محفوظ وليس كما جاء في الفيلم، فأضاف بسرعة، أنه سمع ياسين وهو يسير خلف تلك المرأة يقول:

" اللهم لا تجعل لهذا الطريق من نهاية، ولا لهذه الحركة الراقصة من ختام.. يا لها من عجيزة سلطانية جمعت بين العجرفة واللطف، يكاد البائس مثلي يحس بطراوتها وشدتها معا بالنظر المجرد". (بين القصرين ص 80).

اختلط الأمر على المذيعة لوهلة، وتصورت أن الرجل يغازلها، ويتفنن في الإطراء على عجيزتها، فظلت صامتة تبتسم له بخجل، واستحال وجهها ذو البشرة شاهقة البياض إلى اللون الوردي، بينما حل صمت مرتبك لم يقطعه سوى تدخل المخرج بالقطع إلى فاصل إعلاني. قبل الفاصل، مباشرة، وفي أثنائه، تشتت تركيز المذيعة، لأن ما اعتبرته غزلاً من ذلك الرجل جعلها تستدعي عبارات الإطراء التي تلقتها من العشاق العارفين، ومن المارة العابرين على السواء، وبالتحديد ما اختص منها بمدح عجيزتها، بالفجاجة التي تطلقها رغبة الانتهاك غير المبررة في الشوارع والطرقات، من مكبوتين جنسيًا، مقموعين، ومخصيين نفسيًا ومعنويًا لا يشعرون برجولتهم المزيفة إلا إذا انتهكوا عرض امرأة.

في النهاية تلقت القناة الإعلامية الرسمية أوامر مباشرة بصرف اهتمام الناس عن تلك الشائعات، وركزت في الفترة اللاحقة على إذاعة برامج خبرية ومنوعة، محورها موضوعين أساسيين: الأول تعلق بامتيازات تحسين دخول الموظفين والعمال، في قطاعات الأعمال الحكومية والخاصة.

أما الثاني فهو وقائع تحرش جنسي، وحالات اغتصاب تتعرض لها الفتيات في بعض أحياء القاهرة النائية، وعدم قدرة رجال الشرطة على الوصول لسفاح المناطق النائية، بسبب تعدد الأوصاف التي قدمتها الفتيات والسيدات المتحرش بهن، والمغتصبات، بما يثير الشكوك بوجود أكثر من سفاح واحد. تراجع الاهتمام مرة أخرى بقضية اختفاء روايات نجيب محفوظ والظهور الغريب لشخصيات الروايات ليلاً في العديد من أحياء القاهرة لصالح الشغف بالأحداث الجديدة.

لكن الأمور سارت على غير ما يشتهي المسئولون؛ إذ تناقلت الهواتف المحمولة للأفراد واقعة، لم يتم بثها في أي قناة تليفزيونية أو صحيفة مطبوعة. عن رؤية شخصية تدعى "سناء"، وهي تتعرض لحالة اغتصاب جماعي في خرابة من الخرابات المهجورة، لكن سرعان ما انتشرت "إضافة" ألحقت بمضمون الرسالة التليفونية تفيد بأن "سناء" كانت تغتصب بإرادتها، لأن كل من اغتصبها كان يفترض أنه من دائرة معارفها. وبينهم شخصيات أشارت الشائعة لهم بالأسماء وهم أحمد صادق، وجاء وصفه مثلما ظهر بطل فيلم "المذنبون" الأشقر الوسيم، وأنيس البحراوي، وممدوح فريد، وحافظ بك، وفهمي، وحسن، ود. تحسين. ثم ألحقت بالرسائل المتداولة، لاحقًا، "إضافة" زعمت أن "محجوب عبد الدايم" شوهد قريبًا من موضع الحدث، وأنه ضليع بتدبير وجود كل تلك الشخصيات مع سناء في تلك الليلة، لكن، عدم قدرته على تنظيم المواعيد، بشكل جيد، جعل الأمور تخرج من بين يديه، وتتحول المسألة إلى ما أطلق عليه حفل "اغتصاب"

جماعي، بينما بثت رسائل أخرى، استبدلت فيها كلمة "جنس" بكلمة اغتصاب. أصبحت هذه الشائعة، على نحو خاص، مثار اهتمام وتعليقات الجميع، في الجلسات الخاصة والعامة، وفي المقاهي والحافلات، بل وحتى بين الفتيان والفتيات، والأزواج والزوجات الذين كانوا يرون في تفاصيل الواقعة ما يغذي خيالاتهم الجنسية، ويفعل بهم ما يفوق تأثير المنشطات، وهو ما جعل من هذه الشائعة واحدة من أقوى الشائعات على الإطلاق.

لم تنجح كل وسائل التشتيت الإعلامي التي مارستها أدوات الإعلام الرسمي كلها، في تقليل درجة الاهتمام بها وانتشارها، مزودة، من رسالة لأخرى، ببهارات متنوعة، بعضها أضاف أفعالا صريحة، أقل ما توصف به هو التهتك، بوصفها بعضًا مما مارسته سناء في تلك الليلة، أو مواصفات خاصة لبعض الشخصيات، أو إضافة أسماء لم ترد في قصة محفوظ. وبعضها أسماء شهيرة في المجتمع؛ مما جعل من هذه الشائعة كرة ثلج مخيفة فقد الجميع القدرة على السيطرة عليها. إلا أن أحدًا لم يستطع أن يعرف مصدر جمرة النيران التي أشعلت كل تلك الوقائع الغريبة، بالرغم من كل هذا الدخان الكثيف!

2

في المأثور الشعبي المصري اعتاد البعض خاصة في المناطق الريفية والشعبية، أن يبدأوا عملهم أيًا كان مرددين: "استعنا على الشقا بالله". وأنا مضطر لاستعارة المأثور الشعبي في هذا السرد لعدد من الأسباب أولها أنه لم يكن في خطتي أن أقوم بهذا السرد على الإطلاق، و لم تكن لديَّ أدنى رغبة، لكنني أصبحت مضطرًا لذلك بعد اختفاء "كبرياء". نعم، اختفى "كبرياء"، بعد أحداث عاصفة مر بها، وتزامنت مع وقائع غريبة حدثت تباعًا على خلفية اختفاء أعمال محفوظ. ولأنني كنت شاهدًا على السرد الذي بدأه، إضافة لمعرفتي تفاصيل حياته كلها قبل اختفائه، وجدت في نفسي هوى لاستكمال ما بدأه؛ رغبة في توضيح ما سارت عليه الأمور في الشهور التي سبقت اختفاءه.

قراري هذا يبدو مشبوهًا باغتصاب سلطة ليست من حقي، هي هنا

سلطة السرد، وهذا صحيح إلى حد ما. لكني، بأمانة، لا أعتبر نفسي مغتصبًا لسلطة؛ أي أن المسألة لم يسبقها صراع بيني وبين صاحب حق السرد الأصلي. كما أنني لم أقم بانقلاب ثوري لانتزاع هذه السلطة. تم ذلك بشكل، أظنه، أقرب ما يكون لانتقال سلمي للسلطة. ولعلكم لاحظتم أن لغتي نفسها تكاد أن تتطابق مع اللغة التي استخدمها كبرياء في السرد. ثم إن لديَّ الكثير من المؤهلات التي تضفي الشرعية على سلطة السرد التي انتقلت إليَّ توا؛ وبينها؛ أن مصيري مرتبط تمامًا بمصير كبرياء، وحتى اسمي يتشابه، أيضًا، مع اسمه، باستثناء اللقب الذي يميزني عنه؛ "قرين". على أي حال أنا لا أتولى السرد هنا، لكي أتحدث عن نفسي؛ وإنما يتعلق الأمر بكشف حقائق عن كبرياء، وعن لغز غامض يخص إنجاز كاتب حاز تقديرًا من الجميع، بينما اندثر تراثه من بين أيديهم فجأة و لم يفعلوا شيئًا.

قبل أيام قليلة من بدء انتشار الشائعات الخاصة بظهور بعض شخصيات أعمال نجيب محفوظ، تسربت أخبار اللجنة إلى الكثير من العاملين بالشأن العام. فبالرغم من السرية المفروضة على عمل اللجنة، والتعهدات التي التزم بها كل الأعضاء بالحيطة والسرية؛ فإن الكثير من التفاصيل المتعلقة بإجراءات العمل داخل اللجنة بدأت في التسرب تدريجيًا، على هذا النحو:

بدأ عمل اللجنة على محاور عدة؛ فقد اختصت مجموعة من المتخصصين في مجال السينما، بمشاهدة دقيقة لكل الأفلام السينمائية التي اقتبست

أعمال محفوظ، وكلف أكثر أعضائها موهبة في الكتابة بمحاولة نقل النص السينمائي إلى نص مكتوب. وتمكن بعض أعضاء اللجنة، بالفعل، من تحويل النص السينمائي إلى نص روائي متقن. لكن، عندما تم عرض النص على المتخصصين في أدب محفوظ، تبين أنه لم يتضمن المميزات اللغوية التي تميز بها نص محفوظ، كما أن المقاطع السردية الوصفية عانت من مشكلات عديدة، أقلها غياب الدقة التي ميزت الوصف في النص المحفوظي.

قامت مجموعة أخرى بمحاولة إعادة تعريب أعمال محفوظ المترجمة للإنجليزية والفرنسية. بدأوا برواية "بين القصرين"، آملين أن تكون الثلاثية أول ما يحاولون استعادته. عملوا بجهد وحماس كهنة صارمين، وبدأب ودقة وإخلاص حراس الفنون العتيقة المتوارثة جيلاً لجيل. لكن النتيجة كانت صادمة لهم جميعًا. المختصون في اللغة وأدب محفوظ قرأوا النصوص بسعادة، لكنهم أحسوا غياب روح النص الأصلية. مفردات محفوظ الفصيحة وبلاغته، والروح المصرية التي تتدفق بها نصوصه. كانت تلك ضربة موجعة للجميع، خصوصًا أعضاء اللجنة، لكنهم لم ييأسوا، وبعد قليل من التفكير قرروا إضافة اللغة الألمانية أيضًا، ثم مقارنة التعريب من اللغات الثلاث بالفيلم، وتكوين ورشة كتابة لتحرير النص في شكله النهائي.

في الليلة نفسها عقدت اللجنة اجتماعًا مطولاً امتد لليلة بكاملها. كانوا يريدون إيجاد حل حاسم وناجع. خاصة أن عملهم كان محل مراقبة من مستويات حكومية عليا، وجهات ثقافية غربية، وفضول جماهيري لم يكن أحد يتصوره، بالإضافة لضغوط المثقفين.

صباح اليوم التالي نشرت الصحف إعلانًا عن مسابقة رسمية، كما بث إعلان مصور آخر في القنوات الإعلامية الرسمية. تضمن الإعلانان رصد مكافأة كبيرة لأي شخص ممن يتمتعون بقوة الذاكرة ويحفظون أي فقرات سردية من أعمال محفوظ. بنفس الحماس تكونت لجنة فرعية مهمتها فحص طلبات المتقدمين للجائزة، وإجراء مقابلات معهم؛ في حضور بعض الكتّاب والنقاد والأكاديميين الذين يذيع صيتهم في المعرفة الدقيقة بأعمال محفوظ، وأسلوبه اللغوي؛ للتأكد مما إذا كان المتقدمون يحفظون، بالفعل، بعض أجزاء سردية من نصوص الرجل، أم أنهم مجرد مدعين.

توافد عدد كبير من المتسابقين، على عكس توقعات أعضاء اللجنة، حتى تجاوز المئتين وخمسين متسابقًا. دخل المسئول عن المسابقة إلى مكتب رئيس اللجنة، وحياه، بينما ترتسم على وجهه ابتسامة واسعة، وهو يحك يديه ببعضهما البعض بحماسة.

لكن مدير اللجنة استقبل ابتسامة الرجل بفتور.. كان يعلم بحكم خبرته أن الناس تتشبث بأي فرصة من هذا النوع طالما أن الفوز في المسابقة يقتضي حصولهم على أموال نقدية، حتى لو لم تكن لهم أدنى علاقة بموضوع المسابقة. وكان على صواب. في قاعة واسعة بمبنى تابع لهيئة المخطوطات، تحلق أعضاء اللجنة حول منضدة طويلة.. بينما جلس المتسابقون على عدد من المقاعد المتراصة في صفوف، وبحيث يتقدم كل منهم من منصة يعلوها كرسي وثير تعلوه إضاءة قوية مباشرة ليقرأ ما شاء.

وعلى الجدار الخلفي للمنصة علقت صورة كبيرة لنجيب محفوظ التقطت له في سنوات حياته الأخيرة، ملتحيًا بلحية خفيفة، ومبتسمًا ابتسامة دمثة محملة بوطأة سنوات العمر المديدة. من بين المتسابقين جميعًا ثبت أن من يحفظون شيئًا من أعمال محفوظ لا يتجاوز عددهم اثني عشر شخصًا فقط أغلبهم لا تحتفظ ذاكرتهم سوى بفقرات محدودة، وبعض المقاطع في نصوص محفوظ كلها، خاصة" أصداء السيرة الذاتية"، "أحلام فترة النقاهة"، وبعض المقاطع الأولى من "الحرافيش"، و"بين القصرين". في النهاية لم يستثر اهتمام اللجنة المشرفة على المسابقة سوى متسابق واحد فقط. كان يغمض عينيه ويصمت لنحو ثلاث دقائق قبل أن يبدأ في السرد من الذاكرة، بسرعة، وبلا وقفات من أي نوع. قرأ المتسابق، الذي بدا شابًا في منتصف الثلاثينيات، مقاطع متباعدة من "الحرافيش" بلا ترتيب، ليس عن قصور، إنما ليستعرض إمكانياته وقدراته الفذة في الحفظ على أعضاء اللجنة.

المراقبون وأعضاء اللجنة الذين شهدوا تلك اللحظات وصفوها بأنها الأكثر تأثيرًا وحماسة في تاريخ اللجنة على الإطلاق. فقد تخلى رجال اللجنة عن وقارهم وهدوئهم المعتادين. تركوا مقاعدهم ووقفوا جميعًا، وقد تجيشت مشاعرهم، وشرعوا في التصفيق بحماس كبير، وهم يحيّون الشاب، ويطلقون أوصاف النبوغ والتقدير عليه، بينما تطغى عليهم فرحة انتصار وبهجة، استعادت لدى بعض منهم مشاعر اليوم الذي أعلن فيه عبد الناصر تأميم قناة السويس، والبعض الآخر استعاد نشوة انتصار مصر التاريخي في حرب 1973 على إسرائيل.

فتح الشاب عينيه الرماديتين كأنه استيقظ لتوه من غفوة أغرقته في حلم غريب. مسح على رأسه الخالي من الشعر، ونظر فاغرًا فاه إلى أعضاء اللجنة. لكنه سرعان ما استعاد سيطرته، ورباطة جأشه، وابتسم لأعضاء اللجنة بامتنان. لم ينتظر أعضاء لجنة التحكيم سوى دقائق قليلة بعد انتهاء الشاب من قراءته. كما أنهم لم يولوا البروتوكولات المرعية شأنًا، وأعلنوا فوز المتسابق فور انتهاء المسابقة، وخولوا رئيس لجنة التحكيم لإعلان النتيجة رغم تنافي ذلك مع القواعد العامة التي اتفقوا عليها لإدارة المسابقة وبينها سرية عمل لجنة التحكيم.

لكنهم فوجئوا بمفاجأتين: الأولى أن اسم المتسابق صاحب الرأس الأقرع لم يكن موجودًا في كشوف المتسابقين. أما المفاجأة الثانية فقد فجرها المتسابق الأخير، وبدا من مظهره مراهقًا لا يتجاوز عمره خمسة عشر عامًا، يرتدي "تي شيرتًا" أبيض، تتصدره صورة ملونة للملكة الفرعونية "كليوباترا" عارية على فراش موتها، وبنطلونًا "جينز" أزرق باهتًا. قال لهم بعربية فصحى، وبصوت أجش، قوي، لا يناسب ملامح وجهه ولا عمره الصغير: "أنتم تتجاوزون كل القواعد". وقبل أن يرد أي منهم رفع صوته قائلاً: الشخص الذي ألهبتم أياديكم تصفيقًا له، قرأ ما يحفظه من كتاب واحد، وأخطأ في النحو والتشكيل عدة مرات، ولم ينتبه أي منكم لذلك. كما أنكم وقعتم جميعًا أسرى خداعه، فأغشاكم، فأنتم لا تبصروني. لكن عماكم هذا، لا يعني أنني لست موجودا، ولا ينفي قدراتي، التي يخجلني كثيرًا أن أنوّه عنها مضطرًا، بسبب تقصيركم في أداء واجبكم على الوجه المبتغى".

أصيب المكان بما يشبه السحر. زاغت عيون أعضاء لجنة تحكيم المسابقة جميعًا، وهم يتأملون وجه الصبي، فبدوا كأنهم فقدوا القدرة على إبصار أي شيء سوى ملامح وجهه الأسمر المتناسقة؛ بأنفه الصغير الدقيق، وشفتيه الصغيرتين، وذقنه المدببة برقة، وشعر رأسه الغزير والحليق في الوقت نفسه. انتهز الفتى الحالة التي سيطرت على أعضاء اللجنة، وبدأ يقرأ "أولاد حارتنا"، بفصولها المائة وأربعة عشر كاملة، بلا توقف، وبصوت جهير، لا تخفَى طلاوته، يعرف متى يتوقف، ومتى يستعير أنفاسًا من رئتيه حتى لا يعيق تدفق السرد، وبرع في تلوين صوته بلون كل شخصية من شخصيات الرواية بدءًا بـ "الجبلاوي" ومرورًا بابنه العاصي "إدريس"، وخليفته "أدهم"، وزوجته التي زينت له ولوج الغرفة التي كان الجبلاوي قد منع عليهما دخولها في قصره المنيف، وغيرها من الشخصيات والأحداث. عندما انتهى، كانت عيناه تفيضان بدموع لا تسيل، وأغشى على أعضاء اللجنة، ليس من التعب، كما ظنوا، خاصة وأن هذه القراءة استغرقت يوما كاملا، وامتدت إلى منتصف الليل، إنما، تأثرًا بصوت الفتى، وبالنص، ولم ينتبهوا إلى توقف جهاز التسجيل، الذي استثمروه في تسجيل كل كلمة نطق بها المتسابقون في ذلك اليوم.

مر الفتى من أمامهم، فلم يبصروه، وخرج، وهو يرسم ابتسامة ساخرة، ظلت عالقة بأذهانهم جميعًا لفترة طويلة جدًا، كأنهم رأوها في حلم من أحلام نومهم العميق.

عندما استيقظوا كان الاثنان، قد اختفيا من المكان، ولم يبق لأي منهما أثر، سوى "تي شيرت" أبيض تزينه صورة ملونة متقنة من إحدى اللوحات

التي صورت "كليوباترا" عارية على فراشها بعد وفاتها، بجسدها القمري الفاتن ونهديها الكاعبين، بينما جثت بجوار الفراش؛ جاريتها التي بدت متمزقة بالألم والحسرة.

3

تطورت الأحداث، وأصبحت قضية كتب محفوظ حديث الساعة، خاصة بعد أن نشبت مشادات عنيفة بين المسئولين عن "لجنة أعمال نجيب محفوظ"، والمشرفين على مسابقة حفظ أعماله. كانت مفاجأة اختفاء المتسابِقيْن البارعَيْن قد ألجمت الجميع. فقد استطاعا بأدائهما غير المسبوق وذاكرتيهما النابغتين، أن يقدما حلولاً بدت لأعضاء اللجنة أشبه بمعجزة خصوصًا أن الحكومة مارست ضغوطًا على اللجنة وأمهلتها مدة لا تزيد على شهر واحد لحل القضية بأي شكل.

أما المؤسسة الاقتصادية الحكومية فقد رفضت، بإصرار، كل محاولات الدول الغربية للمساعدة وبينها اقتراحات قدمتها دول كبرى، ومجموعات بحثية وأكاديمية دولية للمساهمة في حل هذه الأزمة.

بل صدر بيان رسمي أكد فيه مسئولون أن الأزمة هي من الشئون

الداخلية التي لا ينبغي أن يتدخل فيها أي طرف خارجي، وأن الدولة لديها الإمكانات والكفاءات اللازمة للوقوف على سر هذا اللغز، وكشف كل الأطراف التي تقف خلفه، وأسهمت في تخطيطه وتنفيذه على السواء.

في صباح أحد هذه الأيام العصيبة فوجئ رئيس لجنة المسابقة باتصال هاتفي مبكر في منزله، وأتاه صوت المتصل بتحية صباح ودود، وبالرغم من أن الرجل كان قد استيقظ لتوه على رنين الهاتف، لكنه استطاع، بعد لحظات، إدراك أن الصوت يخص المتسابق صاحب العينين الرماديتين، والرأس الملساء بلا شعر، الذي ألقى أمام اللجنة عددًا من فصول "الحرافيش".

"أهلاً وسهلاً إنت اختفيت فين"؟ "أنا باتصل عشان أسأل على النتيجة". "ده سؤال برضه"؟ "يعني أنا كسبت معاكم؟ ولاّ فيه حد تاني". "لا طبعًا، حضرتك كسبت معانا، بس يمكن نقسم المكافأة بينك وبين زميلك لو ظهر هو كمان". "آه.. تقسموا المكافأة". "يعني، ده لو ظهر زميلك". "بس إنتوا ما قولتوش إن الجائزة ممكن تتقسم". "معاك حق، لكن إحنا اتفاجئنا إن فيه اتنين عندهم موهبة كبيرة في حفظ أعمال محفوظ". "عمومًا أنا كنت متصل عشان أقول إن قيمة الجائزة مش مناسبة لي، وأنا معتذر". "لا لا معتذر إزاي بس؟ حضرتك عارف الشروط وقيمة الجايزة من الأول، وتقدمت على هذا الأساس". "صحيح، لكن اكتشفت إني غلطان، وباتصل دلوقت عشان أعتذر، وأقول لك إني منسحب". "أنا رأيي الكلام ده ما ينفعش كده على التليفون، ممكن تشرفني في مكتبي

أي وقت ونناقش الموضوع بهدوء". "ما فيش مشكلة، ممكن أقابلك بعد ساعة مثلاً"؟ "طبعًا طبعًا.. أنا في انتظارك".

بعد انتهاء المقابلة التي تمت في مكتب المسئول بهيئة المخطوطات، بصفته مسئولاً عن لجنة مسابقة حفظ أعمال محفوظ، بدا الرجل في حالة مزرية. وجهه المغضن الملتحم بدا محمرًا بشكل مدهش. ولفرط غيظه لم ينتبه أن شعر رأسه؛ الذي عادة ما يهتم بتصفيفه بعناية بالغة، قد انتصب بشكل مريب. أما السبب فيعود للمناقشة الحادة التي دارت بينه وبين الفتى المتسابق النابغة في حفظ أعمال محفوظ، والذي فاجأ مدير اللجنة بأنه لن يتعاون معها إلا إذا تسلم شيكًا بمبلغ عشرين مليون جنيه مصري. لم يصدق الرجل أن بإمكان ذلك الشاب اليافع أن يطلب مبلغًا كهذا. اعتبره مبلغًا مغاليًا فيه، ومستفزًا، مما تسبب في انتصاب شعر رأسه مباشرة، لكنه حاول أن يبدو رابط الجأش. بصعوبة بالغة رسم ابتسامة صفراء، وهو يقول للفتى: "معقولة المبلغ اللي حضرتك طالبه ده؟ دي اللجنة المسئولة عن الموضوع كله عندها ميزانية أقل من كده بكتير". "النتيجة اللي اللجنة عاوزة توصل لها هي كتابة أعمال محفوظ، وأنا هاوفر لكم الموضوع ده ببساطة، وبكده الميزانية الموضوعة هتحقق الهدف".

تباينت مشاعر الرجل وراوده هاجس قوي بأن هذا الشاب طرف في تنظيم عصابي، أو أنه أداة تحركها عصابة يترأسها عقل مدبر يحرك الخيوط من خلف ستار.

تأمل ملامح الفتى بنوع من التمعن، لكن الطفولية التي وسمت

ملامحه، والبراءة المطلة من عينيه، جعلتا الرجل يبتسم ساخرًا مما اعتبره سذاجة، وسوء تقدير لذكائه هو شخصيًا. بحسه الانتهازي، كان آخر ما يمكن أن يفكر فيه هو الاستجابة لأي من مطالبه هكذا ببساطة. كما أنه في أعماقه كان يرى في العرض الذي يطلبه نوعًا من السفه، والأهم من هذا كله أن الموضوع بالطريقة التي طُرح بها بدا ليًّا لذراعه شخصيًا، وللجنة المسابقة، وللمؤسسة الثقافية وللحكومة معًا. ولأن العرف السائد يقول إن أحدًا أيًا كان لا يستطيع أن يلوي ذراع الحكومة، فقد بدأ الرجل يسرِّب حالة من الاستخفاف بالشاب.

تداعت الأفكار على عقل مدير اللجنة. استحسن بعضها واستبعد بعضًا آخر. لكنه شعر بنوع من الرضا التام عن فكرة الاستعانة بالشرطة، فبإمكانها عندئذ تكليف رجالها بالبحث عن ذلك الشاب، واتهامه بمحاولة ابتزاز اللجنة. وباعتقاله يمكن أن تنتزع منه نصوص محفوظ بالقوة. ومجانًا أيضًا. تغيرت مشاعر مدير اللجنة، وابتسم لذلك الخاطر، لكن ذلك لم يساعد شعر رأسه المنتصب على الارتخاء. انتابته رغبة مباغتة، في تناول كأس من زجاجة الويسكي من الدولاب المجاور للمكتبة الضخمة التي تواجه مكتبه، لكنه، سمع طرقات خفيفة على الباب. قبل أن يجيب وجد سكرتيرته الحسناء الشقراء تقف أمامه، لكنها، دون أن تنطق بأي حرف، خرجت بسرعة، وأغلقت الباب خلفها. ثم تناهى إلى سمعه صوت ضحكة هستيرية، يبدو أن عدواها انتقلت من السكرتيرة إلى موظفي المكتب، ومنه إلى المكاتب المجاورة.

تحول الأمر إلى مأساة، عندما خرج الرجل، فأثار انتصاب شعر رأسه،

موجات تالية من الضحك، انتهت بمجموعة من أكثر قرارات الخصم والإقالة التي عرفتها مؤسسة المخطوطات في تاريخها.

4

نجا "كبرياء" من "مذبحة الإقالات والخصومات" بأعجوبة، لأنه ببساطة لم يحضر في ذلك اليوم إلى مؤسسة المخطوطات، إذ كان قد اتصل وطلب إجازة مرضية.

لكنه لم يكن مريضًا في الواقع، وإنما كان نائمًا بجوار "نجوى"، عاريًا كما ولد وكذلك هي. نظر إليها فوجدها غافية. تأمل ملامحها الراضية بالنشوة فابتهج، واستعاد الليلة الماضية بسعادة. كانت تلك محاولتهما السابعة للتواصل الجسدي. لكنها، على عكس المرات التي سبقتها، تكللت بالنشوة الجسدية التي لفتهما معًا، وانتهت بهما عاريين، لاهثين، متعرقين؛ ما دعاهما للنوم باستغراق لم يتوافر لأي منهما قبلاً. نامت نجوى على كتف كبرياء وغفت باطمئنان. التصق جسداهما طوال الليل، وحتى الصباح.

على امتداد المرات الست السابقة، كانا ينامان وهما متخوفان من بعضهما البعض، يلتصقان فلا يزدادان إلا نأيا. يتعريان، ولا يشعر أي منهما بجسد الآخر. كان كبرياء يُقبل جسدها بحنو، لكن شفتيه تتفاجآن ببرودة الجسد الغض الطيع. يطلب منها أن تسترخي فتخبره أنها تحاول، لكنها لا تستطيع. يمسد جسدها بحنان، فتستسلم له بوداعة، لكنهما يشعران بثقل روحيهما، وبالتوتر الذي يكبح جماح رغبتهما معًا، فيصمتان، ويفتعلان الرغبة في النوم حتى يغفوا. ستة أسابيع كاملة سار فيها الأمر على هذا النحو. كان على كبرياء أن يخترق، مرة بعد أخرى، الأطياف الستة التي كانت تحيط بجسدها وتمنعها من حرية تواصلها معه. أطياف شكلتها، بمرور الزمن؛ عُقد التربية المتزمتة التي أنشأتها أمها عليها، ومتاعب قلة الخبرة، وانعدام الإحساس بجسدها، وتابوهات المحيط الاجتماعي التي ملأت وعيها بالممنوعات والمحظورات رغم كل مظاهر تحررها.

أدرك كبرياء أن عليه أن يجد وسيلة لتجاوز أطياف إحساسها بتأنيب الضمير، الذي تراكم لديها، يومًا بعد آخر، بسبب هروبها من البيت، كما هو الوصف الحرفي لما قامت به، ومن سيطرة أمها، كما كان مبررها الشخصي غير المعلن. إضافة إلى وخزات ضميرها التي كانت تحاول وأدها كلما ذكّرتها بأن انتقالها للعيش مع كبرياء، يجعل من علاقتهما، كما يوصّفها المجتمع، علاقة "زَفَق". أما آخر ما أصابها بالقلق الذي كانت تقاومه وتكبحه بكل قوتها فتمثل في مونولوج خفي، لا يسمعه سواها؛ بصوت أبيها قادمًا من عمق أعماقها؛ يؤنبها على تهتكها، وعلى ما تفعله بأمها وبنفسها. بالإضافة إلى سر من أخص أسرارها، قررت أن تدفنه

في أعماقها، حتى تتجاوز علاقتها تلك وتتمكن من الإحساس بكبرياء جسديًا.

لم تر نجوى شيئًا من هذا. لكني أعرف جيدًا أن كبرياء في حربه مع الأطياف الستة التي أحاطت بنجوى. امتطى جواده، وركض به يخب ضباب الأطياف، يمسك سيفًا من نور، ودرعًا من المطاط يصد به رماح مشاعرها السلبية التي كانت تسددها نحوه، بوعيها المريض، الذي كان يجعلها تعيش في مرحلة وسط بين الحب والكراهية، ثم في منطقة أخرى بين الحب والريبة، ثم في مرحلة ثالثة من المرض النفسي والجنون، كانت تنثر كبرياء برذاذها، فتؤذي قلبه.

لكنه بشعور غامض من أنها تُكنُّ له حبًا عميقًا يتراكم تحت طبقات السواد تلك، ألجم فرسه الوهمي من الارتداد، ووجهه إلى الأمام متقدمًا بسيفه إلى قلبها، بيقين أنها مثل المريض، الذي يتقلب في الحمى حتى يأتي الممرض فيكوي بالنار مكمن المرض. كان يعرف أن قلبها – رغم الأدران التي خلفها الآخرون – ليس سوى جوهرة ماسية، لا تحتاج إلا لضربة سياف ماهر، يبتر بها الأقذار ليعود للماسة بريقها اللامع. مع الضربة السابعة والأخيرة، وبعد مرور سبعة أسابيع على بدء حياتهما المشتركة، شعرت نجوى بأنها تمتلك جسدها لأول مرة.

إحساس لم يسبق لها أن شعرت به على الإطلاق، لا حين كانت تتعرى في الحمام قبل أن تبدأ طقوس الاستحمام، أو حين تقف أمام مرآتها

تستعرض مكامن جمال جسدها الفارع، وحسن تكوين منطقة التقاء الكتفين بالصدر، وتثنِّيات الجسد الغض عند الخصر، والأرداف.

صحيح أنها كثيرًا ما تأملت جسدها بنوع من الافتتان النرجسي، لكنها، في الوقت نفسه كانت تخشاه. كأنه مسئولية لا تتحملها بمفردها، إنما تشاركها فيه أمها، والرجال الذين يتسابقون لخدش حيائها في الطريق. كما تشاركها فيه؛ صديقاتها المتحفظات في المدرسة والجامعة؛ بل وحتى زملاؤها في البنك الذين يتوددون إليها دون أن يتمكنوا من إخفاء نهم عيونهم للتحديق في جسدها. وبالرغم من صداقتها لفتاتين متحررتين حرفيًا، لم تستطع التآلف مع جسدها مثلهما.

حتى عندما قررت أن تتعرى لكبرياء بعد مرور ستة أشهر على علاقتهما. كانت تشعر بالألفة التي تسمح لها بالقيام بهذا الفعل. لكنها لم تكن تشعر بالحرية الكاملة في أن يرى جسدها رغم إلحاحه ورقة حديثه، وتأكيد مشاعره لها بلا كلل.

في المرة الأولى التي اصطحبها فيها "كبرياء" إلى المنزل ترددت كثيرًا. لكنها تجولت في البيت بحرية. بمعنى آخر: شعرت براحة كاملة لم تكن تشعر بها إلا في غرفتها بعد أن تغلق الباب، وتخلع ثيابها وتتحرك بملابسها الداخلية بكل حرية، وهذا ما جعلها بعد مرور وقت قصير وكانت قد تعرفت إليه قبل ستة أشهر من زيارتها بيته لأول مرة، تقرر أن تتعرى له. تخلع ثيابها بحذر وتردد، بينما يجلس هو على الكرسي يتأملها مبتسمًا، مخفيًا ترقبه، وتأجج شهوته المتحفزة باستباق المخيلة أن ترى ما لا تراه العين. لكنها، في هذه المرة التي مثلت مقدمة المواجهة الجنسية السابعة

بينهما، استلقت على فراش "كبرياء" عارية تمامًا، تحت الأغطية الحمراء، بينما تكومت ثيابها بجوار السرير، وانتظرت، بلهفة كامنة خروجه من الحمام. لم يكن لديها تفسير واضح لهذا التحول المباغت في مشاعرها. ولم تكن تفهم معنى اختفاء أطياف القيود التي حاصرت جسدها وعقلها وحواسها على مدى العامين اللذين فعلت فيهما كل ما يمكن أن تُنَفِّر به "كبرياء"، مع رغبة عميقة بألا يتركها في النهاية، ورغم تناقض الفكرة لم تستطع التوقف، لا عن حبه، ولا عن تعذيبه معنويًا وعاطفيًا.

في تلك الليلة نسيت كل تناقضاتها ولم تع شيئًا عن صراع كبرياء مع الأطياف الستة التي قيدت جسدها وكبحت لجامه. لا تستولي عليها سوى فكرة واحدة هي: أن جسدها يضج برغبة عميقة. كانت تسمع صوته ينادي جسد "كبرياء". كان فحيح الشهوة يتلوى في مهبلها، بينما تداعب بأناملها فخذها وبطنها، ثم تتأكد من نعومة عانتها، وخلوها التام من شعرها البني الداكن.

في الصباح، أبعد فخذه الملتصق بفخذها، وتأمل وجهها المحتقن من أثر النوم، وأودع على خدها قبلة. فكر أن ينهض ليبدأ يومه، لكنه استدار واحتضنها بحنو بالغ، بينما هي تغط في نوم عميق.

5

بمجرد أن دلفتْ شقة كبرياء، لأول مرة، فاجأتها رائحة دخان السجائر التي تعشش في أرجاء البيت. انتثرت القمصان على الأريكة الحمراء في المدخل، بينما تحول "الموكيت" ذو اللون الطوبي إلى ساحة فوضوية لأحذيته وجواربه، فيما تناثرت الأكواب وزجاجات المياه الفارغة على مائدة الطعام المستديرة الصغيرة، والمنضدة الجانبية للكرسيين الموضوعين في أول الممر المؤدي لغرفتي النوم. أبدت انزعاجًا مصطنعًا، وهو ما جعل "كبرياء" يتحرك في البيت مثل "روبوت"آلي اختلت برمجته، فراح يتخبط؛ يلتقط قمصانه وجواربه من هنا وهناك، ويرتطم في المقاعد وهو يتناول الأكواب التي تحجرت فيها بقايا القهوة أو الشاي.

فتح نوافذ البيت للتهوية، وأسرع إلى الحمام. توقفت هي في الصالة تتأمل جدران البيت المغطاة بورق حائط طوبي مزركش بنقوش ذهبية

رقيقة، وتناهت إليها من صوب الحمام، أصوات الارتطامات العصبية التي تحدثها هرولة "كبرياء". ابتسمت بمكر، وكعادتها، قررت أن تثير ارتباكه باستهجانها للفوضى التي يعيش فيها. تناهى إليها صوت الأسطوانة التي أدارها من غرفته، وتسلل بعدها صوت لوي آرمسترونغ. قالت له: " تحب الجاز؟". أومأ لها مبتسمًا.

دخلت الغرفة، وتأملتها بهدوء. الفراش الصغير مغطى بملاءة لونها طوبي والمخدات بنفس اللون، والموكيت على الأرض باللون النبيتي. لوحة معلقة على الحائط عبارة عن بقع حمراء فاقعة اللون في تشكيل عشوائي. دولاب صغير على امتداد الفراش، ومكتب يجاور مدخل الغرفة تتناثر عليه أقلام الخط، بأشكال عديدة وبأسنان مختلفة، وزجاجات أحبار وألوان وبعض أفراخ الورق المعالجة بطبقة لونية بين البني الفاتح والأصفر، وقطع قطنية ملونة بألوان مختلفة. بينما رائحة الغرفة مزيج من رائحة عطرية عتيقة وعبق التبغ.

أخبرها أنه اضطر لنقل المكتب إلى غرفة النوم لأن كهرباء الغرفة المجاورة أصابها عطب مفاجئ، وإزاء تعجله لإنهاء عدد من اللوحات، كان عليه نقل المكتب لغرفة النوم لأن إضاءتها قوية. نظرت إلى صورة كبيرة معلقة على الجدار الذي يعلو المكتب، يغطيها لوح من الزجاج؛ كبرواز حديث التصميم بلا أطر خشبية. الصورة لرجل في عقده الخامس، يغزو المشيب شعر رأسه ولحيته. عيناه السوداوان مكحلتان، ويرتدي رداء مغربيًا تقليديًا.

"من هذا"؟ "لا أعرف. أعجبتني الصورة فاشتريتها".

صحيح أنه لم يكن يعرف صاحب الصورة، لكنه كان يتعامل مع المسألة بشكل عصابي. فهو لم يتوقف ألبتة عن محاولة خلق صورة لأبيه في خياله. لهذا كان يزور ستديوهات التصوير، ومحال الأنتيكات القديمة، ليفتش بين معروضاتها، على لوحات بورتريه لشخصيات لا يعرف حقيقتها أحد. بدأ بمنطقة وسط البلد، وتفقد محال الأنتيكات المتناثرة بها. ثم انتقل إلى منطقة مصر الجديدة بناء على نصيحة بعض الأصدقاء، ومنها عاد إلى حي الزمالك، وأخيرًا بدء جولات موسعة في منطقة تنتشر بها محال الأثاث المستعمل والأنتيكات في شارع بورسعيد. وفي إحدى المرات، وقعت عيناه على هذه الصورة فتعلق بها من اللحظة الأولى، واستجاب بلا تردد لشعور داخلي دفين دفعه لشراء "صورة الأب" . منحته الصورة نوعًا من الأمان الافتراضي، مؤكدًا لنفسه، إمكانية بناء وجود افتراضي لأبيه.
تأملتْ نجوى الأسطوانات الموضوعة على منضدة تجاور المكتب: "مايلز دافيز"، "تينا بروك"، "تشارلي باركر"، "كونت باسي"، "نوراه جونز"، "كيني جي".

"ألا تسمع شيئًا سوى الجاز"؟ "بلى، أسمع بوب مارلي، فرانك سيناترا، وبعض أغنيات سير إلتون جون، أسمع أيضًا قليلاً من "الآر آند بي"، وأحب الكلاسيك". قبل أن تعقب بشيء اتجه صوب الجهاز وقام بتشغيل اسطوانة أخرى وبمجرد انبعاث الصوت هتفت"جيمس موودي – I'm In a Mood For Love "فرفع لها إبهامه سعيدًا بمعرفتها للأغنية التي كانت تتربع على قوائم أغنياته المفضلة، لكنه أوضح لها أن هذه القطعة من عزف "كيني جي" وليس "جيمس موودي".

مع ذلك، ورغم المصادفات التي جمعت مشتركات قد لا يصادفها الكثيرون بسهولة، فقد كانت تبحث عن علامة أخرى تجعلها تشعر بأنها بالفعل تحب "كبرياء".

وها هي في غرفة نومه، تتأمل أخص خصوصياته، وتكتشف مناطق تقارب أخرى تجمعهما معًا، ومع ذلك تساورها الشكوك. صحيح أنه يبدو شخصًا يمكن الوثوق به. مرح. وابن ناس كما كانت تصفه لصديقتيها "هديل" و"فاطيما"، وموهوب أيضًا، لكنه لم يكن يشبه فتى أحلامها "أحمد شكري" كما رسمته مخيلتها. فكيف يبدو أحمد شكري وما أوجه الاختلاف بينه وبين كبرياء؟

6

لم تكن أي من "هديل" و"فاطيما" من الفضوليات، ولا من الباحثات عن النمائم، لكنهما كانتا عليمتين بكثير من شئون "نجوى"، وأهمها كل المواصفات الخاصة بشخصية "أحمد شكري". حدث ذلك بحكم صداقة بدأت على مقاعد دراسة بالمدرسة الأجنبية التي التحقن بها منذ طفولتهن، ودعمتها مشتركات الثقافة الإنجلوفونية التي اكتسبنها على امتداد السنوات، بقراءة آداب العالم بالإنجليزية، وسماع الموسيقى والأغنيات الغربية، الكلاسيكية، والرومانسية، و"الجاز"، وموسيقى "الريجي" و"الديسكو" التي كانت صرعة السبعينيات، ثم موسيقى "البوب" والـ "هارد روك" في الثمانينيات ، وصولاً لـ"الراب" والـ "آر أند بي" في التسعينات، التي شهدت تخرجهن من الجامعة الأمريكية.

ما زلن يذكرن المرة التي قررت فيها نجوى أن تحكي لهن عن قصة "أحمد شكري".

فمن بين الصور التي تحتفظ بها كل من "نجوى" و"هديل" و"فاطيما"، تمتلك كل منهن نسخة من صورة تجمعهن معا، حين كن في السنة الأولى بالجامعة، في رحلة إلى العين السخنة، يرتدين البيكيني، ويجلسن متجاورات على حمام السباحة وهن يدلين أقدامهن في الماء. أما الذي قام بتصويريهن فهو صديقهن السوداني سعيد، وهو في الوقت نفسه الصديق المقرب من فاطيما. في الصورة كانت فاطيما تجلس بين نجوى وهديل. الأولى على يمينها، وإلى يسارها هديل تضع يدها على فخذ صديقتها السمراء. بينما المياه التي اكتسبت لون بلاطات "البيسين" الزرقاء تلتمع بضوء الشمس أمامهن. فاطيما نموذج للسمار الساخن. تتمتع بمواصفة جسدية فاتنة تتعلق بنهديها، فهما في حجم قبضة يد متوسطة، لكنهما لا يتهدلان ولا بمقدار ملليمتر واحد. ورغم سمرة بشرتها فإن حلمتيها صغيرتان وغير داكنتين مقارنة بلون البشرة. فأبوها سوداني وأمها بولندية، لكنها أخذت من أبيها لون بشرته، ومن أمها ملامح الوجه المنمقة الدقيقة.

أما هديل، فهي بيضاء بياضًا شاهقًا. شعرها ذو لون أحمر شديد التموج. جسدها اللين البض يتسم بثنياته وانحناءاته العديدة نظرًا لأنها كانت طفلة مغرمة بالأكل. امتلأ جسدها وترهل، وظلت تعاني من السمنة على امتداد طفولتها وصباها. لكنها في هذه الصورة كانت قد دخلت نادي الرشيقات، ومع ذلك فكانت تحتفظ بتهدل بطنها، وترهل كتفيها نسبيا. يتميز وجهها بشفتين واسعتين، ولو ابتسمت فسرعان ما تلتمع أسلاك تقويم الأسنان التي وضعتها بفمها على مدى سنوات لكي تخفف من بروز الجزء الأمامي العلوي من فكها. في أقصى يسار كادر الصورة

جلست نجوى بجوار صديقتيها، ترتدي مايوه "بيكيني" أصفر، ويبدو جليًا أنها ليست في رشاقة فاطيما، ولا سمنة هديل. بشرتها وسط بين سمرة الأولى وبياض الثانية. كما أن نهديها لم يكونا كاعبين مثل نهدي الأولى ولا مترهلين مثل الثانية، لكنهما متماسكان بارزان مدملجان كما هي أغلب أجزاء جسدها. ووجهها عريض عند الخدين بشكل يذكر الجميع بليلى علوي. لكن عينيها سوداوان، أما شعرها البني الطويل فيبدو منفوشًا حول وجهها أغلب الوقت، لكنه في الصورة كان مبتلاً، ملمومًا ومعقوصًا خلف ظهرها.

في ذلك اليوم، وفي أثناء جلستهن تلك، بدأ حوارهن من علاقة فاطيما بسعيد. نفت بشكل قاطع أن ما بينها وبين سعيد يتجاوز حدود الصداقة الحميمة. ثم تشعب الحديث من سعيد إلى سهيل: الذي التقته في إجازة صيفية بلندن، وفقدت معه عذورتها. ومنه إلى تيمور الذي عاشت معه قصة حب طويلة قبل سهيل، وتركته لأنه كان رومانسيًا أكثر مما تحتمل. ثم رائد وعادل. فقد كانت فاطيما سريعة الوقوع في الحب بقدر سرعة إصابتها بالملل. على عكس "هديل" التي كانت قد أحبت "رؤوف"، وهو فتى كانت تعرفت إليه من النادي ووقعت في غرامه، وفقدت عذريتها معه، واستمرت علاقتهما بعدها، وامتدت حتى بعد مرحلة الدراسة الجامعية، أما نجوى، في تلك الفترة، فكانت تعاني آلامًا لا تطاق مصدومة بفجيعة موت عشيقها الشاب الذي راح ضحية المخدرات. وفي نفس ذلك اليوم قررت أن تعترف لهما أن الفتى الذي كانت تحكي لهما عنه باستمرار، ليس سوى شخصية من خيالها. وصرخت الفتاتان معًا:

"إيه؟ أمال مين أحمد شكري ده"؟، وأضافت فاطيما "اللي طلعت بيه ميتين أبونا"؟

الآن هي لا تجد شيئًا يشترك فيه "كبرياء" مع "أحمد". كبرياء مربع الوجه، أسمر، صاحب ملامح حادة، وحاجبين غليظين، له شارب كثيف. باختصار؛ ملامحه نقيض ملامح "أحمد شكري" كما تصورتها.

ربما أنه يتميز على فتاها الافتراضي، ذاك، بموهبته الرفيعة في الخط. عندما يتحدث عن الخط يتحول إلى شخص آخر، يبدو كمن يتلقى الوحي. تنحل عقدة لسانه فيستفيض بالحديث واصفًا روائع الخطوط الكوفية، والتركية التي تألقت على جدران آثار مصر المملوكية. وعن كبار الخطاطين الأتراك والمصريين والعراقيين والشوام. يحكي لها عن الفروق بين خط الثُلُث وتشكيلاته البديعة في الطغراء، وعن الإضافات التي أضافها المبدعون الكبار بعد دخول التنقيط للحروف العربية . أهداها، ذات مرة، لوحة خط، ليعبر لها عن إعجابه بجسدها، واختار لها خط الثُلُث، والأحبار الحمراء؛ مشكلاً بها ما يعرف بـ "تشكيل الكمثرى المعكوس"، وعلى ورق معالج ليبدو قريبًا من البرديات المصرية العتيقة؛ شكّل تكوينًا خطيًا، لينًا ورهيفًا، مستوحيًا جملة: "صنم للفتنة منتصب، أهواه ولا أتعبده". لم تكن تعرف أن صاحب هذا البيت الشعري هو "الحصري القيرواني"، ولم يكن يعنيها ذلك، فقد جاشت مشاعرها، ولم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء استحسانًا، وامتنانًا.

لكن بعد عودتها إلى غرفة نومها ليلاً، ودخولها الفراش في الغرفة المظلمة، كانت صورة "أحمد"، تبرق في مخيلتها فجأة. كانت تلك الحالة الغريبة هي التي جعلتها تتقلب على فراش التردد، والشكوك، والتراوح بين حالات متناقضة من القرب والنأي من "كبرياء". فإذا أضفنا لذلك عقدها النفسية وتجربتيها السيئتين، لعلمنا أي عذاب كانا يعيشانه في علاقتهما الغريبة تلك. كانت مرحلة التعري – التي بدأتها نجوى لتتأكد من مشاعرها – بمثابة الخطوة الأولى في هذه العلاقة لتقودها إلى مصيرها المحتوم. وها هما قد أغفيا متجاورين منتشيين نشوة جسدية وروحية عميقة إثر ليلة حب لن يستطيع أي منهما أن ينسى أي لحظة مرت خلالها، وستظل تلاحقهما حتى النهاية!

7

انتشرت شائعة إلقاء القبض على "محتال يزعم معرفته بنصوص نجيب محفوظ" بوصف وسائل الإعلام، وسرعان ما ساد غضب جارف لدى قطاع كبير من الجمهور. خشي المثقفون أن يتعرض رجل يحفظ نصوص محفوظ للتعذيب على أيدي المخبرين، وزبانية التعذيب، الأمر الذي اعتبره الجميع إهانة لا تغتفر للثقافة المصرية ولشخص نجيب محفوظ، ولمكانة الثقافة المصرية كلها.

كان ذلك المعتقل هو الشاب الوسيم، حليق الرأس، الذي طلب مبلغ العشرين مليون من رئيس لجنة مسابقة حفظ أعمال محفوظ. ونقل شهود العيان للصحافة أن الفتى منذ اعتقاله وحتى وصوله إلى المبنى الأمني الذي احتجز به،بدا هادئًا بشكل لا يتناسب مع الموقف. وهو ما جعل الضباط المستفزين من أدائه، يتوقفون على حافة الانفجار؛ فقد كانت القضية متابعة

بدقة من أطراف وصفت بأنها رفيعة المستوى؛ مما جعل الأوامر المشددة بالتزام الحذر في التعامل مع أي طرف يتورط في القضية. ظلت الصحف وأجهزة الإعلام تعيش حالة من الانفجار الإعلامي الغاضب، و لم يكن المواطنون أقل انفعالاً، لكن ما أثار دهشتهم أن المؤسسات الرسمية بدت في تعاملها مع الموقف وكأنها تخشى من غضب الغاضبين، وبوعي بمعنى الحدث، وبالدور الحقيقي الذي لعبه محفوظ في الثقافة العربية، كما بدت وكأنها تهتم بمسألة تلهب غضب قطاع واسع من الجمهور لأول مرة.

لكن الدافع الرئيسي الذي لم ينتبه له هؤلاء الأفراد كان ذا صبغة دولية، لأن العالم كله كان يتابع الموضوع بشغف. بل إن أغلب دول أوروبا بدأت تفكر في إنشاء مراكز بحثية في أعمال نجيب محفوظ، وتخصص أقسامًا، في مكتباتها المركزية، لأعماله المترجمة لأي لغة من لغات العالم. وشاعت في أجواء الثقافة العالمية صرعة جديدة عنوانها الحفاظ على تراث محفوظ. وكان من اللافت للنظر أن هذه الندوات لم يدع إليها كاتب عربي واحد، أو ناقد متخصص في أعمال الرجل. وحفظا لماء الوجه قررت مجموعة من المثقفين المستقلين إنشاء لجنة أهلية موازية "لإحياء تراث نجيب محفوظ" وبدأت في توزيع اختصاصاتها، بين الدعوة لإنشاء أقسام متخصصة في أعمال محفوظ بأقسام دراسة الآداب في كل الجامعات المصرية، الحكومية والخاصة، وعمل أفلام تسجيلية للتعريف بأعماله وقيمته الأدبية. واقترح رئيس اللجنة أن يتم تشكيل لجنة تكون مهمتها مراقبة اللجنة الحكومية المسئولة عن

استعادة تراث نجيب محفوظ. الحكومة تتعرض للرقابة؟! لا بد أنكم فقدتم توازنكم وصوابكم، لا، الحكومة لم ولن تسمح لأحد بمراقبة أدائها، من جهة، هكذا ترددت الجملة في الاجتماع الأول لمؤسسي اللجنة الأهلية من أكثر من عضو، وأضاف آخرون أن هذه اللجنة قد تثير حفيظة مثقفين مؤيدين للمؤسسة الرسمية مما قد يجعلهم يكيدون للجنة الأهلية، ويعرقلون عملها بأي وسيلة. وهكذا لم تستطع اللجنة حسم هذا الاقتراح، وتم تأجيله لاجتماع لاحق.

بمجرد الإعلان عن اللجنة الأهلية بدأت القنوات المحلية الفضائية على الفور في بث تقارير إخبارية منقولة عن مديري قطاعات المؤسسة الثقافية، وتصريحات أكدوا فيها اقتراب الإعلان عن انتهاء أعمال اللجنة المشكلة لهذا الغرض. في اليوم التالي نشرت الصحف تقريرًا جاء فيه أن "رئيس اللجنة الأهلية أكد في تصريحات صحفية على عدد من السلبيات وَسَمت أداء اللجنة المشكلة من قبل المؤسسة الرسمية".

وعلى الفور، نشبت معركة إعلامية بين اللجنتين، أسهمت، تدريجيًا، في تحويل الانتباه، عن نجيب محفوظ وأعماله، إلى رئيس اللجنة الرسمية وأنصاره، من جهة، ورئيس اللجنة الأهلية وأعضائها من الكتّاب والمثقفين، من جهة أخرى. لكن المستجدات التي سادت الشارع جعلت الأنظار مرة أخرى تتحول عن حالة الاستقطاب العبثية التي كانت تبدو كمؤامرة بين الأطراف المعنية كلها للفت الأنظار بعيدًا عن القضية الأساسية، وهي استعادة تراث محفوظ المفقود.

8

تطورت الأحداث حين بثت شاشات الفضائيات لقطات لجماهير غفيرة توسطت الميدان الذي يضم تمثال نجيب محفوظ، بحي المهندسين. على الفور، تتابعت إلى موقع الحدث قوات الشرطة، وجنود الأمن المركزي، والعربات المصفحة، وقوات مكافحة الشغب، وفرق الكاراتيه، والمخبرون السريون، والبلطجية المدسوسون بين الجمهور، والدبابات، والسيارات الخاصة بنقل المسجونين. لم يكن في الميدان أكثر من ثلاثين رجلاً وامرأة من الأحياء الشعبية. تبين لاحقًا أنهم ينتمون لحي الجمالية الشعبي، الذي تناوله محفوظ في عدد كبير من أعماله. جاءوا جميعًا للتأكد من شائعة تناقلها بعض أهل الجمالية، وتقول إن عددًا ممن صادف مرورهم بجوار الميدان بعد انتصاف الليلة الماضية، سمعوا ضحكة مجلجلة تتردد في المكان، وسرعان ما تنبهوا لأنها الضحكة الشهيرة التي عرف بها نجيب محفوظ في حياته.

سمعوا بآذانهم صوت القهقهات المتوالية؛ حادة وحقيقية ومفعمة بالحياة. فركوا عيونهم جيدًا ليحدقوا بالتمثال فوجدوه جامدًا في مكانه. لكنهم سمعوا "الحقوا التمثال بيضحك"، كان ذلك الشخص واحدا من حرفيي الخزف في خان الخليلي، أثرت قوة الحدث على حواسه فتوهم ما رآه. كان صراخه كافيًا لكي يندفع الجميع معًا، ركضة رجل واحد، قبل أن يتفرقوا، إما صعودًا إلى مطلع "كوبري 15 مايو" القريب، أو صوب حي "العجوزة" من المنفذ القريب خلف المسرح القومي، هلعًا مما تصوروه، تأثرًا بعدوى هستيرية تنقلت بينهم بسرعة انتشار الوباء، أن شبح نجيب محفوظ يزور المكان، ويضحك ساخرًا من الكارثة التي أحاقت بأعماله.

أما الجمهور ممن تجمعوا في الميدان في الليلة اللاحقة، فأكدوا لرجال الشرطة أنهم جاءوا بأنفسهم للتأكد من الشائعات. وخوفًا من أي ردود فعل غير محمودة العواقب، خاصة أن المكان كان قد توافد إليه عدد من الصحفيين، والإعلاميين، وكاميرات القنوات الفضائية، المحلية والأجنبية، تلقى رجال الشرطة تعليمات صارمة بأن يتم صرف التجمهر بهدوء.

لكن الضحكة المجلجلة لنجيب محفوظ أصبحت الشغل الشاغل للجماهير جميعًا، وبدأ الكثير من أهل الجمالية وغيرها من أحياء القاهرة الشعبية، يرددون أن الرجل يمتلك روحًا شفافة، وأن روحه عادت لتحوم وتطوف في أرجاء القاهرة، تحسرًا على ضياع أعماله التي استغرق في كتابتها عمره الطويل كله. وأضفى البعض نوعًا من الصفات الخارقة على الرجل وكأنه ولي من أولياء الله. وانتقل الاهتمام بالموضوع من جانبه

الموضوعي الخاص بقيمة أعمال الرجل، وأهمية هذه الأعمال، وبمدلول الحدث كفضيحة ثقافية، لينعطف (الاهتمام) على مستوى تال لا يخلو من العاطفية، ومن حزن رجل الشارع العادي على ما أسموه تبديدًا "لشقى عمر الرجل الذي ائتمن البلد عليه".

عندما تتردد جملة كهذه أمام إحدى السيدات في أي منطقة من مناطق القاهرة الشعبية، أو في أرجاء مصر، فإنها تمصمص شفتيها شفقة، وتترقرق الدموع في عينيها حزنا على شقى الرجل الذي ضاع دون أن تهتم بمعرفة طبيعة هذا الشقاء وما أنتجه.

استفاد المثقفون من هذا الموقف لأن الجانب العاطفي للجماهير بدأ بعد أن انتقل الموضوع من جانبه العام، إلى المستوى الشخصي الذي فجرته شائعة ضحكة محفوظ. وسرعان ما تم إذكاء نار الشائعة من جديد، احتشد عدد غفير قدره البعض بالآلاف، على امتداد الميدان وصولاً لشارعي أحمد عرابي، وجامعة الدول العربية؛ ووقفوا جميعًا في هدوء تام. التزموا الصمت، لكنهم حملوا عددًا من اللافتات التي حملت كلها اسم محفوظ.

نصبت كردونات من الجنود المدججين بالعصي والمصدات، في صفوف دارت حول محيط الميدان بحيث تطوق الجمهور الغفير، وتحدد حركته في حالة شروعه بأي حركة مفاجئة، وتجنبًا لأية حركة انفعالية من قادة الجمهور تؤدي إلى بدء مسيرة، قد لا يكون من السهل السيطرة عليها حال تحركها. ساد الميدان صمت كامل، لأن الجمهور كان قد قرر، ببساطة، أن يقف بجوار محفوظ، تضامنا مع ضياع شقاه، أملاً منهم أن

يمنحوا روحه التي تطوف في الأرجاء نوعًا من الطمأنينة. وليؤكدوا له أن ما قد يظنه تبدد، ما زال له أثر في أعماق البعض. المدهش أن رجال الشرطة أعطوا تعليماتهم لحشود العسكر بالتزام الصمت أيضًا، فبدا المشهد لأول مرة، وكأن الطرفين معا، يقفان في خندق واحد، ويتضامنان معًا على رجل واحد، وتراث واحد. واستمر المشهد على هذا النحو طيلة الليل وحتى الفجر، حين قرر الجمهور أن يفضوا وقفتهم التضامنية والعودة لديارهم.

9

في الليلة التي أعقبت أحداث ميدان سفنكس، كانت نجوى تعتلي فخذي كبرياء، مولية ظهرها له، على الأريكة التي تتوسط غرفة المعيشة. ارتدت ثوبًا أسود، عاري الأكتاف، ينحسر عن فخذيها، بينما كبرياء لا يرتدي سوى "شورت" قصير، يداعب فخذها بإحدى يديه بينما تلتف الأخرى حول خصرها، يحدق في شاشة التليفزيون، من خلف كتفها، ساهمًا، متحاشيًا خصلات شعرها المتهدل، يتابع الأحداث التي وقعت الليلة الماضية، متنقلاً بين القنوات الإخبارية، شرقًا وغربًا.

تتسلل رائحة جسدها إلى أنفه. عبق مثير ألفه، وأطلق عليه "عطر الرغبة"، مزيج من رائحة لا مثيل لها؛ أقرب لخليط يجمع رائحة المني بالعرق بمياه البحر. كأنها ليست عبقًا وإنما كعطر له قوام، بحيث لا يكون بالإمكان شمها إلا بالاقتراب الكامل، والالتصاق ببشرتها، واستنشاق

العبق الجسدي بتأنٍ، وعندها يدرك أن رغبتها الجنسية في أوجها، وأنها أعطت للمخ الإشارات اللازمة لإفراز "عطر الرغبة". قبّلها على كتفها، فابتسمت له بدلال، وهي تداعب شعر رأسه. سألها"هل تحبين محفوظ"؟ " لم أعرفه إلا في الجامعة، قرأت الثلاثية وأعجبتني كثيرا. قرأتها أولاً بالإنجليزية، ثم عدت وقرأتها بالعربية". "لماذا بالإنجليزية"؟ "تعرف أنني اعتدت قراءة الأدب بلغته الأصلية، فلم أقرأ بالعربية إلا بعد دخولي الجامعة، رغبة في التعرف على أعمال بعض الكتاب الذين فاتتني قراءتهم، لكني وجدت ترجمة للثلاثية فقررت قراءتها بالإنجليزية أولاً، وما زلت حتى الآن أذكر طقوس قراءتها، أذكر أن قوة التصوير جعلتني أتخيل كل شيء كأنه يحدث أمامي، حتى روائح الخبيز وتلك السيدة العجوز التي كانت تساعد أمينة في البيت، أذكر أيضًا أنني بكيت بجنون على موت فهمي، ثم بكيت أكثر عندما كان محفوظ يصف مشاعر السيد أحمد عبد الجواد حزنًا على موت ابنه ". "وماذا عن الحرافيش؟ هل قرءتيها"؟ "لا، هل كانت تعجبك"؟ "هذه رواية فذة، أظنها واحدة من أهم أعماله، قرأتها أكثر من مرة، وفي كل مرة أفهمها بشكل مختلف"."حقًا؟ كيف". لم يقل لها أن انجذابه المبدئي لتلك الرواية لا يعود لأسباب فنية وذوق أدبي فقط، وإنما لتماهيه مع شخصية عاشور الناجي، كلقيط. تغيرت ملامح وجهه، فتزحزحت من على فخذيه إلى جواره، وتربعت مسندة فخذها اليسرى العارية على فخذه.

"هذه رواية من تلك التي تقرأينها فتختلف حياتك عما كانت عليه قبل القراءة، وتلاحقك بعدها أصوات خفية مثل صوت الترانيم في التكية،

وأصوات الأبطال، وشهوات النساء، وقرع عصي الفتوات، وتناقضات البشر، وغموض خرائط الروح ورغبات النفس البشرية". "أستطيع أن أفهم ذلك مما قرأته في الثلاثية، لكني أعجبت بلغته أيضًا". "تحفة".

التفت في تلك اللحظة إلى شاشة التليفزيون التي كانت تنقل وقفة الجماهير أمام التمثال. أشار باتجاه التليفزيون قائلاً: "انظري، حتى التمثال الذي صنعوه كلفوا به فنانًا لا يمكن أن يكون قرأ أعمال الرجل، وإن كان قد فعل فهو عديم الموهبة". "معك حق، التمثال يبدو هزيلا، ولا يليق به فعلاً". نظرت إليه بعتاب ودلال، وأردفت: "هو إحنا هنقضي الليلة كلها على محفوظ النهاردة"؟ ابتسم لها، ثم وضع يده على شاربه قائلا: "أقول لك على سر"؟

هزت رأسها، بالإيجاب، للأسفل والأعلى، بينما شعرها المنفوش حول رأسها يهتز بنفس الإيقاع ويعطيها مظهرا مثيرا. فقال: " كل خبرات حياتي، والمواقف التي اتخذتها، وقراراتي المصيرية، كلها، وبلا مبالغة، مستوحاة من أبطال محفوظ". "لأ مش ممكن". "صدقيني". "حتى الـ......". "إيه!"؟ فغمزت له بإحدى عينيها، ثم نظرت إليه نظرة لا تخلو من الغنج: "لا، بتهرج"! مسح على فخذها التي كانت قد أعادتها إلى وضعها ممتدة ثم قال: "طبعًا".

نهضت نجوى فجأة وركضت صوب الحمام. لم يتحرك كبرياء من مكانه رغم توتره الذي أثارته حركتها المفاجئة الغامضة. أخيرًا سمع خطواتها في الصالة متثاقلة، ثم رآها تتهادى في الردهة. أقبلت عليه، وهي تمسك عدة أوراق من المحارم البيضاء، وعيناها محمرتان ومتلألئتان بالدموع. "مالك

يا حبيبتي"؟ "مش عارفة. جالي مغص فجأة وحسيت إني عاوزة أرجّع". "وبعدين"؟ "خلاص ولا حاجة، رجّعت فعلاً. ودلوقت بقيت كويسة". "تعالي طيب ندخل أوضة النوم". "لأ.. لأ، ما فيش مشكلة فعلاً، أنا بقيت كويسة، يمكن معدتي كانت واخدة برد، خلينا قاعدين شوية". ساعدها لتجلس على الأريكة. وضع يده على جبينها. أحس ببرودتها. اقترح أن يعد لها مشروبًا ساخنًا. فقطبت جبينها وهزت يديها نفيًا : "لأ لأ، مش حاسة إني أقدر أحط حاجة في بقي دلوقت".

لكنها استعادت حيويتها تدريجيًا. بدآ حوارًا جسديًا صامتًا، انتهى بهما إلى عناق جسدي اتسم بالقوة، على البساط الطوبي اللون الذي يغطي أرض غرفة المعيشة المظلمة. كانت تشعر أن شياطين الرغبة المحبوسة في داخلها قد تحررت جميعًا، مندهشة من شدة شهوتها، ومن الأحاسيس التي انتابتها عندما سمحت لكبرياء أن يفعل ما كان ممنوعًا من قبل؛ لعقًا لعضوها، أو دبرها، إضافة إلى التذاذها بحركته السريعة استجابة لإيقاعها، وتغييره الأوضاع، دون توقف، حتى انتهيا من قذفهما معًا. وأغشي عليهما من الإنهاك فور انتهائهما من ممارسة الحب، فأغفيا حتى الصباح، بلا أدنى حركة، بينما آثار لذتهما عالقة بجسديهما، وتجربتهما ملتصقة بحواسهما.

10

اختفى تمثال "نجيب محفوظ".

ومثل كل السوابق المتعلقة بمسألة نجيب محفوظ. تم تجاهل الموضوع من قبل إعلام المؤسسة الرسمية حتى بدأت الصحف الأجنبية والفضائيات في تناقل الخبر. هنا بدأت تصريحات المسئولين في المؤسسة تجد لها مكانا على ساحة الإعلام. بسبب التضارب في أقوال عدد ممن تبرعوا بالتصريحات حول الموضوع بلا تدقيق، صدرت تعليمات من المؤسسة الثقافية بأن يكون المتحدث الرسمي في هذا الموضوع هو "مدير لجنة أعمال محفوظ".

أوضح الرجل أن التأخر في إصدار التصريحات الرسمية حول القضية يعود لرغبة المؤسسة في التحقق من الخبر، والتأكد من عدم تورط أي جهة إرهابية في التخطيط للسرقة، وفحص موقع الحدث بدقة والتأكد من الطريقة التي تم بها نزع التمثال من مكانه.

بدا متخليًا عن أنفته وثقته بنفسه، وحسن الخطاب الذي عرف عنه وهو يرد على تعليقات الصحفيين حول مدى تورط إرهابيين في الأحداث الأخيرة، مؤكدًا لهم أن هناك بعض الأدلة المهمة التي توصلت إليها فرق البحث، وأن النتائج ستعرض على الجمهور بكل شفافية فور انتهاء التحقيقات الجارية حول الموضوع.

التمثال اختفى بالفعل، بعد فترة وجيزة من اعتياد جمهور غفير من التجمع هناك على أمل الاستماع إلى ضحكة نجيب محفوظ أو رؤية طيفه، أو شبحه، كما ردد الذين شاهدوا، أو سمعوا، أو زعموا. سبقت الواقعة ملاحظات بعض المارة الذين شاهدوا وجه محفوظ المنحوت من الحجر قد بدأ يتعرض للتلف، بالشكل الذي تتلف به الحجارة بفعل عوامل التعرية. أي أنه أصبح تمثالاً بلا رأس. لكن أحدًا لم يستطع التيقن من مدى دقة هذه المعلومات، لأن التمثال اختفى في اليوم التالي مباشرة.

فسَّر سكان الأحياء الشعبية الأمر على هواهم، زاعمين أن قوى خفية هي التي تدير المسألة كلها، وهو ما تداوله أهالي منطقة الحسين، و باب الشعرية، مثلاً، إضافة لبعض سكان منطقة المقابر، والقلعة، وصولاً للدويقة على هضاب جبل المقطم. وانتقل إلى قرى مصر الخمسة آلاف، الموزعة على امتداد نهر النيل، بالتدريج.

ردد آخرون أن كائنات من الفضاء هي التي دبرت الأمر كله. وهذه الشائعة، تناقلتها الفئات العليا في القرى نقلاً عن بعض أفراد وجماعات من الطبقات الوسطى في القاهرة، والإسكندرية.

أما الأوساط الإعلامية فقد ارتفعت حدة نقدها للمسئولين، وانتهز القائمون عليها الفرصة لتصفية حساباتهم مع الكثير من الجهات الرسمية. نشرت إحدى الصحف مقالا كتبه رئيس تحريرها جاء فيه أن الأمن يتحمل المسئولية، بل وشكك في أن الأمن نفسه قد يكون وراء اختفاء التمثال تخوفا من تعدد التجمهرات والمسيرات التي كانت تتجمع حول التمثال. كاتب المقال برر افتراضاته بعدد من الملاحظات، بينها الحراسة المشددة التي فرضت على مقبرة محفوظ في ضاحية 6 أكتوبر، منعا لوصول أي شخص إليها. بينما نشرت صحف معروفة بأنها تتعيَّش على النمائم والشائعات والإثارة مانشيتات جاء فيها أن تمثال محفوظ تم نقله لأحد المقار الأمنية لاستجوابه!!

أثار هذا المانشيت ضحك البعض ممن كانوا يمرون أمام باعة الصحف، أو يتوقفون لشراء ما يفضلونه من الجرائد اليومية. لكنه، مع ذلك، وجد أثرًا لدى الكثير من هواة النمائم والباحثين عن الفضائح، بل وحتى بعض المثقفين، حتى إن الصحيفة طبعت كمية إضافية من طبعة الصحيفة وارتفعت نسبة توزيعها بمقدار الضعف في اليوم التالي.

لكنها توقفت عن الصدور لاحقًا، ولمدة أسبوع كامل دون أن تعتذر لقرائها أو توضح مبرر التوقف، ولا حتى بعد عودتها للصدور. واللافت للنظر أنها تجنبت تمامًا كل ما يتعلق بأخبار تمثال نجيب محفوظ. إزاء حالة من الغضب لم يستطع الجميع كتمانها، بدأت قوات الأمن تتحفز بدورها، بحيث إن المدينة كلها تحولت إلى ثكنة عسكرية. واعتبر الأمر بمثابة رسالة مشددة لجماهير المواطنين إذا خاطرت بالنزول إلى الشارع أو إثارة أي

نوع من الشغب أو المسيرات، أو غيرها. وعلى سبيل الاحتياط أذاع التليفزيون بيانًا حذر فيه من مغبة أي محاولة لتنظيم مسيرة أيًا كان سببها.

خلال الأسبوع نفسه انتشرت لدى باعة ألعاب الكومبيوتر نسخ من لعبة جديدة استوردتها المحال المتخصصة عرفت باسم "سر اختفاء نجيب محفوظ". تلتها لعبة أخرى مصممة بالجرافيك تجسد شخصيات كرتونية لمجموعة من المراهقين يقومون بالبحث عن كتب لنجيب محفوظ مخبأة في مدينة كبيرة، ومنها إلى مخابئ سرية. حظيت الألعاب بشعبية جارفة بين الشباب والمراهقين، وأصبحت واحدة من أكثر الألعاب منافسة لبرامج ألعاب كرة القدم. إزاء هذه الشعبية، بدأت أسواق أخرى تدخل للساحة، فانتشرت فجأة مجموعة من الملصقات والـ "تي شيرتات" التي تتصدرها صورة لمحفوظ جالسًا في مقهى "علي بابا"، وأخرى تصوره معتمرًا قبعة أمريكية، ويبتسم وهو يتصفح جريدة وأمامه فنجان القهوة. أصبح اسم نجيب محفوظ وصوره بمثابة صرعة، استغلتها شركات عملاقة للدعاية لمنتجات عديدة. في مرحلة لاحقة بدأت مجموعة من الشباب في تأسيس ناد ثقافي يحمل اسم نجيب محفوظ، يهتم أعضاؤه بمناقشة ما أتيح لهم قراءته من روايات محفوظ باللغات الأخرى غير العربية.

باستثناء كل ذلك، ظل اختفاء كتب الرجل لغزًا لا حل له. وأصبح مصير تراثه مماثلاً لمصير الحضارات التي تعرضت للغرق فأصبحت نسيا منسيا.

11

عندما انتهى كبرياء من قراءة آخر ما أنجزه من مذكرات الأستاذ رفيق في غرفته بمقر دار المسنين، ابتسم له الأخير راضيا. ثم رفع يده بحركة بطيئة كأنه يزيح من الهواء أمامه كتلة من ضباب لا يراها سواه. فهم منها كبرياء أنه يريد أن يغير الموضوع. وبالفعل كان سؤاله التالي عن آخر تطورات موضوع نجيب محفوظ. اعتدل كبرياء. وقبل أن يبدأ بالحديث أشار رفيق بيده وهو يسأله بحسم : "تشرب إيه"؟ طلب قهوة. أشار رفيق إلى جرجس لإعداد القهوة، فخرج ليطلبها من البوفيه.

حكى "كبرياء" الوقائع الجديدة، وكان يتوقف، بين آن وآخر، بناء على إشارة من الأستاذ رفيق الذي تدهور سمعه كثيرًا، وبالتالي كان يكرر طلبه لكبرياء بأن يعيد ما يقوله تارة، أو أن يرفع صوته. ضحك رفيق بصخب حينما حكى كبرياء عن ادعاءات البعض باختطاف التمثال وتعرضه

للاستجواب، وسأل بشغف عن موقف الجمهور في الوقفة التي سبقت ذلك وأعاد السؤال عن تقديرات عدد الجمهور الذين التفوا في الميدان اعتراضًا على المهانة التي لحقت بأعمال الرجل، ثم بتمثاله شخصيًا؛ على حد الوصف الذي ذكره لكبرياء. بقدر اهتمام كبرياء بالموضوع، لكنه كان يتوق لاستعادة الحديث عن المذكرات. أراد التأكد من أن الأستاذ رفيق لم يعد لديه ما يضيفه لمذكراته، بحيث يبدأ في المراجعة النهائية للنص. بهذه المذكرات أصبح كبرياء بمثابة ذاكرة رفيق فهمي الموثقة، لكنه لم ينشغل بها لهذا السبب وإنما لسبب فني بحت، فقد خطها على ورق معالج، وبخط كوفي جميل، بأقل قدر من اللعب أو الزخرفة.

أما رغبته في الانتهاء من تدوين المذكرات بصيغتها النهائية، فتولدت من ضغوط الوقت، بسبب انتقال نجوى لتعيش معه. لم يخبر كبرياء "رفيق" بشيء من أخبار نجوى، ولم يبح بسرٍ انتقالها للحياة معه. لكن الرجل المخضرم كان يشعر به. قال له ضاحكا: "مالك بقيت شبه الحبِّيبة كده؟ وواخد بالك من نفسك زيادة"؟ ابتسم كبرياء، وقال: "ما أنا طول عمري حبِّيب يا أستاذ رفيق بس إنت اللي مش واخد بالك". "لا والنبي؟! أمال كان شكلك مخطوف ليه الأيام اللي فاتت؟ عمومًا. إبقى هاتها وتعالى مرة. خليني أتعرف عليها". "ده شرف لينا يا أستاذ رفيق".

القسم الثالث

الأصوات الأربعة

1

لن أعتذر عما فعلت، فبوصفي قرينة نجوى كان عليّ أن أتسلم ناصية السرد من قرين كبرياء، ولن أستخدم كلمات كبيرة كالتي يستخدمها هو مثل"استيلاء"، أو "انتقال سلطة السرد"، وغير تلك المعاني الكبيرة. كنت أستمع إلى مغالطاته، وأكتم غيظي، على أمل أن يعود إلى صوابه. لكنه لم يفعل، وظل على غيِّه، يحكي ما يظن أنه الحقيقة الواحدة، متناسيًا أن الحقيقة – إذا كانت ثمة– لها ألف وجه. بدأت أحوم حوله في انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على السرد، وعندما تلكأ في الفصل السابق، مترددًا في الاقتراب من الحقيقة، أدركت على الفور أنه فقد تركيزه. تدخلت في الوقت المناسب، لأنه كان سيحكي من وجهة نظر كبرياء، وهو نفسه لم يكن يعرف الكثير عن نجوى وشخصيتها المُرَكّبة. ولكم أن تعرفوا مثلاً أنها تمتلك أربعة أصوات وليس صوتًا واحدا. كيف؟ هذا ما سوف تعرفونه في حينه.

لكن دعوني أخبركم أولاً بالتفاصيل التي تردد في سردها خشية أن يعطي انطباعات سلبية عن كبرياء، لأنه يفضل المراوغة على المواجهة المباشرة.

لكنه لم يتجنب التفاصيل فقط، بل بوغت بفاجعة مأساوية أربكته كما أربكت كبرياء وأفقدتهما توازنهما بشكل كامل. وهي بالفعل مأساة، ولولا أنني قرينتها لما تقبلتها بسهولة، لكن ما حدث أصبح واقعًا، قد لا يمكن وصفه سوى بالمرير ليس فقط، لأنها ماتت في ريعان شبابها؛ بل وبسبب الظروف الدرامية التي تسببت في هذا الموت الدرامي.

نعم مع الأسف، هذه هي الحقيقة ماتت المسكينة تاركة كبرياء مغمومًا لما حدث لها، وأسيرًا لإحساس مُعَذِّب بأنه يتسبب في موت كل من يحب. ارتاحت نجوى من صراع الأصوات الأربعة التي كانت تتنازعها. الأصوات التي سببت لها هواجس عديدة، ووضعتها في موقع الريبة والشكوك، بينما كانت تخشى أن تبوح لهم بما تشعر به حتى لا توصف بالجنون.

كنت أمينة سر الأصوات الأربعة لنجوى، ولم أكن لأبوح بما أرادت هي أن تبقيه سرًا، لولا مغالطات قرين كبرياء من جهة، بالإضافة إلى محاولاته لإظهار كبرياء بمظهر البريء المثالي وهو ما أشك فيه كثيرًا. لكي أكون واضحة، أنا لا تعنيني براءة كبرياء أو إدانته. ما أهتم به هو حق المسكينة، حتى بعد وفاتها، في إثبات براءتها من غرابة الأطوار، والسادية، وقتل الطفل الذي حملته في أحشائها، والذي سيحلو لقرين

كبرياء عندما يحكي عنه أن يقول إنه أمل كبرياء الذي ضاع، والذي أراد به أن يعوض ما فقده هو في حياته. ولكي تتبينوا الحقيقة سأضرب لكم مثلاً صغيرًا يكشف لكم كيف أن قرين كبرياء لم يكن على علم بكل التفاصيل كما حاول أن يوهمكم. فعندما حدثكم عن الأطياف الستة التي قاومها كبرياء، لكي يتمكن من ممارسة الحب مع نجوى، ذكر موانع عديدة عاطفية ونفسية حالتْ لأسابيع من إمكانية اكتمال علاقتهما الجنسية.

لكنه لم يذكر، مثلاً، ولو مرة واحدة، أحاسيس نجوى، ولا ملامح وجهها، أو الطريقة التي يتحرك بها حاجباها عندما تغضب، أو اللثغة التي يتميز بها حرف الراء، عندما تنطق به، بشكل خفيف؛ متناغمًا مع الطريقة الناعمة التي كانت تتحدث بها، بلا افتعال، والتي كانت بين ما أسر كبرياء، وأثار شغفه بشفتيها. هذا وغيره يجعل سرد قرين كبرياء فاقدًا للكثير من الموضوعية والدقة، وهو ما كان يزيد من سخريتي بحسه اليقيني في الشرح والوصف الذي كثيرًا ما قارب حد الافتعال، ولعل في هذا، حتى الآن على الأقل، ما يقنعكم بضرورة إمساكي بطرف الخيط الذي يلف السرد من الآن وصاعدًا.

2

شهدت وعايشت هواجس نجوى جميعًا. أنصتُ لكل همسات روحها، ووساوسها، وشاركتها صخب العواصف الحزينة والكئيبة، لكني لا أظنها عانت قدر معاناتها من تلقي خبر وفاة أبيها. الثرثرة التي تناقلتها السيدات والفتيات المتشحات بالسواد من أقارب المرحوم في الفيلا الفاخرة التي استقبلت فيها الزوجة المعزيات، تناقلت بهمس شامت أن الرجل مات، في ريعان شبابه، بسبب تلك السيدة العصبية كثيرة الصراخ والعراك، والغضب، والشكوى. فقدت نجوى صوت أبيها الهادئ الوقور، وحنانه المفرط الذي لن تعرف له مثيلاً، لا مع أمها، ولا مع أي رجل ممن أغرمت بهم لاحقًا. وعلى امتداد مرحلة الطفولة لم تكن لديها القوة لإيقاف سخافات أمها، وتدخلها الصارم في كل تفاصيل حياتها.

لكنها بالتدريج تعلمت العناد، وأصبحت بالممارسة والاعتياد أشد عنادًا من الأم التي كانت قادرة على الجدال لأيام حتى يمل منها مجادلوها، وحتى انقطعت عنها كل صديقاتها، واكتفت بعدد من الخادمات اللائي كن يساعدنها في تنظيف المنزل الواسع وتدبير شئونه، ويسمحن لها بالتدخل في حياتهن وخصوصياتهن، دون معارضة أو جدال. أصبح الجدل بينهما جزءًا أساسيًا من العلاقة. بدأت نجوى تعترض على أي مما تقترحه الأم، مهما صادف الاقتراح هوى في نفسها لمجرد المعارضة، وقد تقبل به لاحقا، إذا كان يناسبها. حينئذ كانت حدة صوت الأم تتصاعد إلى الذروة حتى تتحول إلى صراخ فتنفجر فيها نجوى بدورها، وهنا تبدأ أولى نوبات الأم الهستيرية، التي تفتح عينيها مذهولة كأنها رأت ملك الموت، وتعلق عينيها بأعلى بقعة يصل إليها نظرها بينما لا تتوقف عن الصراخ بكلمات بلا معنى. لكنها، في الحقيقة لم تكن ترى شيئا في مثل تلك الحالات؛ إذ إن شياطين عقلها تندفع جميعًا لتحوم كالخفافيش؛ مسببة لها عمى وقتيًا عن أي شيء. خبرت نجوى هذه الحالات الهستيرية حتى ألفتها. وبينما كانت ترتعب في طفولتها من شدة الخوف كلما واجهتها أمها بتلك الحالة العصبية المريضة، لكنها منذ بلغت الثانية عشرة، اعتادت الحالة؛ بل وأصبحت بالنسبة لها نوعًا من الاستفزاز الذي كان يجعلها تحشد كل قواها النفسية والبدنية لمواجهته.

كانت تردد لنفسها آنذاك، أنها تستحق أُمًّا أكثر حنوًا وعطفًا وفهمًا من هذه الأم البشعة. ولذلك لم تكن تتفاعل معها على أي نحو. فقط تنتظر لدقائق قليلة، تستجمع فيها قواها التي تنهكها عصبيتها، وتهدأ رعشة

الجسد المتوفز بجنون الغضب الأعمى، ثم تشرع في الحركة، بخطوات متوترة سريعة ومتوفزة في أرجاء البيت بحثًا عن شيء مناسب لتكسره، وغالبًا ما يقع اختيارها على أحدث ما اشترته الأم؛ فازة أنيقة، أباجورة، تمثال من الفضة، لوحة فنية، تمسك بها بعنف قبل أن تلقي بها على الأرض بكل قوتها، وتبدأ وصلة من الصراخ المرير بصوت حاد مشروخ ومروع، تختتمه بأنها تكره أمها، وتخرج من الشقة لا تلوي على شيء.

عندما تعرفتْ نجوى على قوة عنادها الداخلي؛ بدأت تسمع صوتًا مختلفًا في أعماقها. اكتشفت أن ذاتها تنقسم إلى قسمين: الأول يعرفها به العالم في الخارج، الفتاة الجميلة، ذات اللثغة المحببة، صاحبة الشعر الطويل الكستنائي، الفاتنة الرقيقة والطيبة، التي تستدر شفقة صديقات أمها ومعلماتها وأهل أمها ليتمها المبكر.

لكنها عندما كانت تستعيد مشاداتها العنيفة مع أمها، وتتأمل الشخصية التي كانت تتقمصها آنذاك، كانت تتشنج مرتعبة؛ إذ لم تكن تتصور أن بإمكانها أن تتفوه بما كانت تصرخ به لأمها، ولا أن تتلفظ بمثل تلك الكلمات الجارحة لمخلوق، فأي شيطان ذلك الذي كان يتلبسها ويجعلها تنطق بتلك العبارات السخيفة وبتلك الغلظة والسخف؟.

أدركت نجوى فجأة أنها ليست شخصا واحدا، وإنما اثنان. كانت الشخصية الثانية مقصورة في البداية على معاركها مع أمها، لكنها سرعان ما شعرت أن تلك الشخصية الثانية، المأساوية، بدأت في فرض نفوذها على الشخصية الأولى، وهكذا وجدت نجوى أن مساحة حدتها

وفظاظتها تباغتها في تعاملاتها مع زميلات المدرسة، خاصة الجميلات الغيورات. هذه الشخصية هي التي جعلتها تفكر في اختلاق شخصية "أحمد شكري". فمن مواصفات شخصيتها، آنذاك، الغرور، وكان مبررًا قويًا لترفض كل الشباب الذين توددوا إليها، تكبرًا، وتأكيدًا لكونها صعبة المنال. برق ذهنها فجأة بصورة لشاب وسيم له ملامح أجنبية تمامًا – الحقيقة أنها ملامح فتى أجنبي يشاركها الدراسة في المدرسة – يظهر لها كفارس، يقضي على ملل حياتها، ويستمع إلى شكواها من أمها بصبر، ومحبة، ويحتضنها بحنو، ويمسح دموعها برقة عندما تتذكر أباها وتحكي عنه . أطلقت على ذلك الفتى الافتراضي المختلق من خيالها اسم "أحمد شكري"، وبدأت تتعامل مع هذا الخيال كحقيقة واقعة، وبينما كانت تحكي لصديقاتها يوميًا عن محادثاتهما الهاتفية المختلقة، ونزهاتهما المتخيلة، وسهراتهما الخيالية في أرجاء المطاعم والفنادق والمراقص الفاخرة، كانت قد بدأت تبحث عن أي شخص حقيقي بهذا الاسم. اضطرت لذلك بعد أن ضبطت متلبسة بالحديث مع نفسها في أثناء سيرها في الطريق، وأحيانًا داخل غرفتها. عندما ضبطتها أمها وهي تتحدث إلى نفسها بررت لها ذلك بأنها التحقت بالفريق المسرحي المدرسي وأنها تتدرب على أداء الدور. شرعت في كتابة رسائل يومية تعاتبه فيها على حوارات متخيلة دارت بينهما، أو تقترح عليه فكرة مجنونة للهرب بعيدًا عن الحياة السخيفة التي تعيشها، أو تحكي له قصة رواية رومانسية مما كانت تقرأه. وفي مرحلة لاحقة كانت تكتب خطابات أخرى تتخيل أنه يكتبها لها. عندما وقعت عينا فاطيما على واحدة من هذه الرسائل

بالصدفة، لم تمنع نفسها من أن تمسك بها، وتقرأها بفضول. تساءلت لماذا لا يظهر هذا الشخص الشبحي ألبتة؟ اهتزت الصينية التي تناولتها نجوى من "أم وحيد"، يعلوها فنجانا شاي "إيرل جراي"، وقطع من الكيك الإنجليزي، والبسكويت. فكرت بسرعة، واحمرت وجنتاها، ليس لأنها ارتبكت، أو غضبت، وإنما لأنها أدركت في تلك اللحظة، أنها لم تفكر أبدًا في أحمد، بوصفه شخصًا له وظيفة أخرى سوى أنه عشيقها.

"بيشتغل طيار"، قالت بلا تردد. وكان سؤال فاطيما التالي: "ما لوش صورة عندك؟". هزت رأسها نفيا، بحركة بدت معها أنها تستخف بالفكرة "عمري ما طلبت منه إنه يديني صورة". اتجهت إلى الدولاب وأخرجت منه إحدى حقائب اليد التي تحملها على يدها عند خروجها، وعادت بعد لحظات وهي تمسك علبة سجائر فتحتها وتناولت واحدة وضعتها بفمها وأعطت أخرى لرفيقتها، كأنها تحاول أن تضع حدًا لأسئلتها المتعاقبة.

ظلت تراوغ، وتكذب وتتعلل بحجج واهية، لكي تبرر "شبحية" أحمد شكري. بحثت في دليل الهاتف عن شخصية تحمل اسم "أحمد شكري". وكاد قلبها أن يتوقف من العدد اللانهائي للأشخاص الذين يحملون نفس الاسم. لكن أيًا منهم هو الذي يمكن أن تتطابق صفاته مع الصفات التي حددتها في خيالها وأشاعتها حتى أصبحت حقيقة لا جدال فيها؟ وإذا حدثت المعجزة؛ وتوافر مثل هذا الشخص فكيف يمكنها الوصول إليه ووقوعه في غرامها قبل أن تتمكن من تقديمه لصديقتيها المقربتين؟

أصابها السؤال بالحيرة، ثم الاكتئاب، والانعزال التام، والأرق المزمن

حيث كانت تحاول استجداء النوم بالاستسلام للفراش مبكرًا، وبالمهدئات إن استعصى.. لكنها أخيرًا، وبعد مرور أسبوع كامل، جلست إلى مكتبها الصغير في غرفة نومها البيضاء المفروشة بالأبيض. وعلى ورقة بيضاء وضعت قلمها، وكتبت، باكية، رسالة إلى حبيبها الخيالي، تشكو له حالها، وتدعوه لأن يساعدها، أو الحضور، للقائها مرة واحدة فقط. وضعت الرسالة في مظروف أبيض. وفي الصباح ألقت به، كالعادة في صندوق البريد بلا عنوان. مظروف أبيض ناصع، يزينه طابع بريد من فئة العشرة قروش، وبخط جميل كتب عليه "أحمد شكري". في اليوم نفسه، وقبل أن تخلد إلى النوم، جلست إلى مكتبها وكتبت خطابًا، ثم وضعته في مظروف أبيض وأغلقته، وتركته على المكتب. وكانت حروف اسمها مكتوبة على سطح المظروف "نجوى القناديلي". عندما استيقظت من نومها، أزاحت اللحاف الأبيض الوثير ونهضت متثاقلة. نظرتْ إلى المظروف الموضوع على المكتب المواجه للفراش كأنها فوجئت به. أو كأن مبعوثًا شبحيًا قد تسلل ليلاً ووضعه في مكانه دون أن تشعر به. فتحته بلهفة وشرعت تقرأ الرسالة وعيناها تتألق بلمعة مدهشة. قربته من صدرها العاري، فاستكان في المساحة بين نهديها فيما تتنهد بهيام.

وضعت الرسالة على الفراش وانصرفت باتجاه الحمام بينما تعلو وجهها ابتسامة ممزوجة بنظرات هائمة، وبعد فترة خرجت وهي تحك بيدها شعرها الكثيف المبتل. كان كل تركيزها منصبًا على محتوى الرسالة، وكيفية تنفيذ الاقتراح المكتوب بها. ولم يزعجها سوى أنها ستضطر للمرة الأولى في حياتها أن تخطط لشيء بدون فاطيما وهديل.

3

أحب اسمي لأن أبي هو الذي إختاره لي. أتحدث إلى نفسي في المرآة كالممسوسة. أستخدم هذا الاسم "نجوى" في الأوقات التي تكون نفسيتي فيها في حالة معنوية جيدة. وتكون وقفتي أمام المرآة آنذاك لمجرد العتاب الرقيق، أو التحية والتشجيع، أو حتى لتأمل ملامح وجهي مستدعية إطراء عابرًا أو تعليقًا من عابر طريق، أو من كبرياء، ومن قبله خورشيد – لا أحب أن أذكر اسم هذا الحقير– أو فتاي الأول أحمد. أعتقد أن هذه الحالة بدأت منذ تعلقي بـ "أحمد". كنت أواجه نفسي، محدقة بوجهي في المرآة، أخاطبني بنبرة صوت ذكورية متقمصة شخصيته الخيالية، ثم أجيب عليه، بنبرة صوتي، وبدلال ونعومة، بينما أتأمل أنفي الرقيق، وحاجباي الكثيفين المعتنى بهما، ألاحظ حركتهما وفقًا لانفعالات وجهي، والاختلاجات الطفيفة لوجنتي حينما أتكلم، والغمازتين على

جانبي شفتي كلما ابتسمت. التجعيدة التي تلتهم جبهتي إذا قطبت جبيني. أحدق في عينيّ، بلونهما العسلي الفاتح، وأتأمل مدى اتساعهما عندما تكون ملامح وجهي محايدة، أو ضيقهما عندما أبتسم. إذا اتسعت الابتسامة قليلاً تضيق عيناي أكثر، بينما تنكشف أسناني، المعتنى بها، الصف السفلي لأسناني المعوجة قليلاً.

في الوقت الذي التقيت فيه كبرياء كنت ألقب نفسي بـ "المسكونة". كنت مسكونة بالفعل بشخصيات أربع. أمنح كلا منها اسما، الأولى هي "نجوى"، الثانية هي "المكتئبة" التي تسيطر أحيانًا على الشخصيات الثلاث الأخريات فأصبح مكتئبة. أغلق على نفسي باب الغرفة وأتكور في الفراش مثل جنين يتحرق إلى العودة لبطن أمه.

لكني لا أظن أنني في تكوري ذاك كنت أحن لرحم أمي، بالعكس، الأمان لا يمكن أن يتحقق إلا بالابتعاد عنها، وبالتالي، لا يرتبط وجودها بأي مما قد يسعدني على طول الخط. الحقيقة أنني لا أشعر بالسعادة إلا عندما أنجح في إثارة أعصابها. تعتريني حالة من النشوة المدوخة. وعندما تصل إلى مرحلة العمى الهستيري، وتبدو وكأنها تخاطب سقف الحجرة، أو أشباح السماء، أو شياطينها، أكاد أشعر بنشوة تقارب الالتذاذ الجنسي. عندما أدرك أن شخصيتي الثالثة قد تغلبت على الشخصيات الأخرى؛ وأصبح "مدام سيادة". أحرص تمامًا على أن أغلق باب العودة لشخصية نجوى في تلك الحالة، تجنبًا للسقوط في هاوية الإحساس بتعذيب الضمير، أشفق على أمي، وأبكي بحرقة، على ما أفعله معها، وأحاول أن أسترضيها

بشتى الطرق. اكتشفت بمرور الوقت أن حالات اكتئابي التي قد تستمر أيامًا أو أسابيع؛ حسب السبب، قد لا يمكن الخروج منها إلا بواسطة تسلط "مدام سيادةِ" على "نجوى" و"المكتئبة".

على أية حال فغالبًا ما كنت أتمكن من السيطرة على هذه الشخصيات الثلاث، واللعب معها إذا اقتضى الأمر، والتحول من حالة مزاجية لأخرى بواسطة التنقل بينها. لكنني في الحقيقة كنت أتلاعب بشخصياتي هذه لاستبعاد الشخصية الرابعة من حلبة التنافس. فالشخصية الرابعة التي أسميها "شكوى هانم" هي أخطر شخصياتي على الإطلاق، وهي التي لا يمكنني التحكم في تصرفاتها أو انفعالاتها من خلال الشخصيات الأخرى.

أنا "شكوى هانم" فاحذروني. فخلقي ضيق، وصبري قليل، أنطق بما أشعر به، بلا تفكير. أتأفف بصوت مسموع؛ بينما ترتسم ملامح الغضب على وجهي إذا سمعت تعليقًا سخيفًا، حتى لو لم يكن موجهًا لي شخصيًا. قد أبتسم ابتسامة ساخرة، جلياطة، لشخص ألقى نكتة سخيفة، بل وربما يغلبني غضبي فأبدأ فاصلاً مهينًا من التبكيت والإشارات المحملة بـ"غلاسة" مقصودة بأن خفة الظل إن لم تكن أصيلة تضاعف الإحساس بثقل دم مفتعلها، وأرقب امتقاع وجهه، مخفية إثارتي العميقة، التي يتوازى معها إحساس بالتحفز، بأنه لو عقَّب أو نطق بشيء، أيًا كانت مدى سوقيته، لأن أتحول، في لحظة، إلى قحبة شرشوحة تُسمعه من السب ما لم يسمعه من امرأة قبلي.

بمعنى آخر إذا كان ذلك الشخص واثقًا من نفسه لدرجة تجاوز الموقف والرد عليه، فإنني مضطرة، آسفة، للكشف عن الجانب المظلم من شخصيتي هذه. وهو وجه كريه. لأنني أتحول، في لحظة إلى شخصية كريهة. أتقمص أخلاقيات خفاش قذر أعمى، ينقض على ضحيته ويمتص دمائها على مهل. أو أفعى مراوغة تتلوى ثم تفاجئ فريستها بقوة لا يمكن توقعها. أو مصاصة دماء أسطورية؛ أتودد لمحدثي وربما أبتسم له ابتسامة مغوية، بينما أضمر له شرًا أسود، وفي اللحظة التي يشعر فيها بأنه يقارب الالتذاذ، أفاجئه بنابيَّ المخفيين في جانبي فمي، أغرسهما في عروقه ملتذة بمص دمائه حتى الثمالة.

شخصية كريهة، أليس كذلك؟ لكنني ألفتها؛ إذ إن عمرها الآن يزيد على عامين. والآن وبعد أن تمكنت مني على هذا النحو، أصبحت أشعر بالندم، وبسوء الحظ. فالشخص الذي تسبب في تخلق هذه الشخصية في روحي أفلت بفعلته الحقيرة. اختفى، ليس من حياتي فقط، وإنما إلى مكان قصي لم أستطع أن أعرفه أبدًا. قيل لي إنه هاجر إلى كندا. بينما أكد آخرون أنه سافر في بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة وتزوج أمريكية وعاش هناك. كنت أريد أن أريه حالاتي السوداء هذه كلها، وأنشب في جسده وروحه كل ما نتأ لي من مخالب وأنياب وأظافر. تمنيت أن أفاجئه بشخصية مصاصة الدماء. لكنني لم أكن لأضع نابيَّ في عروقه، إنما سأتسلل من رقبته إلى صدره، أرسم ملامح امرأة غلبتها شهوتها، ثم أنتقل إلى بطنه، أداعبه، بيدي ولساني، حتى أصل أخيرًا إلى مبتغاي: عضوه، أو أنبوب شهوته، أو سلاحه القاتل. والأخير هو أفضل ما يمكن أن أصفه به. هذا السلاح الذي

حاول أن يهاجمني به على غير إرادتي، بلا تمهيد أو ملاطفة. استغل تفوقه البدني ليقلب الحالة الرومانسية التي كنا نعيشها قبل لحظات من كشفه عن وجه جنونه إلى حالة أخرى، لا أعرف كيف أصفها، فهو حتى لم يحاول أن يمارس الحب، إنما مارس الاغتصاب بكل معنى الكلمة ومع كل السبق والترصد. عندما أحسست بالألم المفزع، غير المحتمل، لم يعبأ بصراخي. كانت هناك نيران تشتعل بين فخذي وتصل الألم بأسفل بطني، ثم تحول الألم إلى كتلة من اللهب لم أستطع أن أحدد مكانها بدقة. كان سلاحه أكبر من أن يمر في ممري الضيق. كان ممري يحتاج إلى كثير من العناية، والحب والتدليل، وقليل من المراهم، ووافر من الحنو، والمداعبة، والدق على الباب قبل الدخول. لأن أبواب ممري كانت مغلقة تمامًا، بالعذورة، والكبت، والمنع والحرمان وبالتكوين الجسدي والنفسي معا.

لكنه لم يعبأ بهذا كله. أصابتني تشنجات وتقلصات ظلت تتردد في أحشائي مثل الموجات، إذا به يقلبني على وجهي، وفي قمة انشغالي بالألم، يدفع بنفسه من دبري. شعرت بألم حاد يضرب، هذه المرة، من أحشائي إلى قمة رأسي، كان واضحًا أن الأمر يبدو مستحيلاً، لكنه أدخل أصابعه الرطبة أولاً، وعاود الكرة. صرخت، لكن المفاجأة والخوف أصابني بالشلل، بينما عيناي لا تريان سوى لون أحمر يغطي كل شيء، حتى شعرت، أخيرًا، بسائله الساخن القذر، فتوقف وهو يخور مثل الثور. حيوان، أليس كذلك؟ كم اقتضى الأمر مني لتجاوزه، نفسيًا وعصبيًا، لم أعد أذكر. كان عليَّ أولاً أن أتغلب على آثار فعلته الحقيرة، بالمراهم

والمضادات الحيوية ومطهرات المهبل والشرج، وعقاقير المهدئات النفسية ومسكنات الألم. وبعد ليال امتلأت بالكوابيس والأرق، وبالحزن القاتم المتجمع مثل مياه راكدة في قعر روحي، تمالكت نفسي، وبعدها شعرت بالشخصية الكريهة تلك، تتخلق في أعماقي، مثل عنكبوت شيطاني يخرج من شرنقة سوداء. عندما تعرفت على إمكانات هذه الشخصية التي أسميتها "شكوى هانم" في الانتقام، كان قد اختفى من حياتي للأبد. ولم يتح لي فرصة عمري التي تملكتني لشهور عديدة، أن أصل إلى مكمن سلاحه ذاك. أتحسسه بشغف مزيف حتى ينتصب، أعتصره ببطء وتلذذ. أُطمِّع صاحبه في اللذة، وفي هلاوس الشهوات وخيالاتها. أضعه في فمي، مثل أنثى ضبع ليلية تتشمم فريستها، وتتحسس بلسانها شرج الفريسة حتى تفقد السيطرة على نفسها. عندها أبتسم له مكشرة عن أنيابي الأربعة المخفية في جوانب فمي، ثم أنشبهما أخيرًا، في جذر آلته. أتشمم رائحة عانته البغيضة، بينما أمتص دماء سلاحه بكل طاقتي حتى يزرق ويذبل، ثم يتحول لونه بالتدريج للون أسود قاتم: لون الموت والانتقام، ويسقط متداعيا، قذرًا مثل أحشاء بقرة، بلا حول أو قوة. ثم أنهض، وأفتح بيدي عينيه المغمضتين بالألم، وعندما تتواجه أعيننا أبصق الدماء الكريهة على وجهه.

هل تعرفتم إلى شخصيتي الكريهة؟ للأسف، لم أتمكن من إيذاء الشخص الذي تسبب في تخلقها، بل أصابت سهامها شخص "كبرياء" بلا ذنب، وهذا ما أوقع بي في غرامه، بين أسباب أخرى، رغم أن فكرة

الوقوع في الحب كادت تكون مستحيلة بالنسبة لي. كنت أغلقت قلبي تماما. كفرت بالحب. وبالرجال جميعًا. حتى "أحمد" الذي لم يكن سوى رجل من نسج الوهم، أحرقت صوره المتناثرة في صفحات خيالي. وقاومت المونولوجات الصاخبة التي كانت تلح على عقلي منذ اقتحامه الافتراضي، وإقامته في ذاكرتي ووعيي على مدى كل تلك السنوات.

لكني رغبت في الانتقام. هذا إذا أردت أن أبرر لنفسي أفعالي. أما الحقيقة فهي أن رغبة حارقة في العبث والسهر، تملكتني، ودفعتني لحياة العبث، يوميا، وحتى الفجر، دون أن أعبأ بصياح أمي، وغضبها، ولا حتى دموعها، وبكائها المرير، فقد كان كل ما تفعله يثير إحساسي بالغضب، ولا أعرف لماذا. أردت الهرب من مواجهة نفسي، ومن تكرار الفشل والخيبة مرة بعد أخرى. الهرب من إحساسي بأنني لا أعرف المعنى الحقيقي للحب. كنت أتصل بفاطيما لترتب لنا سهرة مع صديق من أصدقائها وأي من صحبته، وننطلق إلى "الجاكس"، أو مرقص" شبرد"، "بومودورو"، أو"الهارد روك كافيه". أشرب وأرقص. أراقب الشباب يلتهمونني بعيونهم، فأنتشي. عندئذ أعرف أن صوت "مدام سيادة" هو الصوت المناسب لي في هذه الحالة. أتخلص من شخصيتي "نجوى" و"المكتئبة"، وأصبح "مدام سيادة" الفاتنة. أرقص بكل تركيزي، أتعمد الاصطدام بجسد الشاب الذي أراقصه، وأشعر به بعد ذلك وهو يحاول الالتصاق بي بأي شكل، فلا أتمنع، لكني أقرر أن ينتهي كل شيء على باب المرقص. لم تكن لدي أدنى رغبة في خوض تجربة التفاعل الحسي مع أي رجل، أو إقامة علاقة من

أي نوع. لكني في الوقت نفسه كنت أهرب من نفسي، وأنا أعرف أنني أبتذلها بشكل ما. كنت أستمتع بالوقت، وبالصحبة، وبالأجواء الصاخبة، وبالنكات والقفشات والتلميحات الجنسية. أستمتع بالشراب، وبالنشوة التي تدغدغ حواسي، وتجعلني أرقص بارتياح أكبر.

الرقص كان علاجًا وجدت فيه ملاذًا لروحي، واستخدام طاقة جسدي الكامنة في الصراخ بصوت الجسد الذي لا يسمعه سواي: ألما من التجارب السيئة التي مررت بها، أو لافتقاد أبي، أو لغيظي من أم لم تحاول أبدًا أن تفهمني. نعم كانت طاقة جسدي تعبر عن هذا كله: عن أصواتي المقموعة داخلي والتي تكاد تجعلني أقترب من الجنون. كان تعلق شخص من "صُحبة المراقص"، هؤلاء، بي، يشعرني بنشوة مدوخة لا أستطيع وصفها. خاصة وأنا أتعمد ألا أغلق الباب، ولا أتركه مفتوحًا، بل أواربه، لأضمن تعلقه بي. قد أتقبل منه دعوة لاحقة على رقصة أخرى، أو لقاء عابر في "بوب" أو "بار"، في وجود فاطيما، أو بدونها. و لم تكن لدي أدنى رغبة في أي شيء يزيد عن ذلك على الإطلاق. أتحدث الإنجليزية، لكني أختار في حديثي مع شاب أتعرف إليه لأول مرة أن أنطقها باللكنة البريطانية، التي أتقنتها منذ سفري إلى لندن لأول مرة في رحلة مع الجامعة، كذبت عليه بأنني عشت فترة من حياتي في بريطانيا، وحكيت من ذكريات سفري حكايات وهمية ربما أكون سمعتها أو عرفت بها. في أحيان أخرى، أستخدم لكنتي الأمريكية المكتسبة من الجامعة. لكنني في كل الأحوال كنت أكذب، وأفتعل، وأقول أشياء غير حقيقية. أقدم لكل

شخص ممن عرفتهم شخصية مختلفة تمامًا عن الأخرى من نسج خيالي، أو من روايات تافهة كنت أقرأها بين حين وآخر، لأجل التسلية، أو حين أفقد القدرة على القراءة بتركيز لأي سبب.

في تلك الأجواء المزيفة تعرفت على كبرياء. وبالرغم من أن الأصوات الأربعة كانت في أوج مراحل الصراع، كنت حريصة على مقاومة هذا الصراع لكي أتمكن من التحدث معه بصوتي الحقيقي: صوت نجوى كما أعرفها عندما أواجه نفسي بصدق، الصوت الذي أعرفه جيدًا، والذي لم أتمن أن أمتلك سواه لولا الظروف. لكني لم أستطع أن أقمع الأصوات الأخرى كثيرًا.

4

ثمة شيء فاتن في شخصية كبرياء، حتى لو أني لم أتبينه جيدًا في المرحلة الأولى من علاقتنا. أعجبتني ملامحه الذكورية الوسيمة، وحاجباه الكثيفان، وسمرة بشرته، والطريقة التي يتحدث بها، بينما تلتمع عيناه بذلك البريق المدهش، بدا لي بريئًا، وودودًا، قادرًا على إضحاكي. ورغم هدوئه ذاك، كنت ألمح في عينيه بريق ذكاء، ووحشية كامنة، لكنني لم أَخْشَه. كان مسيطرًا على نفسه بشكل كامل. رتبت فاطيما لنا سهرة في "الهارد روك" على النيل في جاردن سيتي، بمناسبة عيد ميلاد رؤوف صديق هديل. وهناك التقيت كبرياء لأول مرة. كان جاسر هو الصديق المشترك لكل من رؤوف وكبرياء. حضر ومعه كبرياء وبصحبتهما فتاتان؛ "هناء" متوسطة القامة، بضة، تميل للامتلاء، ملامح وجهها لطيفة. شعرها البني الداكن الخفيف طويل نسبيًا. أما "ياسمين"، فهي أكثر جاذبية:

رشيقة، وجسدها الأميل للنحافة بالغ التناسق، وبشرتها حليبية نضرة لامعة. ملامحها منمّقة، شعرها الأسود الناعم يصل إلى أعلى كتفيها. عيناها سوداوان تعطيان إحساسًا بالجدية، وبشيء من التكبر. لاحظت، من الوهلة، الأولى أنهما لا ينتميان لعالمنا. طريقة الكلام المفتعلة. ما يضحكان له من قفشات عادل؛ صديق فاطيما الذي اصطحبها في تلك الليلة. قام رؤوف بتقديم جاسر بوصفه أحد أصدقائه المقربين، من صلات عائلية. فهمت أن جاسر وكبرياء من حي "المنيل"، وأنهما صديقا طفولة. وبالرغم من نحافته ونظارته الطبية، وملامح وجهه الناعمة، بدا أكثر صخبا وثقة بنفسه من صديقه. يتحدث بصوت عال وبسرعة. يطلق قفشة، ثم يتبعها بضحكة صاخبة، وينهيها بنظرة حنون لرفيقته "ياسمين" التي كانت تبتسم له بدلال. حكى الكثير عن مفارقات أيام الصبا والمراهقة في المنيل، والمواقف السخيفة، أو الطريفة، التي تعرض كل منهما لها آنذاك مع شلة سمّاها شلة المنيل، بينما كان "كبرياء" يستمع له وهو يبتسم، وعيناه تلتمعان ببريق خاطف، مسرورًا بحديث صديقه، الذي شد انتباهنا جميعًا، وجعلنا نستغرق في الضحك بصخب. تأملت هناء الجالسة إلى جواره، ولاحظت أنها كانت مهتمة بتوجيه تعليقاتها الهامسة إلى ياسمين، أما علاقتها به فلم تتعد حدود الابتسامات الودودة. ربما تجمع بينهما علاقة في مهدها، أو زمالة عمل، أو لعلهما يمران بنفس خبرة علاقتي الوليدة مع سامر الذي يجلس بجواري، يتودد إليّ، ويلفت انتباهي للموسيقى، أو أغنية من الأغنيات الصاخبة، يتعمد، بين لحظة وأخرى، أن يلمس ذراعي، أو يدي، بينما لا تتعدى معرفتي به حدود هذا المكان، نلتقي

لنرقص ونضحك على التفاهات ونغادر على أمل لقاء جديد. بل إنني لا أعرف عنه سوى أنه يعمل في شركة استيراد معدات طبية. استفسرت منه عن تلك المعدات فقال: "عكازات، ومشايات، وأجهزة تعويضية" فقاطعته قائلة: "أيوه أيوه فهمت خلاص". الشيء الوحيد الذي عرفته عنه وعاينته بشكل مباشر أنه يجيد الرقص، وأنه ينتهز أي فرصة لتحسس جسدي بشهوانية.

افتتحت هديل الرقص مع رؤوف، وجلسنا جميعًا نراقبهما، ونصفق، ونهتف باسم رؤوف. كنت أختلس النظر لكبرياء، فأراه ينفعل أحيانًا، ويصفق بقوة، ثم سرعان ما يعود لهدوئه وهو يمسك بطرف شاربه. عندما عرض "سامر" عليّ أن نرقص. لم أشعر بارتياح. خشيت أن يفهم كبرياء أنني مرتبطة بسامر. اعتذرت له، وأعلنت أنني لست في مزاج مناسب للرقص. التقت عيناي بعيني كبرياء، وتعمدت أن أبتسم له، بينما كنت أميل إلى أذن سامر، فابتسم لي كبرياء، وارتبك، وأمسك بشاربه – كانت تلك حالة عصبية على ما أظن– وهو يتأمل المكان حوله بحيادية. أسرع سامر يطلب الجرسون وطلب لي البيرة الداكنة التي أفضلها. عندما انتهت الرقصة حيينا هديل ورؤوف بحماسة. ارتدت هديل فستانًا أسود قصيرًا، يكشف ساقيها الممتلئتين، ويضاعف من توهج بشرتها البيضاء الشاهقة. وضعت شالاً أسود أطرافه مطرزة بصفوف ماسية رقيقة، ثم خلعته لتكشف ذراعيها وكتفيها الممتلئين، وكشف فستانها العاري الضيق عن كبر حجم نهديها اللذين يكادان أن ينفلتا في أية لحظة.

على غير عادتها وضعت "ماكياجًا" ثقيلاً، وطبقة بنية داكنة من "مظلل

العين" ظللت بها جفنيها وأسفل الحاجبين، أعطتها مظهرًا مثيرًا. اختارت لشفتيها "روج" أحمر بدرجة قاتمة، غطته بطبقة أخرى من ملمع الشفتين منحت شفتيها لمسة حسية. وقصت شعرها الأشقر قصة جديدة حيث فردته فبدا ناعمًا وثقيلاً، ينسدل طرفاه على أسفل الرقبة، بينما قصت نصف القُصة الأمامية - اليسرى- بشكل متدرج، بحيث إذا تركتها تنسدل على عينها فإنها تخفيها وحتى مستوى أسفل الأنف. بينما ظل طول نصف القُصة الأيمن بطول باقي الشعر. همستُ لها وأنا أقبلها: "إيه الجمال ده"؟ ثم أضفتُ بالإنجليزية: "أنت مثيرة جدًا"، وقبل أن تعقب بشيء تابعت: "شكلك النهارده هتنامي في الزمالك". ملمحة إلى منزل رؤوف. ضحكتْ، وهي تضع يدها على شفتي كأنها تمنعني من الكلام. ثم همست: "هو أنا مفضوحة، أوي كده"؟ هززت رأسي لها وأنا أوسع ابتسامتي. قالت: "ما هو أنا النهاردة بالـ "ميك أب" أو من غيره أكيد مفضوحة. خلاص هاعمل إيه بقى ما هو عيد ميلاده النهارده". قرصتها في كتفها قرصة واهنة وأنا أقول لها: "كل سنة وأنتم طيبين". ضحكت وهي تنظر حولها، وفهمتْ أنني أقرصها تفاؤلاً. نظرت حولها تبحث عن سامر ثم قالت باستنكار: "إيه ؟ إنتي غيّرتي رأيك؟ ما إنتي قلتي إنه مش نافع". قلت لها: "مش قصدي عليه.. قصدي عقبالي لما ألاقي اللي ينفع".

لاحظت أن فاطيما كانت تقف بجوارنا، والتقت عينانا، وبحسها الفطري خمنت مضمون حوارنا، فأغرقتْ في الضحك. اقتربت منا واحتضنتني، ثم احتضنت هديل وقبلتها، ثم رؤوف، وهمست في

أذنه، فأطلق ضحكة صاخبة، وهو يربت على ظهر هديل العاري بمحبة. أخرجتُ علبة سجائري، وطلبت من كبرياء قداحته. وضعتُ السيجارة بين شفتي فسارع لإشعالها. تعمدت أن أركز عينيّ بعينيه. بادلني التحديق لثوان كانت كافية لأدرك أنه قد فهم الرسالة. قبل انتصاف الليل بقليل، كنا جميعا على حلبة الرقص، بعد أن بدأ فاصل من الموسيقى الشرقية. قبلها رقصنا "سالسا"، أنا وسامر، رؤوف وهديل، عادل وفاطيما، جاسر وياسمين، كبرياء وهناء، وهما لم يكونا مجيدين للرقص عمومًا، واكتفيا بهز جسديهما مع الموسيقى. عندما بدأ فاصل الموسيقى الشرقية، كون الشباب حلقة، وتسللت مع هناء وفاطيما في وسط الدائرة، وبدأنا نرقص بكل حماستنا. كانت هناء مجيدة للرقص الشرقي بإتقان شديد، وبرغم انسياب جسدها بالشكل الذي جعل رقصها رائقًا، فإن وجهها كان يحمل ابتسامة متشنجة. أما فاطيما فقد حافظت على ابتسامتها، وهي تتمايل، وتتثنى، وتغمز لي بعينيها كلما التقت أعيننا.

اقتربت من كبرياء في أثناء الرقص، وقلت له"ما تسيبش البيست لما الرقصة تخلص". بتوقف الموسيقى أنهى الجميع رقصهم، وبدأوا يتحركون عائدين إلى الطاولة، فتحركت معهم ببطء وعندما تجاوزني كبرياء توقفت فجأة، ولويت قدمي، كأنني تعثرت. توقعت رد فعله، وسرعان ما وجدته يمسك بذراعي. قبل أن أعتدل كانت موسيقى أغنية "أريد أن أنفق حياتي في حبك" لمارك أنتوني وتينا أرينا قد بدأت. اعتدلت ونظرت في عيني كبرياء، وقلت له هامسة: "أنا باحب الأغنية دي جدًا"، "أنا كمان، تحبي ترقصي"؟ و لم أكن أنتظر منذ بدأت هذه الليلة سوى هذا السؤال.

5

لم تستغرق سيطرة صوت نجوى - صوتي الحقيقي - على الأصوات الثلاثة الأخرى سوى أسبوعين، لكنهما كانا كافيين ليطمئن كبرياء لي، ويقع في غرامي.

لكن كما توقعت وجدتني أشعر بالتغير في مزاجي. فقد بدأت الأصوات الأخرى في مزاحمة وعيي بشكوكها (مدام سيادة)، وأرقها النفسي (المكتئبة)، ومتاعبها الروحية والوجدانية (شكوى هانم). لاحقتني صورة كبرياء في منامي، بأشكال سريالية، كمصاص دماء، يبدي رقة ودماثة مزيفتين، قبل أن يغرس أنيابًا مخفية، فجأة، في عنقي. كنت أستيقظ مرعوبة، تتسارع دقات قلبي، بينما جسدي مبتل بسبب غزارة العرق. بعدها كنت أتعمد عدم الرد على اتصالاته الهاتفية، وأتجنب أن ألتقي به نهائيًا. لكن إذا أحسست أن حماسته

لمهاتفتي قد خفتت قليلاً فإنني أنتظر أول اتصال منه لأحول حياته إلى جحيم. أسأله عن أسباب عدم اتصاله بي. فيقول لي بصوته العميق، إنه لم يفعل شيئًا سوى الاتصال بي على مدى أيام، وإنني التي لم أرد عليها، عندها تتقمصني شخصية "مدام سيادة" الكذابة، وأؤكد له، مقسمة، من دون أن يهتز لي جفن، أنني لم أتلق منه أية اتصالات. بعد تلك المكالمات كانت تنتابني رغبتان متنافرتان: الأولى هي النشوة الكاملة في أنني أتلاعب به كيفما أشاء (مدام سيادة)، والثانية هي مرحلة مظلمة من المقت الذي أكنه لنفسي (المكتئبة)، (نجوى)، إزاء ما أفعله بشخص يفترض أنه يمنحني مشاعره.

في أيام العذاب التي عانيت فيها من اختلاط الشخصيات معًا، كنت أفقد صوابي. خاصة إذا كنا نتناقش في السيارة، التي عادة ما كان يتولى قيادتها بدلاً مني. يبدأ صوتي في التعالي، وأشعر بارتجاف جسدي كله، رغم أن المشكلة المثارة ليست سوى مسألة تافهة؛ قد تبدأ مثلاً بأنه علق وهو يحكي إحدى حكاياته عن فتاة كان يعرفها فيصفها بأنها جميلة. هنا يسود صمتي للحظات، وعندما ينتهي من حكايته أبادره بسؤال غاضب: "وهل أنا لست جميلة"؟ "من يجرؤ على قول هذا الهراء"؟ "أنت قلت ذلك حالاً ألا تدرك ما تقول"؟ (صمت). "أنا؟ مستحيل". "بلى قلت ذلك، ألم تصف صديقتك تلك بأنها جميلة"؟ "وما علاقة هذا بك"؟ "انظر، أنا أثق بنفسي كثيرًا، وأعرف أنني جميلة، ولا أسمح لك بالتشكيك في جمالي". "أنا لم أشكك في جمالك إطلاقًا، من أين أتاك هذا الوهم"؟ "احرص على كلماتك، أنا لا أتخيل أشياء. إنت شايفني

مجنونة"؟ (ملامحه غاضبة، وصمت متحفز). "ما بتردش علي ليه.. شايفني مجنونة"؟

ينفجر غاضبًا "لماذا تصرين على أن تُقوِّليني أشياء لم أقلها"؟ "أنا لا أدعي شيئًا، أنت وصفت صديقتك بأنها جميلة". "وما الذي يغضبك في هذا؟ لو تحدثت عنك لأي أحد فسوف أقول عنك إنك جميلة أيضًا". "لا أحتاج لشهادتك". "طيب منفعلة ليه لما إنت مش مهتمة"؟ "يعني برضه مصر إنك تهيني"؟ هنا يتحول صوته إلى صراخ حاد بنبرة غليظة مخيفة "إنتي عاوزة تجننيني؟ أنا مش عاوز أتكلم في الموضوع ده". وبالرغم من رعبي، أو بسببه، أبدأ في الصراخ وأنا أطرق بيدي على "تابلوه" السيارة أمامي "خلاص نزِّلني هنا"، وعندما يزيد من سرعة السيارة، أفتح الباب الذي يجاورني، فيضغط على الفرامل بقوة حتى تقف السيارة محدثة صفيرا عاليا مباغتا، ومذهلا للمارة. يجذبني من ذراعي بعنف. "بتعملي إيه يا مجنونة"؟ "سيب إيدي إنت عاوز تضربني"؟ "إنتي عاوزة تجننيني؟ يلعن دين العيشة". "باقولّك نزلني هنا أحسن وديني أرمي نفسي من العربية". يلتفت لي غاضبًا ثم يجذبني من ذراعي بعنف، ليمنع خروجي من السيارة "اقعدي هنا، وتعالي سوقي ميتين أم عربيتك". ثم ينصرف لا يلوي على شيء.

في تلك الفترة العصيبة كنت كلما شعرت بأنه صرف النظر نهائيًا عن العلاقة، أعاود الاتصال به. نبدأ بالعتاب، والشكوى المتبادلة، ونصل إلى الحد الفاصل بين الغضب المجنون وقطع العلاقة، وسرعان ما تعود المياه إلى

مجاريها، وسرعان ما تعود العواصف أيضًا! لم أتمكن من فهم حقيقة اختلاط مشاعري وتعقدها على ذلك النحو، خاصة عندما كانت الأصوات الأربعة تختلط معًا. أحيانًا كنت أشعر بالشفقة تجاهه، لكني سرعان ما أردد لنفسي أنه إذا كان هناك من يستحق الشفقة فهو أنا.

كلما سقطت في دوامة الاكتئاب المقيتة تلك، كان يستنجد بهديل وفاطيما. وسرعان ما كانتا تقومان بزيارتي للاطمئنان عليّ ومحاولة إخراجي من تلك الحالة، ويصران على أن أرتدي ثيابي لأخرج معهما. كانت فاطيما تقول بعتاب محب إنها لا تصدق أن مثلي ترغب في الانتحار. الحقيقة أن أحدًا لم يصدق رغبتي في الانتحار أو يأخذها مأخذ الجد. كنت أبدو مرحة، محبة للصخب، وللرقص، وللملاهي الليلية، والجلوس للاستجمام على حمامات السباحة أو شواطئ العجمي، والساحل الشمالي. أبحث عن المرح وأجرب كل مكان جديد، وأرتب السفرات نهاية كل أسبوع من العجمي، إلى الإسكندرية، أو العين السخنة. أما الإجازات الطويلة فكنت أرتب لها رحلات طويلة إلى شرم الشيخ أو الغردقة. ما كان لأحد أن يصدق أنني أرغب في الانتحار. حتى كبرياء. لكني أظن أنه في أعماقه كان يصدقني، وهذا ما دفعه لكي يقف بجواري رغم كل الجنون الذي أصاب علاقتنا.

6

تعريت لكبرياء، لأول مرة، تحت تأثير الشراب. تشوَّشت مشاعري وأفكاري، وحتى الآن لا أعرف كيف تجرَّأت على ذلك، فالتعري، في تلك الليلة وما بعدها لم يكن وسيلة، كما هي خبراتي السابقة، تعقبه ممارسة الحب. لا. كان التعري لكبرياء هو الغاية، وليس الوسيلة. حينما فكرت أنني سأتعرى وأظل هدفًا لعينيه لكي يتأملني كيفما أراد ارتبكت، وترددت، لكن ترددي لم يستمر طويلاً بسبب الشراب الذي منحني بعض الإحساس بالشجاعة، بعد سهرة صاخبة. في تلك الليلة، على فراشه الوثير، تبادلنا القبل. وضع يده ليفك أزرار قميصي، فتشنجت. ابتعدت عنه. نهض، واقترب مني، ثم ركع على إحدى ركبتيه. أمسك يدي بحرارة، وأقسم لي أنه لن يفعل ما يضايقني إطلاقًا.

أخيرًا تحررت من ثيابي كلها، ونمت عارية على فراشه، كان جالسًا

على الكرسي المخصص للقراءة بجوار النافذة. انتشيت لفكرة أن جسدي أصبح فكرة جمالية خاصة، وأن هناك من يتأمله، كأنه يتأمل لوحة فنية متقنة جدًا لدرجة تماهيها مع الواقع. كنت على يقين من أنه يراقب جمال جسدي، لكنه أيضًا لا بد أن يكون مهتاجًا، يتمنى أن يخون ميثاقنا، يلمس كل جزء من جسدي. كانت فكرة أنه يشتهيني ولا يستطيع أن يقترب مني رغم عريي ترضي غروري، وتهدئ من وحشية صوت "شكوى هانم" الشرسة، الشهوانية حد الإيذاء. أدركت في تلك اللحظة أن صوت شكوى هانم، هو صوت السادية، والمعبر عن إحساسي العميق المطمور بالتلذذ بألم الآخرين. هل هو رد فعل المازوخية التي تسببت لنفسي فيها في علاقتي بشوكت؟

بعد تعريّ لكبرياء، لاحظت أنني أصبحت مستريحة مع جسدي أكثر من ذي قبل. لم أكن مستريحة مع عريي كما فاطيما وهديل. فاطيما كانت ذات جسد بالغ الرشاقة والتوازن، وسمرتها كانت لافته للنظر، وعندما كنا نذهب للبحر في العجمي، أو سيدي عبد الرحمن، كانت تتحرك ببساطة وتلقائية. أما أنا فكنت أشعر بالحرج في أثناء مشيي بالمايوه، رغم نشوتي بنظرات إعجاب الرجال، لكني لا أتمكن من التحرك بسهولة، أبدو كأنني أرتدي حذاء بمقاس أكبر، عرضة للتعثر في أي لحظة. أفضل أن أرتدي "جيب" قصيرة على المايوه، أو "كاش مايوه"، لأخفي فخذي وأردافي.

هديل أيضًا لم تكن تتحرّج من الاستلقاء على الكرسي، في أي وضع،

ومهما كان البكيني الذي ترتديه صغيرًا. بل كانت تقلد فاطيما في شرم الشيخ والغردقة، وتخلع "توب المايوه" ليكتسب ظهرها اللون البرونزي. لكنها كانت تتجنب المشي والحركة على الشاطئ كثيرًا، إلا في حالة وجود رؤوف في صحبتها.

بعد أن بدأت التعري لكبرياء أصبحت أكثر ارتياحًا مع جسدي، ليس في حضرته فقط، وإنما حتى في أي "بيسين" مما اعتدنا الذهاب إليه. "كلوب محمد علي" مثلاً، أو "سقارة كانتري كلوب" أو غيرهما. استعراض التعري لم يكن سهلاً كما كنت أظن. اكتشفت، في أثناء تعريّ، مدى مشقة عمل الموديل العاري. تمنيت أن يكون كبرياء رسامًا ليرسمني في لوحة، ويخلد جمالي. لكنه لم يهو سوى فن الخط. في وقت لاحق أذهلني بأعمال استوحاها من جسدي العاري.

لكن تلك الليلة، نفسها، كادت تنتهي بمشادة مروعة؛ لأنه اقترب ليقبلني. ضغط بشفتيه على شفتي حتى آلمني، وعندما أبديت امتعاضي، صعقني برد فعله؛ إذ أمسك أحد نهدي بقوة. صرخت، وهددته بأنني سأنصرف فورًا إذا استمر في سخافاته، فعاد إلى الكرسي بهدوء، وهو يتسم ابتسامة سخيفة باردة. ورغم كل شيء سامحته. كيف لي ألا أفعل وقد أهداني لوحة كتب فيها بخط جميل: "صنم للفتنة منتصب، أهواه ولا أتعبده". باغتتني الدموع ، ليس فقط تأثرًا بجمال اللوحة، ولا للطريقة التي عبر لي بها عن مشاعره، لكن لأنني أيضًا أحسست بمدى تعذبه من مراقبة جمالي، كابحًا استثارة جسده، دون أن يشكو، أو يتذمر. تذكرت

مدى خسة شوكت مقارنة بكبرياء، وتألمت لأنني بدلاً من توجيه سهام غضبي إلى شوكت، فإنني انتقمت منه في شخص كبرياء. أشعرني ذلك بالتعاسة. تأكدت من حبي لكبرياء، لكن ضميري التعس، ضميري الذي كان يبدو في غيبوبة موت تام، انتفض، وبسكاكين حادة مزق روحي. تكومت على نفسي، أعيش في كوابيس نومي الطويل، بلا طعام، أو شراب. فقط أستيقظ لأدخن مثل المدمنات وأعاود النوم، حتى إن العرق غيّر رائحة الفراش، وأغطية المخدات أصبحت محملة برائحة عطنة، جعلتني أشعر بالنفور من نفسي، دون أن أقوى على قرار الخروج من هذه الدائرة المقيتة.

اقتحمت أمي الغرفة في النهاية، وأخرجتني منها عنوة. فتحت النوافذ، وطلبت من الفتيات اللائي يساعدنها في تنظيف البيت أن ينظفن الغرفة جيدًا، ويقمن بتهويتها قبل أن يغيرن الملاءات والمخدات، ويعطرن الغرفة. أدخلتني للحمام وأنا لا أقوى على الوقوف باتزان، وحممتني بنفسها. ثم استدعت لي طبيبًا، طلب أن توضع في يدي محاليل الجلوكوز، وطلب من أمي ألا تعرضني لأي توتر في المستقبل.

7

في اليوم الذي عرفت فيه نجوى بخبر حملها من كبرياء، تلقت خبر وفاة أمها. وهو اليوم نفسه الذي شهد مناوشات ثارت بين فرق عديدة في أنحاء متفرقة بين من عرفوا باسم "المحفوظيين" أي أنصار نجيب محفوظ، وبين"جماعة المحافظين"، الرافضين لكل تراث الأدب، الذين يرون في اختفاء كتب محفوظ معجزة من السماء ضد الضلال.

اتسمت المناوشات بطابع درامي، حين اقتحم مجموعة من "المحافظين" ورشة فنية لعدد من النحاتين الذين يعتبرون من "المحفوظيين". قرروا تنفيذ منحوتة عملاقة لنجيب محفوظ بدلاً من تلك التي اختفت، ونسخ نماذج مصغرة منها، بحيث توزع على عدد من الميادين. إلا أن "جماعة المحافظين"، شنوا هجمة، بالجنازير والسنج، على تلك الورشة، وحطموا التمثال العملاق، وكذلك القطع النحتية الصغيرة، وفروا هاربين.

انتشرت أخبار المناوشات في الصحف، وأثيرت وقائع التحرش المتبادل بين الفريقين في عدد من القنوات التليفزيونية. وخرج المسئولون يؤكدون على أن الأحداث لا علاقة لها بنسيج المجتمع المصري الذي عاش موحدا مدى عمره.

بسبب صدمة معرفتها بوفاة أمها انهارت نجوى. أصابتها حالة من الخرس الوقتي. تلقت العزاء دون أن تنطق بحرف. استمعت لحكايات المعزيات، من الجارات والأقارب، بهدوء، واكتفت بهزات رأسها المتلاحقة. لم تفتح فمها، لكلام أو طعام. لم ينجح أحد في إخراجها من تلك الحالة، أو يقنعها بأن تأكل شيئًا. أما كبرياء، فبعد عدد من المحاولات أدرك أنها دخلت مرحلة من مراحل عنادها الصارمة.

فاجأها شعور عميق بالحزن على وفاة أمها. أحست أنها رغم كل المرارة التي سببتها لها أمها، وسوء التفاهم المستمر الذي وسم علاقتهما، أصبحت تفتقدها بشدة. شعرت بوطأة الفقد، بلا أمل في أن ترى أي منهما الأخرى للأبد. عادت الشخصيات الأربع؛ دفعة واحدة، ونشب بينهن صراع عنيف سبب لها تشتتًا ذهنيًا وعصبيا، أحست بسببه أن رأسها على وشك الانفجار. فبينما كانت "نجوى"، التي تلقت خبر حملها سعيدة سعادة داخلية عميقة لأنثى عرفت معنى الخصوبة، وتأكدت من قدرتها على أن تحمل روحًا تنبض داخل رحمها، فإن "المكتئبة" رفضت الحمل بكل ضراوة، لما سيتبعه من أزمات نفسية لم تكن لديها القدرة على مواجهتها لها في ذلك الوقت.

قررت "المكتئبة" أن تترك أمها وتعيش في كنف كبرياء لأنها شعرت

في بيته أنها أخيرًا تعيش في مساحة خاصة بها، غرفة تخصها وحدها، وكبرياء ليس سوى جزء من خصوصيتها تلك. كان ذلك هو كل ما تحتاج إليه المكتئبة؛ غرفة خاصة تستمع فيها للموسيقى، أو ترقص فيها بحرية كاملة. غرفة تشعر فيها بأنها سيدة نفسها، وليست موضعًا للتسلط من قبل أي أحد، وخصوصا أمها. وهي الغرفة نفسها التي عرفت فيها المعنى الجمالي الخالص للتعري، أن يكون جسدها موضوعًا للجمال النقي في أكثر صوره الفطرية تألقًا. بالإضافة إلى أن تلك المساحة الخاصة لاقت قبولاً من كبرياء. لم يكن متعجلا لأي شيء. ليس لأنه سلمها قياد العلاقة، وإنما لأنه كان، في أعمق أعماق روحه، يعرف جيدًا أنه يحبها. ولأجل هذا الحب كان مستعدًا لأن يضحي بأشياء كثيرة. بالأحرى كان على استعداد لتأجيل رغباته الحسية لبعض الوقت. فمشاعر الحب العميقة التي تملكته هي التي جعلته يتفهم أسباب نأيها برغبات جسدها واستبدالها بحسية الجمال الجسدي، وشهوة الاستعراض. المكتئبة كانت تعرف مدى عمق محبة كبرياء لها، منذ غزواته المستمرة في فراشها بعد أن قررت أن تمنح نفسها له، وتقبل عطايا جسده، وصولاً لتلك اللحظة الفريدة التي بدأت في المرة السابعة لمحاولتهما الجسدية.

لكن حب "نجوى" المطلق لكبرياء، وتحفظ "المكتئبة" على الحمل، رغم معرفتها العميقة بمشاعر الحب التي يكنها لها، واجهتها سموم السوداوية التي أطلقتها "مدام سيادة"، الشكاكة، الكذابة، التي وجدت نفسها فجأة في مواجهة مأساة لم تخطر لها من قبل. كانت كل قواها موجهة، فقط، لإغاظة أمها، وإثارة غضبها، واستفزازها، وتحديها، والبحث عن خطط

مستمرة لسهرات وخروجات من شأنها أن تكدرها وتسبب لها القلق والغيظ. والآن وجدت "مدام سيادة" نفسها في حالة لا تحسد عليها؛ إذ إن الأم قد راوغتها، وماتت. حملت إلى قبرها بلا مقدمات وبلا رجعة. بدأت "سيادة" تتخبط من الصدمة المروعة حتى خارت قواها، لم يعد هناك ما يحفزها للكذب، أو لاستفزاز الأم، حتى فكرة التعري في البيت لمجرد مضايقة الأم لم يعد لها معنى. لا جدوى لأي شيء. وتضامنت مع "المكتئبة"، وقررت أنه الدور الوحيد المناسب لها بعد أن فقدت المبرر الوحيد لوجودها وغضبها وثورتها المستمرة. هكذا أصبحت نجوى مسكونة بثلاث شخصيات فقط، إحداها تمتلك قدرًا ثقيلاً من السوداوية والاكتئاب. لكن "شكوى هانم" الحقودة، الشرهة للانتقام وتنغيص حياة المقربين منها، لم يعجبها القوة المضاعفة لحالة الاكتئاب تلك. بالأحرى لم يعجبها تضامن "المكتئبة" و"سيادة" معًا، فشرعت تسمم عقل نجوى بفكرة مريضة مفادها؛ أن "سيادة" تسببت في قتل الأم، لأنها المحرضة الأولى على انتقال نجوى لتعيش مع كبرياء، ولأنها التي منعت نجوى من التزام الحذر، وصولا لمأساة الحمل.

نجوى لم تستطع استقبال المسألة على هذا النحو، فبدأ عقلها يقدم لها حيلة بديلة. فبعد الأيام الثلاثة التي أعقبت وفاة الأم، والتي تلقت خلالها العزاء بصمت كامل، قررت أن تغلق فمها حرصًا على صحة الجنين وخوفًا مما قد يلوثه من هواء تستنشقه بفمها. وضعت كمامة على وجهها، حتى وهي جالسة في البيت لتضمن نقاء الهواء الذي ستضطر لتنفسه. بعد يومين آخرين كاملين رضخت لضغط كبرياء، الذي جلس بجوارها على الفراش

ممسكًا بطبق وضع فيه قدرًا من الحساء، وأصر على أن يناولها إياه بنفسه. تجرعته وقد قطبت جبينها، ولهاثها يتعالى، كأنها تتناول سمًا من عدوها قسرًا. فور أن انتهت، نهضت من الفراش، واتجهت إلى جهاز التسجيل وحركت مؤشر الصوت فعلا صوت الموسيقى إلى أقصى درجاته. لم تكترث لنظرات كبرياء المتسائلة. توجهت للحمام، وشرعت في وضع أصابعها في فمها، في محاولة لإجبار نفسها على التقيؤ. جلست على أرض الحمام. تنهدت بعمق، كأنها أزاحت عن كاهلها غما، وأمسكت بطنها برقة، وربتت على الجنين تطمئنه بأنه لا يمكن أن يصيبه أي أذى طالما هي المسئولة عن حمايته، ثم أمسكت بطنها بقوة إثر المغص المباغت الذي اقتحم أحشاءها فجأة، وحرصت على أن تضع أسنانها على شفتيها حتى تتحمل الألم وتمنع نفسها من إخراج أي صوت.

8

أخبركم قرين كبرياء أن عواطفنا، نحن معشر الجان، هي التي تتحكم في علاقاتكم العاطفية والحسية، ورغم أنه انتهك، بذلك، سرًا من أسرارنا، لكنه، لم يوضح شأنًا آخر، قوامه؛ أننا نتحايل من أجل ذلك، ونوقع في الغرام إنسًا قد لا يمكن لأي منهم أن يقع في غرام الآخر، في الظروف العادية. نعم، فعادة ما نوحي لمن نقترن بهم، نحن العاشقين من قرنائكم، لكي يقعوا في غرام بعضهم البعض، وإغوائهم لكي يمارسوا الحب معًا، لأن هذا يحقق لنا توقيتًا رائعًا ومتماثلاً لكي نمارس فيه الجنس نحن أيضًا.

وحتى أقطع عليه الطريق نهائيا لأية مغالطات لاحقة قد يسربها، إذا تمكن من السرد مرة أخرى، أقول لكم إنه تسبب في كارثة، وأغوى كبرياء بخيانة نجوى وهي في أشد مراحل حياتها يأسًا، وأكثرها بؤسًا.

كانت نجوى نائمة في غرفتها، لا تشعر بأحد، ولا بشيء، بينما هما

يجلسان في غرفة المعيشة. حضرت فاطيما إلى شقة كبرياء لزيارة نجوى. أطلت عليها في غرفة نومها فوجدتها تغط في نوم عميق. لكنها ارتعبت من مظهرها. خرجت فاطيما من الغرفة وهي تتحسر على صديقة عمرها التي تحولت لما يشبه جثة بلا حول أو قوة، وفور وصولها لغرفة المعيشة بكت فجأة. حاولت أن تكتم نحيبها بلا جدوى. فقد كان مظهر نجوى مأساويا؛ تتنفس بصعوبة، وجهها مزرق، بينما انتشرت مجموعة من الشعيرات الدموية الدقيقة في أجزاء متفرقة من وجهها. عظام وجنتيها بارزة، وشفتاها زرقاوان تبدوان متورمتين مقارنة بوجهها النحيل.

كان كبرياء يجلس في غرفة المعيشة واجمًا. عيناه زائغتان. يحدق باتجاه السقف. لم ينتبه لصوت نحيب فاطيما، إلا عندما جلست بجواره. وضع يده على كتفها، لكنه لم يستطع الرد على أي من أسئلتها. ظل يحدق بعينيها اللتين فاضتا بالدموع، بينما كان جفنا عينيه محمرين، وعيناه غارقتين في دموع لا تسيل. بعدها جلسا متجاورين، كل في عالمه. لم تتوقف دموع فاطيما، بينما شرع كبرياء، بلا وعي تقريبًا، يحرك يده على كتفها العارية..

ظلت فاطيما واجمة لوهلة، ذاهلة، لا ترى شيئًا. التفتت لكبرياء. نظرت إليه فلمح في عينيها مزيجًا من الحسرة والشفقة. احتضنته. ثم نهضت إلى غرفة نجوى. ألقت عليها نظرة حزينة، ثم اقتربت منها، وقبلتها قبلة حانية. أمسكت بيدها وقبلتها أيضًا. راعها برودتها، فأجهشت فجأة وخرجت من الغرفة بسرعة. صحيح أنهما لم يمارسا الحب في ذلك اليوم،

لكن القدر رتب لهما لاحقًا لقاءين متعاقبين. في كلتا المرتين خانني عشيقي بممارسة الجنس مع "قرينة فاطيما" التي كانت، مثلها تمامًا، لعوبًا لا تشبع من ممارسة الحب، ولا ترتوي منابع لذتها، بينما أنا ملتصقة بنجوى، التي كانت غيبوبة مرضها، وهلاوسها، قد بلغت حد النهاية.

9

لم تتح لي فرصة التعرف على قرين لشخصية من شخصياتكم الأولى، لكني سمعت، وعرفت أن العلاقة الجنسية في تلك المرحلة البدائية من الحياة كانت عنفًا بدائيًا؛ أو بالأحرى؛ مواقعة وحشية، ممارسة لا تتولد حميميتها سوى من طاقة العنف، والألم. بهذه الطريقة مارست نجوى الجنس مع كبرياء مرات عدة. كانت تحب الجنس العنيف أحيانًا. تستثيرها حركته العنيفة، وقوة حركة أصابعه على جسدها. تشعر في تلك اللحظة، بأنها تصغر ليحتويها. تتمكن منها الرغبة في أن تصبح تحته بالمعنى المعنوي للكلمة. وعندما ترى ملامح وجهه وقد اكتست بالجدية، في أثناء حركته القوية لعقًا لجسدها، وتدليكًا، وتمسيدًا، وعضًّا لحلماتها، في تلك اللحظات، تستثار تمامًا. بهذا العنف أمسك كبرياء بذراعي نجوى وهو يهزهما، ويصرخ فيها: " إنتي عاوزه تموتي ليه"؟ "ردي عليَّ.. ما تجننيش".

لكنها لم تكن تفعل شيئًا سوى أن ترفع إحدى يديها بوهن وتضعها أمام وجهها كأنها تحمي نفسها من أذى غامض محتمل، دون حتى أن تملك الطاقة اللازمة لكي تبقي جفنيها مفتوحين، فلا يزيده صمتها إلا جنونًا. أصبح امتناعها عن الأكل علنيًا، وبدلاً من تناول الطعام، وتقيوءه، بدأت تُظهر اعتراضًا شرسًا على فكرة تناول الطعام، وتسرع إلى ورقة من الأوراق الموضوعة على المكتب، لتكتب عليها "لو غضبت عليَّ آكل هاموّت نفسي"، ثم تمد الورقة وتضعها أمام عينيه بغضب. ضغط على أسنانه، وخفف من صياحه، لكن دون قدرة على التخلص من نبرة الغيظ: "لو إنتي عاوزة تموّتي نفسك ذنبه إيه اللي في بطنك يا حبيبتي"؟

لكنه لم يستطع التوقف عن إلحاحه العصبي هذا لدفعها لتناول أي شيء. وبسبب هذا الإلحاح المتواصل داهمتها نوبة عصبية؛ إذ كانت على يقين من أن دخول أي شيء لجوفها سيعرض الجنين للموت، وتعاظم يقينها فجأة بأن كبرياء يريد أن يدس لها السم بإقناعها بأن تتناول الطعام من أجل الطفل. دفعته بعنف، ثم تمادت فرفعت إحدى ساقيها ودفعته بإحدى قدميها بما تبقى لها من طاقة، وهي جالسة على كرسيها الذي لا تتحركِ من عليه إلا نادرا.

لم يكن هذا هو ما أثار جنون كبرياء، لكنه لاحظ، بينما كان ممسكا بذراعيها، أن بشرتها، فقدت نعومتها، وجفت لدرجة أنه وجد طبقة منها، تنثني عند الضغط، وتنطبق على بعضها بعضًا، ولا تعود لوضعها الأول بسرعة مثل مرضى الجفاف. جن جنونه. رفع ذراعه، وهوى بكف

يده على وجنتها. فصرخت. كانت تشعر بألم حارق مفاجئ، وسرعان ما انتقلت نيران الألم إلى وجهها كله بسبب ضعفها الشديد. لكنه لم يتوقف، وإنما أعاد الكرّة، حتى بوغت بها تسقط على الأرض فاقدة للوعي. شق صدره ألم حاد لم يكن سوى رد فعل الخوف الهستيري الذي داهمه. بعد أقل من نصف ساعة عاد للبيت مصطحبًا رجال الإسعاف الذين نقلوها إلى المستشفى في أجواء تشوبها العصبية، وهتافات تطلب التحرك السريع. بينما نجوى تتخبط في غيبوبة الغياب الأخير.

الجزء الثاني

فصول من سيرة كاتب الكاشف

1

يبدو أنني فقدت سطوتي، نعم. أصبحت مثل خيال مآتة، أتعكز على خشب رخيص لأخيف طيورًا افتراضية لا تخشاني من الأساس. هكذا أصبحت منذ قرر الشخص الذي أقترن به التوقف عن الكتابة. لست قرينًا كما قد يبدو من كلامي، لكني "شيطان كتابة" إذا شئتم. نعم أنا شيطان كتابة وذلك الشخص هو كاتب، لو اهتممتم أن تعرفوا اسمه فهو "كاتب الكاشف". غالبًا لم تسمعوا اسمه قبل ذلك، وهذا طبيعي إذ إنه لم ينشر شيئًا من قبل. المعلومة الأخيرة تبدو محرجة لي؛ إذ تهيئني لكم في صورة شيطان كتابة فاشل، ليس لديه ما يمكنه أن يلهم به أحدًا. لكن الحقيقة غير ذلك. ولكم أن تعرفوا مبدئيًا أن كل ما قرأتموه سابقًا هو نص رواية من الخيال، كنت أنا ملهمه الأول والأخير. ربما سيصدمكم أن تعرفوا أن كل ما قرأتموه ليس سوى محض خيال لا أصل له في الواقع، فلا وجود لـ"كبرياء"،

أو "نجوى"، أو غيرهما مما ورد في النص، وأنه ليس سوى خيال كاتب، قرر أخيرًا أنه أصيب بـ"سكتة كتابية"، وافترض أن الفصل الأخير مما قرأتموه هو نهاية الرواية. لكنني أؤكد لكم أن ما يدعيه ليس صحيحًا، لقد ألهمته بالفصل الأخير، الذي امتنع عن كتابته، والذي تنكشف فيه حقيقة ما حدث لكتب "نجيب محفوظ". وكان مقتنعًا بأحداث ذلك الفصل الذي تدور أحداثه في مرحلة ما، خارج الزمن؛ تنتمي لعصر سحيق كانت مصر فيه هي سيدة العالم.

لكنه توقف فجأة بعد أن انتهى من الفصل الأخير، الخاص بنجوى، مرددًا لنفسه أن كل ما كتبه ليس سوى مجموعة من الأكاذيب المختلقة التي تصيب بالغثيان، وأن الفصل المعد في ذهنه عن شخصية رفيق فهمي، نزيل دار المسنين، وعلاقته الغامضة بكبرياء، لا ترقى لأن تكون فصولاً جيدة في رواية، وأن النهاية التي كان يفترض أن يكتبها ليست مقنعة، وليست سوى ثرثرة لا تجدي نفعًا. وضع أوراقه في الدرج بجوار الروايات الخمس التي كتبها سابقًا، ولم ينشرها لأنها لم تكتمل لنفس الأسباب. وضع المفتاح في درج المكتب وأداره عدة مرات، حتى لا تساوره نفسه للعودة لهذا النص أو غيره. وإمعانًا في التأكد من أنه لن يعود لذلك خرج إلى عشيقته. ناولها المفتاح، وطلب منها أن تضعه في حقيبتها، وألا ترضخ له لو عاد وطلبه منها مرة أخرى لأي سبب من الأسباب. عشيقته التي كانت تتعامل معه بوصفه شخصًا غريب الأطوار لم تسأله عن سبب ذلك، بسبب اعتيادها على غرابة أطواره، ولأنها كانت قد جلست تتابع فيلما سينمائيًا خلال فترة وجوده في غرفة المكتب، فقد تناولت منه المفتاح

ونهضت بسرعة وهي تعدل من ثوب النوم القصير، واتجهت إلى المنضدة التي تضع حقيبتها عليها. ألقت فيها بالمفتاح الصغير وعادت مرة أخرى إلى حيث كانت تجلس، دون أن تنظر إليه. فهم أنها مستغرقة في مشاهدة الفيلم، وأنها ليست مستعدة لحوار أو مقاطعة حتى ينتهي الفيلم، فرضخ بلا أي مقاومة. اتجه إلى المطبخ. فتح باب الثلاجة، وبحث عن زجاجة بيرة. وجد واحدة فالتقطها. نزع غطاء الزجاجة الخضراء، ورشف منها جرعة أظهرت له مدى عطشه. سألها إن كانت ترغب في شيء تشربه. أشارت إلى كوب بيرة ممتلئ أمامها وقالت إنها لم تنته من شربه بعد. جلس على الأريكة المجاورة للكرسي الفوتيه الوثير ذي اللون الأزرق الذي كانت تجلس عليه باسترخاء. تأمل ساقيها العاريتين، المستندتين إلى المنضدة الزجاجية القصيرة التي كانت تتوسط غرفة المعيشة، وكانت قربتها من الكرسي قليلا لتتمكن من إسناد ساقيها عليها. تأمل مطلع فخذيها الذين انحسر عنهما رداء النوم الشفاف الأسود. لاحظ استغراقها فيما تشاهده، فتجرع من زجاجته رشفة أخرى. أشعل سيجارة من علبة سجائرها، ثم قدم لها واحدة. نظرت إليه بوجوم، وهزت رأسها نافية رغبتها في التدخين. استفزه رد فعلها، فالتفت إلى الشاشة. كان المشهد من فيلم يحبه هو فيلم "المريض الإنجليزي". وهو أيضًا فيلم يثير غيرتي شخصيًا، لأنه أكد لي أن بعض النصوص الجيدة يمكن أن تتحول إلى صورة جيدة بنفس قيمة النص، بالرغم من أنني أعتبر كل محوِّلي النصوص إلى السينما ضعيفي الخيال، ذوي قدرات متوسطة أو محدودة.

دعوني أسّر لكم أنني صديق لشيطان كتابة كاتب كندي يدعى

"مايكل أونداتجي". من بين شياطين الكتابة في عالمكم يعتبر شيطانًا موهوبًا، وشخصيًا سمعت منه كلماته التي وهبها لشخصية عشيقة المريض الإنجليزي حينما تركها الكونت دي ألماسي في الكهف وهي مكسرة العظام: وأرجوكم أن تتمثلوا حالتها، فاقدة للقدرة على الحركة، داخل كهف في بطن جبل عملاق في وسط الصحراء، لا يدخل إليه الضوء إلا لمامًا، ولا تمتلك طعامًا أو شرابًا:

"حبيبي أنا أنتظرك".

"ما مدى طول النهار في الظلمة"؟

"انطفأت النار الآن، وأنا أشعر ببرد قارس".

"كان عليّ الخروج".

"لكن هناك أشرقت الشمس على الرسومات بينما أكتب هذه الكلمات".

"نموت".

"نموت أغنياء بالعشاق وبالقبائل".

"وبأذواق ابتلعناها".

"أجساد ارتديناها وسبحنا فيها كالأنهار".

"وفيها خبأنا مخاوفنا كهذا الكهف البائس".

"أريد أن يكون كل هذا علامة بارزة على جسدي".

"كأسماء البلدان والحدود المرسومة على الخرائط".

"مع أسماء الرجال الأقوياء".

"أعلم أنك ستأتي وتحملني خارجًا إلى قصر الرياح".
"هذا كل ما أردته".
"انطفأ النور وأنا أكتب في الظلمة".

رددتُ الكلمات من بعد ما سمعتها، من شيطان كتابة مايكل أونداتجي، عشرات المرات، حتى حفظتها؛ فكررتها آلاف المرات، وأصبحت أستدعيها مثل الملتاثين، بنفس درجة تكراري لكلمات أوحاها صديق آخر هو شيطان كتابة كاتب تركي يدعى "أورهان باموق" في روايته "اسمي أحمر" وأهداها لشخصية "نظير أفندي " لينطق بها في الرواية قائلا: "لن أهدأ في قبري حتى لو دفنوني في قبر رائع، وسأبقى أبثكم اللا إيمان". "جدوا ابن القحبة قاتلي، وأنا أحكي لكم بالتفصيل عما رأيته في الحياة الآخرة".

لكني الآن مستفز من ابن القحبة هذا "كاتب الكاشف" الذي رهن اسمي باسمه بينما هو يقرر أن يكون فاشلاً. يستهلكني لألهمه الأفكار، ثم يلقي بها في النهاية في درج مكتبه وائدا إياها، ويتسلل إلى عشيقته واعدا نفسه بليلة حب ساخنة ينهك فيها نفسه، بعد أن يشرب حتى يقارب فقدان الوعي، كأنه يغيب نفسه لينسى الرواية التي كتبها ويميتها في أعماقه. الفصول التي أنجزها من الرواية استغرقت منه خمس سنوات. كان خلالها متفرغًا للكتابة تمامًا. أي أنه كان يكتب كل يوم تقريبًا. لكنه أصيب بوسواس يقول له إن ما يكتبه لا قيمة له. لذلك كان يكتب لمدة أسبوع أو أسبوعين بتدفق، وعندما ينتهي من أحد الفصول، يمزق كل

ما كتب، ليس لأن ما كتبه لا يعجبه، وإنما لأنه اكتسب قناعة جديدة تقول: إنه لكي تكون كتابته جيدة فإنه سيعيد كتابة ما سبق أن قام بسطره على الورق، وهكذا؛ كان يمزق الأوراق التي كتب عليها، ويشرع في إعادة الكتابة، على يقين من أنه إذا كانت الفكرة التي سبق له كتابتها أصيلة فإنه سيتمكن من استدعائها بسهولة، أما إذا كانت غير ذلك فسوف تسقطها ذاكرته، وإلى الأبد.

عندما باغتني بهذه الفكرة عاندته وقررت ألا أقدم له أية مساعدة في خلال فترات إعادة الكتابة تلك. لكنه في الحقيقة، أبهرني بقدرة ذاكرته على استعادة النص، مع تغييرات لا تكاد تذكر. لكن ذلك كان يستغرق منه وقتًا طويلاً. والآن، وبعد أن أوشك على إنهاء النص، وضعه في الدرج واعتبره كأنه لم يوجد فماذا عليّ أن أفعل؟

هذا الغبي لا يدرك أنه يتسبب في إحراجي بين أقراني من شياطين الكتابة الذين يعتبرني الكثير منهم صاحب موهبة رفيعة في السرد، بل تنبأ لي بعض منهم بإمكانية وصولي إلى مصاف عباقرة شياطين الكتابة من أمثال "شيطان دوستويفسكي" نفسه. لكنني الآن لست سوى واحد من أولئك القرناء التافهين الذين يدعون أنهم شياطين كتابة ويلهمون أشخاصًا محدودي المواهب وساذجين ممن يحبون القراءة فيظنون أن بإمكانهم أن يمارسوا فعل الكتابة، متسببين في كوارث عديدة عبر إنتاج ركام من نصوص تافهة، تفتقر الحد الأدنى من المعرفة بجمال اللغة، يظنونها قطعًا من السرد العبقري، دون أن يدركوا أن ما يفعلونه هو أكبر الأخطاء التي ارتكبوها في حياتهم. الوحيدة التي تعرف حجم موهبتي هي قرينة عشيقة

كاتب الكاشف، فهي التي كانت تقرأ ما ألهمه له من أفكار وخيال عبر شخصية العشيقة التي تقترن بها.

لكن هذه العشيقة، وبعد العام الأول من علاقتها بهذا الكاتب اكتشفت أنه شخص غريب الأطوار، وفاشل وفقًا لمفاهيمها عن الفشل، وأنها لن تتمكن من إقناعه بنشر كتاب واحد، فاكتفت بقراءة ما يكتبه وفي مناقشته أحيانًا، وبالاستمتاع بقراءة نصوصه، خصوصًا بعد أن أقنعت نفسها بأنه يكتب لها هي وحدها، وهي الفكرة التي بدت لها مغرية تماما، فسرعان ما وقعت أسيرة لها، لأنها جعلتها تشعر بقوة جاذبيتها وتأثيرها عليه، من جهة، وتاليًا لأنها جعلتها تدرك مدى تقديره لها. وهكذا استسلمت تمامًا لمنطقه المتخاذل، وتوقفت عن مراجعته في فكرة النشر نهائيًا.

ولكن ماذا عني أنا؟ هل سأظل أدور في هذه الدائرة الفارغة. أنا أحترق بالخيال، أي أشتعل بتوليد الخيال من بعضه بعضا، وبلا توقف. لهذا وُجدتُ، ولنفس السبب تقرر اقتراني به. فلماذا أقترن بفاشل مثله؟ ألم يكن الأجدر بي أن أقترن بشخص مثل بول أوستر مثلاً؟ أو سلمان رشدي، أو د. هـ. لورانس؟ أو شاعر مثل بودلير، أو أمثالهم من الموهوبين؟ لماذا أوقعني حظي مع كاتب الكاشف الفاشل؟

إليكم الآن ما قررته. ليكن ما يريد أن يكونه. نعم، إذا أصر على فشله، فهذا شأنه، لكني لن أقبل بذلك. سأقاوم، بأن أستمر في أداء دوري، لكني في هذه المرة سأنتقم منه شخصيًا. نعم. سأمارس الدور الذي ينبغي لي أن أمارسه منذ زمن بعيد. سأحكي لكم سيرته هو شخصيًا، بكل إيجابياته وكل مثالبه. سأقص لكم تفاصيل غرابة أطواره،

وأعرفكم على أسراره، وبينها ما لا يعرفه هو عن نفسه. في النص الذي قرر إعدامه، كتب أن السبب في عشق رجل وامرأة ليس عقلانيًا لأنه يعود لعلاقة تربط قرين الرجل بقرينة المرأة، وأنا أوافق على ذلك لحد بعيد. لكن ما لا يعرفه مثلاً أن هناك أحيانًا بعض الاستثناءات، ومنها علاقته بعشيقته هذه واسمها "جيسيكا". فقد وقع في غرامها ليس لأنني واقع في غرام قرينتها. لا، أنا لست من المغرمين بالقرينات على أية حال. وإنما لأسباب فنية محضة، وإن شئتم الدقة، فقد حدث ذلك لأسباب سينمائية تمامًا. نعم، فمثلما تدخلت الكاميرات التي تراقب كل شيء الآن لتحتل دورنا كقرناء ملاصقين للبشر تدريجيًا، فإن السينما تفعل الشيء نفسه. وهذا ما سأشرع في توضيح تفاصيله على وجه السرعة.

2

عندما شاهد "كاتب الكاشف" فيلم "المريض الإنجليزي"، للمرة الأولى، كان يجلس في قاعة إحدى دور العرض بوسط البلد. استحوذ عليه الفيلم، وسيطر على مشاعره. بل إنه بكى، بصمت، في عدد من المشاهد. فقرر أن يحضر العرض اللاحق مباشرة، وفوجئ بأن الفيلم، بعد المرة الثانية لمشاهدته يشحنه بشحنة عاطفية لا يستطيع أن يفسرها، فعاد في اليوم التالي، واستمر يحضر لدار العرض في الحفلة الصباحية، ويعيد مشاهدة الفيلم لمدة أسبوع كامل، في نفس القاعة، وتقريبا نفس المكان: مقعد الطرف المطل على الممر في نهاية صفوف القاعة العلوية. بعد عدة أشهر صدرت ترجمة الرواية التي نقل عنها الفيلم فسارع باقتنائها، وقرأها بنفس درجة حماسته لمشاهدة الفيلم. لاحظ مدى حساسية وذكاء المخرج الذي استطاع نقل شاعرية النص وحساسيته للشاشة. وحتى التغييرات

التي أجراها على شخصية "كيب" الهندي خبير المتفجرات، وتدخلاته في ترتيب بعض الأحداث على الشاشة للتحايل على تكنيك الكتابة الحداثي، بدت له مقبولة، بل وذكية. ما لم يدركه كاتب الكاشف أنه في تلك الأثناء، وعلى مدى عدد من السنوات اللاحقة، كان حبه يتراكم لشخصية "كاثرين كليفتون" عشيقة المريض الإنجليزي، كما جسدت دورها الممثلة "كريستين سكوت توماس".

تراكمت شخصيتها في أعماقه، يومًا بعد آخر، دون أن يعي ذلك. لم تكن فاتنة، لكنها كانت جذابة . ثمة شيء باطني ساحر يتعلق بشخصيتها. "كاثرين كليفتون"؛ ذلك الهدوء الذي يخفي ثقافة، ومشاعر متوهجة، وفتنة داخلية، لا يمكن أن تكشفها إلا لمن يقترب منها كثيرًا. العينان الذكيتان اللتان تتصنعان السذاجة، كأنهما حيلة لإخفاء ذكائهما؛ المفتوحتان على اتساعهما، بينما تبدوان، في نفس الوقت، ساهمتين، ساحرتين، تخفيان أكثر بكثير مما قد تكشفان. طبقة الصوت الهادئة التي تبدو مملة، بعد اعتيادها، سرعان ما تصبح أكثر همسًا، ورقة، في حال الحب، لتصنع مع مساحة الصمت معنى عميقًا، يتوغل في روح عاشقها، فلا يزول أثره للأبد.

حينما التقى كاتب الكاشف بجيسيكا لأول مرة أعجب بها فورا. افتتن بها، دون أن يفهم السبب. رآها في بهو مسرح الأوبرا بالمصادفة؛ حيث كان يشاهد عرضًا مسرحيًا راقصًا. كانت تتسم بجبهة عريضة، وعالية، تخفيها بخصلات كثيفة من شعرها. و لم ينتبه "كاتب" إلى اشتراك جيسيكا في هذه السمة مع "كاثرين"، لكنه اعتبر هذه الصفة من ملامح

فتنتها. خرج في الاستراحة ليدخن سيجارة. لمحها، تقف، في ركن بمفردها تتحدث في هاتفها المحمول. كانت ترتدي فستانًا أخضر طويلاً تلتمع أطرافه بتطريزات فضية جميلة. عندما انتهت من مكالمتها الهاتفية. لم تتحرك من مكانها، وإنما أخرجت من حقيبتها علبة سجائر، وبدأت في التدخين. قرر أن يقترب منها، وأن يبدأ حوارًا بأي شكل. سمعت صوته محييًا، فالتفتت إليه، مسدلة نصف جفنيها، مبتسمة، ومرحبة، ومندهشة قليلا. التقط نظرتها وهو يؤكد لنفسه أنه لن يتراجع.

مع ذلك لا يمكن اعتبار أن جيسيكا تشبه كاثرين، فقد كانت أجمل؛ عيناها زرقاوان، وبشرتها حليبية، شعرها بني داكن، وناعم، عيناها تطلان بنظرة مؤثرة، كانت مدربة جيدا على أن تجعلها تبدو حالمة، حينما تسدل جفنيها نصف إسدالة، وهي تستمع لمن يحدثها، خاصة من تريد أن تترك في أعماقه أثرًا عميقًا. تترك انطباعًا لمن يلتقيها بأنها مثقفة، واسعة الاطلاع، بينما هي ليست كذلك في الحقيقة، لكنها واضحة الأفكار، متحذلقة، ولديها قدرة كبيرة على الجدل. لم يعرف بأي لغة يحدثها. فهي تبدو مصرية ذات أصول أجنبية، لكنها أيضًا، قد تعطي الإحساس لمن يراها من بعيد بأنها أجنبية. فقرر أن يحدثها بالإنجليزية.

سألها: "هل تشاهدين العرض بمفردك"؟ سددت له نظرة تعبر عن دهشتها من اقتحامه لها على هذا النحو، وفكرت أن تقول له فورًا "ما شأنك"؟ لكنها، وهي تحافظ على ابتسامتها الناعمة هزت رأسها بالإيجاب. قال لها: "أنا أيضًا أشاهد العرض بمفردي، وأحتاج أن أتعرف على انطباعات الآخرين، هل أعجبك"؟ ابتسمت له، وهي تسدد نظرة

ذات مغزى. فلم يكن لديها أدنى شك في أنه يغازلها. لكنها اعتبرت سؤاله طريفًا ومبتكرًا، يعكس شيئًا من شخصيته التي أحست بأنها تمزج شيئًا من الجدية بنوع من المرح.

قالت له بلغة إنجليزية سليمة: "أحب الثقافة الإسبانية التي ينتمي لها العرض، وقد يكون ذلك السبب الرئيسي لإعجابي بالعرض، لكني أظن أيضًا أن أداء الراقصة الرئيسية، وإخراج الرقصات رائع جدًا". "هل أنت إسبانية"؟ ضحكت على الفور، ثم نظرت إليه وقالت: "كنت أتمنى ذلك، لكني مصرية، هاجرت إلى كندا مع والديَّ، وأعود بين آن وآخر للعمل في أفلام تسجيلية". "أنت مصرية"؟ "نعم، ما المدهش في ذلك"؟ "لا شيء، لكنك تبدين أجنبية تمامًا، ما نوع الأفلام التي تسجلينها"؟ "حسنا، أنا أصور أفلامًا توثيقية عن موضوعات مختلفة، المرأة العربية والزواج مثلاً كان موضوعًا من الموضوعات، والآن أصور فيلمًا تسجيليًا عن المهاجرين العرب في كندا"، ثم ضحكت فجأة، وقالت له: "لكن أليس من الأفضل أن تعرف اسمي أولاً". ضحك كاتب وعرفها باسمه، فابتسمت، ثم مدت إليه يدها وهي تقول: "جيسيكا".

انتهت اللقطات الأخيرة للفيلم، لكن جيسيكا لم تتحرك من مكانها. كانت عينا كاتب مغرورقتين بالدموع. وشعر بشيء من الخجل لذلك. تأمل جيسيكا، فوجدها قد ضمت ساقيها وثنتْهما تحت فخذيها، ووضعت يدها على جبينها، وبدت أنها موشكة على النحيب. منذ التقيا منذ أكثر من سنتين عرفا أن شغفهما بهذا الفيلم أحد المشتركات التي تجمع بينهما. لكنهما لم يدركا آنذاك أن أثره العميق عليهما سيظل مستمرًا بهذا

الشكل. كأنه دواء كلما تجرعا منه جرعة تعمقت نسبة تأثيره في دمائهما. كانت جيسيكا تشعر بألم حقيقي، بسبب التماهي مع قصة حب دي ألماسي وكاثرين، ثم قصة حب "هانا" المجندة التي اعتنت بألماسي في أيامه الأخيرة، مع "كيب" خبير المتفجرات الهندي. لم تستطع أن تتماسك طويلا، فسرعان ما انهارت في البكاء. اقترب كاتب منها وجلس قريبًا منها فأوسعت له مكانًا سمح له بأن يجلس بصعوبة. ضمها إليه وهو يردد لها: "لا بأس، هوني عليك يا صغيرتي، هوني عليك". لكن الشجن الذي أحدثه الفيلم كان قد تمكن منها. اقترح عليها أن يفتحا زجاجة نبيذ. نظرت إليه وفي عينيها نظرة تساؤل، فقال لها بسرعة: "احتفالاً بانتهائي من الرواية الجديدة".

نظرت إليه، بينما نظرتها الواجمة تنفرج تدريجيًا مع ابتسامتها التي اتسعت ثم تحولت إلى ضحكة صاخبة. وعندما سمعت ضحكته تحولت ضحكتها إلى قهقهة صاخبة، وانتقلت العدوى بينهما باطراد، وكلما انتهى فاصل الضحك، سرعان ما تنطلق شرارته، مرة أخرى، من التقاء نظرتي عينيهما.

كانت هذه التجربة العاطفية الثانية التي تعرض لها كاتب الكاشف بوازع، باطني مستتر، من السينما. أما التجربة الأولى فقد تسبب فيها فيلم "بودي جارد"، كان يعتبره تجاريًا، خفيفًا، لكنه، رغم ذلك، استمتع به كثيرًا عندما شاهده لأول مرة، وأحب أغنيات "ويتني هيوستن" فيه. كما أنه أعجب كثيرًا بالدقة في التفاصيل التي لا تغيب عن صناع السينما في هوليوود، مهما كانت درجة بساطة أو عمق فكرة الفيلم. الوزن الذي

وصل إليه "كيفن كوستنر" لكي يبدو مقنعًا كـ"بودي جارد"، ثم تفاصيل السيناريو، وطريقة تنفيذ أغنيات هيوستن. أما ما افتتن به فعلاً فكانت نظرات عيني ويتني هيوستن الحالمة، خاصة في مشاهد الغرام مع كوستنر. تغلغلت الصورة عميقا في روحه دون أن ينتبه، رغم أنه كان يشاهد الفيلم مع فتاة يظن أنه يحبها، وسرعان ما تزوجت عندما أعلن لها موقفه التاريخي: "أنا لا أتزوج يا حبيبتي، ولن أرتكب هذا الخطأ في حياتي، إذا أردت فبإمكاننا أن نعيش معًا للأبد، لكن بلا زواج".

أما الفتاة التي وقع في غرامها بسبب "ويتني هيوستن" فهي سمراء جميلة، ذات شعر أسود حالك، ناعم، وابتسامة آسرة، ونظرة عينين تشبهان نظرة "ويتني هيوستن" في الفيلم.

بإمكانكم إذن الآن أن تفهموا أن رواية كاتب الكاشف، رغم أنها خيالية تمامًا، ولا علاقة لها بالواقع، لكنها، رغم ذلك، تتماس، مع بعض تفاصيل حياته، وشخصية هذه الفتاة السمراء، هي بشكل ما هي شخصية "فاطيما" السمراء صديقة نجوى. فهل يمكن أن نفهم شيئًا عن حياته الخاصة عبر قراءة ذلك النص؟ هذا سؤال ليس سهلاً. فصحيح أن هناك في الرواية لمحات من حياته، لكن الواقع يختلف كثيرًا عن الخيال، ولا تنسوا أنه بسبب اقترانه بشيطان كتابة موهوب مثلي، فإنه يعتبر فنانًا، يعرف جيدًا أن الفن لا يمكن أن ينقل الواقع، فهذا عمل الصحافة، وصفحات الحوادث، وتقارير المخبرين. نعم كان يعرف جيدًا أن الفن يوازي الواقع جماليًا، ولا يتماثل معه إذ يتجاوزه بقوة الخيال، حتى لو كان الواقع أحيانًا أغرب من الخيال!

3

إذا كان هناك تفسير لكلمة تناقض فإن حياة كاتب الكاشف يمكن أن تقدم تأويلاً نموذجيًا لمعنى كلمة "تناقض". ومن عدة شذرات سأذكرها لكم تباعًا، سوف يمكنكم، بسهولة، أن تميزوا أوجه التشابه بين حياته وشخصيته، وبين شخصيات ووقائع روايته الموءودة.

بداية تجدر الإشارة إلى أنه استطاع، حتى بلوغه الخمسين، أن يحافظ على رشاقته، وأن يظل جسده الرياضي الممشوق، متماسكا، بلا ترهل، فلم يؤد به تلون شعر رأسه؛ الغزير الناعم المصفف للخلف، إلى اللون الأبيض إلا أن يزيد من جاذبيته وحيويته. وهو كثير العناية بنفسه، ولذلك كانت "جيسيكا" تعاني كثيرًا إذا صادف خروجهما معًا لحضور حفل موسيقي في الأوبرا، أو حتى للقاء أي من أصدقائهما في أي مناسبة. لأنها سوف تنتهي من ارتداء ثيابها، ووضع مساحيق التجميل، بينما سيكون هو سبب التأخير، يتأمل وجهه الطويل ذي الفك المرسوم بدقة، والذي

يؤكد سمت الوسامة، الحليق بعناية، عبر المرآة. يمسح حاجبيه جيدًا حتى يرضى عن مسار شعيراتهما الغزيرة. يتأمل الجزء أسفل أنفه الطويل الرشيق مخافة أن تكون هناك شعيرة صغيرة تسللت من هنا أو هناك. يضبط القميص بدقة بحيث يتعامد خط الأزرار مع مسار "سوستة" البنطلون. يشرع في ربط "الكرافت" بدقة تكشف عن دربة واعتياد كاملين للأناقة. وعندما يشعر أنه على أهبة الاستعداد سيقول "هيا بنا"، فتتنفس جيسيكا الصعداء، وتلتقط حقيبة يدها الصغيرة، وتسبقه حتى تتفادى الشعور بالحنق من حركته السخيفة؛ إذ يخرج للباب وهو يتأمل حذائيه ويضطر لثني ركبتيه ثنية هينة وهو يمشي منكبًا بطريقة سخيفة.

اعتاد هذه الطقوس منذ شبابه، لكنه، منذ قرر الكتابة كان يؤكد لنفسه كل مرة أن هذه الهيئة خليقة بكاتب. فقد كانت له نظرية يؤمن بسببها بأن الكاتب لا بد أن تكون ملامحه تشي بأنه مختلف، من جهة، وأن تكشف عن هويته ككاتب لكل من يراه، ومن اللحظة الأولى. لذلك كانت أكثر الأسئلة استفزازا بالنسبة له عندما يلتقي شخصا لأول مرة هو سؤال: "ماذا تعمل"؟ كان ينظر لمحدثه مندهشًا، بل كان يتميز غضبًا ويكاد يسأله بعنف: "كيف تجرؤ"؟ لكنه، على الفور، يؤكد لنفسه أن محدثه يمارس لونًا من ألوان الدعابة، وأنه بالتأكيد، مثله مثل غيره، أدرك منذ اللحظة أن كاتب يعمل كاتبًا. منذ تعرف على جيسيكا، كان كثيرًا ما يناديها بإلحاح من جهة غرفة المعيشة، وعندما تندفع هي متوترة من فرط انزعاجها، يشير إلى شاشة التليفزيون أمامه وهو يصرخ ضاحكا: "انظري! هذا كاتب". ثم يغرق في الضحك.

لم تفهم جيسيكا هذا الأمر أبدًا. تناقشا طويلاً في المسألة. سألته أكثر من مرة: "ما علاقة شكل الكاتب بما يكتبه؟". "كيف تسألين سؤالاً كهذا؟ العلاقة بين الشكل والمضمون علاقة وثيقة، انظري، بحق أغلى شيء لديك، لو خفضنا الصوت الآن، ماذا ستتوقعين أن يكون عمل هذا الرجل؟ هذا مزارع هرب من قريته وخلع الجلباب على باب المدينة، أو ربما نجار، وعلى أسوأ تقدير قد يكون كاتب حسابات أو موظف في جهة ما".

كانت تتجنب الجدل معه عندما تشعر بأنه سيبدأ في استفزازها، عندما تستعيد هدوءها كانت توضح له أن ما يقوله غير منطقي، وأن قيمة الكاتب فيما يكتبه، وهنا يشرع في الضحك ويسألها ساخرًا: "قرأتها جميعًا، أليس كذلك، فماذا وجدت"؟ كانت تعرف أن له رأيًا سلبيًا في الكُتّاب. كان يرى أن محفوظ هو الكاتب الوحيد الذي أنجبته مصر، وأن ما عدا ذلك، كتاب يكتبون نصوصا تدور في أفق مخنوق، كان يسميهم "كتاب النصوص المحلية" الذين لا يسببون دهشة، ولا يقدمون جديدا. كان ينهي الحلقة النقاشية ذاتها كل مرة بنفس العبارة: "هل فهمت الآن لماذا لا أنشر كتبي؟ لا يمكن أن أُحسب على هذه الجماعة. لا أشعر أن بإمكاني أن أنتمي لهم. ليس بسبب ملامح وجوههم الغريبة فقط. لا، أنت تعرفين أن هذا ليس واقع الأمر. ألم تسمعيهم؟ لا فكرة لامعة واحدة، ولا لقطة فنية مهمة، ماذا يقولون؟ وماذا يكتبون؟ هراء".

هل بدأتم تكرهونه؟ ليكن. فهذا هو أقل ما يمكنني أن أفعله لأنتقم منه. لكن هذا الوجه، حتى لو كنت اشتررت قليلاً وبالغت لكي أجعلكم تكرهونه، هو واحد من وجوه تناقضاته.

وهو أيضًا كذاب. نعم. فلم تكن كراهيته للكُتّاب هي السبب الوحيد لامتناعه عن نشر ما يكتبه، وإنما هناك سبب آخر. فمن بين ما كتبه مخطوط لرواية شهوانية إيروتيكية كان قد كتبها وهو يعرف أنه لن يتمكن من نشرها حتى لو شاء. كانت نشرات الأخبار، وصفحات الصحف الصفراء، وحتى الصحف القومية التي فقدت مصداقيتها، تتناول، بين آن وآخر، خبر مصادرة كتاب، أو ملاحقة كاتب. كانت هناك روايات تمنع لأنها تتضمن مشاهد إباحية، قد لا تتجاوز، في بعض الأحيان، كونها مشاهد عاطفية أو حسية تمتلئ بها الأعمال الأدبية، وبينها أعمال عربية، ولا تستوقف أحدًا، وأخرى يتم رقابتها من قبل عمال المطابع أنفسهم في سوابق انفردت بها مصر بين دول العالم. ثم هناك سابقة تفريق عالم في اللغة عن زوجته بسبب كتاب. كان كاتب الكاشف يتابع هذه الأخبار متحسرًا. إذ كانت تؤكد له أن كتابه ذاك لن يرى النور على وجه الإطلاق.

لأجل كتابة هذا الكتاب اطلع على عشرات من كتب الجنس التراثية، النفزاوي والسيوطي، وغيرهما. كما اطلع على الشعر العباسي، وكذلك العديد من كتب الإيروتيكا الخفيفة الفرنسية والإنجليزية. واستعاد العديد من تجاربه الجنسية خلال الفترة التي عاش خلالها في فرنسا للدراسة، ثم في لندن، في مرحلة من مراحل شبابه. كما قرأ العديد من الكتب المهتمة بالجنس، والثقافة الجنسية، واطلع على عشرات المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت، وشاهد مئات الصور لفتيات عاريات، مثيرات، من كل الجنسيات، وبكل الأشكال. ثم بدأ في طباعة صورهن: نجمات أفلام خليعة في مشاهد حميمة وهن يمارسن الجنس، ترتسم

على وجوههن ملامح لذة، أو فيتات "تعرِّى" يقفن في أوضاع مثيرة، عاريات تمامًا، يداعبن نهودهن، أو يمسكن أردافهن، أو يتخذن أوضاعًا مثيرة، وهن يغلقن عيونهن، وتفتر ثغورهن تعبيرًا عن ألم ممتزج بلذتهن. فتيات شقراوات جميلات، أو بيضاوات فاتنات باردات، أو آسيويات محترفات في فن نقل الحسية إلى الصورة، أو أفريقيات بضات ساخنات بلون الشيكولاته، أو لون القهوة بالحليب، أو بلون الكراميل، وغيرهن. استغرق الأمر ما يربو على عامين كاملين، حتى أصبح يمتلك ما يزيد عن 900 صورة، احتلت ملفًا ضخمًا وضعه في درج مكتبه.

لكنه بمرور الوقت اكتشف أن الصور أصبحت تفيض عن احتياجه. أكوام من الورق تعلو كل منها صورة لامرأة، تتسبب في إثارة حيرته أكثر بكثير من كونها مادة مفيدة لروايته. قرر أن يصنفها، بحيث يستبعد منها كل ما يبتعد تمامًا عن احتياجاته، ولكي يبدأ في الاستفادة مما يتبقى منها. كان يفكر في كتابة رواية فلسفية عن عاهرة، شابة جميلة في منتصف العشرينات، فارعة الطول، لكنها في نفس الوقت ليست نحيفة، لها عينان جميلتان لونهما عسلي فاتح، تفيضان بالبراءة، وبجمال أخاذ. عينان تعدان ناظرهما بالسعادة. أما شعرها فبني اللون بدرجة فاتحة، يقترب من الشقرة. لها نهدان ممتلئان متناسقان مع جسدها الفارع الفتي. تخلقت الفتاة في وعيه فأصبحت امرأة فاتنة، حين يقع عليها نظر أي رجل تنتابه مجموعة من المشاعر المتناقضة؛ فهو يشعر بأنها قريبة منه كأنها أخته، وأنها حنون مثل أمه، ومثيرة مثل كليوباترا، وشهوانية مثل دليلة، تعد بمتع لا تحصى. فيقع على الفور تحت تأثيرها. لأجل أن يكتب عن امرأة كهذه

بدأ في استبعاد كل الصور ذات الطابع المبتذل، التي تنتمي للبورنوغرافيا: امرأة تضاجع عددًا من الرجال، امرأة تضع عضو رجل ضخم في فمها، رجل وامرأة في وضع جنسي مباشر، امرأة تكشف فرجها لعدسة الكاميرا بابتذال، حفلات جنس جماعي تجمع بين رجل وأكثر من امرأة، أو بين أكثر من رجل وامرأة واحدة، استبعد كل هذه الصور، وكانت المحصلة أنه أزاح من كومة الصور ما يربو على 185 صورة. كانت هناك مجموعة أخرى من الصور التي تصور سيدات أصبحن بعيدات عما يهدف إليه. أي أن ملامحهن أو تكوينهن الجسدي يبتعد عن الشكل الذي تكون في خياله، وهكذا بدأ يستبعد صور السيدات السمراوات، جميعًا باستثناء صورة واحدة لامرأة بلون الكراميل المحترق، لأن تكوينها الجسدي كان يقترب كثيرًا مما يتصوره لبطلة روايته. ثم بدأ يستبعد كل الصور التي لا تتضمن بعدًا جماليًا ما. أي أنه وجد أنه لا يمكن أن يستلهم شيئا من صورة تضم كادرا لامرأة لمجرد أنها عارية. كان يهتم بوجود إضاءة مختلفة تلقي ظلالاً بجوار المرأة وتؤكد جمالها، أو حتى تشوهه على نحو ما.

الصور الوحيدة التي وجد صعوبة في استبعادها رغم أنها لم تكن لتفي بالغرض هي صور عارضة، وفنانة بورنو إيطالية. كان معجبا بتكوينها الجسدي بشكل شبه مطلق. فقد كانت بضة، تشيع في ثنايا جسدها استدارات وانحناءات وثنيات بلا ترهل. كما كان حجم نهديها قياسيًا. لم ينافسها أحد من بين مئات الصور التي شاهدها. كان يرى أن أردافها هي الأجمل بينهن جميعًا. فكر أنه كان غبيًا حينما فكر أن يسافر إلى لندن، و لم يذهب إلى إيطاليا. وهكذا استبقى كل صور العارضة الإيطالية، رغم

أنها لم تكن تمتلك نفس الصورة التي رسمها لبطلة الرواية. صحيح أيضًا أن نظرة عينيها تبدو متصنعة، وحيادية، كأنها النظرة الوحيدة التي تطل بها على العالم كما تجلى في عشرات الصور التي التقطت لها، لكنه كان يرى أن هناك شيئًا فنيًا، ومثيرًا، في تلك الصور، تستحق لأجله أن تظل داخل دائرة الاهتمام. استمر لاحقا في استبعاد الصور تباعا، حتى وجد مجموعة من الصور لفتاة بلون القهوة بالحليب، لها ملامح آسيوية فاتنة، تبدو ملامحها مزيجا بين الجمال الآسيوي، والأفريقي، بسبب العينين الواسعتين، وسمرة بشرتها، بينما تمتزج في طلة عينيها البراءة بالجدية، فركز عليها وقرر أن تكون ملهمته.

باختصار كان عليه أن يستبعد 899 صورة ويبقي صورة واحدة فقط يكون بإمكانها أن تلهمه بكل ما يريد أن يكتبه عن عاهرة شابة، تمارس الجنس بلا مقابل، وتمنح نفسها لمن يشتهيها شرط أن يتمكن من احتمال الأفكار التي سوف تراوده عندما يحتضن هذه المرأة؛ إذ إن أول ما يمر بذهنه أنه يحتضن أمه. أي أن من يشتهي هذه المرأة الغريبة لا بد أن يقاوم الرغبة التي تتمكن منه في أن يظل متمرغًا في حضنها، بلا تعر، مدى الحياة، خوفًا من الأفكار المحرمة التي تندفع لخياله بسببها.

لكن لماذا أراد أن يكتب رواية فلسفية؟

كاتب الكاشف في الحقيقة درس الفلسفة، وهذا واحد من الإنجازات القليلة التي أنجزها في حياته. فهو، باستثناء كتابة الروايات الخمس، لم يعمل في حياته إلا لمدة عام واحد أشرف خلاله على أحد المصانع التي يمتلكها أبوه. وبسبب الفلسفة، فكر في أن وجوده في المصنع يتيح له أن

ينقل أعمق الأفكار الفلسفية إلى ميدان التطبيق، وفكر في أن يبدأ بالأفكار المثالية التي تعود جذورها لأفلاطون. ثم حاول تبسيط المسألة، واكتشف أن توفير الرفاهية للعمال سيكون مجالاً جيدًا، فأجرى ثورة على نظام الأجور والحوافز ونظام العمل السائد، بالشكل الذي أدى إلى ارتفاع دخول العمال في ذلك العام بنسبة 300 في المئة؛ إضافة إلى عدد من الامتيازات التي منحها للعمال تخص إجازاتهم، وساعات العمل الإضافية، كما جهز منظومة تأمين للعمال من مخاطر العمل، وأنشأ نظامًا جديدًا للمعاشات، وهي العوامل التي أدت إلى زيادة أرباح المصنع في ذلك العام بنسبة مائة في المئة. وعاش كاتب الكاشف، لأول مرة راضيا عن حياته. بسبب النتائج التي تحققت بدأ يفكر في تعميم ما أسسه من نظم على بقية المصانع. لكن ذلك لم يتحقق؛ بل سارت الأمور في طريق عكسي، حتى إنه فقد منصبه، عندما وصلت المعلومات إلى والده عن الأرقام التي يتقاضاها العمال، والإضرابات التي قام بها عمال المصانع الأخرى بعد معرفتهم بما آلت إليه الأمور في مصنع المنتجات الجلدية.

عندما تأمل الأب ميزانية المصنع توقف متوترًا عند المبلغ الذي ضم أجور العمال. لاحظ أنه تضاعف مرتين عما كان سائدًا. كان الرقم مستفزًا للأب، لدرجة أنه عانى من نوبة سكر مفاجئة، ولزم الفراش لمدة أسبوع كامل. وعبثًا حاول كاتب الكاشف أن يشرح له أن الأرباح غطت ذلك كله وتجاوزته، وأن مستوى جودة المنتجات الجلدية التي ينتجونها أصبحت حديث السوق كله، لكن الأب كشف عن عقلية كلاسيكية عتيقة، ورفض أن يسمع له، وطالبه بتوقيع استقالته فورًا، وأعطاه منصبًا

شرفيًا يمنحه بمقتضاه دخلاً شهريًا يزيد كثيرًا على احتياجاته، تمامًا كما كان يفعل معه منذ انتهائه من دراسة الأدب والفلسفة في باريس. أما جوهر موضوع روايته تلك، هو يقينه بأن الجنس، ممارسة، وكتابة، وتناولاً في الحياة، وكشفًا في الصحف والإعلام ليس سوى الترمومتر الحقيقي لمعيار الحرية. كان يرى أن الأدب المنزوع من الجنس ليس أدبًا حرًا، وإنما متزمت، ومكبوت أخلاقيًا. ويصف النصوص التي لا تتناول الجنس بأنها روايات ديكتاتورية. كان يشعر بالغضب عندما يسمع من أحد النقاد جملة مثل "الجنس غير موظف فنيًا"، سرعان ما يتعالى صوته "موظف فنيا يا ابن القـ....".

وإذا تصادف في تلك الأثناء واحدة من عشيقاته، فإنه سرعان ما سينادي عليها لكي يلقي محاضرة عن غياب أي ناقد محترم في البلد، وغياب الفهم، ثم سيبدأ فاصلاً من السباب قبل أن يقول لها: البيه عاوز الجنس يتوظف فنيًا. يعني إيه موظف فنيا؟ لما يجيبوا بهايم بتاكل على سفرة، من غير سبب، ماحدش ليه بيسأل عن الفنية؟ كأن الجنس ده حاجة جاية من السما؟ لو مافيش جنس يبقى ما فيش حياة، نفي الجنس قتل، وكراهية للإنسانية، وتخلف وترسيخ للديكتاتورية.

عشيقاته كن يعرفن طباعه، وأنه يمكن أن يستمر في السخرية والجدل بلا انقطاع لساعات، لذلك عادة ما كن يتعرين له وسرعان ما ينتبه، ويهدأ تدريجيًا. يقترب من عشيقته ويقبل عليها كأنه يراها عارية لأول مرة.

4

من بين أوجه تناقضات كاتب الكاشف، أنه قرر أن يدرس الفلسفة، دون أن يعبأ بفكرة المجال الذي يمكنه أن يعمل به لاحقًا. درس الفلسفة دون أن تكون لديه طموحات في المجال الأكاديمي. فكرة جمالية خاصة: الفلسفة من أجل الفلسفة. الأفكار من أجل الأفكار. فقط لا وظيفة من ورائها، ولا عمل. الفلسفة لا يجب أن نجني من ورائها الأموال. الفلسفة هي ذروة المتعة التي يمكن أن تحققها البشرية في استخدام عقولها بشكل كامل، وبلا تعطيل لمواهبها وقدراتها. الفلسفة تحرير كامل للعقل البشري ودفعه في فضاء المعرفة بلا قيد أو شرط. وقد كان لثراء والده الفاحش، وتدليله المستمر دور كبير في تفكيره على هذا النحو.

لكنه قرر أن يسافر لاستكمال دراسته العليا في أوروبا قبل فترة وجيزة من اندلاع حرب أكتوبر. وكان السبب المعلن أنه لا يستطيع أن يؤجل

الدراسة بسبب وجود فرصة جيدة لذلك في فرنسا. أما السبب الخفي فهو أنه لم يكن يريد أن يتورط بالاستدعاء لكي يخوض الحرب. لم يستطع أن يعلن شيئًا كهذا أمام الطلبة من أصدقائه وزملائه، المتحمسين بجنون للحرب، وتعويض الهزيمة المشينة التي مني بها الجيش المصري في 1967، والذين لم يكن لهم من هم سوى مطالبة الرئيس السادات بالحرب، عبر المظاهرات والبيانات، والحشود التي تملأ ساحات الحرم الجامعي، ومجلات الماستر، وصحف الطلبة الجامعية والمنشورات. كان سيتهم بالعمالة والخيانة، وهذا أقل ما يمكن أن يصيبه. الحقيقة أنه في أعماقه كان يحتقر الحرب، كما يحتقر السياسة. كان ينظر لزملائه الذين يحملهم رفاقهم على الأكتاف وهم يرددون شعارات حماسية بدهشة. يحملق فيهم كأنهم ليسوا بشرًا. يتأملهم، ويتجاهل الأصوات العالية المبحوحة التي تخرج منهم، فيبدون آنئذ ككائنات انفعالية غريبة، على حافة الجنون، أو في ذروته، تؤدي أدوارًا غير مألوفة، كأنها أصيبت بنوع من الهستيريا. إذا كان هؤلاء الطلبة المثاليون الحالمون يرغبون في تحرير بلادهم بأي ثمن، وقتل من يقف في طريق حلمهم ذاك؛ عدوًا كان أو صديقًا، فقد بدأ نفوره منهم يتصاعد في أعماقه باطراد. لم يفهم معنى أن يقتل شخص شخصًا آخر، حتى لو كان ذلك تحت أي مسمى: الوطنية، القومية، الطائفية، احتلال، مقاومة.كانت هذه المعاني بالنسبة إليه، مثالية على مستواها النظري والفلسفي، أما ممارستها بسفك الدماء، فكانت تبدو له نوعًا من التوحش الإنساني.

كان يرى في الإنسان جانبًا متوحشًا، بدائيًا ودمويًا، متمكنًا منه في

العمق. غريزة أصيلة لا يستطيع أن يسمو عليها. وعندما اكتشف الإنسان أنه لا يستطيع أن يقاوم هذا الجانب الوحشي في أعماقه اختلق شعارات مثالية وأخلاقية يبرر بها رغبته الدموية في سفك دماء الآخرين. بدأ بفكرة البقاء للأقوى، وعندما اكتشف أنه شعار حيواني شرع يبحث عن شعارات لا تملكها الحيوانات: من الوطنية، إلى القومية، ومن النزعات العرقية وصولا للطائفة والمِلَّة. لكي أكون صادقا فأنا لم ألهمه بشيء من هذا. فمثلي لا يستسيغ مثل هذه الأفكار الأخلاقية المضجرة. لكنه تيقن من هذا كله، ربما بفضل الفلسفة، في زمن مبكر من عمره. وبنفوذ أبيه، وبمباركة أمه؛ التي كانت تخشى عليه بشكل مرضي، سافر إلى باريس، والتحق بالسوربون.

درس اللغة الفرنسية حتى أتقنها، ثم تعرف على أوساط المثقفين، وألقى بنفسه في آتون الحرية الباريسية. انخرط بين جموع الشباب من المطالبين بالحرية، والمنتفضين ضد كل التقاليد والسلطات. نادى معهم بالحرية، واشتبك في مناقشاتهم عن إعادة تقييم العالم والقيم. وارتاح لجماعات منهم كانت ترفض الحرب مثله، شكلاً ومضمونًا، وترى أن الحقوق تنتزع بالتفاوض، وبالحوار، وبوسائل الضغط، دون سفك للدماء، لكنه في نفس الوقت نفر من الفرنسيين الذين أبدوْا تعاطفًا مع إسرائيل في حربها التي كان يرى ظلمها جليًا. فهو، أيًا كان موقفه، ينتمي لجيل تغذى خياله على أن الإسرائيليين مجموعة من السفاحين القتلة، الذين يريدون أن يغتصبوا أرضًا ويهجّروا شعبًا دون وجه حق.

قرأ بنهم لأعلام الفلسفة الرواد التقليديين من أمثال إسبينوزا، ثم رواد

المدارس الفلسفية الكلاسيكية مثل كانت، نيتشه، وهيجل. تعرف على الفلاسفة المعاصرين مثل هايدجر، هوسلر، جودامار، ومن الفرنسيين كان لسارتر حظوة كبيرة، فقرأه وأعاد قراءته، وخاض حول كل تلك الأسماء مناقشات حارة، وأبدى حماسته لهايدجر على نحو خاص، متعاطفًا مع عدم التزامه. من جهة أخرى ألقى بنفسه في أحضان فتيات باريسيات ثائرات، بوهيميات، متحررات، وأبدى يقينه بالقيم الجديدة، التي ترفض كل ما نادت به المؤسسات البورجوازية القديمة، الزواج، العلاقة العاطفية بوصفها امتلاكًا، وطالب مع المطالبين بإعادة ملكية جسد المرأة إليها. مثل أغلب جيله من الفرنسيين الذين عايشهم في باريس اختبر علاقات حرة عديدة، وحاول أن يفهم العلاقة النموذج بين سيمون دي بوفوار وسارتر، لكن تلك التجارب لم يكلل لها النجاح، لأنه لم يستطع التخلص من إحساس الغيرة الشديد.

لكن حسه الفلسفي تغلب عليه فوضع "الغيرة" تحت المجهر. هل هي غريزة؟ أم أنها صفة مكتسبة، بفضل الأنانية المفطور عليها الإنسان.

سأل فتاة ممن تعرف عليهن آنذاك: "هل تغارين عليّ"؟ "مم"؟ "لا أعرف. من أن تعجب بي فتاة أخرى". "ولماذا أغار عليك"؟ "لأنك تحبينني ربما". "لو أني أحبك فلن أغار عليك". "بمعنى"؟ "بمعنى لو أنني أحبك، وأثق في حبك لي، فلماذا أقع أسيرة إحساس مريض كهذا". "هل الغيرة إحساس مريض". "... ماذا تظن أنت"؟ "لا أعرف، لكنني أظنه إحساسًا صحيًا". "ما هي الغيرة"؟ "الغيرة، لا أعرف، دعينا نرى، الشعور بأنني أريدك أن تكوني معي، وأن أكون الشخص الذي

يحظى باهتمامك وعنايتك، والذي تريدين أن تقضي معه كل الوقت، وألا ترغبي في قضاء نفس الوقت مع أي شخص آخر، والذي يشغل اهتمامك على مدار الساعة، ولا تستمتعين إلا إذا كنت في صحبته". "هل تعتقد أن ما تقوله يعرّف الغيرة"؟ "لست متأكدًا". "ربما يبدو ما تقوله أقرب لتعريف شعور مثل الإعجاب، أو الحب بمفهومه الساذج، الامتلاك، وهذا ما يسبب الأمراض النفسية مثل الغيرة لرجل أو امرأة". "ماذا"؟ "لا أعرف، لم أكن أتوقع أنك تفكر بهذه الطريقة". "أي طريقة"؟ "هذه الطريقة في التفكير في العلاقات". "لماذا"؟ "هذه العلاقات خيالية، غير موجودة". "أنا أحبك بهذه الطريقة". "ليس صحيحًا". "هل تعرفينني أكثر مما أعرف أنا نفسي"؟ "الحقيقة أنني الآن أشعر بأنني أكاد لا أعرفك، لكني أعرف أن ما تقوله ليس واقعيًا، على أي نحو". "كيف"؟ "أنت لست شخصًا واحدًا، كما أنني لست شخصية واحدة، نحن نتغير كل يوم، ومشاعرنا تتعرض لرياح ونسمات هواء، وعلينا أن نبدو كفروع شجر مرنة، ولسنا أشجارا حجرية، نعم أنا أحبك، لكن هذا لا يعني أن أقتلك لأنني أحبك، وأن أجردك من حريتك، وأن أمتلكك، الحب ليس امتلاكا، لكنه نقيض ذلك على طول الخط، بإمكاني أن أحبك، ولن يمنع ذلك أن أشعر بجاذبية تجاه شخص آخر، وسوف أخبرك بذلك، ولك مطلق الحرية أن تقبل أو ترفض، أو تنهي العلاقة". استمر حوارهما السفسطائي طويلاً، لكنه لم يصل لشيء. فكر في المسألة بشكل مختلف، فقرر أن يمارس الحب مع عاهرة، وسألها نفس الأسئلة، وكانت إجابتها نفس الإجابة. طلب منها أن تخبره بعلاقاتها، فاندهشت، وأوضحت له أن ذلك لا يخصه. أغراها

بالمال، فقالت له إنها تأخذ نقودًا مقابل أن يستمتع بوقته معها، وليس لأنها تمنحه جسدها، أو لتحكي له أسرارها.

قالت له: "لو أن ذلك صحيحًا لتمددت عارية كجثة حتى تنتهي من نزوتك، لكنني فعلت كل شيء لكي تستمتع بوقتك معي، وهذا مقابل النقود التي أعطيتني إياها". وأوضحت له أن بإمكانها أن تحكي له ما يشاء إذا أصبحا صديقين.

لم يفهم شيئًا، لكنه قرر أن يصبح صديقًا لها. وشعر بمرور الوقت، وتطور علاقتهما، بنوع من الألفة، بل لقد انبهر من التسامح الذي تتعامل به مع حياتها، ومع نفسها، وذكرياتها، فقالت له ضاحكة إنها اختارت أن تصبح عاهرة بملء إرادتها، وأنها لم تكن مضطرة لذلك. في تلك اللحظة انبثقت في خياله فكرة روايته الإيروتيكية التي لم يستطع أن ينجزها إلا بعد عشر سنوات كاملة.

هههههههههههههههههههههههههههه

هههههههههههههههههههههههههههه.

5

لعلكم تتساءلون عن سبب ضحكي الذي أنهيت به الفصل السابق. وربما أمكنكم أن تخمنوا، أنني بدأت في الكذب. كما شأن كل السرد الذي سردته عليكم فيما سبق. لكني، في الحقيقة، لست كذابًا أشرًا كما قد تتوهمون، إنما أنا، فقط، ألعب معكم. أذكر جزءًا من الحقائق، بينما أختلق تداعيات لا أصل لها، ولكني، في الحقيقة أراها لا تؤثر كثيرًا. "كاتب الكاشف" هو شخصية حقيقية، وليست مختلقة، وأنا كما أسلفت لكم "شيطان كتابته"، وهو ينتمي لأسرة أرستقراطية بالفعل، وكتب خمس روايات لم ينشر منها حرفًا. لكنه في الواقع، ليس ابنًا شرعيًا، فوالده الأرستقراطي الثري تيمور الكاشف، ليس سوى الرجل العقيم الذي رضخ لزوجته فريدة الأرمللي، لكي يتبنيا طفلاً من أحد ملاجئ المعادي، بسبب عدم إنجابهما، رغم محاولاتهما المستمرة على مدى سنوات زواجهما السبع الأولى.

تبنيا كاتب منذ كان في السادسة، وهو مدرك تمامًا لكونه لقيطًا: ابنا غير شرعي لأب وأم تسببا في وجوده، ثم تنصلا من مسئولية وجوده، للأبد. عندما تعلّم مبادئ الدين الإسلامي، وعرف بوجود أديان أخرى لاحقًا، كثيرًا ما كان يسأل نفسه عن الديانة الحقيقية لوالديه الأصليين: هل كانا قبطيين؟ أم أنهما مسلمان على نفس الدين الذي نشأ عليه. في مرحلة لاحقة من نشأته كان السؤال يرد على خاطره بإلحاح عما إذا كانا ينتميان لدينين مختلفين، ولم يستطيعا مواجهة قوة الواقع الذي يمنع امتزاج كائنين تختلف عقيدتهما، حتى لو تحابا، وصنعا الحب، وأثمرت علاقتهما جنينا.

لعل هذا ما يكشف لكم سبب اختلاقه لشخصية كبرياء في روايته الموءودة تلك، ولماذا اختار له أن يكون لقيطًا. جيسيكا أيضًا ليست مختلقة، وهو على علاقة جيدة بها، لكن عمر علاقته بها لم يتجاوز عامًا واحدًا، وليس خمسة أعوام.

لكنه لم يغادر شقته منذ عامين كاملين، ولا يعرف شيئًا عما يدور في القاهرة، بسبب حالة من رهاب الارتياب سيطرت عليه، ثم تمكنت منه حتى تحولت إلى حالة من حالات رهاب الخروج للشارع. وهذا ما تبينته جيسيكا خلال الشهر الرابع من بدء علاقتهما. لاحظت امتناعه الكامل عن قبول أي من دعواتها له لاصطحابها إلى أي مكان خارج الشقة. تساوت في ذلك كل الاقتراحات من المقاهي والكافيهات إلى المراقص، والنوادي الليلية، وحتى الأوبرا وحفلات السينما. أخبرته بملاحظتها فراوغها كعادته، بإجابات مقتضبة، لا معنى لها. وإزاء ضغطها المستمر،

وبعد ليلة غرامهما الأولى، أوضح لها، بغموض، أنه لن يستطيع أن يخرج من الشقة، بشكل مطلق. وعندما سألت عن السبب، استسلم لطبيعته المراوغة، وأخبرها أنه بصدد الانتهاء من رواية جديدة، وأنها تستغرق كل وقته، وتشغله بشكل يجعله ذاهلاً أغلب الوقت، مشتت الذهن بشكل يجعله عاجزًا عن التواصل مع العالم الخارجي على كل المستويات. سألته عن موضوع الرواية، ووجد في ذلك حلاً وجيهًا للهروب من أسئلتها، فشرع يحكي لها عن مشاهد من الرواية والشخصيات، استدعى فصولاً كان قد حذفها تدور وقائعها في ألمانيا. آنذاك انبثقت في ذهنها فكرة تصوير فيلم تسجيلي عنه. أبدى امتعاضه من الفكرة، لكنها أسهبت تشرح له كيف أن حياته بها الكثير مما يغريها لتصوير فيلم تسجيلي عنه. لكنه هددها بأن يقطع علاقته بها لو عادت للموضوع.

كتب جزءًا كاملاً استغرق منه خمسة أشهر دار مسرحه في ألمانيا، تأثرًا منه بالفترة التي قضاها هناك لمعايشة وطن أهم فلاسفة العالم. لكنه حذف هذا الفصل كاملاً، في فترة لاحقة، لأنه لم يستطع أن يستدعيه من ذاكرته مرة أخرى. قال لنفسه: "إذن هذه كتابة رديئة والفكرة فيها ليست أصيلة"، وحذفها من الرواية، رغم الجهد الذي بذله فيها. في أثناء حكيه لها عن الجزء الخاص بألمانيا شعر بنوع من التعاسة، لأنه لم يكن متأكدًا من ضرورة هذا الجزء بالنسبة للرواية. وأحس أنه يقحم أفكارًا لا علاقة لها بموضوع الرواية لأسباب خارجة عن إرادته. لكنه لم يخبرها بذلك في نفس اللحظة، ولكنه انتظر اختمار الفكرة قليلاً، ثم أخبرها بما يفكر فيه. لم أوافقه على هذا الرأي على وجه الإطلاق. ألهمته فكرة الجزء

الخاص بألمانيا، وكنت أرى في علاقة يوديت، الاسم الذي منحه لبطلة الجزء المتعلق بألمانيا، بكبرياء جانبًا جماليًا سيضيف للرواية. جيسيكا، من جانبها، اقترحت أن يكتب كل ما يفكر فيه، وألا يقوم بوأد أي فكرة من المهد قبل اختبارها، على اعتبار أنه يمكنه لاحقًا أن يحذف ما يشاء مما لا يرتاح له في النص. لكنه استغرق وقتا حتى اكتسب الجرأة لكي يشرع في كتابة ذلك الجزء، ولكي يعترف لجيسيكا برهابه. لم يستخدم كلمة "خوف"، نهائيا، عندما استغرق في توضيح طبيعة الحالة التي يمر بها، واستبدلها بكلمات أخرى مثل: توتر، قلق، عدم ارتياح.

عندما اكتشفت مدى عناده في قبول فكرة الخضوع للعلاج النفسي، قررت أن تتركه على راحته. سألته إذا كان بالفعل يقبل فكرة معيشتها معه، فأكد لها ذلك. بل وبالعكس كان وجودها جوهريًا في عدم تفاقم حالته، من جهة، وشعوره بأن انعزاله الذي عادة ما كان يتسبب في توتره بشكل قوي، يمكن التحكم فيه بوجودها بجواره، حتى كعامل مساعد للفضفضة إذا احتاج لذلك، في أي وقت.

هل لرهابه علاقة بفكرة أنه لقيط؟ ربما، فلست محللاً نفسيًا، أو معالجًا نفسيًا متخصصًا، وهو، حتى هذه اللحظة، لم يقرر أن يخضع للعلاج، تحت دعاوى عدة، منها خشيته من تناول العقاقير. ولأنه يعتقد في قدرته على علاج نفسه، بالإضافة إلى أنه يبرر عزلته بالقول بأن الحياة في القاهرة أصبحت عبئًا لا يطاق، وأنه برغم عزلته لا يفوته شيء، بل بالعكس، فهو يتحاشى الكثير من المآسي اليومية التي كان من الممكن أن يتعرض لها إذا

قرر الخروج من عزلته. لكنه لم يتطرق أبدًا للتعبير عن الخوف الهستيري الذي يثور في أعماقه ويضرب روحه بعنف كلما فكر في أن يفتح الباب ويخرج إلى قارعة الطريق لأي سبب. ما أعرفه أن هناك خللاً ما في صحته النفسية، قد يعود لارتباك في مشاعره، ربما، أو في علاقته بأبيه الافتراضي، أو أمه أيضًا. وربما أنه يعاني من مشكلة نفسية تتعلق بإحدى علاقاته العاطفية. لعله تعلق بواحدة من الفتيات اللائي وقع في غرامهن، لكنه رفض الزواج بها، دون أن يفهم أنه مرتبط بها أكثر مما يتصور. وربما عاني أزمة ثقة في واحدة من عشيقاته، وظن أنها تخونه، لكنه عالج المسألة مع نفسه وفقًا لمفاهيمه التي رسخها عن الغيرة بوصفها إحساسًا دونيًا، غير إنساني، لا يليق بمثقف، وشخص مثله؛ يرفض كل قيم البرجوازية الأخلاقية وتناقضاتها، ليس باعتناق أفكار نظرية فقط، وإنما عبر اختبارات عملية، تسببت له في الكثير من التشوش في البداية، ثم أصبحت جزءًا من يقينه الشخصي، جعلته يقرر ألا يخوض تجربة الزواج، وأن يقيم علاقات حرة، في بعض الأحيان، لم يحتملها، وفضل عليها العلاقات العاطفية المتحررة من أطر التقاليد الاجتماعية.

لكني أظنه عبر عن الكثير من أسئلته عن أبيه وأمه الحقيقيين في تلك الرواية، كما أنه أسقط على كبرياء الكثير من مشاعره، وخاصة علاقته بـ"نجوى". رغم أنه لم يعرف أي امرأة بهذا الوصف.

ههههههههههههههههههههههه

ههههههههههههههههههههههه

ههههههههههههههههههههههه.

6

ضحكتُ مرةً أخرى، ولا أزال، كلما تذكرت ما حدث. أنتم تقولون إن شر البلية ما يضحك. لكن أحيانًا يصبح ما يضحك هو غرائبية الواقع. حدوث وقائع لا يمكن تصورها. أنا شخصيًا فوجئت أكثر منه هو شخصيًا. لأن ما حدث أربكني تمامًا كما أربكه. ما حدث كاد أن يقلب حياته رأسًا على عقب، لا بل قلبها تمامًا؛ لدرجة أنه قرر أن يقاتل خوفه المرضي الهستيري ويخرج من الشقة بعد ما يزيد عن 780 يومًا كاملة. كان يشعر بأن قلبه سيتوقف، ونشبت في بطنه آلام حادة، عندما وطئت قدماه المصعد العتيق. زادت حدة الآلام حتى غدت كأنها طعنات من آلة حادة تمزق بطنه، فور أن وقعت عيناه على مدخل العمارة ممثلاً في الباب الحديدي الأسود العملاق الأنيق، المطعم بالزجاج، والمطل على الشارع. فكر أن يعود أدراجه للشقة مرة أخرى، وأن يعتبر ما حدث على مدى

اليومين السابقين ليس سوى مصادفة قدرية يمكنه أن يتجاوزها، أو هلوسة ذهنية لا أصل لها في الحياة الواقعية. تحجر في مكانه. تحولت جبهته إلى مساحة تتكاثف فيها قطيرات صغيرة من العرق، سرعان ما انسالت على وجهه. مسح عرقه بكفه. وشعر بالألم يمتد من بطنه إلى شرجه، فأدرك أنه تعرض لنوبة هلع. لكنه كان قد فقد السيطرة على أفكاره، ولم يعرف ماذا يفعل.

كان يواجه لحظة مصيرية في حياته. يقف أمام مخاوفه وجهًا لوجه. مهما يكن تقديركم لخوفه الهزيل. رجل يخشى أن يخرج للحياة. العبور من بوابة العمارة العتيقة المكسوة الجدران بالرخام. خطوات روتينية يعبرها عشرات من سكان البناية من جيرانه. تصرف روتيني يبدو بالنسبة لطفل صغير مجرد حدث عابر، لا يتوقف عنده لا هو ولا غيره، لكنه يبدو بالنسبة لكاتب الكاشف بمثابة حدث جلل، يحتاج إلى جهد مرعب لمواجهته، كأنه سيواجه أسدًا عملاقًا، أو كتيبة من جنود الأمن المركزي المسلحين بالبنادق والقنابل والعصي، أو شبحًا ليليًا لمصاص دماء تبرق عيناه بشر مستوحى من أساطير قديمة. ولأنني أعرف تماما حقيقة مشاعره، فلا أستطيع سوى أن أتعاطف معه. "الخوف يقتل الروح"(*). والعقل، عالم لا قرار له، يمتلئ بكل شيء، الحماسة والقوة، والخوف والضعف. الذكاء والغباء، الأصولية وما بعد الحداثة. نعم، العقل يختزن ذاكرة العالم،

(*) الخوف يأكل الروح عنوان رواية لمصطفى ذكري.

والتاريخ البعيد، ويفيض بالخيال الذي يجعله أحيانًا قادرًا على التنبؤ بالمستقبل. قوة جبارة. لم يعرف العالم كيف يسيطر عليها أبدًا.

بهذه القوة الجبارة استطاع كاتب الكاشف أن يقرر اجتياز العتبة، ويوقف مخاوفه للحظات، كانت كافية ليضع قدمه على أرض الطريق لأول مرة. خرج ليلتقي "نجوى". نعم، نفس الشخصية التي خلقها من وحي الخيال، وأماتها في نفس النص، فإذا بها شخصية حقيقية من لحم ودم، تعيش قريبًا منه، إلى درجة لا يمكن أن تصدق!

قبل أن أفسر لكم كيفية حدوث هذه المفاجأة المبهرة، أود أولاً أن ألفت انتباهكم إلى جانب من السرد قد تظنونه كذبًا من جانبي، أمارسه بينما أضطجع على جانبي، أعلى المكتب الخشبي الذي يجلس إليه كاتب الكاشف، أنقر بإبهامي على فخذي، مستلقيًا بجسدي الذي قد تظنونه مشعرًا كما تتهيأ لكم صورة الشيطان .

أولاً أوضح لكم أنني لا أكذب، فنيًا على الأقل، فعندما أوضحت ميول كاتب في الاعتناء بنفسه وهوسه بأناقته، كان ذلك في الفترة التي سبقت مرضه النفسي، واستمرت حتى خلال فترة وجوده حبيس بيته. كما أنكم قد تظنون أن مكوثه بالبيت على مدى تلك الفترة جعلته يجلس في بيته مشعثًا، طليق اللحية، مغتمًا، زائغ النظرات. وهذا غير صحيح ألبتة. فقد استمر في عنايته بنفسه؛ يتناول قهوته في الصباح الباكر، ثم يشرع فورًا في الاستماع للموسيقى، وهو في طريقه للحمام للاغتسال. يحلق ذقنه بعناية، يرتدي طاقمًا داخليًا نظيفًا، يصفف شعره جيدًا،

ثم يختار بنطلونًا وقميصًا لونهما أسود، يرتديهما قبل أن يبدأ عمله مباشرة في الكتابة. حتى شعره كان يهتم به بشكل دؤوب، يتصل بحلّاقه الشخصي ليحضر إلى البيت ليقص له شعره، بعد أن ادعى أنه مريض بمرض يمنعه من الخروج لفترة.

المهم أنه قرر الخروج من البيت بعد مرور 780 يومًا على عزلته الاختيارية، لم يخط خلالها خارج عتبة الشقة، ولا على سبيل الفضول. وهذا يؤكد أنه قرار ترتب على عدد من الوقائع المفاجئة، انتهت بظهور شخصية نجوى، المختلقة تمامًا من الخيال، في أرض الواقع. جيسيكا هي التي تسببت في هذا كله دون أن تقصد أو تعي. كانت قد اعتادت للخروج إلى عملها صباح كل يوم، وفي بعض الأحيان كانت تمر على أحد كافيهات حي "الزمالك"، لتشرب القهوة وترد على بريدها الشخصي، وتطالع بعض الصحف الكندية والفرنسية على الإنترنت. أو حتى لترتب أفكارها، في موضوعات تتعلق بعملها. في إحدى تلك المرات كانت تطالع فصولاً من رواية كاتب الجديدة، هذه التي أفرج عنها لاحقًا لكي تقرأها. والحقيقة أنه كان قد انتهى من كتابتها على الورق ثم نسخها على جهاز الكمبيوتر، كما يفعل عادة. فنسخت منها نسخة إلكترونية لتقرأها على شاشة جهازها كلما أتيحت لها الفرصة.

في صباح من تلك الصباحات خرجت مبكرًا من البيت لتقرأ قليلاً في كافيه مما اعتادت أن تمر عليها لتناول القهوة. جلست في ركنها المفضل، و لم تنتبه إلى فتاة جميلة تجلس خلفها مباشرة، وعيناها مجذوبتان بقوة إلى شاشة

الكمبيوتر الشخصي لجيسيكا. فقد وقعت عينا الفتاة على اسمها"نجوى" فاقتربت قليلاً من خلف ظهر جيسيكا، وانتفضت من قوة المفاجأة. كانت تقرأ تفاصيل علاقتها بـ "كبرياء". لم تفهم كيف يكون هناك نص يفضح علاقتها بكبرياء. وظنت أن تلك الفتاة هي صاحبة النص. لكنها لاحظت أنها ذات ملامح أجنبية، فإذا أمكنها أن تقرأ العربية، لأي سبب فهل يمكنها أن تكتب بها؟

نجوى لم تتردد في الخطوة التالية. اقتربت من جيسيكا، وحيتها، ثم بادرت بالقول: " اعذري فضولي، لكني أدعى نجوى. هل يوحي لك الاسم بشيء"؟ التفتت جيسيكا إليها و لم تفهم فقالت: "عذرًا، لكني لا أذكر جيدًا. هل التقينا قبلاً"؟ ابتسمت لها نجوى ابتسامة متذاكية وقالت: "الحقيقة لم نلتق، لكن من الواضح أنك تعرفينني جيدا". "أنا"؟

نفخت نجوى تأففًا، ثم اقتربت منها وقالت: "يبدو أنني لا بد أن أجعل الأمر أكثر وضوحًا، نحن لم نلتق قبلاً، ولكني، وأنا آسفة جدًا، قد لمحت جزءًا مما تقرئين على الشاشة، ووجدت وصفًا دقيقًا لي، ودققت النظر فوجدت تفاصيل عن حياتي يفترض أن أحدًا لا يعرفها". بسبب المفاجأة غير المتوقعة، اختلجت وجنتا جيسيكا. فكرت بأن كاتب كان على علاقة بهذه الفتاة وقرر أن يكتب تفاصيل عن علاقتهما في شكل تخييلي مستبدلاً نفسه بشخصية كبرياء في الرواية. لم تعرف ما ينبغي عليها أن تقوله لكنها رسمت تعبيرًا صارمًا على وجهها ثم قالت: "أنا ما زلت لا أفهم كيف تقع عيناك على شيء شخصي مثل جهاز الكمبيوتر خاصتي. لكن ما أحب أن أوضحه أن هذا نص روائي لكاتب، وهو لم ينشر بعد، وأنا أقرأه لأعطيه

انطباعي. أعتقد أن هناك ثمة سوء تفاهم، ربما هناك تشابه في الأسماء".
انحنت نجوى، وبلا مقدمات جلست على الكرسي المجاور لجيسيكا، وهي تقول "اسمحي لي أن أجلس"، فابتسمت جيسيكا وهي تهز رأسها كأنها تقول لها "أنت جلست بالفعل". قالت نجوى : "اسمحي لي أن أقرأ لك هذا الجزء الذي وقعت عليه عيناي والذي تقرئينه الآن"؟ شعرت جيسيكا بالضيق بسبب اقتحامها على هذا النحو من تلك الفتاة غريبة الأطوار، لكنها بدافع الفضول استسلمت لها، فقالت: "لا بأس"، فشرعت نجوى في القراءة: " كانت تتحرك بسرعة. ترتدي جينزًا أزرق، ضيقًا. و"تي شيرتًا" أصفر اللون. جعدت شعرها الذي لاحظت أنها صبغته بطبقة من اللون البني، وكان صدرها المكشوف البض يلتمع من بعيد؛ بسلسلة ذهبية، تتدلى منها قلادة ذهبية على هيئة إبريق متوسط الحجم. وكانت أذناها تتلألآن أيضًا بقرطين ذهبيين يتخذان شكل دائرتين كبيرتين يتدليان حتى منتصف الرقبة..".

نظرت جيسيكا إليها مدهوشة، فاغرة فاها، فقد كان الوصف منطبقا عليها، حتى القلادة الذهبية التي تشبه إبريقًا صغيرًا، على صدرها البض شبه المكشوف. قالت جيسيكا: "أنا لا أكاد أصدق. هذه مصادفة محضة بالتأكيد". " كنت سأصدق ذلك ببساطة لولا أنني بالفعل أصادق شابًا اسمه كبرياء، والأدهى من ذلك، وسأضطر لأخبرك بذلك بسبب غرابة الموقف، أنني طلبت أن أقابله هنا لكي أخبره بقراري بالانتقال للعيش معه في منزله في المنيل اليوم، بعد أن نشبت بيني وبين أمي مشادة، الفارق الوحيد بين ما قرأته وبين ما يحدث الآن أنني التي حضرت قبله إلى هنا".

شعرت جيسيكا بدقات قلبها تتسارع بشكل مخيف، وأحست بتوهج وجهها، وبدأت تشعر بالحكة التي تصيب رقبتها كلما توترت، وانتشرت مجموعة من بقع وردية على امتداد رقبتها. كان الموقف مدهشا، يفوق احتمالها على التصديق، وعلى التصرف إزاءه. اتفقتا، بعد ضغط وإلحاح عنيف من نجوى، على أن تدبر جيسيكا لها موعدًا مع كاتب الكاشف، الذي تلقى الخبر من جيسيكا مصعوقًا. خفق قلبه بعنف، وانسحبت روحه، وأحس بأن ركبتيه لن تقويا على حمله.. مرت برأسه كل السيناريوهات المحتملة: لا شك في أن هذا مخطط من عصابة تراقبه واستطاعت، عن طريق الإنترنت أن تمارس قنصا على جهازه، وتوصلت للرواية، وقرر أفرادها ابتزازه. رجال شرطة سريون اكتشفوا أنه لو نشر روايته فسوف يعرض البلاد لأزمة بسبب مزاعم فقدان كتب محفوظ، أو ربما أنها فتاة لها قوى باطنية خاصة استطاعت أن تقنع جيسيكا بأنها شخصية حقيقية بينما ذلك ليس سوى مزحة سخيفة.

استمر، على مدى يومين، ينازع حالة الرهاب التي تمكنت منه، وفقد رغبته في تناول الطعام، ومع التدخين المستمر وتناول القهوة أصيب بحالة من الخفقان. بدا منهكا لا يقوى على التنفس بارتياح، مما أثار شفقة جيسيكا. أقسم لها، أكثر من مرة، أنه لا يعرف تلك الفتاة، وأنه لم يعرف أحدًا بهذا الاسم. وأكد لها أيضًا أن نصه ذاك مختلق من المخيلة، بشكل كامل، ولا أساس له من الواقع. قال لها: "كل ذلك مجرد خيال، لعب، هل يعقل أن تختفي كتب محفوظ؟ هل سمعت شيئًا ساذجًا كهذا"؟ صمتت جيسيكا في تلك اللحظة، وبدا عليها الجزع. لكنها لم تنطق بحرف.

قالت لكاتب إنها تشعر بتعب. تذكرت ما سمعته أخيرًا في المكتبات عن نفاد لأعمال محفوظ من عدد من المكتبات! لكنها لم تستطع أن تقول شيئًا، أرادت أن تهرب منه فقالت إنها تشعر باحتياج لنوم عميق.

7

خرج كاتب، من البيت، مدفوعًا بفضوله العميق الذي انتصر، بعد صراع، على رهابه ومخاوفه. وبالإضافة للفضول كان هناك دافع آخر وهو أن يتجنب الاقتراح البديل الذي اقترحته جيسيكا بأن تقوم نجوى بزيارة كاتب في بيته. كان ذلك آخر ما يمكنه التفكير فيه؛ فبسبب ارتيابه المرضي العميق رفض الفكرة جملة وتفصيلاً. خرج للطريق، كأنه سجين حصل على حريته بعد سنوات من السجن، لكنه بدلا من أن يشعر بحريته، بوغت بتغير معنى الحياة خارج أسوار السجن، وانتابه شعور عارض بوطأة الحرية وصعوبة التكيف مع حياته الجديدة.

سار بخطوات مرتبكة كأنه تعلم المشي منذ عهد قريب؛ قاطبا جبينه، بسبب ضوء الشمس الساطع الذي لم يتعرض له طوال العامين. توقف

كلما شعر باقتراب أحد الأشخاص منه. ودفع نفسه باتجاه جدار بناية من البنايات المجاورة حين شاهد طفلاً صغيرًا رث المظهر يقترب منه يطلب منه ما يعينه على تناول وجبة. لاحظ شيئًا غريبًا، زاد من إحساسه بالخوف. كانت جيسيكا قد أخبرته بأن حالة من التحفظ سادت البلد خلال العام الأخير، لكنها لم تذكر شيئًا عن أفواج المنقبات. لم يكن يرى سوى مجموعات من المنقبات في الطريق. بعضهن يسرن في خطوات واثقة هادئة، يفوح منهن شذى عطور جميلة، بينما تعكس التماعة أقمشة العبايات السوداء التي يتسربلن بها انتماءهن لطبقة اجتماعية من ملاك رأس المال، بينما تدل مجموعات أخرى منهن على نقيض ذلك، وهو ما تكشفه ألوان عباءاتهن الكالحة الرثة، وروائح العرق النفاذة التي تفوح منهن، والأحذية المهترئة المتربة التي ينتعلنها.

دارت في ذهنه أفكار غريبة. تخيل المنقبات أشخاصًا يسيرون في الطريق لمراقبته، ثم تهيأ له أن بعضهن ليسوا سوى شخوص ممن تخيلها في رواياته. بين آن وآخر كان يتوهم أن إحداهن ستكشف له وجهها فيتعرف فيه على ملامح نجوى. مر بجوار "مكتبة ديوان"، في منتصف الطريق إلى المقهى المزمع أن يلتقي نجوى فيه. لاحظ صورة عملاقة لنجيب محفوظ على جدار، ملصق أعلى طرفها العلوي شريط أسود يأخذ شكل حرف ألف مائل. وأسفل الصورة قرأ: "معًا من أجل استعادة تراث الرجل الكبير". تسارعت ضربات قلبه، وسرت في عقله الظنون، متخيلا أنه يعيش في متاهة، أو حلم غريب. شعر بأن كل ما كتبه في الرواية

لم يكن سوى واقع، كأن هناك من كان يراقبه، ويعود لينقله إليه، أو يلهمه به. للحظة شك بأنه يعاني من حالة نفسية تجعله يسير في نومه، وأنه، في حالته اللاواعية تلك، يرى ما يرى، ويعود لينقله للرواية في وعيه، ظانًا أن ما يكتبه من وحي الخيال.

أحس أن خوفه أكبر من قدرته على الاحتمال. توقف أكثر من مرة أمام زجاج واجهات المحال الزجاجية متصنعًا تأمل ما يعرض في تلك المحال: ساعات، أو أجهزة إلكترونية وكهربية، أحذية، أو ملابس أنيقة، وعطور. لكنه لم يكن يرى شيئا منها، إذ كان مهتمًا بتأمل صورته معكوسة على تلك الواجهات الزجاجية، وكان مظهره المتأنق هو ما يدفعه، بعد كل توقف، في استكمال السير، ومدافعة رغبته القوية في العودة إلى البيت، وإنهاء هذا الفاصل العبثي من حياته. ساوره الندم لأنه لم يستجب لجيسيكا التي اقترحت عليه أن يتناول أقراصا مهدئة تخفف من توتره. وقرر أن يركز تفكيره في لقاء نجوى.

لم يجد صعوبة في التعرف عليها. كانت تجلس بمفردها في نفس "الكافيه" الذي كان قد استلهمه كمسرح لمشهد التقائها بكبرياء صباح اليوم الذي قررت فيه أن تهرب من بيت أمها وتنتقل لتعيش معه. عقصت شعرها في ذيل حصان طويل، بينما ارتدت "تي شيرتًا" أصفر ضيقًا يكشف تضاريس جسدها الممتلئ نسبيًا، وبنطلون "جينز" ضيقًا. توجه إليها بخطوات بطيئة، محاولاً إظهار حالة من الثقة ورباطة الجأش. حياها،

بينما كانت مستغرقة في قراءة كتاب. التفتت إليه، اخترقته نظرة عينيها، وصعق من تشابهها مع الصورة التي تخيلها حين اختلقها من الخيال. مدت يدها لتصافحه. عندما وضعت كفها البضة الناعمة في يده نقلت إليه حالة حسية غامضة. جلس، وهو يرسم ابتسامة بلهاء. قالت له: "كنت أظنك أكبر عمرًا من ذلك". "طاعن في السن"؟ "ليس للدرجة، ولكنك تذكرني بكاتب أمريكي، يبدو لي شابًا كلما تقدم في العمر". أدرك أنها تتحدث عن بول أوستر، فهز رأسه ملمحًا بأنه يفهمها جيدًا، وهو يشعر بالإطراء. ثم حدقت في عينيه وهي تسأله: "لكن ماذا عني؟ أظن أنني معروفة لك سلفًا". ابتسم لها مرتبكا.

"هل ترغب في تناول شيء؟ قهوة ربما"؟ "دعيني أنا أدعوكِ لتشربي شيئًا". أشارت إلى فنجان القهوة أمامها وقالت: "ما زلت أتناول قهوتي، لم أسبقك بوقت طويل".

طلب قهوة من النادلة الشابة، ثم التفت إليها قائلاً: "أخبرتني جيسيكا عن رغبتك في لقائي". "هل سنتحدث بالإنجليزية"؟ ضحك قائلاً: "هذا ما أظن أنك تفضلينه". "حسنًا، ليكن، نعم رغبت في لقائك، ولعلها أخبرتك بالتفاصيل. كانت تلك صدفة مدهشة، لكن سؤالي بشكل مباشر هو كيف تعرف عني تلك التفاصيل بينما أننا لم نلتق قبلاً"؟ "الحقيقة أن ما تقولينه غريب جدًا. بالتأكيد أن أي كاتب لا يحلم بأكثر مما حدث. مع ذلك فهذه الأمور هي مصادفات بحتة. هناك الكثير من الكتاب الذين ألفوا قصصًا، واختلقوا شخصيات افتراضية، ركبوها من مزيج من العديد

من الشخصيات التي يلتقونها في حياتهم، أو سمعوا عنها، وسرعان ما كانوا يفاجأون بمن يظهر ليقول إنه وجد شخصه في رواية أو قصة". "هذا صحيح. لكن التطابق لا يمكن أن يصل إلى الوصف، واستخدام نفس الاسم". "بالنسبة لي أنا مندهش تمامًا، فهذه الشخصية هي واحدة من الشخصيات التي اختلقتها من الخيال المحض، لم أعرف شخصية مثل هذه". التمعت عيناها بومضة من بريق، خبا سريعًا بأثر من ارتباكها الذي لم تستطع أن تداريه. لاحظ كاتب ارتباكها، و لم يدرك مبرره، لكنه، بعد لحظات فكر في أنها ربما تشعر بأن معرفته بها غير المفهومة هذه تجعلها تشعر بنوع من التعري.

تساءل: هل هي خجلة بالفعل من أنها تواجه شخصًا يعريها إلى تلك الدرجة؟ كان يظن أن فكرة الاستعراء، في الرواية، كما كانت نجوى تمارسها، هي حالة فنية محضة، لكنه الآن يجلس في مواجهة فتاة تقول إن كل ما كتبه هو حقيقة واقعة، وهو ما يعني ضمنا أنها تمارس الاستعراء مع كبرياء. قالت له: "على أية حال يمكننا أن نتكلم في هذه التفاصيل لاحقًا، ما أريده الآن هو أن تمتنع عن نشر هذه الرواية، وأن تعطيني نسخة منها لكي أقرأها". لم يكن ينوي نشر الرواية، كما تعرفون، لكن طلبها المستفز جعله يسأل: "لماذا"؟ "لماذا؟ لأن ذلك سيعرضني لإحراج بالغ مع أهلي، ومع أصدقائي، وحتى مع كبرياء، كيف أشرح له أنك تعرف كل هذه التفاصيل عن حياتي، وبينها أشياء لا يعرفها سواي أنا وهو"؟ "أليس من الممكن أن تقولي الحقيقة لكل من يهتم"؟ "أي حقيقة"؟ "أنها

رواية لشخص لم تلتقه في حياتك". ابتسمت ثم قالت: "كان من الممكن أن يكون هذا هو الحل لو أنني لم ألتق بك فعلا، أما الآن فلا يمكنني أن أدعي ذلك". "هل أعتبر هذه مراوغة"؟ "لا ليست كذلك، الحقيقة هي أنك الآن تعرفني بالفعل، والحقيقة أن ما كتبته عني يؤكد أنك تعرف عني أكثر مما أعرف أنا عن نفسي". "هل تعتقدين في ذلك فعلاً"؟ "ألا تعتقد أنت ذلك؟ ألم تشعر منذ أن رأيتني أن توترك تحول للنقيض، وأنك تعرف موقع قوتك باتجاهي، أنت تسيطر عليَّ تمامًا، أنت تعرف عني كل شيء، وأنا لا أعرف عنك شيئا بالمرة". "في حدود علمي، ليس ما تقولينه صحيحًا، فقد أخبرتني جيسيكا أنك استقصيت عني، و لم تتركي شيئًا يتعلق بحياتي لم تسألي عنه، حتى أصناف الطعام والشراب التي أفضلها". "فعلت ذلك لأنه كانت لدي شكوك قوية بأننا ربما التقينا من قبل، أو جمعتنا صداقة قديمة، أو حتى أصدقاء مشتركون يمكن أن يكونوا قد نقلوا لك أخباري".

فكر في شخصية نجوى كما ابتكرها في خياله، وتأمل ملامحها مستغلاً لحظات قليلة استغرقتها لترتشف من فنجان قهوتها. شعر بعاطفة قوية باتجاهها. فكر أنه لو وقع في غرامها فلن يمكنها أن تفعل به ما فعلت بكبرياء. لن تضطر لممارسة كل تلك الألعاب، على الأقل من واقع إحساسها بأنه يعرف عنها كل وجوهها. لكنه تأملها مرة أخرى. لاحظ أن عاطفته باتجاهها، تتطور، بمرور الوقت. فكر في شكل العلاقة متخيلاً أنه وجد نفسه، بصدفة قدرية ما، في موضع كبرياء.

هل كان سيقرر ألا يتزوجها، أم أنه سيقع في غرامها لدرجة تجعله لا يطيق فراقها!

تذكر صديقتيها فاطيما وهديل. تساءل: هل يعقل أن يكونا موجودتين أيضًا. برقت في ذهنه فكرة أنه لو صادف شخصية مثل فاطيما، فسيكون ذلك أهم ما يحدث له. كان يفكر كثيرًا في علاقة ممتدة، وطويلة، ومستقرة، لكن بلا التزامات من أي نوع. أن يقيم علاقة مع فتاة مثل فاطيما، ويترك لها حرية التنقل بين عشاقها كما تريد، بشرط أن توجد في حياته كلما رغب في ذلك. فكر أن يسأل نجوى عما إذا كان لها صديقتان بهذين الاسمين. لكنه أحس بالانزعاج من فكرة السؤال. فلو تصادف وجودهما فهذا يعني أن هناك أحجية، أو "فزورة" كبيرة، قد تصبح قنبلة موقوتة له شخصيًا، تتعلق بطبيعة النص الذي انتهى منه. كيف يكتب شيئًا متخيلاً فإذا به حقيقة. ثم إذا تحول كل ذلك الخيال إلى واقع ألا يعني ذلك أن ما افترضه أسلوبًا حداثيًا سيضرب في العمق؛ إذ إنه لن يكون سوى نص واقعي يرصد جانبًا من وقائع حياة أشخاص موجودين في الحياة، ويصبح ما كتبه مجرد نقل أمين لوقائع، بإمكان أي مدرس لغة أو "باش كاتب" أن ينقلها بلغته الركيكة العتيقة؟

شرع يفكر في الخيوط الأولى لفكرة الرواية. لم يستطع تذكر الشرارة الأولى للفكرة. بعد جهد وتفكير عميقين استطاع أن يتذكر أن شخصية كبرياء، كما تخيلها في الرواية، كان لها جذر ما من الواقع. لكن أين التقاه؟ هل يعقل أن يكون ذلك في دار المسنين؟

في تلك اللحظة، لمح، عبر الواجهة الزجاجية المجاورة لهما، عددًا من المنقبات يسرن في الطريق في عدة صفوف. شعر بالوجل، وبدأ حسه الارتيابي في التصاعد تدريجيًا بعد أن كان قد هدأ قليلاً. عندما لاحظ ذلك فكر في أن وجوده مع نجوى ساهم في تهدئته. سألها: "ما هي حكاية هؤلاء السيدات"؟ "إنت مش عايش معانا ولا إيه"؟ ابتسم قائلاً: "الحقيقة لا. أنا لا أغادر شقتي إلا قليلاً، وقاطعت الصحف والتليفزيون منذ سنوات. أنا فقط أسمع الموسيقى". "غريب، هذا قرار شجاع على أية حال، عمومًا أنت ترى هؤلاء الفتيات يسرن في الشوارع بلا هدف، بدأن في الظهور بعد اختفاء كتب نجيب محفوظ بحوالي شهرين". "ماذا؟ هل اختفت كتب نجيب محفوظ"؟ "إنت فعلا مش معانا، الموضوع ده بقالوا أكتر من سنة". انتابت كاتب حالة من المشاعر المتناقضة، كان يريد أن يضحك من المفارقة، لكنه انزعج من الفكرة في الوقت نفسه، لأنه بقدر ما تخيلها وكتب عنها، فإنه لم يتمثلها على مستوى الواقع. تعامل معها باستمرار بوصفها جانبًا خياليًا وغرائبيًا في رواية ذات طابع عصري تريد أن تقول الأشياء بأبعد ما يكون عن المباشرة. فكر أن يمر على دار المسنين التي كانت أمه تعيش فيها قبل وفاتها. تساءل: هل يمكن أن يجد فيها شخصًا يدعى رفيق فهمي؟!

أمسك جبينه، وأخبر نجوى بأنه أصيب بصداع شديد، وأنه لا بد أن ينصرف. ألحت عليه أن يبقى لكي ينهيا نقاشهما. اعتذر لها مشددًا على أن بإمكانها أن تحضر لزيارته في أي وقت. أعطاها رقم الهاتف والعنوان وكرر اعتذاره، ترك للنادلة كل النقود التي كانت في جيبه، وانصرف كأنه

غريق في أعماق المياه ينتظر، مقطوع النفس، لحظة وصوله للسطح، بكل قوة رغبته في البقاء حيًا!

8

عاد كاتب الكاشف إلى المنزل مذعورًا. شعر بارتياح عميق فور أن أغلق الباب خلفه. تأمل غرفة المعيشة الكبيرة ذات الطراز المودرن الزرقاء، وشعر بأنه كالغريق الذي يضع قدمه على أرض صلبة لأول مرة بعد ساعات من مصارعة الأمواج. نادى على جيسيكا، لكنها لم تكن موجودة. أسرع إلى غرفة مكتبه، جلس على المكتب المواجه للنافذة المطلة على النيل. فتح درج مكتبه الذي يضع فيه رواياته. لكنه وجده مغلقا. حاول بقوة أكبر، فأدرك أنه مغلق بالمفتاح. بحث عن المفتاح في الأدراج الصغيرة، المتراصة فوق بعضها، وعلى سطح المكتب، وعلى المنضدة المجاورة للكرسي الوثير المخصص للقراءة في ركن الغرفة. لكنه لم يجد شيئًا. تذكر أنه أعطى المفتاح لجيسيكا فتنفس عميقًا، لكن فكرة أنها قد تعطي الرواية لنجوى جعلته يشعر بنوع من الخوف المفاجئ. ارتعشت ساقاه، فتذكر أنه أجهد

نفسه كثيرًا بسبب التوتر الذي عرَّض له نفسه منذ ظهور نجوى. فكر أن وجود جيسيكا في حياته هو الذي تسبب في كل ذلك، وظهور هذه المأساة كلها، فغالبه شعور بالحنق، لدرجة أنه تصور أنه يكرهها في تلك اللحظة. وإزاء غضبه وحنقه عليها فكر أن يأخذ منها المفتاح، فور عودتها، وينهي علاقته بها فورًا، ويطالبها بمغادرة الشقة في أقرب فرصة.

بحث عن أدويته المهدئة، تناول قرصًا منها، وابتلعه. توجه للثلاجة. تناول زجاجة بيرة، فتحها وتجرع منها عدة جرعات. خرج من المطبخ باحثا عن سجائره. وجدها على المنضدة التي تتوسط غرفة المعيشة. جلس على الأريكة الوثيرة واجمًا. برق في ذهنه خاطر مفاجئ، فاتجه إلى غرفة مكتبه مرة أخرى، عندما وقعت عيناه على المكتبة صرخ بكل قوته: "مش معقول.. مش معقول". كان الرفان المخصصان لكتب نجيب محفوظ خاليين تمامًا. توجه لغرفة النوم، وفتح الدولاب. وجده خاليًا من كل ثيابها. جن جنونه؛ فشرع يفتش بين ثيابه المعلقة، وأغراضه المصفوفة في أرضية الدولاب على أي أثر من آثارها. بلا جدوى، شعر بأنه موشك على الجنون. كانت الأسئلة تمور بعقله، هل اختفت كتب محفوظ فعلا، أم أن جيسيكا أخذتها بين أغراضها؟ أين ذهبت جيسيكا؟ هل سافرت إلى كندا؟ لا يمكن أن يحدث ذلك بهذا الشكل المفاجئ. هل ملت من حياتها معه؟ لكن لماذا لم تقل له ذلك بشكل مباشر؟ كانا قد تحدثا في ذلك مطولاً، واتفقا على الانفصال إذا شعر طرف في رغبته بأن يفعل ذلك.

هل تعمدت أن تأخذ مفتاح الدرج معها؟ ولماذا؟ هل ستعطي الرواية لنجوى فعلاً؟ أم أنها ستنشرها كما كانت تردد له دائمًا في حواراتهما

المطولة حول وصفها له بأنه رجل مسلوب الإرادة محب للفشل. "هل قررت أن تجعلني ناجحًا رغم أنفي"؟ لو أن كتب نجيب قد اختفت كما تخيل هو في الرواية، فإن ذلك سيدفعه، حتمًا، لاستكمال الرواية بأي ثمن. وخفق قلبه بعنف عندما فكر بأنه يمكن أن يستكملها بالفعل، لكن ماذا عن الأصل؟ هل سيكتب نهاية لرواية لا وجود لها. شعر بالانفعال، فقرر أن يكسر الدرج، فلعلها أخذت المفتاح لكنها لم تأخذ الرواية، أسرع إلى المطبخ وبحث عن كل المعدات التي يمكن أن تساعده في مهمته. المطرقة، المفكات، البنسة، وأسرع إلى غرفته. امتلأت الغرفة بضجيج الطرقات المجنونة حتى انفتح الدرج أخيرًا. أمسك الأوراق الموجودة داخله بمزيج من الفزع والفرح معًا. لكنه اكتشف وجود الروايات الأربع الأولى فقط، بينما اختفى مخطوط رواية "كبرياء".تذكر بأنه نقل المخطوط إلى شاشة الكمبيوتر، ففتح جهازه، وكنت المفاجأة أنه لم يجد النسخة لا على سطح الجهاز، ولا في أي من الملفات العديدة التي كان يخزن المواد التي يكتبها أو يحتفظ بها للقراءة، في أي منها.

كاد أن ينفجر من الغيظ. كان غضبه موجهًا باتجاه جيسيكا التي فاجأته تمامًا بما فعلته. عاودته كل مشاعر جنون الارتياب، فخبط على رأسه وهو يردد: "يا بنت الكاااااالب. أما أنا مغفل بشكل".

تداعت إلى ذهنه كل الاحتمالات الممكنة؛ أن جيسيكا ليست سوى شخصية مدسوسة عليه من قبل أشخاص يريدون أن يؤذوه، مع العلم بأنه لم يصنع أعداء من أي نوع في حياته الخالية من الصراعات. ومن التداعيات برق ذهنه بأن نجوى لا وجود لها من الأصل، وأن تلك كانت حيلة

من جيسيكا لكي تقنعه بأهمية نشر الرواية. وأنها رأت فيها ما قد يسبب له ورطة و لهذا تريده أن يقوم بنشرها. شعر بأنه سيجن فعلاً، فبدأ يفكر بأنه لا بد أن يهدأ أولاً حتى يستطيع أن يفكر في كيفية مواجهة هذه المأساة. خرج من الغرفة، متجهًا إلى غرفة المعيشة. فتح جهاز التليفزيون حتى يشغل أفكاره بأي شيء. كان يستعيد الكثير من فصول الرواية، ويكتشف أنه، بسبب إعادة كتابة كل فصولها من الذاكرة فإنه، تقريبًا يمكن أن يستعيد الكثير منها. لكن المأساة التي واجهته هي كيفية استعادة الفقرات المقتطفة من روايات نجيب محفوظ. فكر بأنه لا بد في هذه الحالة أن يستعيض عنها بفقرات أخرى، أو أن يستدعي معنى تلك المقتطفات. استسخف الفكرة، لأنها لن تعطي للقارئ الإحساس بجمال لغة محفوظ، ورصانتها، وبلاغتها.

فكر في أن الحل الأمثل هو أن يستكمل الرواية من حيث انتهى أولاً، وعندما ينتهي منها بشكل نهائي، فسوف يكون بإمكانه أن يعود لكتابتها مرة أخرى. تجرع جرعات من بيرته، ودخن طويلاً، ثم قرر أن يبدأ بتدوين كل ما يتذكره منها بشكل سريع، كمرحلة أولى تنعش ذاكرته عندما يعود لكتابتها مرة أخرى.

الجزء الثالث

القسم الأول

الشيطان يعظ

قرر كاتب الكاشف إضافة فصل كامل عن شخصية رفيق فهمي، العجوز الشهواني المقيم بدار المسنين، لمفارقة أساسية، ومحورية حول علاقة هذا الرجل بكبرياء، الذي لم يعرف ألبتة سبب ارتباطه الوثيق بهذا الرجل، وهكذا شرع كاتب الكاشف في كتابة النص، أو بالأحرى، استكمال كتابته مختلقًا صوتًا جديدًا لقرين رفيق فهمي، وحاول أن يجعله مختلفًا قليلاً عن أصوات السرد التي بدأ بها فصول روايته الأولى.

1

داعرة وأبله! هكذا يمكن أن أصف التافهين؛ قرين كبرياء، وعشيقته قرينة نجوى. تركا كل شيء، فجأة، وانكفأ كل منهما على الآخر، بعد أن جن جنون شهوتهما، وشبقهما، كل بالآخر، وتركا لي مهمة استكمال سرد هذا النص!

لست إلا كائنًا شبحيًا من أصحاب المزاج. لازمت رجلاً يشبهني على مدى حياته، فاستمتعت كثيرًا مقارنة بآخرين من القرناء، الذين أوقعهم حظهم التعس في أسر الاقتران بشخصيات كئيبة، أو فقيرة الروح، أو ثقيلة الظل، بما يفوق الاحتمال. لا يشترط للقرين أن تتطابق صفاته مع الشخص الذي يقترن به؛ ففي حالات كثيرة لا يتطابقان، وهو ما يجعل الحياة بينهما، في تلك الحالة، نوعًا من الجحيم. مثل هذه الشخصيات تصادفونها بوصفها شخصيات اكتئابية، أو انعزالية، وبعض أصحاب

تلك الشخصيات يوصفون بأنهم ممرورون، ذوو أمزجة سوداوية، لا يتحدثون إلا في أمور كئيبة، تكاد الابتسامة لا تعرف طريقًا لشفاههم. إذا صادفت واحدًا من أولئك القرناء التعساء، فحريٌّ به أن يكره نفسه. سأسب الشيطان الذي وضع نطفته في حقل الداعرة التي أفسحت له أحشائها، لاعنًا عبوره الكئيب في وجهي، محذرًا إياه باجتنابي، أينما عرف بوجودي. هؤلاء البؤساء، لا يكفيهم ما نعرف من بؤس العالم، حتى يكملوا علينا بوجوههم المتجهمة العابسة الكريهة. على أية حال فلن أعكر مزاجي بالتحدث عنهم أكثر من هذا. لعنة الشياطين عليهم جميعًا. أقول إن العاشقين، قرين كبرياء وعشيقته قرينة نجوى، أخليا لي السبيل للحكي، فلتسامحهما الآلهة، أو لتفعل بهما ما تشاء. فحياتي ليست سوى حياة داعر كبير. وهذا ما كان يعجبني في رفيقي، الذي تعرفونه باسم "رفيق فهمي"، واهب النسب لكبرياء، والعاشق العجوز في دار المسنين. ابن الحرام. أهلك نفسه.

لكن لا بأس. فهذا رجل فحل. أعرف طبعًا الوصفات التي يتناولها كلها: العسل المخلوط بمسحوق النبات العشبي الذي تعرفونه باسم "الجنسنج"، وحبوب اللقاح، ومخلوط عسل ملكات النحل الممتزج بالقرفة وجوز الطيب. وزيت حبة البركة على الريق، وسكاكر الدقيق المخلوط بالعسل والزنجبيل، وأصابع البطارخ المجففة، والكافيار قبل إفطاره الدسم، وأعشاب البهارات العجيبة الأخرى. ثم سنّة الأفيون التي يضعها تحت لسانه ولا تغادر فمه إلا نادرا. وعندما يشعر بأن حيويته

قد انطفأت قليلا، فإنه يرسل جرجس سريعًا لأقرب صيدلية يحضر منها "فيتامينات بي" المقوية للأعصاب، ويوليه ظهره ليغرز جرجس، الخبير في تمريضه، الإبرة في كفله، ناقلاً إلى دمه مقدار جرعة الفيتامين. السيدات صاحبات المزاج اللائي يُجدن ممارسة الجنس كن يستمتعن معه كثيرًا، لأنه يطيل المضاجعة. أما الفتيات الصغيرات فلم يكنّ يستمتعن معه؛ أولاً لأنهن كن يستثرن بسرعة من لمساته، وثانيًا لأنه؛ وعلى سبيل الانتقام المشوب بالغيظ، كان يحلو له أن يذيق مثل هاتيك الصبايا الغريرات عذابًا حسيًا موجعًا. كأنه يعاقبهن على تعجلهن، وعجزهن عن السيطرة على بلوغهن الذروة. كان يمتطيهن لتشتعل شهواتهن مرة ومرات، حتى أن الكثيرات منهن كن يفقدن القدرة على المشي ليومين لاحقين.

إذا شئتم أن تعلموا عني شيئًا فاعلموا أنني قرين غريب الأطوار. لا تحكمني قواعد ولا يكبحني قيد، ولا أفعل سوى ما أهواه، تماما كما هو شأن "رفيق". لهذا ارتبطت به في حيواته المتعددة؛ على غير الشائع. فالقرين منا لا ينبغي له أن يقترن بصاحبه إلا لزمن حياة واحدة فقط، وبعدها يقترن بغيره وفقًا لتكليف من كبيرنا في المملكة السفلية. لا أخفيكم أنني أعتبر نفسي قرينًا محظوظًا بصحبة هذا الرجل. فهو على مدى حياته، القديمة منها والراهنة، لم يبد اهتمامًا بقانون أو عرف أو تقليد. يحب الحياة التي يعيشها أيًا كانت. لا وقت لديه للحزن، ولا للكآبة والتعاسة. يضحك أينما كان، ويضفي على المكان روحًا فكهة. هو أيضًا خبير بالشخصيات التي يلتقيها. فهو يؤمن بفكرة تناسخ الأرواح. كل شخص يلتقيه يشرع

في تحليل ملامح وجهه، ليتأكد إذا ما كان شخصًا عاش حياة أخرى من قبل أم لا. عادة ما تعرف مثل هذه الشخصيات في طفولتها المبكرة، فهي تأتي لحياتكم هذه بملامح مكتملة، تبدو أكبر من عمرها بكثير.

قبل عدة سنوات بدأ يومه بجولة صباحية إلى وسط البلد. ترجل من التاكسي في ميدان طلعت حرب، وسار متباطئًا إلى المكتبة التي تتوسط الميدان. ألقي تحية، تعمد أن تبدو متعجرفة، على العاملين في المكتبة، متمنيًا من أعماقه أن يخطئ واحد منهم فلا يرد إليه التحية؛ ليلقنه درسًا في احترام الناس، ولسان حاله يردد: "فاكرين نفسهم أسياد العالم، مش عارفين إنهم لازم يتواضعوا زي كل الناس اللي بتشتغل في الكتب". التقط كتابًا جديدًا من على أحد الرفوف، وتقدم به إلى الجالس على الكاشير، نظر بترفع إلى حلقة الموظفين الواقفين ثم سألهم: "إنتوا عمركم شفتم مكتبة قبل كده؟!".

كان رد فعلهم الأوليّ هو ابتسامة سخرية رسمها الواقفون؛ كأنهم اتفقوا جميعًا عليها، لكنه حولها، فورًا، إلى مجموعة من الابتسامات البلهاء؛ إذ أطلق ضحكة صاخبة بصوته الأجش، ثم ردد بالإنجليزية، وبنبرة بريطانية أرستقراطية: "أتمنى أن تروا واحدة منها قبل أن تموتوا". بعد أن خرج كان يفكر كيف أن كل الكتب التي تحيط بهؤلاء الشخصيات العجائبية لم ترب فيهم شيئا إنسانيًا أو جماليًا. في اليوم الذي زار فيه المكتبة، خرج منها بكتاب عن المصريين الذين حفروا القناة، وعبر إلى الرصيف المقابل، يقع على ناصيته المبنى الرخامي الرمادي، الذي يعلو شركة الخطوط الفرنسية،

ومنها إلى الرصيف التالي الذي يحتله مبنى مقهى "جروبي" العتيق. اشترى صحيفة الأهرام من بائع الصحف الذي يفترش الرصيف، بعد أن تأمل، متأففًا، عناوين الصحف المستقلة التي كان يعتبرها غوغائية. كان يردد لنفسه مبتسمًا أن الكذب الهادئ أرقى من ضجيج الصدق والموضوعية.

دخل إلى المقهى من الباب الرئيسي، وكالعادة تلقى التحايا من العاملين الذين يعرفونه جيدًا. جلس على طاولته المفضلة بجوار النافذة، وطلب قهوته، ولمح على الطاولة المواجهة له سيدة شقراء. التقت عيناه بعينيها الزرقاوين في لمحة خاطفة، فانتشى الرجل العربيد في داخله، وأيقظني من غفوتي، فانتبهت. سوى أن ما أثار اهتمامه، واهتمامي بطبيعة الحال؛ هو ملامح الطفلة الجالسة إلى جوار تلك السيدة. كانت في عامها الثالث على الأكثر، ملامح وجهها الرقيقة المنمقة والفاتنة أيضًا كانت ناضجة تعطي لها عمرًا أكبر بكثير، وليست طفلة تخطو إلى سنة ميلادها الرابعة . ابتسم رفيق للصغيرة، فابتسمت له، وهي تبادله نظرة عميقة ماكرة. بدا صمتها بليغًا، لأن نظرة عينيها بدت محملة بأفكار عميقة. فكر رفيق بأنها تبدو كفتاة خارجة لتوها من متن كتاب حكايات أسطورية خرافية قديمة. وأصابته ضحكة الفتاة المباغتة بيقين لا يأتيه الباطل، أنها، بالفعل، كانت بطلة حكاية خرافية قديمة.

في تلك اللحظة التقت عيناه بعيني السيدة الشقراء مرة أخرى، فانتشى شعور باطني عميق في روحه، وأدهشه ذلك. ففي مثل عمره الذي كان قد اقترب من السبعين، تكون فكرة المشاعر الجياشة قد نضبت. انقطعت حبال أفكاره بحضور النادل النوبي الشاب؛ الذي

وقف أمامه بتراخ لم يعجبه، بعد أن وضع أمامه فنجان القهوة. سأله النادل إذا ما كان يرغب في شيء آخر. تجاهله، وهو يخرج غليونه من حقيبة اليد السوداء الصغيرة التي يحملها معه أينما ذهب، وبيد مرتعشة أخرج غليونه الخشبي، ولفافة التبغ الورقية، المكسوة بغلاف من ورق السوليفان البلاستيكي الشفاف، التي تحتوي التبغ، وعلبة الثقاب، وأدار وجهه صوب النافذة. تناول كمية من التبغ بطرفي إبهامه والسبابة، وضعها بدقة في بوق الغليون، وضغط عليها مستخدمًا سبابته؛ بإحكام ولطف معًا، وتجاهل الفتى عندما عاود سؤاله بنفس الرتابة والطريقة الآلية التي يتكلم بها. أشعل عود الثقاب وقربه من التبغ الذي التقط النار فتحول لونه البني القاتم الأقرب للسواد ليتوهج بالأحمر الناري. بدأ في التدخين وقد تعقد جبينه، ثم راح ينفث الدخان مستمتعًا، دون أن يبدو على ملامح وجهه شيء من متعته، فانصرف الفتى مرتبكًا. من خلف سحب الدخان تأمل وجه المرأة مرة أخرى، ثم نقل عينيه بينها وبين الطفلة الصغيرة، وخطر له أنه عرفها في زمن بعيد. أحس أن الصغيرة هي التي كانت تعيش، آنذاك، دور الأم. أما السيدة الجميلة التي تجلس أمامه الآن بوصفها أمًّا شابة تحاول أن تتصنع الوقار فقد كانت، في حياتها السابقة، هي الابنة الفاتنة!

نهضت السيدة لتجهز نفسها وابنتها للرحيل. تفحص جسدها بعناية. كانت ترتدي تي شيرت أبيض بلا أكمام كاشفة عن كتفين جميلين يشعان بالأبيض، ويعلنان عن صفاء بشرتها الناعمة، وبنطلونًا قطنيًا رماديًا محكومًا على فخذيها، بينما تنتعل حذاء رياضيًا. ممشوقة القوام،

يبدو جسدها كجسد رياضية، ومع ذلك لم يخل بطنها من بروز طفيف لا تخفى لدونته. حاول أن يتخيل ملامح النشوة على وجه المرأة. مرة أخرى عاوده ذلك الشعور القوي بأنه رآها من قبل. لم يرها فقط، وإنما مارس معها الحب أيضًا! ابتسم لها وهي تضع الجاكت القطني الرمادي على كتفيها. ولوح للصبية الصغيرة، لكنه لم يكترث بأن يفتعل أي طريقة للتعارف، أو أن يمهد للقاء آخر، فقد كان على يقين من أنه سيلتقيها في زمن آخر!

2

في مملكة القرائن التي أنتمي إليها وُصفتُ بصفات عديدة، لم يكن بينها الثرثرة. قيل عني إني ماجن، وداعر، ألعبان، وكذّاب؛ بل إن بعض المخنثين من القرائن – الذين لم يكن أي منهم قادرًا على أن يحدق في عيني إذا رآني – وصفوني، من قبيل الحقد والغيرة؛ بأنني محتال. كما وُصفت من قبل بعض منهم بالحكمة والشجاعة. لكنني لم أكن ثرثارًا ألبتة. والآن أجدني في موقع الثرثار، لأول مرة. لا بأس في ذلك على أي حال، فالأرواح الخفية من أمثالنا تتغير، كلما تقدمت في العمر. ما أرغب في قوله إن دوري الآن كسارد نص بدأه آخرون قد لا يناسبني، لكني أظن أنني أستمتع به، لرغبتي في الحكي عن "رفيق" من جهة، ولتجنب الكثير من المغالطات، من جهة أخرى. لو استمر قرين كبرياء، التافه، في سرد النص لارتكب حماقة كبيرة، قد تبدو بديهية لأي شبح أو إنسي

يوضع في مكانه. ولم يكن ليتردد في أن يستعين باليوميات التي أملاها رفيق لكبرياء، وخطها الأخير بخطه الحسن. فهذه اليوميات ليست سوى مجموعة من الأكاذيب الملفقة، أراد بها رفيق أن يقدم لكبرياء صورة مثالية عن نفسه لأسباب غامضة. الموقف الوحيد الذي قارب الحقيقة فيما سرده رفيق لكبرياء هو ذلك الموقف المخزي الذي ضبط فيه متلبسا بالنوم عاريًا مع تلك المرأة؛ "رَوْحِية"، التي فضحها صوت غلمتها، وتسببت لهما في حفل تأديب من الأستاذ فهمي والد رفيق، الذي أفقده الغضب كل صوت للعقل والحكمة. اختفى رفيق عن بيت أبيه معتزلا في بيوت بعض رفاقه. كذلك "روحية"؛ اختفت هي أيضًا، لكنها لم تكن بمفردها، فقد أثمرت ليلة الحب تلك حملاً تعلق في أحشائها ولم يكشف نفسه لها إلا بعد مرور شهر كامل. التفاصيل الدامية هذه مثلت الواقعة الحقيقية الوحيدة التي أوردها رفيق في يومياته التي أملاها لكبرياء؛ لأنها أهم الأحداث التي أثرت على حياته. فقد أنجب من تلك الفتاة ابنه الوحيد "حسين"، وكان فتى عنيدًا، منحرف المزاج، عاقًا، كما أنه ورث عنه صفة زير نساء بامتياز، لا يستطيع أن يتنفس دون أن يثير الكوارث من حوله.

أما عدا ذلك مما أملاه رفيق على كبرياء فلم يكن سوى لغو لا طائل منه، لا لرفيق أو لكبرياء، أو لأي أحد. كان يجلس هادئًا، يرسم ملامح رجل عظيم من أصحاب الأفكار الكبيرة، يتكلم بنبرة هادئة مصطنعة، يتأمل سقف الحجرة بعينين ذاهلتين؛ إحداهما زجاجية لا تحمل تعبيرًا محددًا، عمياء لا يرى بها شيئًا، كان قد فقدها في واحدة من صولات شبابه المجنونة.

أما في أعماقه فكان يضحك من سذاجة الفتى الذي يجلس أمامه، ويصدق كل ما يقوله. لكنه كان يشعر بالضجر؛ لأن كبرياء الأبله، هذا، لم يسأل نفسه أبدًا عن السبب الذي جعله يمنحه اسمه، ناقلاً إياه من صفوف اللقطاء: "أبناء الحرام" كما يقول عنهم الناس، إلى مصاف "أبناء الحلال"، الذين يصفون اللقطاء بأبناء الحرام!

في ذلك الزمن كان يمتلك بعضًا من الرومانسية التي أوقعت به في غرام تلك الفتاة، بالرغم من الاختلافات الكبيرة بينهما. لم يكن ما يشعر به سذاجة، أو قلة عقل، وإنما كان واقعًا في غرامها بالفعل.

بالنسبة لقرين متفلسف وشهواني مثلي؛ فإن الوقوع في الغرام لا يعنى أكثر من إمكانية فعل الجنس بشكل جيد. وهذا قد تحقق بالفعل بينهما. أما الشرط الثاني للوقوع في الغرام فهو تبادل حديث فلسفي جيد، لكن هذا الشرط لم يتوافر لهما؛ بسبب تفاهة "رَوْحيَة" المفرطة. لكن على أية حال يكفيني الطريقة التي مارسا بها الجنس لكي أقتنع بأنهما وقعا في الغرام.

أحرجتني، بل وكدرت مزاجي، تصوراته الرومانسية البائسة، آنذاك. فأي أعمى كان قادرًا على رؤية الاختلاف بينهما. كان هو من طبقة وسطى أتاحت له أن يمارس ما تفعله الطبقات الأرستقراطية بالتعلم في المدارس الفرنسية، والسفر إلى أوروبا، واعتياد أسلوب حياة كان يجعله يدور في دوائر الأرستقراط والأجانب في الثلاثينات والأربعينات حين كانت القاهرة تعج بالأجانب، وتتحول، يوما بعد آخر؛ إلى قطعة من أوروبا. صحيح أن أباه كان رجلاً فظًا من التجار الموسرين، لكنه حرص في الوقت نفسه أن يعلمه تعليمًا راقيًا. أما هي فلم تكن سوى فتاة بائسة

من حي شعبي، تنتمي لأسرة متوسطة الحال. تعلمت تعليمًا عاديًا، لكنها لم تكن راضية عن حياتها في حي العتبة العتيق في قلب القاهرة. كانت تحلم بأن تعيش حياة مرفهة لا تضطرها للكدح طوال عمرها، وكانت تعتقد أن حلمها لا يمكن أن يتحقق سوى بالدخول إلى عالم السينما الساحر. على عتبة أحد مسارح شارع عماد الدين التقاها رفيق بمصادفة محضة، وفتن بها من اللحظة الأولى، وكان آنذاك شابًا رشيقًا، يرتدي بذلات أنيقة. أعجبت به هي أيضًا. وأقنعها بأنه على صلة بالكثير من العاملين في مجال المسرح والسينما، حتى يستميلها، وبعد محاولات جدية منه للقائها، أو دعوتها للتنزه في بعض الأماكن التي اعتاد أن يرتادها، انتهى الأمر بينهما للنوم في الفراش معا. بذل رفيق جهدًا جهيدًا لكي يقنعها بأن تمارس معه الحب بلا زواج، واستغل شغفها لدخول عالم الشهرة والنجومية ليحكي لها حكايات عن عالم النجوم، أغلبها من وحي خياله، أكد لها فيها جميعًا أن النجمات يمنحن أنفسهن لمن يعشقن، وأنهن خبيرات بالحب بسبب تربيتهن الأوروبية، غير التقليدية.

منذ الليلة الأولى التي تعرَّيا فيها معًا في غرفة بواب الفيللا التي كان رفيق يعيش فيها مع والديه اشتعلت بينهما علاقة عاطفية شهوية جارفة بسبب التفاهم الجنسي الذي جمع بينهما، ولم يكن ذلك مألوفًا في المجتمع المصري الذي كانت تتسيده صورة "سي السيد" و"أمينة"، كما عبر عنهما لاحقا نجيب محفوظ، نعم نجيب محفوظ، هل تذكرونه!

لكن، كما تعرفون، الحب أعمى كما يقال. تُيِّم كل منهما بالآخر،

وأحسا بأن السعادة تتلخص في وجودهما معًا. في سيرهما بمحاذاة النيل سويًا، أو في التجول في ميدان الإسماعيلية – تعرفونه الآن باسم ميدان التحرير – ومنه إلى منطقة وسط البلد، معا يثرثران بلا انقطاع. أو في المشي حول حدائق القصور في "جاردن سيتي" قبل الوصول إلى الكوبري الذي يصل بين طريق الكورنيش وحي المنيل. وهو الطريق الذي كانا يقطعانه مشيًا حينما كانا يقرران النوم معًا في منزله بمنيل الروضة، قبل أن يعود بها إلى ميدان العتبة؛ مستأجرًا لها "تاكسي" من ذوي العدادات المدلاة خارج السيارة، والتي لم تكن قد ركبتها قبل أن تعرفه؛ إذ لم تكن وأمها يركبان سوى الحنطور. نعم الحب أعمى، وهذا قدركم جميعا، لأننا نحن إخوتكم "اللي تحت الأرض" الذين نقرر لكم مشاعركم، لأن هذه المشاعر والرغبات مرهونة بنا، وأنا كنت وقعت في غرام قرينة تلك الفتاة، بلا سبب سوى الرغبة الحارقة في أن أمارس الحب معها (انظروا كيف أراعي أخلاقكم الرفيعة وأستخدم كلمات رقيقة حتى لا أجرح مشاعركم الرهيفة) ولهذا فقط، وقع رفيق في غرامها، أيًّا كان معنى ذلك بالنسبة لكم أو بالنسبة لي.

3

أعجبني كثيرًا في رفيق أنه ينتقي من تنسجم قرينتها معي في عالمي. لو لم يفعل ذلك لتحولت صحبته إلى كابوس. وهو في الحقيقة فعل ذلك كثيرًا، كانت أولاها، بعد سنوات قليلة من وفاة الفتاة التي ضاجعها وحملتْ منه وتزوجها رغم أنف أبيه. تلك كانت فتاة يهودية تدعى راشيل. فاتنة بكل المقاييس. حين تعرف إليها لم يكن عمرها يتجاوز 17 عامًا، بينما كان قد تجاوز الثلاثين آنذاك. وكان قد ورث عن أبيه ثروة كبيرة جعلته يفكر في دخول مجال الصناعة. وقرر أن يبني مصنعًا للنسيج. ولأنه لم يكن خبيرًا بالمجال فقد بحث حتى عرف بوجود مهندس يهودي يدعى كمال، خبير في ماكينات النسيج. عرض عليه مبلغًا خياليًا لكي ينتقل للعمل معه. وبالفعل أصبح المسؤول الأول عن إنشاء المصنع الذي اختار له مكانًا قريبًا من الأهرامات. كان شخصية مثالية، خبيرًا في مهنته، مثقفًا، محبًا

للموسيقى، لذلك سرعان ما أصبحا صديقين. وفي منزله، رأى رفيق الفتاة ذات السبعة عشر ربيعًا، ابنة كمال، والتي دخلت إلى الصالون لتقدم له الشاي، وهي ترتدي فستانًا أسود بلا أكمام، يصل إلى ركبتيها، ويكشف عن ساقين ملفوفتين في بشرة بيضاء. كانت طويلة، رشيقة، عادة ما تترك شعرها الأسود الحالك منسدلاً بحرية خلف ظهرها. عيناها الشهوانيتان سوداوان مكحلتان بعناية. وحاجباها العريضان مرسومان بعناية. كانت راشيل فتاة متحررة، تتردد على النوادي، وتقضي مساءاتها في سهرات صاخبة، ما جعلها هدفا لتسابق الشباب من مرتادي النادي على مغازلتها والتقرب إليها، أو الرقص معها في أحد الملاهي الليلية، أو اصطحابها إلى الإسكندرية في عطلة نهاية الأسبوع..

لكنهم جميعًا، مقارنة برفيق، كانوا، في النهاية، مجرد صبية، يتصرفون كالمراهقين. أما رفيق فكان مختلفًا تمامًا. ليس بسبب مظهره الرجولي فقط، ولا لتأنقه الزائد على الحد، ولا لصوته الفخم ذي الرنة المبحوحة قليلاً. وإنما بسبب ثقافته الواسعة وخبراته التي اكتسبها من سفراته العديدة لأوروبا. كما كان حاضر البديهة، خفيف الظل وابن نكتة. عندما كان يتردد إليهما، ليسهر مع والدها ويشربان الكونياك ومزيج الكحوليات، المرتكز على البراندي، الذي كان أبوها بارعًا في تجهيزه، كانت تعتكف في البيت. تنتظر حتى تسمع سعلات أبيها المحشرجة التي تصاحب ضحكه، فتدرك أن رفيق بدأ في إلقاء نكاته المرحة، وتخمن أنها، لا بد، نكات ماجنة، وأحيانا كانت تضحك عندما تسمع أحد تعليقاته الفاحشة،

بل إنها لم تستطع أن تكتم ضحكتها في إحدى المرات، بينما تجلس في بهو الشقة قريبًا من باب الصالون، وسمعها رفيق وارتبك خاصة حين لاحظ الضيق الذي علا ملامح صديقه. بعد أسبوعين فقط شرع رفيق يتصل بها على هاتف البيت خلال مواعيد وجود كمال في المصنع، ولم يضيِّع وقتًا، إذ بدأ فورًا بمغازلتها؛ واصفًا إياها بأنها أجمل امرأة شاهدها في العالم. انتشت كثيرا لذلك الوصف، لأنها كانت متأكدة، من مظهره والطريقة التي يتحدث بها والحكايات التي يحكيها، أنه رجل خبير، وأنه يصفها بذلك بعد أن شاهد عشرات الحسناوات في كل مكان. لكنه أسعدها بشدة حينما قال لها بالإنجليزية وبلكنته البريطانية "أنت أكثر من امرأة بالنسبة لي".

وبالرغم من صغر سنها فقد أبهرته في الفراش. كانت شديدة الذكاء، ما أسهم في تأكيد انطباع عام بأنها أكبر من عمرها كثيرا، وهو ما انعكس أيضًا على ممارستها الحب. فقد بدت خبيرة، لا مجرد فتاة مراهقة بلهاء، تترك جسدها لمن يتلقفه يعبث به كيفما شاء دون تقدير لرغبات جسدها ونوازعه وفانتازياته. كانت من اللحظة الأولى التي تتعرى فيها تمامًا تبدو صاحبة شخصية قوية. تتركه يستمتع بجسمها كيفما شاء، لكنها تنتظر دورها بهدوء لتستمتع هي بجسمه. ثم تطلب منه أن ينام على بطنه، وتعتلي ظهره لتمسده بنهديها صعودًا وهبوطًا، ثم تهبط بهما إلى ردفيه. كان ذلك يثيرها كثيرا. وكذلك كان له تأثير كبير في خياله الجنسي.

في ذلك العصر كانت راشيل بمثابة معجزة جنسية صغيرة، وهو نفسه، بعد أن انقطعت علاقته بها ظل يتحسر عليها، لأنه لم يلتق امرأة

بمثل تحررها، ومعرفتها بجسدها على الإطلاق. عندما يستعيد ذكرياته معها، خاصة بعد اختفاء كتب محفوظ، كان يفكر كيف أن مثلها لم تجد مساحة من كتب محفوظ، أو غيره من كتاب تلك الفترة. وبرقت في ذهنه صورة "زنوبة" في الثلاثية، و"زينات" في الحرافيش. لكنهما، رغم الحس الأنثوي الطاغي، وشهوانيتهما، والطابع الذي سلب لب كل من عرفهما، لم يكونا سوى عاهرتين. أما راشيل فلم تكن عاهرة، وإنما امرأة متحررة.

حتى مصير زنوبة، وزينات كان متقاربًا، فبينما أغوَت الأولى السيد أحمد عبد الجواد ليتزوجها، عاشت زينات، بلا زواج، كعشيقة مع جلال ابن عبد ربه الناجي، وأنجبت منه. لكن كلا منهما تسبب في انهيار أسطورتين من القمة إلى القاع: الأولى تسببت في شرخ هيبة أسطورة أحمد عبد الجواد، بينما زينات قتلت جلال الناجي. هل كان ذلك تعبيرًا عن رأي محفوظ في النساء. أم أنه تعبير عن وضع المرأة في الطبقة الوسطى والطبقات الشعبية المصرية؟ لست هنا لأجيب عن هذه الأسئلة، لأن الشخص الذي طرحها، وهو رفيق فهمي، لم يكترث بأن يجيب عليها، بعد أن عقد المقارنة. وقرر أن محفوظ كان يعبر عن طبقته، و لم يوجد من هو في حجم موهبته من الطبقات الأرستقراطية، باستثناء وجيه غالي ربما، وهذا لم يعرفه أحد لأنه كتب روايته باللغة الإنجليزية. بعد أن فكر بذلك، ردد لنفسه أنه كان مستعدًا لأن يدفع نصف عمره لكي ينام مع امرأة مثل زنوبة!

على أية حال، بسبب ذلك السعار الجنسي الذي اشتعل بين رفيق وراشيل استمرت علاقتهما طويلا، حتى بعد أن عرف عليها عددًا من السيدات اللائي كن يصادفنه هنا أوهناك. كان يمارس الجنس معهن بينما

يتأكد إحساسه، كل مرة، بأن خبرته مع راشيل لا يمكن أن تتكرر. فقد كانت الفتاة الوحيدة التي تمنى رفيق أن يعيش معها مدى حياته. لكن كمال؛ إثر القوانين التي أقرَّها عبد الناصر، وفي موجة طرد اليهود من مصر، اضطر للرحيل، والبحث عن فرصة للهجرة إلى أمريكا، مصطحبًا معه قلب رفيق ممثلاً في ابنته راشيل. وحتى الآن ما زال يردد هذا الكلام، ويؤكد لنفسه أنه سيلتقيها في حياة أخرى.

4

بين العادات التي آثر رفيق أن يستعيد بعضها منذ قرر السكن في دار للمسنين، استعادة عادته القديمة في تصفح الصحف البريطانية، وخاصة "الجارديان" و"التايمز". في عدد من أعداد "التايمز" وقعت عيناه على موضوع صحفي، في ملحق "تايمز 2" اليومي، ركز على تحليل ظاهرة النوم عند الإنسان، صاحبته مجموعة من الصور جسدت كادرات متعاقبة لسيدة بيضاء البشرة، رشيقة القوام، تستيقظ من النوم. تكشف الغطاء عن رأسها، ثم عن جسدها، وهي تستلقي عارية في فراشها، ثم تنهض تدريجيا، وكل كادر من الكادرات يرصد حركة من حركاتها، حتى يكتمل نهوضها عارية بجوار الفراش، ثم تتعاقب الكادرات من اليمين إلى اليسار، هذه المرة، لترصد السيدة العارية، في طريقها للنوم. حركت الصور شغف رفيق لقراءة هذا الموضوع. طالعها وهو يسب الصحف

العربية التقليدية المحافظة. أما السبب الحقيقي لرغبته في قراءة الموضوع فقد تمثل في أنه كان يعاني من الأرق على مدى الأيام الثلاثة الأخيرة التي أعقبت زيارة كبرياء له بعد أن أخبره بموضوع اختفاء كتب نجيب محفوظ.

لم يفهم سر الأرق، فقد كان معتادًا على النوم في تمام العاشرة مساء، لا يستيقظ قبل الرابعة فجرًا، ويجلس بلا حركة لمدة ساعة، حتى يغفو غفوة أخرى لا تزيد على ساعة، ليستيقظ في تمام السادسة، ويبدأ يومه بالحمام، ثم الإفطار في شرفة غرفته . يدخن غليونه باستمتاع، بينما يستمع إلى الراديو. ثم يبدأ جولته اليومية بالمرور على الطابق الثاني، يجلس على الفوتيه الجلدي الأسود الذي يتوسط بهو تجمع غرف السيدات. يطلب قهوة من أحد العاملين بالدار، وينتظر ظهور السيدات اللائي يخرجن من غرفهن تباعًا.

يعود إلى غرفته في التاسعة، يستمع إلى الأخبار من الإذاعة البريطانية، ويقرأ قليلا في الصحف التي يحضرها جرجس، ويضعها على المنضدة المجاورة لفراشه. وسرعان ما يشعر بالإجهاد؛ لأنه يقرأ بعينه اليمنى فقط، عبر عدسة مكبرة. ومع ذلك، فبعد كل عشر دقائق يحتاج ليريح عينيه. يتناول أدويته تباعًا، من علبة بلاستيكية صغيرة يضعها له جرجس في مكانها المعتاد على المنضدة، وتحتوي جرعة الصباح من كل الأدوية معًا، فلا يضطر للبحث بين أكوام علب الأدوية عن كل واحدة منها، خاصة أن ذاكرته لم تعد تسعفه لتذكر الجرعة المطلوبة من كل منها. يتناول الأقراص، بالتتابع: هذا للسكر، والآخر للضغط، وتلك لآلام المفاصل، ثم عدة أقراص للقلب، بالتوازي مع مضادات الحموضة ومنظمات إنزيمات

الهضم، ومضادات الاكتئاب، وبينها أقراص لم يعد يذكر سبب تعاطيه لها، لكنه يعرف أن بينها مسيلات الدم والفيتامينات، وأدوية التهاب الأعصاب. كان يتناولها وهو يحن للأيام الخوالي حين كان يبدأ يومه بالعسل والمقويات ثم سِنَّة الأفيون.

في منتصف النهار كان يغفو في قيلولة تستغرق ساعة واحدة، ويخرج قليلاً للتمشية قبل أن يعود في الثامنة، يتناول عشاءه، ويشاهد التليفزيون، حتى موعد نومه. استعاد كل ما تعاطاه من أدوية، وما تناوله من طعام، فلم يجد شيئا يخرج عن المألوف. ثم هتف لنفسه: "هي القهوة بلا شك"، وبالرغم من أنه لم يتجاوز "الفناجين" الثلاثة التي يتناولها يوميًا، فقد قرر التوقف عن تناول القهوة في اليوم التالي، وكانت تلك الليلة أسوأ من سابقتها؛ لأن الأرق الذي انتابه ليلتئذ كان مصحوبًا بالصداع، بسبب قلة القهوة. انتابت جسده رعشة قوية، ولولا مضادات الاكتئاب التي كان حريصًا عليها لاستسلم لأفكار سوداوية متربصة تنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض على وعيه بشراسة. كان يفكر في موضوع نجيب محفوظ، يحاول أن يتذكر بعض ما قرأه من رواياته، وأن يجد حلاً منطقيًا لذلك اللغز: مشاحنات بين فرق متناحرة من أنصار محفوظ ومعارضيه. رفيف طيور لا يراها أحد تظلل المدينة الشاسعة بين آن وآخر، مثل هبات خسوف. اختفاء تمثال محفوظ. وجلجلة ضحكاته في ظلام الليل. ظهور الجبلاوي، وعاشور الناجي. صراخ نفيسة المتواصل في ظلام نهر النيل. عميان يسيرون في الطرقات هائمون على وجوههم. مسيرات المنقبات اللائي لا يعرف أحد من أين يأتين ولا أين يذهبن. ثورات لا يشهدها

أحد يقوم بها الحرافيش. استعاد الزمن الذي واكب فترة عشقه لراشيل، وفكر في أن مصر آنذاك، رغم كل المحن، كانت أكثر جمالاً، وأمنًا. في ذلك الوقت كان نجيب محفوظ كاتبًا واعدًا. صنعت موهبته منه نجمًا بسهولة، حتى على الرغم من وجود آراء قوية لم تكن متحمسة للكتاب الشباب آنذاك، أصحابها من طراز طه حسين. نعم نجح محفوظ، وأصبح ألمع كتاب جيله والأجيال اللاحقة، أما الآن، فقد أصبح نسيًا منسيا. وبعيدًا عن التفاصيل المأساوية والمفارقات التي يبدو كثير منها مثل شر البلية، مضحكًا لفرط سخافته وابتذاله، فكر رفيق في عبثية الموقف؛ في أن الغرب يمتلك الأعمال المترجمة، بينما اللغة الأصلية للنصوص، التي نقلت عنها كل تلك الترجمات، أصبحت أثرًا. لو لم يكن كبرياء مصدر هذه الأخبار، ولولا الصحف الغربية التي كان يقرأها بانتظام لظن أنه يعيش في كابوس. كيف يمكن أن يتدهور حال البلاد في هذا الزمن القياسي؟ حاول أن يتذكر الوقت الذي مر خلال وجوده في دار المسنين. لا يتجاوز أربع سنوات. في الإغفاءات الخاطفة التي أتيحت له في تلك الليلة، كان يحلم بمشاهد من أفلام أخذت عن أعمال محفوظ. عاودته "زنوبة"، مرة أخرى، كما جسدتها نادية لطفي في "السكرية"؛ واستيقظ متوترًا، فقد كانت تلك السيدة اللعوب من النساء القليلات اللائي حلم بمضاجعتهن دون أن يتمكن من أن يحول الحلم إلى حقيقة؛ ليس لأنه حاول الوصول لنادية لطفي مثلاً، لا، فهو لم يرغب في مضاجعتها، وإنما في مضاجعتها وهي تتقمص شخصية زنوبة.

لذلك ربط بين أرقه وبين موضوع اختفاء أعمال محفوظ، دون أن يفهم العلاقة. لكن الحقيقة التي لم يتح له معرفتها أنني، بوصفي قرينه، كنت السبب الرئيسي في أرقه. ففي تلك الليالي لم يكن هناك ما يشغلني. كانت روحي عازفة عن البحث عن جنية أو إنسية، من القحاب اللائي كنت أسعى إليهن بلا توقف. ليس لندرة في وجودهن، لا، فهن دائمًا أكثر من الهم على القلب كما تقولون. لكني كنت أعاني حالة من الثقل في وجداني، جعلتني عازفًا عن فعل أي شيء. بالتالي لم يكن لدي ما أفعله سوى ملاصقة رفيق، نهارًا وليلاً، بلا انقطاع. ولأن وجودنا بجواركم يحول دون نومكم فقد كان من المستحيل على رفيق، وأنا ألاصقه بهذا الشكل اللحوح أن ينام. نحن نقترن بكم طوال يومكم ويقظتكم فقط، لأن فترات نومكم هي زمن يقظتنا، وهذا ما قد يفسر لكم لماذا تشعرون أحيانا في الرغبة في النوم بلا سبب، أو لماذا قد يستغرق بعضكم في النوم ليوم كامل. بل وفي بعض الحالات التي تشبه حالة قرين كبرياء الآن قد يضطر القرين للتفرغ الكامل في شأن من شئونه؛ سواء كان لعيادة أمه المريضة، أو حتى لمضاجعة امرأة لا تنتهي رغبتها، وهنا تسمعون عن شخص يذهب في غيبوبة قد تستمر أيامًا، أو حتى لعدة أشهر.

عودة الغائب إلى وعيه أو موته تتوقف على حال القرين، فإذا أعجبته التجربة التي يمر بها فقد يقرر ألا يعود، وهنا غالبًا ما يموت صاحبه. وبعضكم، يمكنه أن تزداد طاقته بحيث يحافظ على وعيه، في غياب قرينه، ويتحرك في حياته، لكنه استثناء محدود، وأغلب من يمتلكون هذه الطاقة يبدون في تحركهم ذاك، غافلين، ذاهلين، يتحركون بآلية،

وبلا تركيز، وعادة ما تسقط من ذاكرتهم أغلب وقائع تحركهم الاستثنائي هذا. دعوني أسر إليكم بسرهم إذن: هؤلاء ليسوا سوى السائرون نيامًا حولكم وبينكم.

5

كان الأرق يدفع ذاكرة رفيق فهمي للسفر في الزمن، زمن حياته ومحطاتها. تمر في ذهنه صورة "عالية"؛ السيدة الجميلة، الأرستقراطية المظهر، التي تسكن في دار المسنين، ويبدو وجودها نشازًا في المكان. فهي تبدو أصغر عمرًا من الجميع. مثل هؤلاء السيدات يعرفن بأنهن مارسن الجنس بانتظام، وشغف، مع أشخاص يحبونهم. هل سأبدو مملاً إذا قلت إنني أعرفها جيدًا، وإنني وقعت في غرام قرينتها؟ نعم وقعت في غرام قرينة "عالية"، وأظن ذلك كان واحدًا من سقطاتي، فهي رومانسية بشكل يثير القرف، لكن، لم يكن لي أمل في أن تلتفت هي لي، فقد كانت تعيش أسيرة لعالية، ولا تستطيع أن تفارقها، لا في صحوها، أو حتى حين تغفو. وسرعان ما مللت منها، ومن رفيقتها التعيسة. لم تكن تستهويني مثل تلك النساء التعيسات المملات. أحب الداعرات

المقبلات على الحياة والجنس والحب. كانت عالية غارقة في الحب حتى أذنيها. عاشقة مثالية، منذ عرفت رشدي في مراهقتهما، ثم بعد أن تزوجا، وحتى بعد وفاته. إليكم هذه القصة المملة السخيفة، الساذجة، التي يضطرني تولي مسؤولية السرد أن أتناولها، بالرغم من أن الأمر لو كان في يدي، لضربت بها عرض الحائط، لكن لا بأس: لم تنجب عالية أطفالاً، لأن زوجها لم يكن قادرًا على الإنجاب. قتلت رغبتها الحارقة في الأمومة. أما رشدي فلم يعرف ماذا يفعل. كان حائرًا. وعندما عرض عليها فكرة الانفصال أو الطلاق حتى تتحرر مما وصفه بكارثة حياتها مع شخص مثله، سددت إليه نظرة جامدة، اخترقت روحه. لم تكن نظرة قاسية، لكنها كانت عميقة، حزينة، وبليغة؛ إذ اختزلت في تلك النظرة ما تردد صداه في وعيه طويلاً "الموت أحب إليّ مما تدعوني إليه". فلم يكرر ذلك أبدًا.

لكنه لم يتوقف عن التفكير في الأمر، بواعز من حبه العميق لها، ورغبته في أن يحقق لها أحد أهم رغباتها. لكن كيف؟ كيف؟ في هواجسه الضبابية التي كانت تسيطر عليه، كان يفكر في أنها لو خانته مع شخص آخر، وتعامى هوعن ذلك، فلربما تحقق حلمها، وعندها يمكنه أن يكذب عليها قائلاً إنه كان يتلقى علاجًا لعقمه بدون علمها. سيطرت عليه الفكرة، حتى إنه كان يتغيب عنها طويلاً، حتى تشعر بالملل، على أمل أن تبدأ في التفكير فيمن يشغل فراغ حياتها. كان يتعمد السفر إلى الريف حيث تستقر أطيان العائلة، لأسابيع، دون أن يسأل عنها. في الأوقات

القليلة التي يعود فيها إلى صوابه كان يتهم نفسه بالجنون، ويحاول أن يهدئ من صخب أفكاره، مؤكدًا لنفسه أنها لا ترغب بالفعل في طفل فلماذا كل ذلك التعذيب النفسي؟ لكنه سرعان ما يبدأ الدائرة الشيطانية، مرة أخرى؛ مستدعيًا أفكارًا غريبة، منها أن موته قد يكون مبررا وجيها لها لكي تتحرر من نقصه الفادح ذلك.

لكنه، نجا من الموت، لأكثر من مرة، وبينها، تلك المرة التي ألقى فيها بنفسه أمام إحدى السيارات المندفعة، التي لم يستطع صاحبها أن يكبح جماحها، فوجد رشدي نفسه، بين لحظة وأخرى، بين السماء والأرض، قبل أن يهوي على ظهره بلا قدرة على الحركة. لم تمنعها كسوره من إعلانها له أنها عرفت بما كان ينتويه. مسحت على رأسه، تخللت أنامل يديها الرشيقة شعره الكثيف الذي يجمع بين الخشونة والنعومة معًا، وهي تؤكد له أنها لن تسامحه بسهولة عما فعله بنفسه، وبها. كانت تتحدث إليه باستمرار، بإيقاع صوتها المعتدل، ونعومة نبرته، حتى لو لم يكن موجودًا معها. نعم، كانت روحها ممتلئة بوجوده، حتى في أثناء الأوقات التي يقضيها خارج البيت، أو في سفراته المفاجئة خارج مصر، كلما اقتضت ظروف عمله. لم تكن تتوقف عن الحديث بصوت عال، في حوار موجه له، كأنها تراه أمامها. وعندما مات بالفعل، فإنها لم تستطع تقبل هذه الحقيقة على أي نحو. ثمة قوة خفية غامضة في روحها منعتها من أن تصدق ما حدث، أو التفاعل مع كلمات المواساة. كانت تسمع، في المقابل، طنينًا يمنعها من سماع صوتهم. ترى شفاههم تتحرك، بينما ملامح وجوههم

تتقلص لدرجة تثير رغبتها في الضحك، لولا حسها الإنساني المفرط. امتنعت عن حضور مراسم الدفن، وامتنعت عن تلقي العزاء؛ لأن رشدي - بالنسبة لها- لا يمكن أن يموت. ليس لأن ذلك لم يحدث، وإنما لأنه كان يملأ كيانها كله، يعيش في أعمق أعماقها. خرجت عالية من بيت الزوجية إلى بيت أقرب صديقاتها، وبعد أسبوع كانت توصلت لفكرة الحياة في دار للمسنين. هناك استمر طقسها في مخاطبة زوجها، بكل ما يدور ببالها من أفكار وخواطر. كانت تبدأ حديثها إلى زوجها الراحل بمجرد أن تفتح عينيها وتستيقظ. تحدثه كأنه موجود أمامها، وتغير من نبرة صوتها وفقًا للموضوع . أما عندما تجلس في ردهة الطابق الثاني مع نزيلات الدار من المسنات، أو من نزلائه الذين كانوا يرون فيها "أملا للحياة"، فإنها كانت تواصل حوارها اللامنتهي مع زوجها، لكن في مونولوج داخلي لا يسمعه أحد سواها. حاولوا جميعًا أن يستميلوها. لكنهم فقدوا الأمل، تدريجيًا؛ فلم تكن لتنطق بحرف بعد رد التحية بنبرة صوتها الناعمة. فقط، تكتفي بابتسامتها الهادئة الجميلة. وإذا استفاض محدثها فإنها تستمر تومئ بهزات خافتة من رأسها تأمينًا على قوله، أيًا كان الموضوع. وقد ترتشف خلال ذلك الوقت رشفات من فنجان قهوتها. هذه القصة عرفها رفيق من صديقته المتصابية فاتن التي أضافت إليها الكثير من البهارات عندما أحست بغريزتها الأنثوية أن رفيق مهتم بها، بشكل ما.

لكن ما دفعه للتفكير فيها ليس استعادة تفاصيل القصة الرومانسية المضجرة، الساذجة، كما أراها وكما يعتقد رفيق، وإنما محاولته استعادة

صورته. كان يعرف في عمق أعماقه أن أرقه له علاقة بأنه، منذ طلب من كبرياء أن يدوِّن له مذكراته، يبحث عن صورته الحقيقية، التي تناساها بينما كان يسعى خلف شهوته، مرتميًا في أحضان النساء، مثل مدمن، سقط في هاوية الإدمان السحيقة. جافاه النوم منذ أدرك أنه لم يحقق شيئًا على مدى سنوات عمره السبعة والسبعين. لا شيء على الإطلاق. تزوج من امرأة لم تكن تكافئه في شيء لمجرد أنه أراد أن يعاند أهله، ثم ماتت وتركت له ابنًا تافهًا، تركه لجدته، وللأقارب، ولأمهات بديلات من عشيقاته. أسرف في تدليله حتى فسد، وتزوج من امرأة فاسدة، كانت سببًا مباشرًا لانتقال رفيق لدار المسنين، بعد أن مات ابنه ذاك.

كان يتأمل حياة "عالية"؛ الأرستقراطية الجميلة الفاتنة، التي وهبت قلبها لرجل واحد. لا يستطيع أن يتعاطف معها، بصفته رجلاً رأى دائمًا أن العمر قصير، وأن الحياة ليست سوى فرصة وحيدة قصيرة يجب استنفاذ كل ما فيها. لكنه، مع ذلك كان يتساءل إذا كانت سعيدة بحبها ذاك فما هو الخطأ؟ أليس المهم أن يمتلك الفرد القوة في أن يعرف ما هي السعادة وأن يعمل على تحقيقها. تساءل إذا ما كان أحب يومًا امرأة مثلها، لكنه سرعان ما أدرك أنه لم يمر بتجربة مثيلة. كان يقع على فتيات وسيدات شهوانيات مثله، شكاكات، يعتبرن الرجل خصمًا، والعلاقات العاطفية معركة، وحلبة للنزال. يفكرن ألف مرة في اليوم الذي ستنتهي فيه العلاقة، فتمتلئ نفوسهن بالمرارات ويلوثن قلوبهن باجترار وترسيخ كل الهفوات التي ارتكبت في حقهن، بدلاً من قيم التجاوز والتفهم والتسامح، والأمل بعلاقة ممتدة تحقق لهن السعادة. تساءل، قبل أن يغفو، هل حقًا لو قدر له

أن يلتقي امرأة كهذه يومًا أن تسير حياته على النحو نفسه؟ أم أنها كان بإمكانها أن تقنعه بأن علاقة واحدة راسخة ومتينة تعادل كل شهوات العالم، تملأ الفرد بقوة تجعله يزهد في متاهات الشهوة ودوائرها المفرغة؟!

6

حينما داهمت رفيق حالة الأرق، إلى حد الإنهاك العصبي، والإرهاق، افتقد واحدة من مهاراته القديمة التي كانت بمثابة العلاج الناجع لكل نوبات الأرق في ماضيه السعيد. كان رفيق يمتلك موهبة زخرفة الخشب. وبالتحديد قطع الخشب الصغيرة التي كان يعطيها شكل غليون صغير ثم يبدأ في الحفر على سطحها مشكلاً رموزًا، وحروفًا، وزخارف نباتية. في منزله، قبل أن يستدين ويبيع كل شيء بسبب ابنه، خصص حجرة صغيرة من غرف البيت امتلأت بتحف خشبية مزخرفة بعناية وإتقان بالغين، من صنع يديه. كان إذا أصابه القلق أو تعكر مزاجه، لأي سبب، يمر على ورشة نجارة يمتلكها صديق من أصدقائه القدامى في شارع محمد علي. يدلف من بابها الضيق. يعبث في قطع الخشب المتناثرة بين غبار الخشب، والنشارة التي تفيض بها أرضية المكان الرطبة، بينما تفوح في المكان

رائحة كثيفة، دبقة، تكونت من تكاثف عبق نشارة الخشب واختلاطه برطوبة المكان على مر الزمن. من بين ألواح وقطع الخشب عادة ما كان يفضل كتلة من خشب الأرو، يطرق عليها مرارًا بأصابعه، ويتحسسها بشغف، ويقلبها بين يديه حتى يطمئن إلى خلوها من العيوب، ثم يعود بها إلى حجرته ليمارس فنه. بيده المدربة يخرج أدوات تجهيز القطعة الخشبية -عادة ما يبدأ بالفارة والمنشار الصغير- لكي تصبح في الحجم المثالي، ثم يجلو سطحها، ليصبح أملس، بالقدر الكافي لكي يشرع بإزميله في الحفر والزخرفة. حتى أن جرجس كان كثيرًا ما يعبر عن انبهاره باستمرار قدرة رفيق على نحت الخشب حتى بعد أن جاوز السبعين، إذ كان يتحكم في رعشة اليدين، ويضغط ضغطاته القوية السريعة المتتابعة، بالإبهام، تزيل من قطعة الخشب نسائل كثيفة ورهيفة، حسب عمق الزخرفة ومساحتها، لتخلق فراغًا صغيرًا، بينما يبدو هو ذاهلاً عما حوله، تتغضن جبهته، ويخرج طرف لسانه من فمه ملتويًا جهة اليسار، ويثبت في ذلك الوضع، بينما عيناه تضيقان تمامًا، بتأثير شدة التركيز.

صورته على تلك الحال كثيرًا ما استوقفتني؛ لأنها تجسد واحدة من أكثر حالات البشر حثًا على التعاطف، بل وعلى الاحترام. ففي لحظات كهذه، يبدون في ذروة حالات الجدية، والإنسانية، والاشتغال على إنتاج ما. يستوي في ذلك نجار يؤدي عملاً يدويًا، أو رائد فضاء يستعد، بتمرينات نفسية وجسدية مكثفة، للإقلاع في مركبة فضاء، أو صياد سمكة قرش ينتظر اللحظة المناسبة للتصويب على الخصم المتربص في أعماق المياه، أو كاتب مشغول بفكرة عميقة قبل أن يحولها إلى كلمات على ورق،

أو جَرَّاحة تجرى جراحة لمريض، تشق جسده بمشرط حاد حدة الموت، تدخل يديها بمبضعها إلى أحشائه، في أقصى حالات تركيزها التي قد لا تستهدف سوى إزالة جزء تالف لا يزيد عن مقدار ملليمترات قليلة، أو لاعبة سيرك تنتظر اللحظة المناسبة لكي تلقي بنفسها بين دعامتين في فضاء الخيمة الشاسعة، أو موسيقي يعزف، مستدعيًا اللحن من أعماق ذاكرته، يحوله إلى إشارات وعلامات، يحرك بمقتضاها أنامله أو يديه على آلته الموسيقية مقسمًا بها الزمن إلى نغمات.

لماذا أحترم هذه اللحظات في عمر البشر؟ هل هو افتتان بما ينتجونه خلالها، أم تقدير لفكرة الخلق والابتكار؟ لا.. ليس لشيء من هذا، وإنما لأنها فترات الإخلاص التام في عمر البشرية. إخلاص كامل، لا يحركه سوى نزعات داخلية عميقة من أرقى مناطق الوعي البشري أو ضميره إذا شئتم. حاول أن يرسم صورة لنجيب محفوظ في أثناء استغراقه في العمل. كيف كتب الثلاثية؟ هل كان يبتسم عندما يتخيل مشهدًا كوميديًا من المشاهد التي تميز بها ياسين عبد الجواد؟ أم أنه كان مقطبًا، متعرق الوجه، يلهث من فرط الرغبة في الإمساك بطرف الفكرة التي يلتقطها خاطره؟ كيف كان يشعر في أثناء الكتابة؟ بالنشوة أم بالألم؟ بالعجز أم بالقوة؟ من هم الأشخاص الذين عرفهم في حياته واستثمرهم في رواياته، ليحولهم من مجرد أنماط من بشر عاديين لا ذكر لهم إلى أساطير صغيرة، كشخصيات روائية، تعيش مدى الحياة، لا تشيخ، ولا تموت؟ متى كانت اللحظة التي ولدت فيها فكرة "الثلاثية"؟ وأين؟ وكيف نفذها؟ ما الدروب التي سلكها في حي الجمالية الشعبي العريق

ليكتب الثلاثية؟ والحرافيش؟ وما الدروب الفنية التي سلكها ليعدل نصًا أو ينقحه؟

كانت لحظة إنتاج الفن بالنسبة له لحظة فريدة في الحياة البشرية، ليس فقط لأنه كان قريبًا من مهن الفن في العصر الذي عاشه من قبل في مصر القديمة. وإنما لأنها بالفعل كانت، ولعلها لا تزال، لحظات استثنائية في الزمن، بمعناه الأشمل.

7

استسلم رفيق للأرق، هو الذي لم يعرف يومًا معنى الأرق، بسبب تداعي الصور في مخيلته. تسللت صورة ابنه إلى خياله عندما استدعى مأساة عالية. حاول أن يطرد صورة زوجة ابنه من ذهنه، وشعر بغصة. كان يكره تلك السيدة لشعور دفين بأنها هي التي تسببت في موت ابنه. بل والتحاقه هو بدار المسنين، بعد أيام قليلة من وفاة ابنه؛ إذ شعر أنها تدبر له أمرًا.

قال: إذا كانت قد تخلصت من زوجها، حتى لو لم تتعمد ذلك، فما الذي سيمنعها من التخلص منه هو في هذا العمر الكبير؟ صحيح أنها لم تتزوج بعد وفاته، لكنه كان يشعر بأن وجوده في بيتها هو الذي يمنعها، وإن لم يمنعها عن علاقات لم يكن من الصعب على رفيق أن يتكهن بها، وهي تخرج طوال اليوم تاركة الصبي الصغير حفيده، في رعاية المربية.

وفي الليلة الثالثة التي شهدت إصرارها أن تقدم له كوب عصير بنفسها على غير العادة، شعر بأنها تحاول تسميمه. قرر أن يهرب في أول فرصة، وفور خروجها من المنزل في صباح اليوم التالي اتصل بجرجس. ناوله حقيبته وخرج معه، وهو يشعر بأنه ينجو بنفسه. كانت فتاة مدللة متصابية، من أسرة متواضعة، شديدة الجمال؛ بيضاء البشرة، طويلة، رشيقة، ذات تكوين جسدي طاغي الأنوثة. شعرها الأسود ناعم فاحم وثقيل، يعطيها مع بشرتها الحليبية اللامعة مظهرًا حسيًا. وهذا التناقض بين مظهرها وبساطة حالها – كان أبوها موظفًا صغيرًا في إحدى الهيئات التابعة للحكومة – خلق لديها طموحات بالثراء، ونزعة للاستعراضية كانت تحاول بها إعطاء انطباعات بعيدة تمامًا عن واقع حالها، بدأت منذ مراهقتها، وتطورت إلى حلم مريض بتحقيق الثراء المفقود عن طريق زواج ميسور. بسبب ثقتها في تعلق حسين الجنسي بها، ألحقت به الديون، وعاش أسيرًا لدوائر تسديد الشيكات والقروض وفوائدها، حتى مات حسرة على شبابه الضائع في تلك الدوامة المريرة؛ فقد كان يعمل في أعمال السمسرة، ومنها يحاول الإنفاق على المنزل، لكن الديون التي كانت تورطه فيها، من خلال بطاقات الائتمان، ثم القروض، وطلباتها المستمرة المغالى فيها، بسبب ميولها الاستهلاكية التي كانت تمثل جوهر كينونتها، دفعته لاقتحام دوائر الفساد، والرشاوى، وطلب نقود سمسرة عن أعمال لا يستطيع أن يؤديها، هربًا من شبح السجن، إذا تعثر في سداد قرض من القروض. لم تكن مستعدة لأن تسمع منه شيئًا، ولا أن تقبل مبررًا لعدم قدرته. فما يهمها هو الأشياء التي تنتظر أن تقتنيها: الثياب الفاخرة،

والمجوهرات، والقطع الفاخرة الأنيقة "السينييه" من الأثاث، والسجاد المصنوع في كشمير وطهران، أو التحف؛ التي كانت تدفع ثمنها فورًا، وبلا تردد من "بطاقة ائتمانه" الخاصة الموهوبة لها. أما إذا تردد في تلبية أحد مطالبها، أو اشتكى من ضيق الحال؛ فكانت، تشرع في البكاء، فورا، ثم تبدأ قائمة اتهاماتها التي لا تنتهي، وكانت أخف عناصر تلك القائمة تأكيدها-أنه يريد لها التعاسة، وأنه لا يحبها، وفورا تطلب الطلاق بوصفه الحل الوحيد. "أيوه طلقني، لما إنت شايف إن أنا سر تعاستك عاوز تعيش معايا ليه؟ مش أنا السبب في الديون اللي مغرقاك"؟

لكن رغبته فيها، وتعلقه الجنوني بابنته وابنه كانت تفوق كل شعور بالحسرة، فيعدها بأن يلبي طلباتها، ويغرق مرة أخرى في دوامة جديدة من الاقتراض أو النصب، حتى وصل الأمر إلى دائرة مفرغة من الديون.

تنقلت ذاكرة رفيق، فجأة، من صورة زوجة ابنه، حتى وصل بخياله إلى صورة روحية، أولى زوجاته، أم جاك (اسم الشهرة لحسين ابنه)، التي نال بسببها علقة ساخنة من أبيه كانت سببًا لتغير حياته كلها. استعاد تلك الواقعة، مرة أخرى، واكتشف، في تلك اللحظة، أنه بسبب تعدد مرات استدعائه تفاصيل ذلك اليوم الكئيب، على امتداد عمره، أن مشاهد ممارسة الجنس بينه وبين روحية في تلك الليلة أصبحت مثل أيقونة، تشتمل على تفاصيل شديدة الوضوح، كأنها فيلم بالأبيض والأسود من تلك التي يعتاد المصريون استدعاءها من الذاكرة، ويحفظونها ظهرًا لقلب.

أدهشه تألق ذاكرته بذلك الشكل، فقد وجد نفسه يستدعي تفاصيل

الواقعة كلها كأنها حدثت في اليوم السابق. كانت اللقطات تمر على ذهنه، واضحة، متتابعة بدقة، منذ لحظة دخولهما الكوخ الخشبي الصغير خلف مبنى الفيللا. انتبه إلى صوت تنفسه الذي علا قليلاً، واندهش للحيوية التي أوحت بها هذه الواقعة. وبرقت في ذهنه الفكرة مضيئة لأول مرة. نعم روحية هي الوحيدة التي يحفظ تفاصيل ليلة كاملة ضاجعها فيها، لا تفوته فيها شاردة، على عكس كل الأخريات. فكر مرة أخرى وهو يستعيد صورة راشيل في أنه يحتفظ من ذكريات مضاجعته لها بلقطات من ليال مختلفة، لكنه لا يحتفظ لها بواقعة كاملة مثلما هو شأنه مع روحية. اكتشف أن راشيل ظلت في خياله أيقونة جنسية ملتهبة لم تتكرر، ومع ذلك فقد خانته ذاكرته في استدعاء المشاهد الجنسية بينهما بشكل واضح. ظل ذلك إحساسه بها، أما على مستوى الذاكرة، والإحساس الجسدي، فلم يبق لها كبير أثر.

جعلته الفكرة يحاول استدعاء صور العديد من الفتيات اللائي ضاجعهن. بعضهن كن عاهرات، لم يعد يذكر حتى ملامح وجوههن. وبعضهن، تعرف إليهن في مناسبات عابرة، واستطاع أن يقيم معهن علاقات، بدأت وانتهت تحت تأثير ذهول وسكر بسبب الإفراط في الشراب. أجنبيات، ممن تعرف إليهن من نوادي الأرستقراط التي عرفها منذ ورث ثروة أبيه الطائلة. وبينهن امرأة تركية تعرف إليها في إحدى سفراته، وتزوجها بالفعل، إلا أن زواجه بها لم يستمر سوى عام واحد. ذاكرته لا تستطيع أن تفعل حيالهن شيئًا، كأنه لم يلتقهن قط، أو كأنهن مجرد شخصيات شبحية، ظهرن له في أحلام متفرقة. أما تلك

السيدة التركية فلا يذكر، حتى، كيف كان تكوين جسدها. تذكر أنها كانت تصر أن يغلق النور قبل أن تتعرى، في كل مرة مارسا فيها الحب. استدعت ذاكرته صورًا مشوشة لوجوه عدد من فتيات جامعيات، من المتهتكات صاحبات الطموح بالثراء السريع، أو الشهرة، الباحثات عن أصحاب الثروة والنفوذ، بأجسادهن. واللائي تعرف إليهن عبر قواد كان يقدم له خدمات من هذا النوع منذ بلغ الستين، عندما قلت حركته، وحظوظه في إغواء السيدات، لكنه لم يتذكر ملامح أي منهن. باستثناء واحدة فقط، ابتسم لتذكرها حين ومضت ملامح وجهها فجأة في ظلام الذاكرة؛ عيناها العسليتان، جبهتها المتغضنة، ووجهها المحتقن المغطى بالعرق، بسبب تمدد الوقت الذي استغرقه قبل أن يبلغ ذروته، بينما بلغتها هي مرتين. لم يكن ذلك هو السبب الذي نشَّط ذاكرته تجاه تلك الفتاة، بل التفاصيل التي اقترنت بلقائه الأول بها في منزله الفسيح. فبعد أن تودد لها، وطلب منها أن تقترب منه وهو جالس على أريكته الوثيرة التي تتوسط غرفة المعيشة، اقتربت منه، ثم أوضحت له بصوت هادئ، ولكن بلا تردد، أنها تحب النظافة، وقبل أن يجيب قالت له: "يعني ما با حبش الشَعر. لازم تكون نضيف خالص". سألها ضاحكًا: "وإنتي على كده نضيفه"؟ فغمزت له بإحدى عينيها، وقالت ضاحكة: "جدًا"، بينما كانت تحرك يدها حركة تشبه حركة السيدات اللائي يستعملن الحلاوة لإزالة شعر أجسادهن، وعاناتهن. ضحك، ثم قال لها بنبرة ما بين الاعتذار والتبرير: "أنا كبرت وإيدي بترتعش، وما عودتش بأقدر أنضف نفسي زي الأول".

فاجأته الفتاة، بلا تردد، قائلة إنها ستنظفه بنفسها. سألت عن المقص وأمواس الحلاقة، فأخبرها عن مكانها. ذهبت إلى الحمام وعادت بها. وضعت مجموعة من أوراق الصحف على أريكة مجاورة، ومجموعة أخرى على الأرض، وطلبت منه أن يغير موضعه، ويجلس على الأريكة. أزاحت الروب عن جسده، وطلبت منه أن يوسع بين فخذيه، وشرعت في مهمتها بجدية أضاءت وجهها. هذه الملامح الجادة للفتاة أسرت رفيق، فاستسلم للفتاة وهو يشعر نحوها بنوع من الإجلال المغلف بالإثارة، لكن مشهد يد الفتاة وهي تتحرك بماكينة الحلاقة على عانته بعد أن شذبتها بالمقص أزاح إحساس التقدير والإجلال، وارتقى بالإثارة إلى الذروة. إلا أن إحساسه بالإثارة، لم يتجاوز دقيقة واحدة. إذ إنّ حركة يد الفتاة بالموس على عانته، ذكّرته بغتة، بصديقه رفعت الذي كان قد انتهى من إجراء عملية البروستاتا، وحكى له تفاصيل عديدة منها ما قام به ممرض عجوز، متخصص، لتنظيفه لتجهيزه للعملية.عندما انتهت طلبت منه أن يغتسل، فامتثل لها بسرعة، بينما رفضت اصطحابه للحمام، مذكرة إياه بأنها أيضًا لا بد أن تستعد! في تلك اللحظة حاول أن يستبدل وجه "عالية" بوجه تلك الفتاة؛ في ذروة نشوتها، المتقلص بألم اللذة. لكن وجه عالية استعصى عليه. أدرك، آنئذ، أنها امرأة عصية؛ إذ إنها ليست سوى امرأة لرجل واحد. امرأة تعشق بكل جوارحها، فتمتلئ بكيان ذلك الرجل، مرة واحدة، وإلى الأبد.

8

في الليلة التالية حضر كبرياء، وحكى لرفيق عن توابع الأخبار العجيبة التي تناقلها الناس عن ظهور شخصيات من أعمال نجيب محفوظ في أماكن متفرقة من العاصمة، وعن اختفاء تمثال نجيب محفوظ في الوقت نفسه، وعن المظاهرات، وغيرها من الأحداث. أخبره بالتغيرات التي عمت أرجاء واسعة من البلد. الطيور الغريبة التي تتكاثر، فتبدو مثل سحابة سوداء قاتمة، تحول المدينة، في أوج توهج الشمس، إلى مدينة مظلمة موحشة، بينما صوت رفيف أجنحتها الكئيب يدوي في السماء كنذر الشر، وأن الناس، لهذا السبب بدأت تطالب باستعادة تمثال نجيب محفوظ، بأي شكل، حتى لو اقتضى الأمر تنفيذ نسخ أخرى من التمثال، وتثبيتها في مواضع متفرقة في المدينة. ساد يقين لدى الناس أن الأحداث الغامضة التي تشهدها المدينة، واختفاء تمثال نجيب محفوظ كلها مرتبطة ببعضها البعض. أبدى

رفيق إنكاره لما استمع إليه، لكن جرجس أكد له أنه سمع نفس الأقاويل، فابتسم ساخرًا من تدخله في الحديث دون أن يأذن له، وسدد له نظرة طويلة. ارتبك جرجس للحظات ثم قال بصوت خافت: أمرك يا أستاذ رفيق. النهاردة نعدي بالليل على ميدان سفنكس. كان جرجس يعرف عن رفيق أنه لا يصدق شيئًا لم يره بعينيه، أو لم يتم تصويره وتوثيقه على الأقل. وبالتالي فإن شيئًا مما يقال عن محفوظ لم يكن بإمكانه أن يصدقه إلا إذا رآه بنفسه. نظر إلى كبرياء وقال له: إنت شفت حد من شخصيات رواياته؟ فهز رأسه نافيًا. تنهد رفيق بعمق، وسدد له نظرة مشابهة لتلك التي وجهها لجرجس، ثم سأله: وأنت بتردد الكلام اللي الناس بتقوله كده من غير ما تتأكد منه؟

ابتسم كبرياء، لكنه أوضح لرفيق أنه يميز بين الشائعات الفجة، وبين المعلومات المؤكدة. كان يطمئن نفسه. أوضح لرفيق أن المظاهرات بثت في نشرات أخبار الفضائيات ولا مجال لاعتبارها لم تحدث، لكن هناك معلومات مشكوكًا فيها مثل ظهور عاشور الناجي أو الجبلاوي، وغيرهما. ووعده بأنه سيتقصى بنفسه ما حدث. ابتسم رفيق، لكنه شعر بالإعياء فجأة. كان قد أصيب بنزلة برد أثرت على جهازه التنفسي. وكان يخشى أن يكون موشكًا على التعرض لالتهاب رئوي. فتوقف عن تدخين غليونه على مدى اليومين السابقين. لكنه لاحظ أنه، بين فترة وأخرى يشعر بألم حاد مفاجئ في صدره، وبأنه لا يستطيع التنفس بشكل طبيعي. نهض متثاقلاً، وارتمى على الفراش، وطلب من جرجس أن يحكم الغطاء حوله، ونهض كبرياء بدوره بعد أن أدرك أن وقت زيارته لرفيق قد انتهى.

همهم متمنيًا له تمام الصحة والشفاء، وخرج دون أن يتمكن من قراءة كل ما كان قد خطه في مذكرات رفيق.

لم ينم رفيق في تلك الليلة بشكل جيد، كان يتخبط بين الأحلام الغريبة التي كانت تلاحقه وبين الأرق، بعد غفوات قصيرة متقطعة. الغفوة الثالثة لم تستمر إلا للثانية صباحًا، تبعتها حالة من الأرق الذي استمر حتى الفجر. كانت مشاهد الحلم المشوشة تتراقص في خياله، وهو بين اليقظة والمنام، بينما وعيه يؤكد له أنه مهتم جدًا بما حكاه كبرياء عن نجيب محفوظ، أكثر بكثير مما بدا عليه، رغم أنه أبدى عدم تصديقه لشيء مما سمعه عن الموضوع. صحيح أنه لم يحلم بتمثال نجيب محفوظ، أو بشخصية من شخصياته، لكنه رأى في المنام صورة سيدة عجوز، ترتدي رداء أزرق طويلاً، مسدلة على رأسها وشاحًا أبيض. كانت تجلس في ركن من مجلس شرقي الطراز، بجوار مشربية تسللت من كواتها، ودوائر الزخارف والنقوش، خيوط ودوائر من ضوء شاحب، رمادي. أمام تلك السيدة جلس ستة أشخاص، على شلت أنيقة من الجلد ملونة بألوان رمادية. كان رفيق جالسًا خلفهم؛ لا يرى سوى رؤوسهم وظهورهم. لكنه كان متأكدًا من أن ظهر الشخص الجالس أمامه هو لنجيب محفوظ.

عندما رفعت السيدة الإسدال عن رأسها ووجهها، شهق الحضور جميعا، وبعضهم تأوه إعجابًا. كانت ملامح العجوز لا تخلو من فتنة، فشعرها ما زال محتفظا بلونه الأسود الحالك، وبشرتها البيضاء مصقولة ومشربة بحمرة لا تناسب عمرها. كانت تتحدث، بينما يصغي إليها

الحضور وكأن على رؤوسهم الطير. لم يفهم رفيق مما تقوله شيئًا، لكنه كان يشعر بتقطع أنفاسه تأثرًا بطلاوة نبرات صوتها . كان الضوء وزقزقة الطيور في الخارج تعطي الإحساس لرفيق بأن المشربية تطل على حديقة واسعة، وبالرغم من ذلك سمع ارتطام أمواج البحر بالجدران. عندما عاد ببصره إلى السيدة سمع أمه تنادي عليه. التفت رفيق خلفه فرأى أمه، في هيئتها عندما كانت في ذروة شبابها، ترتدي ثوبًا أحمر، وتغطي شعر رأسها الأحمر بوشاح أسود اللون، وتدنو منه لتهمس له: "اذهب وقل لجارتنا هاتي الأمانة!" . وقبل أن يسألها عن تلك الأمانة كانت قد اختفت. نظر أمامه فوجد السيدة العجوز ترنو إليه بنظرة فاتنة. وانصرف الحضور جميعا فجأة. ثم سمع صوتها: "يجب أن ترى بيتي قبل ذلك". (أصداء السيرة – المهمة ص 67).

أمرته أن يتبعها، ومَضَت أمامه تتبختر، وانقضى الوقت في حضور امرأة مدهشة تتلون بين الشخصيات كأنها ساحرة، وبين ساعة وأخرى كان رفيق يتذكر أمه ويشفق عليها من أنها ما زالت تنتظر! استيقظ في حال من الإعياء. شعر بجفاف شديد في حلقه. استند إلى ظهر الفراش. فتح نور المصباح الصغير بجواره. تناول كوب الماء وتجرع ما فيه دفعة واحدة. استعاد الحلم، بشيء من الدهشة، وابتسم من فكرة وجود نجيب محفوظ في الحلم. لكنه لم يفهم شيئًا عن ظهور أمه في الحلم. كما استعاد إحساس النشوة الذي شعر به خلال وجوده مع تلك السيدة ذات الثوب الأزرق، بينما يحاول أن يتذكر إذا ما كان قد صادف هذه السيدة في الواقع، أم أنها ليست سوى صورة من وحي اللاوعي. بحث عن الراديو بجواره.

لم تكن محطة البي بي سي قد بدأت بثها بعد، فظل يقلب بين المحطات بحثًا عن أغنية تلهي ذهنه عن التفكير الذي كاد أن يجن بسببه.

لم يدرك رفيق في تلك اللحظة أن انشغاله بمحفوظ جعل وعيه يستعيد بعضًا من آخر ما كان جرجس قد قرأه له، قبل سنوات؛ ممثلاً في كتابه "أصداء السيرة الذاتية". فقد كان الحلم الذي رآه رفيق في منامه القلق، في تلك الليلة، مزيجًا من مشاهد من بعض أصداء سيرة محفوظ مع سيرة رفيق نفسه. لكنه لم يدرك شيئًا من هذا إلا بعد فترة من التفكير في المسألة.

في اليوم التالي حضر كبرياء ليعوده، ولكي يخبره عن تفاصيل جولته في مصر القديمة، ليتأكد بنفسه من ظهور الجبلاوي وعاشور الناجي. انتهز فرصة خروج نجوى مع فاطيما وهديل، وطلب من جاسر أن يصطحبه إلى القاهرة القديمة. ذهبا إلى حي الحسين، وترجلا من السيارة. عبرا النفق السفلي إلى الجهة الأخرى. اندسا في زحام ميدان الحسين، وانحرفا يسارًا إلى خان الخليلي. بدت الأمور طبيعية. السائحون على المقاهي، وفي الأزقة، وأمام الفترينات الزجاجية لسوق المجوهرات، والمنتجات التقليدية. أصحاب المحال، يقفون أمام محالهم، كما هو شأنهم. عبق المكان بروائحه المتنافرة المكونة من دخان الأراجيل، ونكهات النعناع، والمشروبات، والبخور، والبهارات، والعرق. ببلوغهما منتصف الممر الرئيسي لخان الخليلي، لاحظا مقهى "نجيب محفوظ". كان المقهى مزدحما بشكل غير طبيعي. وفي الخارج تراصت صفوف من السائحين وغيرهم

من رواد المكان من المصريين، إضافة إلى جمهرة من أهالي الحي. حاولا الوصول إلى الباب بصعوبة، غير أن النادل على الباب أوضح لهما صعوبة ذلك. شرح له كبرياء أنهما يريدان الاستفسار عن بعض الأشياء. نظر النادل إليهما بارتياب. وبعد تردد أخبرهما أنه سينادي لهما الشخص المسئول. بعد دقائق، عاد النادل ومعه شاب يرتدي سترة سوداء أنيقة. بادره كبرياء قائلاً إنهما صحفيان ويكتبان موضوعًا عن نجيب محفوظ والمقهى، فرحب بهما، وطلب منهما أن يصحباه إلى الداخل. في ركن خلفي مجاور للقاعة التي تمثل مساحة المقهى. تقمصا دور الصحفيين. سألا الشاب المتعاون عن المقهى والرواد، وأسباب ازدحامه. وجد الشاب في وجود صحفيين في المقهى فرصة للدعاية، فأوضح لهما أن المكان عموما مزدحم بالرواد، حتى قبل الأحداث الأخيرة. ثم قال: "لكن اللي حصل أخيرًا بعد اختفاء كتب أديبنا الراحل الكبير، خلّى فيه إقبال أكتر".

سأله كبرياء عما تردد من ظهور شخصيات نجيب محفوظ، وخاصة ظهورهم حول المقهى في الليل. ابتسم الشاب لهما، لكنه لم يعقب بشيء. تلفت حوله، ثم أوضح لهما بصوت خفيض أن الأمور أصبحت بالغة الحساسية بعد تدخل أطراف عديدة في هذه القضية، وبينها الشرطة، مما يجعله في موقف حرج. لكن جاسر، بادر على الفور موضحًا أنهما يسعيان لعمل سبق صحفي، وأن كلماته ستدخلهما التاريخ.

راوغهما الشاب الأنيق طويلاً، لكنه، وربما في سبيل الدعاية للمكان، أوضح لهما أنه سيدلي بمعلومة، من الأفضل أن يبقياها سرًا. اقترب منهما خافضًا صوته معلنًا لهما أن هناك بالفعل عددًا من أبطال محفوظ يترددون

على المقهى بعد انصراف الرواد، ويبيتون فيه، حتى صباح اليوم التالي.
وذكر عددًا من الأسماء، لكن لم يكن بينها الناجي، أو الجبلاوي أو حتى
السيد أحمد عبد الجواد.

9

استيقظ رفيق، بعد غفوة أخيرة، في السابعة صباحًا. شعر بألم في صدره. وأزعجه الشعور بالإعياء، بسبب قلقه طول الليل. كان عليه أن ينتظر ساعة أخرى حتى يحضر جرجس، ومعه الصحف، وبعض الأدوية التي كان قد طلبها منه. فكر أن يستدعي طبيب الدار ليطمئن على نفسه. لكنه تردد قليلا. لم يكن قادرًا على تحديد موضع الألم. هل كان في موضع الرئة اليسرى، أم أنه يمتد حتى كتفه الأيسر وذراعه. حاول أن يحرك كفه اليسرى، وشعر بأنها مخدرة قليلاً. أخذ يسعل لمقاومة الأزمة، ونهض بتثاقل ليبحث عن الحبة البيضاء التي يضعها أسفل لسانه عند شعوره بمداهمة نوبة قلبية. أزعجه الخوف الذي انتابه، هو الذي كثيرًا ما سخر من هلاوس المسنات من نزيلات دار المسنين؛ اللائي يتعرضن بين آن وآخر إلى حالة رعب مرضي من الموت، لسبب أو لآخر. استعاد حالتي الهلع والخوف

اللذين سيطرا عليه عندما أحس ببوادر النوبة القلبية. كان قد تخلص من شعور الخوف من الموت. وبعد وفاة ابنه انتهى ذلك الإحساس للأبد. بل إنه كثيرًا ما كان يتمنى الموت خجلاً من فكرة أنه ما زال يعيش بعد غياب ابنه. فكر بأنه ليس على ما يرام، وأنه يحتاج للتغيير خلال الأيام المقبلة؛ لكي يقلل من التفكير، ومن حالة القلق المضني التي أهلكته على مدار اليومين السابقين. تبخرت كل تلك المشاعر السلبية عندما سمع طرقات جرجس الخافتة على الباب. تنفس بعمق ودعاه للدخول. سمع دوران نسخة مفتاح جرجس في الباب، وبعد ثوان وجده يطل عليه بوجهه الطويل النحيل، وشعر رأسه المصفف جيدًا والذي يفيض بالشيب.

مر اليوم ثقيلاً على رفيق، فقد انتكست حالته الصحية مرة أخرى، وأسرع جرجس ليحضر طبيبه الخاص. رفض رفيق كل مطالب الطبيب في التعجيل بالذهاب إلى المستشفى. قال له إنه ليس مستعدا للخروج من دار المسنين في سيارة إسعاف، لأن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى انتكاس الآخرين جميعًا، خصوصًا السيدات اللائي سيرين في صورة خروجه من الدار محمولاً على نقالة نوعًا من التكهن بمصير كل واحدة منهن. إزاء عناده أجرى له الطبيب الإسعافات الأولية، وأسرع بتعليق محلول الجلوكوز، وأجرى الفحوصات الروتينية لقياس مستوى الضغط والسكر، ومعدل سرعة القلب. لم يبد راضيًا تماما عن النتائج. وقبل انصرافه همس في أذن جرجس: لو تطلب الأمر انقله للمستشفى بالقوة إذا شعر بأي بوادر نوبة أو انتكاسة من أي نوع. وحده جرجس كان يعرف أن جزءًا من عناد

رفيق له علاقة بأنه لا يرغب في إنفاق المبلغ المالي الكبير الذي استطاع أن يحتفظ به بعيدًا عن زوجة ابنه، وعن ابنه أيضًا. كان يقول إنه ليس مستعدًا لأن يعطي هذه الأموال لمجموعة من الأطباء لكي يستمتعوا هم بها ويضيفوا لقوائم مدخراتهم عددا آخر من الأصفار، بينما هم يعلمون أنه سيموت بعلاجهم أو بدونه.

بحلول المساء ساءت حالة رفيق فجأة. كانت عيناه جاحظتين، ووجهه محتقنًا تمامًا، يلهث بحشرجة موجعة. أسرع جرجس باستدعاء طبيب الدار، مقررًا أن يستغل وقت إسعافه الأولي من قبل طبيب الدار ليتمكن هو من الذهاب إلى أقرب مستشفى ليستدعي سيارة الإسعاف. كان رفيق قد تلقى زيارة هي التي تسببت له في هذه الحالة. فبعد خروج طبيبه الخاص في ظهيرة ذلك اليوم من عنده، وبعد أن استرخى قليلاً وغاب في قيلولة، حضرت إحدى العاملات وأخبرته عن رغبة السيدة "فاتن" في زيارته. لم يعرف ماذا يقول للفتاة الواقفة أمامه. كان يرغب في الرفض. لكنه، في الوقت نفسه، كان يخشى على صورته أمام الفتاة إذا رفض طلب "فاتن" التي تريد أن تعوده عندما عرفت بمرضه. كانت فاتن إحدى النزيلات، من السيدات المتصابيات اللائي كن يعرفن كيف يحافظن على جمالهن وحيويتهن، تبدو أصغر من عمرها عشرين عامًا على الأقل، ولكنها اضطرت للالتحاق بالدار بعد سفر ابنتها الوحيدة إلى كندا، ثم انقطاع أخبارها فجأة.

تودد لها رفيق قبل فترة، ونشأت بينهما علاقة صداقة قوية، وسرعان

ما بدأت تتردد عليه في غرفته. وكثيرًا ما كانا يجلسان في حديقة متاخمة للدار، أو في الاستراحات المجاورة للغرف في الأيام الباردة، يقضيان الوقت في الثرثرة، وفي الحديث عن الزهور والنباتات التي كانت تعشقها، وفي أحوال الدنيا وفي تأمل مصائر البشر الذين مروا على حياة كل منهما. وبالرغم من أنه كان يشعر بالضيق من إصرارها على ارتداء ملابس فاخرة ملونة بألوان صارخة لمجرد أنها تزوره في غرفته، لكنه تغاضي عن ذلك، لإعجابه بحيويتها. من بين ما انتقل به رفيق إلى الدار منذ وصوله للدار هو ببغاء عجوز يحتفظ به منذ زمن. وبالرغم من تعلقه الشديد به، استجاب لها في إحدى المرات، متيحًا لها الاحتفاظ به في غرفتها لفترة، لكي تأتنس به. وبينما كان يزورها في غرفتها، في مرة من المرات، لكي يتفقد ببغاءه، فوجئ به يبادره قائلاً: "يا ابن القحبة"! ويكررها بلا توقف.نظر إليها رفيق مستنكرا، فابتسمت بخجل: "أنا مش عارفة بيجيب الكلام الغريب ده منين"؟ جن جنون رفيق، وانتشل القفص الصغير من أعلى المنضدة بغضب. وأنهى علاقته بها بعد مشادة عنيفة. اليوم كان قد مر ما يزيد على أربعة أشهر على تلك الواقعة. لكنه وجد نفسه لا يزال محتفظا بغضبه. سوى أنه، وبعد تردد، طلب من الفتاة أن تبلغ "فاتن" شكره على مبادرتها اللطيفة، وأنه سيكون في انتظارها في الوقت الذي ترغب فيه.

إلا أن الأمور لم تمض على الوجه المأمول، فقد أصر على أن يفتح موضوع الببغاء، مرة أخرى، بالرغم من أن فاتن بدت شديدة الرقة واللطف، في حوارها معه. كانت قد سألته عن أحواله وصحته التي

سمعت عن توعكها في الفترة الأخيرة التي أعقبت موت سعاد فقال: "يوم في الطالع ويوم في النازل". "مش تاخد بالك من نفسك شوية"؟ "نفسي اتسدت بعد موت سعاد فعلاً، وده الظاهر أثر على السكر، حصل لبخ جامد وجت لي كومة لولا جرجس الله يكرمه هو اللي لحقني وطار بي على المستشفى". "يا نهار أبيض! كل ده حصل وأنا ما عرفش". "مش إنتي اللي كنت بعدتي"؟ "إنت اللي ما كنتش عاوز تتكلم معايا، وحتى في يوم عزا سعاد، وديت وشك الناحية التانية وما رضيتش تسلم عليّ". "مش عاوزين نفتح الموضوع ده تاني. وإنتي عارفه كده كويس". "يعني معقول إن احنا نخسر بعض عشان بغبغان"؟ شعر رفيق بنبضات تدفق الدم السريع في رأسه. وقال لها بحدة: "تاني.. إنتي عارفة كويس إن أنا ما باحبش الكدب". "أنا كدابة يا رفيق"؟ "ايوه كدابة، إنتي شتمتي البغبغان، عشان كده شتمني لما شافني". "تاني يا رفيق"؟ "ما فيش حاجة اتغيرت يا فاتن، إنتي حتى ما اعتذرتيش طول المدة دي". "أعتذر، أعتذر على إيه؟ مش إنت اللي عليت صوتك علي، وقلت لي كلام ما أقدرش حتى أكرره أنا دلوقت". "لأنك عاندتي وأصريتي تكذبي. البغبغان عمره ما كان بيقول الكلام ده، وفجأة وهو عندك بقى بغبغان صايع، يبقى إيه اللي حصل"؟

بدأت تبكي، بينما كان يشعر بالدق في رأسه قد بلغ ذروته، وأحس، رغم أن أنفاسه بدأت تضيق تدريجيًا، بأنها تخفي عنه شيئًا. وبسرعة أحس بأنه ليس سوى مغفل كبير، وأن فاتن كانت تستضيف ضيفًا في حجرتها، هو الذي كان يسب الببغاء. عندما مرقت الفكرة في رأسه شعر

فجأة بألم بالغ في صدره. فقال لها بصوت واهن: "من فضلك شوفي لي جرجس فين".

سارت الأمور دراميًا كما كان متوقعًا، لكنه، بحلول منتصف الليل، عاد إلى فراشه واهنًا، وسعيدًا، لا لشيء سوى أنه نجح في إقناع الأطباء بأنه لا يمكن له أن يبيت خارج غرفة نومه. دخل إلى الفراش مستندًا إلى جرجس، وسرعان ما غط في النوم بعد أن ظل يفكر في سعاد، أم كبرياء، لفترة. نام وهو يحمل صورة وجه سعاد في ذهنه. استعاد صورة وجهها في ذروة شبابها، وفي أوج نضجها، قبل وفاتها في نفس الدار لفترة طويلة، وسرعان ما غط في نوم طويل.

القسم الثاني

أبناء الجبلاوي

1

اختفى كبرياء.

منذ فجر الليلة التي أعقبت عودته من الإسكندرية، ملبيًا دعوة فاطيما في الشاليه الخاص بها في الساحل الشمالي. كان في حاجة لفترة نقاهة من الأزمات النفسية التي مر بها بعد وفاة نجوى، ثم مقتل رفيق فهمي في جريمة قتل غامضة، كان كبرياء نفسه واحدًا ممن اتهم بقتله. كان مصدومًا، من علاقته بفاطيما، رغم أنهما لاحقًا أصبحا صديقين، وتجاوزا فكرة العلاقة الجنسية التي نشأت بينهما، لكنهما لم يستطيعا تجاوز مأساة رحيل نجوى بسهولة، ولا إحساسهما بخيانتها. كان قد كتب رسالة إلى جاسر الذي هاجر إلى كندا قال له فيها:

"لم يرحمني أحد، لا ضميري الذي توارى نائمًا عندما استجبت لغواية فاطيما في ذروة مرض نجوى وتركت نفسي لها؛ هربًا من ضعفي ومخاوفي، ومن

صورة نجوى المريضة، مبررًا علاقتي بها بأنها وسيلتنا أنا وفاطيما للتشبث بالحياة، ومصدر القوة التي نحتاجها لاحتمال مرض نجوى المفزع وآثاره الرهيبة. لم ترحمني صورة وجه نجوى التي تلاحقني ليلاً ونهارًا: ثم تنبثق منها صور عديدة لانهائية: ضاحكة ومبتسمة، باكية وواجمة، شاردة وشاحبة، عاشقة ومعاتبة، محبة وغارقة في النشوة. ثم صورة وجهها الميت؛ وجهها المزرق الشاحب من أثر المعاناة النفسية والجوع، وامتصاص الجنين لدمها الذي أفقرته بامتناعها عن الطعام. كنت حزينًا على ما يحدث لها، عاجزًا، وغاضبًا. غضبي كان يتفجر يوميًا ليس فقط لإحساسي بالعجز، وإنما لإحساسي بأن نجوى باستسلامها للمرض والضعف، كانت تتخلى عني ضمنيًا، كأنها لم تكن مدركة لتعلقي بها، عقليًا وعاطفيًا وروحيًا، خاصة بعد وفاة أمي. استعدت وجه الأستاذ رفيق الذي جاء خبر موته أيضًا مفاجئًا، في الفترة التي تعافيت فيها نسبيًا من صدمة موت نجوى وما أعقبها.

المفاجأة كانت مروعة لأنني استدعيت من قبل النيابة، للتحقيق معي، بصفتي طرفًا من أطراف المشتبه بهم في جريمة قتل تعرض لها الأستاذ رفيق. لم أكن قد رأيته قبل وفاته بفترة طويلة بسبب ظروف علاقتي بنجوى، خاصة في ليالي المرض. ومع ذلك، فقد كان السؤال الملح عن مكان تواجدي في ليلة مقتله هو المتكأ الذي وجد فيه المحققون ثغرة ضخموها كثيرًا، لأنني لم أكن موجودًا في مقر سكني. لكني اضطررت للكذب عليهم وادعاء أنني كنت أبيت لدى صديق من أصدقائي.

لكن المفاجأة الحقيقية، يا جاسر، والتي ما زلت لا أستطيع أن أصدقها حتى الآن، هي التي فجرها محامي رفيق الذي كشف أنه ترك وصية قبل موته أوصى فيها بانتقال كل ثروته لي. بالإضافة إلى ورقة أخرى، أعطاها إياه مطوية وطلب منه

ألا يفتحها، إلا بعد وفاته، وبشرط أن يسلمها لي دون أن يعرف ما بها، ثم وضعها في مظروف مغلق أوصى بألا يفتحه أحد غيري. واسمح لي أن أحتفظ بمضمون الورقة الثانية سرًا لنفسي، لأن ما بها لا يعني أحدًا غيري. تلك الورقة كشفت الأوهام والأكاذيب التي عشتها على مدى حياتي، كما كان لها دور المعجزة في تحملي قسوة الوضع الذي تسبب فيه سوء موقفي القانوني؛ إذ إن الوصية بانتقال الثروة لي، بدلاً من أن تكون دليلاً على براءتي، تحولت إلى وثيقة إدانة، بدعوى أن استفادتي من ثروة الرجل تضعني على رأس قائمة أصحاب المصلحة في قتل الرجل. قلت للمحامي إن ما في الورقة الثانية التي تركها الأستاذ رفيق دليل دامغ على براءتي، لكنني أكدت له أنني، في نفس الوقت لا يمكنني أن أعلن ما فيها لأي أحد، على الأقل في الوقت الراهن".

فكر كبرياء كثيرًا، خلال تلك الفترة العصيبة، أن يترك البلد ويهاجر تحت وطأة الشعور بأنه لا يستطيع مواجهة كل تلك الظروف معًا، خاصة بعد رحيل كل من كانوا يمثلون جذوره في المكان، والذين بغيابهم أصبحت حياته عبثًا لا جدوى منها.

على أية حال، لم تمهله الظروف لأن يفعل شيئًا أو يقرره، خاصة بعد أن اختفى فجأة، دون أن يكون ذلك قراره. في الفترة التي اختفى فيها أضحت المدينة الشاسعة كلها حقلا للكاميرات الخفية. على أسطح المنازل، وحول أعمدة الإنارة، وعلى واجهات المحال، وأبواب المطاعم والمقاهي، والأماكن الحكومية. بل أشيع أنها زرعت في الشقق، والبيوت. تلك الظاهرة أضحت واحدة من توابع اختفاء أعمال محفوظ، وكادت

أن تصيب المسئولين بالجنون، فبمرور الوقت، واستمرار اللغز بلا قابلية للتفسير تفتق ذهن أحد الكبار عن زرع الكاميرات في المدينة كلها، وتوظيف آلاف الشباب للعمل كمراقبي كاميرات، تقسم عليهم المناطق، والبيوت، والأحياء. وهي مهنة اجتذبت آلافًا من العاطلين، والباحثين عن فرص عمل، الذين اندس بينهم مئات من مرضى التلصص، والمنحرفين، وأصحاب الفانتازيا الجنسية المرتبطة بالتلصص. وبالرغم من ذلك لم يتم كشف الكيفية التي اختفى بها كبرياء. توزعت شاشات المراقبة على غرف البنايات المخصصة لهذا الغرض تعج بالحركة: بشر يهيمون في الطرقات على وجوههم، رجال صامتون يتحركون بقلق في غرف نومهم، أو يستلقون أمام شاشات التليفزيون، أو يتحدثون في هواتفهم.

بينما بث شاشات أخرى صورًا لرجال يضاجعون نساء عاريات يستظلون بجدران غرفهم المغلقة عليهم، لا يعلمون شيئًا عن أمر العيون المدسوسة عليهم؛ تتلصص على لحظاتهم الحميمة. في كثير من تلك الأماكن كانت صور الناس تتتابع على الشاشات؛ أعداد من شباب يحتفلون؛ فتيانًا وفتيات، بالموسيقى والشراب، وبرقصات ماجنة. لقطات لمشاهد للناس في حياتهم اليومية: يأكلون، يتسامرون، يدرسون، يهمسون سرا، يبكون، يصرخون، يتنازعون، يعانون الملل، يضحكون، يتبادلون الثرثرة، أو يعتزلون في غرفهم ؛ يعانون الضجر، السأم ، الوحدة والملل، وينامون.

امتلأت الكاميرات بالمشاهد من كل نوع، والبشر من كل الفئات والخلفيات الاجتماعية، أساتذة جامعة، وموظفين، سماسرة، وتجار، مثقفين، وشبابًا عاطلين، بعضهم يعمل بالسياسة، والبعض بلا عمل من

أي نوع. لا أحد معصوم من الرقابة؛ إذ إن المشروع يعرف داخليا باسم "كاميرا لكل مواطن"، ومع ذلك، اختفى كبرياء، كما اختفت كتب نجيب محفوظ من قبله. فأين ذهب؟

"الظلام مرة أخرى، يتجسد في القبو. يغطي المتسولين والصعاليك. ينطق بلغة صامتة. يحتضن الملائكة والشياطين. فيه يختفي المرهق من ذاته، ليغرق في ذاته. إن قدر الخوف على أن ينفذ من مسام الجدران فالنجاة عبث". (الحرافيش ص44).

هل ذهب كبرياء إلى القبو؟ لكن أي قبو؟

"خرج من القبو إلى الساحة. انفرد بأناشيد التكية والجدار العتيق والسماء المرصعة بالنجوم. جلس القرفصاء دافناً وجهه بين ركبتيه، منذ نيف وأربعين عاما تسللت به أقدام خاطئة لتواري خطيئتها في ظلمة الممر. كيف وقعت تلك الخطيئة القديمة؟ أين؟ في أي ظروف؟ ألم يكن لها ضحية سواه؟ تخيل إن استطعت وجه أمك الحالم ووجه أبيك المحتقن، استعد إن استطعت كلمات التغرير المعسولة، استحضر اللحظة الحاسمة التي تقررت بها مصائر. كان يقف إلى جانبهما ملاك وشيطان ولكن الرغبة تهزم الملائكة. تخيل صورة أمك. لعلها مثل..! لا بد من الرشاقة والسحر وعذوبة الصوت. وقبل ذلك لا بد من القوى الخفية المتدفقة المناسبة الغادرة المغتصبة بلا ضمير. والطُعم الفواح تضعه الحياة في الفخ وتنتظر".

نعم خرج كبرياء في الليل كأنه مسوق بقوة صوت سحري ينادي عليه، ولا يسمعه سواه. لم يكن صوت نجوى، ولا صوت السيدة الشبقة التي تقطن البناية المقابلة، كما تمنى، لكنه صوت أجش، لم يكن قد سمعه قبلاً، ومع ذلك لم يكن قادرًا على تجاهله. في القبو المظلم، ذي المدخل

الضيق المظلم الذي نزل إليه عبر درج صغير مكون من ثلاثة أحجار مجلوة بعناية، سيعرف أنه صوت عاشور الناجي، وأن الناجي ومجموعة أخرى من الشخصيات وثيقة الصلة قد كلفوا بمهمة إنقاذ كبرياء، ليس من مراقبة الكاميرات فقط، وإنما من الوباء الذي أصاب البلد. منذ ذلك اليوم، كان جمع من أبطال روايات محفوظ يعرفون مصير أهل البلد. كان الوباء سيذهب بالآلاف إلى القبور، لكنه أيضًا سيخلف من يحيا منهم في عمى كامل. "عمى؟ وهل كانوا مبصرين؟ لقد ضعنا جميعًا من بين أيديهم و لم ير أحد منهم شيئًا"! هكذا هتف عاشور الناجي، ثم ضحك، فيما تجلجل صوت الجبلاوي بضحكة رهيبة اختفت على وقعها رنات ضحكات الآخرين ممن حضروا إلى القبو: "قرنفلة"، نجمة عماد الدين من "الكرنك" وبجوارها "زينب دياب" الفتاة التي تلقت تعذيبًا وحشيًا على يد زبانية التعذيب، ثم إدريس، محمر الوجه، غاضبا، كعادته، لأن ضحكة أبيه الجبلاوي غطت على كل ما عداها. وأحمد عاكف من خان الخليلي، وزهرة من ميرامار، وإلى جوارها حميدة من زقاق المدق، ثم ظهر السيد أحمد عبد الجواد، وأكبر أبنائه ياسين، ثم الابن الأصغر كمال، وخلفهم وقفت "أمينة"؛ كأنها فتاة في العشرين حيية، خجول، تطرق للأرض.

"رأى فتاة مولية الباب ظهرها ومنحنية على شيء بين يديها (..) وقد برز ردفاها اللطيفان، وانحسر الفستان عن ساقيها وباطن ركبتيها، ساقان مدملجتان يكسوهما بياض ضاحك تكاد العين تحس طراوتهما". أدرك أنها بهية جارة حسنين التي وقع في غرامها في "بداية ونهاية". (بداية ونهاية، ص 59).

تأمل كبرياء الوجوه من حوله في ذلك القبو ذي الإضاءة الكابية. فرك عينيه مرات عدة كأنه يخشى أن يكون ما يراه ليس سوى حلم من الأحلام الغريبة التي بدأ يحلم بها مؤخرًا، أو وهم من أوهام خيالاته المريضة. لكن حرارة أنفاسهم، وهيبة حضورهم كانت تفيض على المكان بما لا يدع مجالا للشك في وجودهم.

تأمل كبرياء وجوههم جميعًا، مرة أخرى، منتهزًا فرصة تحلقهم حول الجبلاوي والسيد أحمد عبد الجواد، اللذين كانا يتحدثان بالتبادل، بنبرة صوت واضحة لكنها أقرب للهمس. بحث كبرياء عن "زهرة"، العاملة في بنسيون "ميرامار". تأمل ملامحها المزيج بين فتنة الشرق، ممتزجة بلمسة من الجمال الأوروبي، تتألق في بشرتها السمراء، فبدت وقد أنضجتها خبرة الحياة، لكنه لاحظ الحزن البادي على وجهها فحدثته نفسه: **"نظرت إلى وجه زهرة الشاحب، ودموعها الجافة على الوجنتين، ونظرتها الكسيرة الذابلة، فخيل إلي أنني أنظر في مرآة وأن الحياة تطالعني بفطرتها الخشنة الفظة الرهيبة، بإمكانياتها المجردة، بصمودها الصلب المغطى بالأشواك، بآمالها الخبيثة في قوقعة مسمومة الأطراف. بروحها الأبدية التي تجذب إليها المغامرين واليائسين فتقدم لكل غذاءه. لقد سلبت الشرف وهجرت بلا كبرياء. أجل إني أنظر في مرآة"**. (ميرامار من مونولوج منصور باهي ص 150).

من بعيد ظهر رهط من "الحرافيش"، و"أولاد حارتنا"، لم يستطع كبرياء أن يميزهم، إذ ثارت جلبة مفاجئة، واختفوا جميعًا عن الأنظار خلف ساتر، من جدار القبو القريب من المقابر. وسرعان ما انتشر الخبر؛ فقد **"تفاقم الأمر واستفحل. دبت في ممر القرافة حياة جديدة.. يسير فيه النعش وراء النعش..**

يكتظ بالمشيعين. وأحيانًا تتتابع النعوش كالطابور. في كل بيت نواح. بين ساعة وأخرى يعلن عن ميت جديد. لا يفرق هذا الموت الكاسح بين غني وفقير، قوي وضعيف، امرأة ورجل، عجوز وطفل، إنه يطارد الخلق بهراوة الفناء. وترامت أخبار مماثلة من الحارات المجاورة فاستحكم الحصار. ولهجت أصوات معولة بالأوراد والأدعية والاستغاثة بأولياء الله الصالحين". (الحرافيش، ص55).

اقترب عاشور الناجي من كبرياء: "طوله فارع، عرضه منبسط، ساعده حجر من أحجار السوق العتيق، ساقه جذع شجرة توت، رأسه ضخم نبيل، قسماته وافية التقطيع غليظة مترعة بماء الحياة". (الحرافيش، ص14).

قال عاشور: "لا تخش شيئًا أنت هنا في أمان". "لماذا دعوتموني إلى هنا"؟ "ستعرف كل شيء في حينه، لكنك الآن في أمان فلا تقلق، الحارة كلها الآن في حالة من الفوضى التي لم تعرفها من قبل، لكننا كنا نتوقع ذلك منذ اختفت الكتب التي خلقت وجودنا". "أي حارة تقصد"؟ "الحارة التي ولدنا فيها جميعًا، وتشعبت وكبرت حتى صارت حارة عملاقة تعيث الآن فسادًا. والآن ها هو الوباء يضرب بيده الحديدية. لا نعرف كم سيحصد من الأرواح لكنه لن يكون قليلاً. كنا نتوقع ذلك أيضًا، فحين يعم الفساد ويسود الجوع، ينتفض الموت، ويهب ملكه على المكان حتى يطهره من آفاته، وفي الطريق يروح عدد لا يستهان به من الأبرياء، لكن هذا هو الثمن الذي يتكلفه الأمر دائمًا. لا حيلة لأحد في ذلك، ولن تمنع الكاميرات التي فرضت على كل شخص أحدًا من الموت إذا جاء أوانه، حتى لو كان من المسؤولين عن تلك الكاميرات نفسها".

2

على مدى الأيام التالية كانت الأخبار تتوارد على سكان القبو من شخصيات نجيب محفوظ، ومعهم كبرياء. ولم يكن فيها ما يبشر بخير. الطيور التي كان أهل المدينة الشاسعة يسمعون رفيفها ليلاً، منذ اختفى تمثال نجيب محفوظ، تحولت إلى أسراب تغطي السماء، وتحجب الشمس، حتى أصبحت المدينة تعيش في عتمة تامة، في النهار كما في الليل. انتشر وباء قاتل في أرجاء الحارة، وتمكن، تمامًا كما تغلغلت جرثومة الفساد عميقًا في روح الحارة، وهو ما جعل الأمر مأساويًا. النعوش تتزايد، والوباء يزداد انتشارًا. البيوت التي تتلوث بالوباء تشتعل فيها النيران لتحرق ثياب الموبوئين، وأغراضهم، على أمل القضاء على شرور الوباء، لكن دون جدوى. النعوش عرفت الطريق إلى القرافة المجاورة للقبو، فبدت وكأنها تسير بحملها دون أن يحملها أحد.

قيل إن النعوش عرفت الطريق إلى المقابر بسبب العمى الذي أصاب أهل الحارة تباعًا. بات أهل الحارة يفقدون أبصارهم، فجأة، بين ليلة وضحاها. أينما كانوا، بعد أن غرقت المدينة في العتمة. عندما ملت نعوش الموتى من فوضى الوصول إلى المقابر بسبب عمى من يحملونها وسيرهم في طرق ودروب خاطئة، بدأت تعتمد على نفسها، تعلو عن أيدي حامليها فيسود هرج ودعاء، مكلل بالدموع للميت الذي خف نعشه وارتفع، بفضل نقاء روح صاحبه. وعلى وقع حفيف احتكاك النعش بالهواء كان العميان ينطلقون متخبطين خلف دليلهم الطائر إلى منطقة المقابر.

قرر الجبلاوي إغلاق القبو لفترة حتى تتلاشى آثار المأساة. وأمَّنَ الجميع على قراره، فالقبو، كما سيعرف كبرياء لاحقا، ليس قبواً بالمعنى الحرفي، فالمدخل الخادع يوحي بأنه قبو، لكنه يتصل بسرداب طويل ممتد، ومنه إلى فناء شاسع؛ كأنه مخبأ سري عملاق، تتوزع فيه أركان عدة، تفضي كل منها إلى ما يشبه أزقة وحارات تتناثر فيها غرف صغيرة خصصت كل منها لشخص من الموجودين في القبو. بالرغم من الكارثة التي حومت حول سكان الحارة خارج القبو، كان كبرياء يشعر بشيء يفوق الإحساس بالسعادة، ربما لأول مرة، فقد وجد نفسه محاطا بشخصيات كان يتمنى أن يلتقي بعضها ولو في المنام، فإذا بهم جميعًا، بشر من لحم، يتواجدون حوله. كان أكثر الأشخاص جاذبية بالنسبة له هو أحمد عبد الجواد، الرجل الذي جسد شخصية الرجل المصري، بكل ازدواجيته وتناقضاته، على مدى القرن الماضي بامتياز. كان يشعر بمهابة الاقتراب منه. تأمله متفحصًا. "بدا في وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش

كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعا جبة وقفطان في أناقة وبحبحة دلتا على رفاهية ذوق وسخاء، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتي رأسه في عناية بالغة، وخاتمه ذو الفص الماسي الكبير، وساعته الذهبية، إلا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه. أما وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قوي التعبير واضح الملامح، يدل في جملته على بروز الشخصية والجمال بعينيه الزرقاوين الواسعتين، أنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها". (بين القصرين ص13).

نظر إليه كبرياء مبهورًا، كان مختلفا تمامًا عن صورة الممثل الذي جسد شخصيته في فيلم "بين القصرين". بدا الرجل أمامه أكثر وسامة، وصاحب "كاريزما" آسرة. تحركت رغبة كبرياء في محادثته، كان يرى فيه نموذجًا غريبًا، صحيح أنه نموذج لرجل شرقي قارب أن يندثر، لكن له الفضل في أن يتعلم منه أشياء، بعضها كان له دور كبير في الاستمتاع بمضاجعة نجوى حين أخذ حرفيًا وصفة السيد أحمد عبد الجواد القائلة: "لن أحيد عن شعاري القديم وهو أن أجعل من لذتي مطلبًا ثانويًا ومن لذتها هي الهدف والنهاية، وبذلك تتحقق لذتي على أكمل وجه". (بين القصرين ص113).

تذكر كبرياء أنه أسرَّ لنجوى بذلك. انقبض قلبه للذكرى. وشعر بحزن مباغت اعتصر قلبه. ثم تذكر وجه فاطيما، حين كانت تحكي له مرة عن خوضها لعلاقتين في وقت واحد لا يعرف طرفاها شيئًا عن الآخر. وصفت حالتها آنذاك بقولها "كنت أشعر أنني منقسمة وسعيدة". لكنه لم يفهم كيف يمكن لها أن تقتسم مشاعرها بين طرفين في الوقت نفسه

وبنفس الدرجة. بل وكانت تمارس الحب مع كل منهما، وأحيانًا، في موعدين متقاربين.

تُرى ماذا يقول أحمد عبد الجواد لو عرف شيئا كهذا؟ سأل كبرياء نفسه، وتذكر ياسين ابن السيد أحمد عبد الجواد، لعله سيكون أكثر فهما لهذه الحالة، لأنه كان يواقع زنوبة وهو يعرف أنها تمارس الحب مع آخرين في بيت "زبيدة" العالمة، مع آخرين، بل ومع أبيه نفسه.

لكنه لم يحبها، فقد كان مثل والده، مع اختلاف أنه كان ذا ذوق منحط، لا يفرق بين امرأة مثل "أم حنفي" العجوز الدميمة التي كانت تساعد أمينة في شئون البيت والنظافة، والتي واقعها في حجرة الفرن، أو "نور"؛ خادمة زوجته "مريم" التي واقعها في المطبخ، وبين امرأة مغناج لعوب مثل "زنوبة" التي واقعها في بيت الزوجية وفي وجود زوجته. نعم كان صاحب ذوق فاسد، لكنه كان يماثل أباه في أنه لم يعرف مشاعر الحب أبدا، مع الفارق؛ "**إذ إن السيد لم يخبر من ألوان الحب –على وفرة مغامراته– إلا الحب العضوي وحب اللحم والدم؛ إلا أنه تدرج في اعتناقه إلى أرق صورة وأنقاها، فلم يكن حيوانًا بحتًا، ولكنه، إلى حيوانيته، وهب لطافة إحساس ورهافة شعور وولعًا مغلغلًا بالغناء والطرب، فسما بالشهوة إلى أسمى ما يمكن أن تسمو إليه في مجالها العضوي**". (بين القصرين ص113).

في تلك اللحظة سمع كبرياء صراخًا وجلبة، ميز فيها صوت السيد أحمد عبد الجواد وابنه ياسين. وتحول الصراخ إلى معركة بالأيدي. فقد تسلل ياسين، على ما يبدو، إلى مخدع "بهية"؛ الفتاة الفاتنة خطيبة حسنين

في "بداية ونهاية"، وحاول أن يغتصبها، فصرخت، وعرف حسنين بما حدث، فهب إلى غرفتها في أقصى أطراف القبو، فوجد ياسين خارجًا منها مشعثًا لاهثًا، فنشبت بينهما معركة. ويبدو أن ياسين قد عاير حسنين بشقيقته سنيةّ واصفًا إياه بشقيق العاهرة، فما كان من حسنين إلا أن لكمه بقبضته، بكل ما امتلك من قوة. وبالرغم من أن ياسين كان ضخم الجثة مثل والده، لكنه بوغت بحركة حسنين القوية التي طرحته أرضًا وجعلت منه هدفًا سهلاً لحسنين الملتاث بالدفاع عن شرفه المنتهك. وقبل أن يمر وقت يسمح لياسين بأن يسترد أنفاسه اللاهثة، تدخل الجبلاوي فورًا وأصدر قرارًا بطرد ياسين من القبو إلى الحارة دون مناقشة. ثم دوى صوت الجبلاوي فجأة، فزلزل صوته جدران القبو بصرخة لم تتجاوز النداء: "إدريس"! وبوغت الأخير فظل فاغرًا فاه، حتى رَعَد صوت أبيه مرة أخرى : "لو نطقت بحرف ستطرد من هنا كما طردت قبل ذلك". كان الجبلاوي، يعرف جيدًا، ابنه وروحه المتمردة، الغاضبة، وتوقع أنه سيتدخل في قرار طرد ياسين، بشكل أو بآخر، فقرر أن يحسم المسألة من البداية.

سرت في الجو حالة من التوتر، وساد الصمت والترقب بينما الوجوه جميعًا تنظر إلى وجه الجبلاوي الذي تألقت عيناه بغضب ناري، لكنه لم يخل من النبل.أدار ظهره للجميع حتى يستعيد هدوءه، ثم بدأ يخطو ببطء إلى داخل القبو، عبر ممر جداري رطب، حتى اختفى، فبدأ الحضور يستعيدون هدوءهم، بينما كانت بهية تقلب نظراتها بين حسنين وياسين.

ثم أطرقت إلى الأرض. نظر ياسين إلى والده الذي كانت عيناه تشتعل بالغضب، وهمس بأسفه وهو يطرق للأرض، ثم أدار ظهره لهم جميعًا، واتجه صوب مدخل القبو، وانصرف إلى مصيره. لم يكن الوقت مناسبًا للتفاعل معهم. هكذا فكر كبرياء. كان يتحرق ليتحدث مع أي منهم، ليس فقط لكي يفهم ما يحدث حوله، ولكن لأنه أيضًا كانت لديه أسئلة شخصية لكل منهم، حول ما عرفه عنهم عبر كتب محفوظ.

في تلك اللحظة شعر كبرياء أن لديه فرصة جيدة لكي يبحث بين الحضور عن أقرب شخصية لنجوى. وأدرك أنه بالفعل واقع في غرام نجوى حد الجنون، وأنه لم يعد قادرًا على أن يبادل أحدًا غيرها المشاعر. ارتعد للفكرة، لأنها بقدر ما كشفت له عمق مشاعره تجاهها بقدر ما بدت له مثل حكم بالإعدام. فبموتها تنتهي آماله في أن يمر بتجارب أخرى. سوى أن فكرة الموت لم تكن بعيدة في وعيه عن فكرة الحب. ليس لارتباط حبه لنجوى بموتها فقط، إنما لأنه، في عمق أعماقه، كان يعرف أن الحب هو نوع من الفناء، بشكل ما، إذ كان يرى أنه يمثل حالة من حالات فناء الذات في ذات أخرى. كان على يقين من أن الحب انشطار للذات، لكي تتمكن من التغلغل في ذات المعشوق.

وبالرغم من أفكاره التي يمكن ترجمتها عمليًا في أشكال من السلوكيات الرومانسية، لكنه، في الوقت نفسه، لم يكن شخصًا يستطيع أن يكشف مشاعره للآخرين بسهولة. لذلك لم يبد أبدًا كشخص رومانسي يهيم بمشاعره، فلا يستطيع أن يتمالك نفسه. بالعكس كان يغلف مشاعره المرهفة بسياج من التحفظ، وبرباطة جأش، ووجه صلب مبتسم.

تساءل: تُرى مَن مِن الشخصيات التي يعج بها المكان تصلح لأن تكون بديلاً لنجوى؟ بهية؟ لا لا هي أبعد من تكون شبهًا بها. بهية نموذج للفتاة المصرية المتحفظة، مثلها مثل بنات السيد أحمد عبد الجواد؛ سليلة الطبقة الوسطى المصرية بكل تناقضاتها، وأخلاقياتها. تنتظر زوجا مثاليًا يوافق عليه الأب والأم قبلها، لكنها أيضًا تتمنى أن يكون مثاليًا؛ خلوقًا، وجيهًا، يعمل في وظيفة محترمة. تحافظ له على عذورتها، وتهبه حياتها، روحًا وجسدًا، مهما كانت شخصياتهما مختلفة. لا. هذه أبعد ما تكون عن نجوى. ربما سيظل يتمنى أن تتعرى له مثلما فعلت نجوى، وأن يتأمل بياض بشرتها، وجمال جسدها. بالأحرى؛ يتلصص على جسدها. فهو يؤمن بأن هذه الروح المتحفظة التي نشأت عليها بهية لا توفر لها ثقافة جنسية تسمح لها بأن تعرف معنى الجنس كما مارسه كبرياء مع نجوى مثلاً..

"حميدة"؟ قطعًا لا. فهذه الشخصية جسدت نموذجًا آخر لم يحبه البتة؛ الفتاة المتطلعة للخروج من الحارة، إلى المدينة بكل عناصر الإبهار التي تتحلى بها، مضحية بكل قيم الحارة من أجل متع براقة. صحيح أنها تبحث عن الحب، كما أنها مثل أغلب الطبقات الشعبية، لا تعول كثيرًا على أخلاقيات الطبقة الوسطى، المتحفظة، لكنها أيضًا، لم تختر أن تكون امرأة متحررة، إنما اختارت أن تكون عاهرة، هكذا استبقت الأمر وسألت نفسها قبل أن تقرر الخروج من الزقاق: "ماذا سيقولون عني؟ عاهرة"؟

نعم، عرفتْ ما سيقوله عنها الناس لو استجابت للقواد، وفكرت، ولكنها لم تكترث، كما لم تكترث لحب عباس الحلو الذي راح ضحيتها، مقتولا برصاص البريطانيين، لأنها كانت تلهو في أحضان مجموعة من

الجنود. أرادت أن تصبح عاهرة بملء إرادتها، و لم تكن ضحية مثل سنية شقيقة حسنين. لكنها أيضًا ليست امرأة تعرف أنها ندّ لرجل وتوازيه، مثلما كان شأن نجوى. ثم إنه لن ينسى البتة أن حميدة كانت تغسل شعرها بالجاز لأن القمل كان يرعى فيه. تساءل: "هل لو كنت تعرفت إليها، بعدما أصبحت سافرة، غنوجًا، واسمها "تيتي" بدلاً من حميدة، كما أطلق عليها القواد فرج إبراهيم بعد أن أغواها لتخرج من زقاق المدق، هل كان الأمر سيختلف؟ قطعًا لا. هي بالنسبة لي شخصية منفرة، قلبًا وقالبًا، هشة، ذات روح متوحشة، لا أعرف كيف أسبغ عليها البعض تلك الفكرة التافهة أنها تجسد رمزًا لمصر"؟

استمر كبرياء في خيالاته: ففكر في "عايدة"؛ عشيقة كمال، لكنه هز رأسه بسرعة، فهي، بالتأكيد، ليست المرأة التي يبحث عنها. صحيح أنها تشترك مع جموع الفتيات المصريات في أنها "ملاوعة" كما هو شأن أغلب جيلها من الفتيات المصريات، أيًا كانت الطبقة التي ينتمين إليها، لكنها جسدت نموذجًا للبرجوازية والطبقية التي كانت نجوى أبعد ما تكون عنها. لم تشغله أبدًا أو تثر اهتمامه. صحيح أنها لم تكن موجودة في القبو، لكن حتى لو وجدت فلم تكن لتثير اهتمامه. روح خاوية، وفتاة تعشق "سوبرمان" يمتلك الثروة والنفوذ، مفاتيح السر التي لا يفتح قلبها بسواها. بحث بعينيه عن "زهرة"، معشوقة رواد ميرامار: خاصة منصور باهي، وسرحان البحيري، لكنه، أيضًا، كان يعرف أنها ليست النموذج. فهي لا تكافئه على أي نحو. ربما لو كان في موقع أي من رواد ميرامار لشغف بها، وربما لو أنه التقاها بالمصادفة مرتدية قميص نوم عاريًا، وهو سكران

لفكر أن يتهجم عليها ويراودها عن نفسها؛ كما فعل حسني علام. وفي النهاية ما كان ليقع في غرامها. لكنه عاد وتأمل، وفكر، لقد وقع كل رواد ميرامار في غرامها، باختلاف دوافعهم بطبيعة الحال، ومآربهم أيضًا. صحيح أنها لم تحب سوى سرحان البحيري. لكنه، في النهاية لم يكن شجاعًا ليتزوج منها. بدا الأمر وكأنها هي التي تملصت منه، لكن الواقع أنه تراجع عن قرار الزواج منها، وانتهى الأمر بزواجه من السيدة التي محت أميتها وعلمتها. هي في النهاية شخصية بسيطة، ربما أنها طموحة، لكنها ليست مركبة كما هي شخصية نجوى.

"هل أحببت نجوى لأنها شخصية مركبة"؟ تساءل كبرياء. استعاد تاريخًا من التفاصيل التي كونت علاقته المعقدة بنجوى. ثم اعتصر قلبه الألم. كيف أخفق في الحفاظ عليها، كيف تركها تتوجه للموت، بينما كان يجلس بجوارها عاجزًا؟

شرع كبرياء يهدئ من نفسه، خرج ليكتشف القبو، والأزقة التي تتفرع منه. لمح عاشور الناجي واقفًا في إحدى الزوايا كأنه ينتظر شيئًا أو شخصًا فاتجه إليه، رحب به الناجي عندما سمع تحيته. سأله كبرياء: "إلى متى سنظل هنا في القبو"؟ نظر إليه عاشور الناجي كأنه يتفحصه، ثم قال: "ليس بعد، الحارة تغلي، والعيون تراقب كل شيء، وتعد الأنفاس. صحيح أن الأمور أفلتت من أولئك البصاصين، لكن أهل الحارة لم يتكاتفوا بالقدر الذي يجعل منهم عاصفة هادرة تقف في وجه أصحاب الكاميرات، الذين لم تفلح رقابتهم في أن تمنع اختفاء كتب الكبير". أدرك كبرياء أنهم يلقبون

نجيب محفوظ بهذا اللقب، لكنه لم يفهم ما هو المطلوب منه، ولماذا تم اختياره دون غيره لكي يبتعد عن عيون المراقبين، كأن مصيره أن يتماهى مع مصير كتب نجيب محفوظ ونصوصه. استعاد ما تذكره من "الحرافيش" فانتبه إلى أن اختفاء "عاشور الناجي" كان السبب وراء رحلة الحرافيش لتأسيس العدل في الحارة كما أسسها هو، فهل يكون اختفاؤه له معنى مشابه؟

تعب من التفكير، ومن انتظار الوقت المناسب، لذلك قرر أن يتحلى بالصبر، خاصة بعدما أعلنت "الست أمينة" عن إعدادها لوجبة غداء مهيبة لكل الحضور الذين تسابقوا جميعًا إلى حيث أعدت الوليمة في باحة القبو الأساسية. بينما أحمد عبد الجواد يرمقهم ساهمًا، واجمًا. ولو دقق أحدهم النظر لاكتشف أن عينيه قلقتان كأنه يبحث عن شخص بعينه.

3

في غفوة كبرياء، التي أعقبت الوجبة الدسمة التي تناولها على تلك المأدبة الأسطورية محاطًا برهط من أجيال وشخصيات لم يحلم يومًا أن يلتقي أحدًا منهم، اشتعلت ذاكرته بالأحلام. تداخلت الصور وتشوشت الوجوه، لكن الحلم الوحيد الذي تذكره بعد أن استيقظ هو ذلك الحلم القديم الذي استدعته فيه السيدة الشهوانية التي رآها في الشقة المقابلة. سوى أن وجهها الفاتن الذي كان يشبه وجه "رادوبيس"، كما تخيله في رواية محفوظ التي تحمل نفس العنوان، استبدل في الحلم بوجه نجوى. لم يكن ذابلا نحيفا كما كان شأنه قبل وفاتها، إنما نضرًا موردًا ممتلئًا بالحيوية. هتف في الحلم "نجوى، نجوى" التفتت إليه، ثم ابتسمت ابتسامتها المحببة التي عرفها في الليالي الخالية، ثم اختفت فجأة، تاركة إياه في الغرفة المظلمة إلا من ضوء ساطع مسلط على الفراش الذي كانت ترقد عليه قبل لحظات، وهو يمارس معها الحب.

"من مكان ما في مملكة الظلمة انطلقت صرخة. صرخة ممزقة بالفزع واليأس. سرعان ما تجسدت في صورة فريسة موءودة الفرحة، تتطلع بعينين محتجتين نحو النجم اللامع، متلاطمة مع تموجات الأنغام، مسلمة في النهاية إلى قبضة الصمت القاسي الساخر". (الحرافيش ص231).

استيقظ كبرياء مفزوعًا. لم يع إذا كانت الصرخة هي جزء من الحلم أم أنها صرخة حقيقية. نهض متثاقلاً، واتجه صوب باب الغرفة التي خصصت له في أقصى أطراف القبو، فوجد اثنين من الحرافيش يقفان بجوار الباب. نهض إليهما مفاجئًا من وجودهما أمام الباب. فأشار إليه أحدهما أن يبقى في الغرفة. وقبل أن يقول شيئًا همس له الآخر: "هذه تعليمات عاشور الناجي نفسه، بمعرفة الجبلاوي". ساوره الإحساس بأنه يطفو على ضباب سحب معلقة في بقعة مجهولة من الزمن. الملل يكاد يقتله، والحيرة تشتت ذهنه، لا يعرف كيف جاء إلى هذا القبو العجيب، ولا إلى أي زمن سيظل عالقًا فيه. لا يعرف السبب من وجوده، ولا ما يخططه له الجبلاوي ورفاقه. ثم ها هو الآن محبوس في غرفته، يحرسه حرفوشان لا يعرف عنهما شيئًا. سأل الرجلين قائلاً: "هل هناك شيء خطير يستوجب بقائي هنا"؟ فلم يرد عليه أحد منهما. فنظر إلى شخص منهما وكان طويلاً فارعًا يرتدي بنطالاً أسود واسعًا، و"بودي" بلا أكمام، أبيض اللون، يبرز عضلاته المفتولة. لكنه لم ينطق بحرف. سأله كبرياء أن يعيره سيجارة، فناوله الشاب علبة سجائر كاملة. وطلب منه أن يدخل إلى الغرفة بسرعة، فعاد كبرياء مكروبًا. لكنه أحس بنشوة إمكانية التدخين التي كان انقطع عنها منذ وصوله إلى هذا القبو للمرة الأولى.

الغرفة الفقيرة المظلمة التي لا ينيرها سوى مصباح كيروسين عتيق في زاوية منها بدت له في تلك اللحظة كمقبرة. استعاد زيارته الوحيدة لمقبرة عندما نزل القبر وهو يحمل جثة أمه، يخفق قلبه بعنف، وتمزقه الحسرة، يصارع وعيه أن من تحملها يداه هي جثة أمه. استعاد مشاعره السوداوية، والحزن المقيت، ليس لأنه فقد أمه فقط، وإنما لإدراكه آنذاك، حين لاحظ عدم وجود أي فرد من أفراد عائلتها، أن أمه، مثله تمامًا، واجهت العالم وحيدة، كانت يتيمة منذ طفولتها، رعتها سيدة عجوز، من جارات أمها حتى أصبح عمرها 15 عامًا، ثم ماتت تلك السيدة، وتركتها لتواجه مصيرها. ثار غضبه آنذاك لأنه أدرك أن أباه، الحقير كما كان يصفه دومًا، استقوى على تلك السيدة الضعيفة، لأنها كانت وحيدة في العالم، ليس لها ملجأ أو ظهر. وهذه الفكرة وحدها التي جعلته يبكي فجأة، بحرقة، وبلا سابق إنذار وسط دهشة الجميع، وخاصة جاسر الذي كان يراه يبكي لأول مرة.

استعاد تلك الدقائق التي مرت عليه كأنها دهر، بينما تفوح رائحة عطنة متربة في الحفرة المؤدية إلى غرفة الدفن، حيث تعثّر في هبوطه مع حفار القبر ومساعده، لاهثًا، متعبًا، مغتسلاً بعرقه، مشتتًا، وحزينًا كما لم يعرف الحزن. بينما السؤال يلح على عقله: "هل تريني الآن يا أمي؟ هل تشعرين بي؟ أأنت الآن معي، تتعاطفين مع حزني؟ أم تراك لست الآن سوى عدم".

توقفت تداعيات ذاكرته حينما برقت في ذهنه فجأة فكرة أنه قد مات فعلاً، وأن ما يعيشه الآن هو حياة ثانية تعقب موته. فليس مما يراه الآن

شيء له علاقة بحياته السابقة. فكر أيضًا أنه إذا كان قد مات فهذا يعني أن هناك إمكانية ليرى نجوى. رقص قلبه لهذا الخاطر.

"هل يمكن أن يكون الموت هكذا؛ مجرد رحلة من البيت إلى القبو؟ ألهذا لا أتذكر شيئًا منذ كنت نائمًا في شقة المنيل بعد عودتي من الإسكندرية؟ هل كل ما اعتنقناه عن الموت، وعذاب القبور، ووحشة القبر لم يكن سوى منظومة تخويف؟ أم أنني جننت تمامًا، و لم أعد أعرف الفارق بين الوهم والواقع. اختلطت الأمور عليّ، وأصبحت أرى ما لا يراه غيري".

تأمل جسده ولاحظ أنه أصبح نحيفًا بشكل ملحوظ. أشعل السيجارة من مصباح الكيروسين.عاد ليجلس على الفراش. أحس بنشوة، وبشيء من الخدر. تأمل السيجارة ظانًا أنها سيجارة محشوة بالحشيش. أكد لنفسه الفكرة مرددا أن الحرافيش بالتأكيد لا يدخنون سوى سجائر محشوة. استراح للفكرة، فيما تصاعدت في نفسه قناعة بأن ما يعيشه لا يمكن احتماله سوى بالغياب المؤقت عن الوعي . أمسك بعلبة السجائر المارلبورو التي أهداه إياها الشاب وتأملها كأنما يتأمل كنزًا، فقد كانت متخمة بالسجائر لم تنقص منها سوى سيجارة واحدة.

سمع دقة خافتة على الباب. "تتكاثف الظلمات في جمجمته لا يدري بها أحد. يتسلل شعاع إلى الظلمات في صورة بسمة متألقة بالتحية والإغراء. بسمة تترك أثرًا في الظلام. من هذه المرأة؟ لا يرفض التحية ولا يستجيب لها. ولا ينكر أثرها الملطف لعذاباته، متوسطة التكوين، ريانة الجسد. جذابة الملامح.

زينات. ولأنها تصبغ شعرها بلون الذهب دُعيت بزينات الشقراء. لا ينكر أثرها الملطف لعذاباته ولكنه لا يريد أن يستجيب لها". (الحرافيش ص 436).

لكن أثر الحشيش، من جهة، ثم فتنتها الظاهرة، وبحَّة صوتها، وحديثها المبتذل بلا فجاجة، عناصر اجتمعت معًا وداعبت أحاسيسه، فاستجاب لها. دخنت معه سيجارة، وثانية. وارتقت سماء النشوة فشرعت تحكي له عن عالمها، هي التي عشقت الحياة والملذات بجنون، وتنقلت من رجل إلى آخر، استجابة لنزعة حسية داعرة في أعماقها، وإرضاء لإحساسها العميق بذاتها وأنوثتها، وإرضاء، أيضًا، لغرورها الذي تغذيه بما تفيض به ألسنة العشاق المتيمين بها من غزل عفيف أو شهواني على السواء، والذين أبدوا جميعًا رغبتهم في الزواج منها رغم أنهم يعرفون أنها كانت امرأة هوى. تصاعدت نشوتها فحكت له عن عالم الحرافيش الذي أتيح لها أن تعرفه جيدًا؛ إذ إنها كانت عشيقة "جلال" ابن عبد ربه الناجي – أحد أحفاد عاشور الناجي – واستطاعت أن تحافظ على علاقتها به، بلا زواج، لفترة طويلة على عكس سيرة آل الناجي جميعًا، الذين عادة ما كانوا يتزوجون، وكثيرًا ما كان لفضائح زوجاتهم دور خطير في تقلب أمور الحارة وتاريخ الفتونة الذي امتلكه آل الناجي منذ ظهور عاشور الناجي وحتى آخر رجالهم.أسرَّت له بذلك وكأنها تمنحه سرًا كهنوتيًا مقدسًا. غاب عن الزمن، واستجاب لأناملها، تخلع عنه ثيابه، حتى تعريه، ثم خضع لأمرها الهامس بأن يخلع عنها ما ترتدي. دس نفسه في دفء جسدها. كانت حانية، ومتمرسة في الوقت نفسه. احتضنته بعطف، وشوق، كأنها تفهم ما يعاني. ضمته إليها فاستكان إلى حديقة الحواس التي أدخلته إياها ببراعة.

دفن رأسه بين نهديها اللدنين. همست له أن يبقى الأمر سرًا بينهما فهز رأسه موافقًا. امتثل لها، وهو يشعر أنها تحلق به إلى ملذات لم يعرفها قبلاً. داعبت بلسانها أجزاء من جسده؛ فانتفضت روحه بالشبق واعتلاها، وسرعان ما بدأ صوت شبقها يعلو تدريجيًا، بينما كان يعرف أن المخدر سيطيل من لذته، فراح ينوع إيقاعه ملتاثًا بصوت صراخها الذي هاله، فجأة، أنه يماثل صوت المرأة الشبقة الذي ظل يلاحقه على مدى سنوات، ذلك الصراخ الشبق المجنون الذي يمزج التعبير عن الألم بالتعبير عن اللذة، فجن بشهوته، ولم تكن زينات ترغب في شيء آخر، فمثلها لا يبحث سوى عن جنون اللذة.

4

كانت زينات تقضي الليل معه، وتتركه نائمًا طول النهار، وأحيانًا كان يتلقى زيارات خاطفة من بعض سكان القبو: ومنهم أحمد عاكف من "خان الخليلي"؛ الذي قضى معه وقتًا يتحدثان في شئون الدنيا والحياة، لكن كبرياء لم يشعر تجاهه بجاذبية، فقد بدا له متحفظا، وأقرب ما يكون للموظف التقليدي. ثم التقى "زينب دياب" بطلة الكرنك، التي امتهن زبانية التعذيب شرفها واغتصبوها بدم بارد. عندما رآها اجتذبته بحيويتها و"بوجهها الخمري الرائق وقسماتها النامية في حرية وعذوبة، وجسمها القوي الرشيق". (الكرنك، ص 78).

استعاد كبرياء ما يعرفه عنها: "أبوها بياع لحمة رأس وأمها في الأصل غسالة ثم صارت دلالة بعد كفاح طويل، ولها أخ سباك وأختان متزوجتان، ونشبت الأزمة المتوقعة وزينب في الثانوية العامة، إذ تقدم لطلب يدها تاجر دجاج يعتبر

في الحي الفقير من الأغنياء، كان في الأربعين، أرمل، أبا لثلاث إناث متزوجات، رحبت به الأم لينتشل بنتها من الربع والتعب الفارغ ويهيئ لها حياة سعيدة. وعندما رفضت زينب العرض غضبت الأم، ولفح غضبها إسماعيل وأسرته، ولم تمر الواقعة بسلام فقد أطلق التاجر لسانه فيما بين زينب وإسماعيل، ففجر بذلك عاصفة في الربع، ولكن إرادة زينب انتصرت. وكان للتجربة أثرها في سلوكها، فتحديا للاتهامات الباغية قررت أن تحافظ على نفسها. ولم تبال أن تتهم بالرجعية في نظر "البعض"، ولم تؤثر ثقافتها الواسعة في موقفها". (الكرنك ص 80).

عاملها كبرياء بتحفظ، لم يبادلها الحوار بنفس حماستها، إذ قيل إنها بعد أن خرجت من المعتقل تحولت إلى مخبرة سرية. خشي أن تكون بوجودها هنا تؤدي دورًا سريًا كعين من عيون مسئولي الكاميرات؛ الذين يرغبون في التجسس على ما يدور داخل القبو. أحس بالندم، لريبته منها، ولتوجسه غير المبرر، خاصة عندما لاحظ رقة حديثها، ونظرة الحزن المطلة من عينيها، لكن هواجسه كانت أقوى، لكنه، برغم ذلك، وقع أسيرًا لجاذبيتها. بريق عينيها وهي تتحدث. رقة ملامحها. اختلاج صوتها الرخيم وهي تتحدث. كان يسمعها وهي تحكي له جزءًا مما تعرضت له على أيدي زبانية التعذيب، وهو يردد: "ما أشبه الليلة بالبارحة". وبين آن وآخر، وعبر لمحات وتعبيرات كانت ترتسم على وجهها كان كثيرًا ما يتذكر نجوى. لماذا لم يفكر فيها من بين شخصيات محفوظ كنموذج لأنثى شبيهة لنجوى؟ ربما لأن زينب ارتبطت في وعيه بأنها مناضلة، ثورية، أو على الأقل: نموذج المغتصبة من قوى سلطة غاشمة عمياء. وسرعان ما عاد يفكر فيها بريبة. لعلها أدركت ذلك فلم تكرر الزيارة. لكنها

ذكرته بأنها اعترفت بذلك، وأقرت بخضوعها. قال لها كبرياء: "أنت اعترفت بذلك"؟ "يبدو أنك مثل غيرك لم تقرئي محفوظ جيدًا، أو لعلك شاهدت الفيلم المأخوذ عنها، وتصورت بتفاهة أنه يعوضك عن قراءتها! لقد انتهكوا عرضي في معتقلات عبد الناصر. تعرف طبعًا ما حدث. فهم رجال وأقوياء، ويعرفون كيف ينتهكون شرف السيدات، والرجال أحيانًا. ثم أفرجوا عنا بعد أسبوع من هذه الواقعة لأنهم اكتشفوا براءتنا، تخيل"؟ "نعم بإمكاني أن أتخيل، فما زالت الأمور كما هي، بل إنني أسمع أنهم أصبحوا أكثر توحشًا من ذي قبل". "خرجت من المعتقل وأنا أعتبر نفسي عاهرة، وأصبحت مخبرة سرية، لأنهم هددوني إذا لم أستجب لهم، وقد اعترفت في الرواية وقلت إنني أحتقر نفسي لأنني أصبحت جاسوسة وعاهرة".

اعتذر لها كبرياء وحكى لها عن بعض ما شاهده خلال فترة اعتقاله على ذمة اتهامه بقتل جده رفيق. قالت: "لا أعرف كيف يستمر الأمر على هذا النحو. فبدلاً من أن يقوموا بإصلاح الأمور، ليشعر الناس بالسعادة، وتتحلل المعارضة والمقاومة والسخط من تلقاء نفسها، وبدلاً من أن يوفروا الخبز فيتوقف اللصوص عن السرقة، فإنهم يمهدون أرضًا لا يمكن أن تؤهل سوى لوجود اللصوص والفقراء والجهلة، ثم يفتحون لهم الزنازين ويزدادون توحشا وقسوة، أين ذهب العقل"؟ امتد الحوار طويلاً من المعتقلات إلى الخبز والجوع والفقر والفساد، حتى اغرورقت عينا زينب، ثم سمعها كبرياء تجهش بالبكاء وهي تردد: "والله البلد دي ماتستاهلش كده أبدًا". ثم حل بينهما الصمت، إذ كان كبرياء قد

توتر، لكنه قاوم مشاعره وحافظ على جهامة وجهه، فالموت أحب إليه من أن يظهر مشاعره لأي أحد، وأيًا كان الموقف، واستمر على حالته حتى نهضت وغادرت الغرفة.

في اليوم التالي بادره كمال عبد الجواد بزيارة كانت من أطول الزيارات التي حظي بها، فقد تبادلا حوارًا ممتدًا عن الحياة، والفلسفة، والحب العذري، وعشق العاهرات، وتوقف كلاهما ليحكي عن إحساسه العميق بالتعاطف مع العاهرات.

قال كمال: "رغم أن ياسين كان له الدور الأكبر في تعريفي بعالم العاهرات، لكنني لم أحب ما يفعله معهن، أو الطريقة التي كان يتحدث بها عنهن"، وشاركه كبرياء الرأي ثم قال: "لم أتعاطف معهن من منطق أنهن بعن أجسادهن مضطرات، فأنا على يقين من أن الاضطرار ليس سوى أحد المبررات الواهية التي يبرر بها، أي شخص، رغباته، لا، أنا أتعاطف معهن لشجاعة القرار". أحس كبرياء بقرب كمال إلى قلبه. ثمة تقارب روحي وفكري نشأ بينهما في لحظة. لذلك انفكت معه عقدة لسانه، حكى له الكثير من تفاصيل حياته، باستثناء فكرة أنه كان لقيطًا. حكى له عن أمه، وعن جده رفيق فهمي، الذي وجد كمال فيه نموذجًا لرجل مدهش، ثم أردف ضاحكا: "ينتمي إلى نفس طينة السيد عبد الجواد، والدي". وأغرقا في الضحك. وحرص كبرياء أن يتجنب الخوض في موضوع علاقة كمال بعايدة، خشية أن يظهر له استخفافه بها. ولم يكن كمال ينتظر منه أن يعلق على شيء في الواقع. انتقل الحديث بينهما إلى دورات الحياة كما

اسمَّاها كمال، فخفق قلب كبرياء؛ إذ ظن أن كمال عبد الجواد يعرف أنه كان لقيطًا، فبدأ يستمع بحذر؛ لكنه سمع سؤالاً عن أمه فطابت نفسه. حكى عن علاقته الملتبسة بها، وعن رقتها، وقوتها في الوقت نفسه. أدرك، في أثناء حكيه أنها كانت نموذجًا مناقضًا للست أمينة أم كمال على طول الخط.

لكن الأمومة هي الأمومة مهما اختلفت التركيبات النفسية للأمهات وشخصياتهن، فقد أمسك كمال بخيط الحديث، وشرع في وصف علاقته بأمه، التي كان يعشقها بجنون، ثم إنه كان ينظر إلى سقف الغرفة عندما بدأ يتحدث وكأنها تقف أمامه: "الحب العجيب حقًا هو حبي لك، هو شهادة للدنيا ضد المتشائمين من خصومها، علمني أن الموت ليس أفظع ما نخاف، وأن الحياة ليست أبهج ما نبتغي، وأن من الحياة ما يغلظ ويفر حتى يلتمس الموت، ومنها ما يرق ويثري حتى يهفو إلى الخلود، ومناداتها لك ما أطربها، بصوت لا تدري كيف تصفه، لا رفيع النبرة ولا غليظها، مثل "فا" السلم الموسيقي المنبعثة من كمانٍ، رنينه في صفاء النور، ولونه لو تخيلت له لونا في زرقة السماء العميقة دافئ الإيمان، داعية إلى السماء". (بين القصرين، ص 172).

تحدث كبرياء عن إعجابه بالسيد أحمد عبد الجواد، فبرقت عينا كمال للحظات، وهو يهز رأسه مبتسمًا، لكنه وجم بعد ذلك، و لم يفطن كبرياء إلى أنه وإن بدا شاخصًا إليه، يهز رأسه بانتظام لكنه لم يكن يسمع شيئًا مما يقوله، فقد غاب في مونولوج داخلي: "أبي دعني أكاشفك بما في نفسي، لست ساخطا على ما تكشف لي من شخصك، فإن ما كنت أجهله منك أحب

إنّي مما كنت أعرف. إني معجب بلطفك وظرفك ومجونك وعربدتك ومغامراتك، ذلك الجانب الدمث منك الذي يعشقه جميع عارفيه، وهو إن دل على شيء فعلى حيويتك وهيامك بالحياة والناس، ولكني أسائلك لم ارتضيت أن تطالعنا بهذا القناع الفظ المخيف؟ لا تعتلّ بأصول التربية فأنت أجهل الناس بها، وآي ذلك ما ترى وما لا ترى من سلوك ياسين وسلوكي، فما فعلت إلا أن آذيتنا كثيرًا وعذبتنا كثيرًا بجهل لا يشفع لك فيه حسن نيتك. لا تجزع فإني ما زلت أحبك وأعجب بك وسأبقى على الدوام مخلصا لحبك والإعجاب بك، غير أن نفسي تضمر لك لوما شديدا يعادل ما جرعتني به من ألم. لم نعرفك صديقا كما عرفك الغرباء، ولكن عرفناك مستبدا شرسا طاغية". (قصر الشوق، ص 384).

لاحظ كبرياء شرود كمال فسأله عما يفكر به. نظر إليه كمال شاردًا، ثم وصف له باقتضاب ما كان يدور في خلده. تنهد كبرياء عميقًا، وأحس بالغضب. تذكر أباه، الذي جعل منه لقيطًا، ولم يسأل عنه يومًا، ولم يكترث بوجوده. على الأقل كان السيد أحمد عبد الجواد، رغم جهله، أبًا بشكل ما، بل إنه مارس أبوته كما أتاح له أفق فهمه وبيئته، أما أبي فقد تنصل حتى من أبسط مشاعر الأبوة، لم يشعر بأنني أتشوق لأن أعرفه. كانت إجابات أمي المقتضبة عنه تثير ضيقي، فلم تعطني إجابة يقينية واحدة عنه، كأنها كانت هي أيضًا تريد أن تنفي وجوده من حياتها وحياتي. لذلك مثلاً لم أستطع أن أتخيل ما كان يفعله في حياته . هل هو موظف في الحكومة، أم تاجر مخدرات؟ أم أنه بائع متجول، أم ربما يتولى منصبًا سياديًا حساسًا. ألم يفكر بأن ابنه ذاك سيتحرق، مدى عمره، للإجابة عن هذه

الأسئلة. ألم يحاول أن يراني مرة. صحيح أن أمي أخفت أمري عنه ولكن هل فقد الإحساس؟ ألم يساوره الشك".

استعاد كبرياء سيرة أباه كما حكاها له جده رفيق، فاحتشد بالكراهية، عاودته المرارة، وتذكر اسم الشهرة الذي عرف به أبوه: "جاك"، وردد لنفسه: "أي مسخرة هي التي تجعل شخصا يعرف بهذا الاسم"؟ لكنه لم يحك شيئًا مما دار في خلده لكمال، وتمنى أن يغير الموضوع على الفور.

هكذا أصبحت الحياة في القبو مقبولة بالنسبة لكبرياء، بل وعلى العكس، أصبح يرى فيها خبرة جديدة ، غير مسبوقة، ما كان له أن يجدها في أي مكان آخر. ثم إنه وجد في مقابلاته النهارية مع سكان القبو من شخصيات نجيب محفوظ، وخاصة كمال، ما يراكم لديه مادة ثرية للحكي في الليل وهو نائم في أحضان زينات. فقد كانت تحب الثرثرة، قبل أن تمارس الجنس، لا تكتفي بالحكي وإنما تسمع أيضًا، ثم تقود مسيرة الحوار باتجاه الخيالات الفاحشة لتبدأ مهرجان الإثارة والفحش الذي لم يعرف له كبرياء مثيلاً من قبل.........

5

مثلما جاءت زينات، وبددت فترات الوحدة الثقيلة التي عاشها كبرياء في غرفته، ذهبت ذات صباح و لم تعد. انتظرها كبرياء في موعدها المعتاد، بلا جدوى. ذرع الغرفة مجيئًا وذهابًا، ثم جلس على الفراش. تمدد محدقًا في السقف، لكنه، وعلى غير العادة، لم يتجاوزه محاولاً تخيل ما يفضي إليه وصولاً للسماء، كما كان يفعل عادة، بل دقق النظر في جدار السقف نفسه. لاحظ خطوطًا غريبة لم يستطع أن يراها بوضوح. إذ إن السقف كان عاليًا، بعيدًا، والإضاءة، بالكاد تكفي لكي يرى ظلال الأشياء. تناول المصباح الصغير من على الجدار، وحاول أن يرفع به يده إلى مداها. تأمل الخطوط من كل زوايا الغرفة وأدرك أنها كلمات مخطوطة بخط تركي قديم، لكنه لم يستطع أن يتأكد من طبيعة التكوين الذي تشكله الحروف، أو طبيعة الخط المستخدم. استدعت ذاكرته عشرات من الخطوط التي تزين

جدران ومآذن وقباب مساجد ومباني مصر المملوكية، ومنطقة القاهرة القديمة إجمالاً. فكر في إمكانية تشابه الخطوط المرسومة على سقف غرفته بخطوط مما يعرفه في تلك الأماكن العتيقة التي خلبت لبهّ لسنوات.

تذكر فجأة دفتر مذكرات جده التي خطها بيده. اندهش من أنه لم يتذكرها منذ جاء إلى القبو. قضى الليل مؤرقًا بالتفكير في مصير أعمال الخط التي أنجزها، وتركها كلها في بيته. استدعى الكثير من الكلمات التي خطها وآلية تشكيل كل منها. تذكر لوحة الطغراء بحرفي الكاف والسين التي خطها مستلهما جمال مهبل نجوى. كما استعاد خبرة العمل في ورشة ألمانيا، عبر رحلة سبقت اختفاءه بفترة وجيزة، والورقة التي قدمها عن الخط العربي في الأمسية الختامية التي أعقبت افتتاح المعرض. كان قد تحدث، في كلمة مقتضبة، تمت ترجمتها للألمانية، عن الخط العربي كفن يعتمد، جماليًا، على التناسب بين الخط والنقطة والدائرة، وكيف أنه يشترك مع الفنون الأخرى في عناصر تُستخدم في أدائه فنيًا، كالخط والكتلة، ليس بمعناها المتحرك ماديًا فحسب، إنما، بمعناها الجمالي أيضًا. المعنى الذي ينتج حركة ذاتية تجعل الخط يتهادى في رونق جماليٍ مستقلٍ عن مضامينه ومرتبط معها في آن واحد.

أشار إلى نمطيْه الأساسيين "المنحني الطياش" و"الهندسي"؛ اللذين ينفرد كل منهما بجماليات خاصة، مع الزخارف المرافقة لهما، موضحًا كيف يستطيع الفنان إبداع نوع من الإيقاع نتيجة التضاد بين الأجزاء والألوان، وما يحققه ذلك من إحساس بصري بالنعومة والخشونة والتكامل الفني الناتج عن التوزيع الإيقاعي، وبحيث تتحقق في النهاية الوحدة في العمل

الفني ككل. لم يستطع أن يتذكر نص ما قاله، لكنه كان يذكر الأفكار بشكل مجرد. حاول أن يتخيل ما يمكن أن يكون مخطوطًا على سقف الغرفة، ويستدعي مما يحفظه من أبيات الشعر ليرى إن كان من الممكن أن تحقق التشكيل الخطي الذي يتصور أنه يزخرف السقف. ثم برقت في ذهنه فكرة أنه يمكن أن يزجي وقته في هذا المكان بكتابة أسماء روايات نجيب محفوظ كلها على الجدار. أعجبته الفكرة، ليس لأنها ستمنحه فرصة تدريب جيد، أو لأنها ستشغل مساحة الوقت التي تواجهه يوميًا كأنها خصم عنيد، لكن أيضًا لأنها بدت له كخطوة أساسية ضد فكرة محو نجيب محفوظ وفقًا لما سارت عليه الأمور.

ظل كبرياء يحدق بالسقف، وقرر أن يطلب من حراس القبو من الحرافيش أدوات الخط الخاصة به، والأحبار. كان يفكر في الكيفية التي سينفذ بها فكرته: أين سيكتب العناوين، وبأي خط؟ كيف سيرتبها؟ وبأي لون سيخط كل عنوان منها. وما الزخارف التي يمكن أن يزين كل عنوان منها بها.

غلبه النوم فاستسلم. رأى جده رفيق فهمي واقفًا على باب غرفته، لا يرى منه سوى ظله، لأن الضوء كان قويًا خلفه. سمع نداء جده ينادي عليه. نهض كبرياء، واتجه إليه. لم يستطع أن يرى ملامحه جيدًا، مع ذلك شعر من هذه الملامح الضبابية أن جده ليس سعيدًا. أمسك بيده وانطلقا. وجد نفسه في مساحة خضراء شاسعة تتوزع فيها شواهد القبور. وسرعان ما لمح طفلة صغيرة تشبه رجاء؛ الطفلة التي كان يتبناها معنويًا في الملجأ،

اتجه إليها فركضت أمامه بمرح، وفجأة رآها تعلو على الأرض بارتفاع إبهام أو اثنين، لكن ذلك كان كافيًا لكي تتحرك بسرعة غريبة، كأنها تطير على المساحة المنبسطة الخضراء كمرج أخضر لا نهائي. أحس بالفزع. راوده شعور بأنها ستتحول إلى كائن آخر بين لحظة وأخرى. وصدق حدسه. فعندما توقفت على مسافة بعيدة منه، التفتت إليه، وهي ترسم ابتسامتها الآسرة، وسرعان ما تحولت إلى هيئة ذئب صغير. توقف كبرياء عن الركض مفزوعًا، ونظر خلفه فلم يجد جده رفيق. أدرك، بينما وعيه الناعس يصارع لا وعيه المستأسد، في تلك اللحظة، أنه يحلم. استدعى وعيه لكي يفيق. فتح عينيه، فأيقن أنه كان يحلم، فارتاحت روحه. كان جسده متعرقًا، وما زالت مشاعر الخوف التي شعر بها في الحلم ماثلة في ذهنه بقوة. نهض من فراشه، وانتقل إلى الباب. حاول أن يفتحه فلم يفلح. طرق عليه عدة مرات، لكن أحدًا لم يرد. توجه إلى باب الحمام الصغير الموجود في الغرفة، وفتحه. كان الحمام مظلما، فأعاد إغلاق الباب. دخن سيجارة حتى استعاد هدوءه تدريجيًا. استدعى ذكريات الليالي التي قضتها معه زينات في فراشه. أدرك أنه كان يعيش في حالة من النشوة ، وساعات حميمة لم يكن يعرف قيمتها الحقيقية.

6

تلقى كبرياء دعوة من السيد أحمد عبد الجواد لكي يلتقيه فخفق قلبه. استبشر بالدعوة، لكنه توجس أن يكون على شفا خطوة من المغامرة التي يترقبها منذ وصوله إلى هذا القبو، لكن الغموض المحيط بها، هو الذي أثار خوفه وتوتره. كان الفناء الذي انتظره فيه السيد أحمد عبد الجواد أشبه ما يكون بـ"باثيو" مضاء بضوء طبيعي قوي، لكن مصدر الإضاءة غير معروف. الأرض مبلطة بالحجارة العتيقة، تتوسطها نافورة صغيرة جدًا، لا ينقطع فيها خرير المياه.

جلسا على مقعدين جانبيين أحضرهما لهما أحد الحرافيش، وتبعهما بكوبي شاي. سأل كبرياء: "كيف تسير الأمور في الخارج؟ هل حان وقت خروجي من هنا"؟ "لا ليس بعد، الأحوال لا تزال مضطربة، نحن نتابع الأمور بشكل جيد، ولكن اطمئن ففي كل الأحوال من المتوقع أن

يحدث ذلك قريبا". "بدأت أشعر بالملل، وأريد...". " أعرف وقد رتبنا كل شيء، سيحضرون لك أدوات الخط اليوم، وافقنا على أن يعود أهل القبو لحياتهم الطبيعية، وبالتالي، أصبح بإمكانك أن تلتقي من تشاء وقتما تشاء، المشكلة أن الفترة الماضية كانت فترة خطيرة، و لم تكن وحدك الذي التزم غرفته، فقد كان هذا شأننا جميعًا". "عظيم، ولكن ماذا بعد خروجي من هنا"؟ نظر إليه السيد أحمد عبد الجواد نظرة متفحصة، ثم قال: "لا تنزعج، ولا تكن عجولا أيضًا، هناك بالطبع دور كبير، أو مهمة سيكون لك دور كبير فيها. فالجبلاوي منذ ضاعت كتب "الكبير" التي أوجدتنا جميعًا، وهو مهموم بكيفية استعادتها، وقد توصل فعلاً إلى عدد من الخيوط، لكن هناك شخصًا أساسيًا، كان من المفترض أن يأتي إلى القبو قبل فترة، لأنه سيوكل إليه مهمة اصطحابك، لكنه لم يحضر بعد". "هل هو واحد من الحرافيش"؟ "ستعرف ذلك في حينه فلا تتعجل".

حل الصمت بينهما لوهلة، و لم يقطعه سوى صوت خرير المياه في النافورة، وصوت رشفات أحمد عبد الجواد المتتابعة لكوب الشاي. أخيرًا قطع الصمت صوت عبد الجواد: "هناك شيء أريدك أن تعرفه". "ماذا حدث"؟ "تم التعرف على شخص القاتل الذي قتل جدك". "معقولة؟ متى حدث ذلك؟ ومن هو هذا الحقير"؟ "اهدأ، اهدأ، فهو شخص خارج التوقعات، والحقيقة أنه لولا الاضطرابات التي تمور بها الحارة في الخارج لربما ظل ذلك سرًا". "كيف"؟ حكى السيد أحمد عبد الجواد، نقلا عن عاشور الناجي الذي كان حلقة الوصل الأساسية بين القبو والحارة، التفاصيل التي وصلت إليها جهات التحقيق.

لكن طالما عرف السر، دعوني أنا أحكيها لكم، ليس بالطريقة البوليسية التي توصلت بها الشرطة إليها، قبل يومين فقط من انتشار وباء العمى، وإنما كما حدثت في حينها.

لم يكن من المعتاد مشاهدة الكثير من الشباب في دار المسنين، بحكم ظروف المكان. لذلك كان ظهور كبرياء، بين آن وآخر، هو حدث استثنائي. لكنه، بمرور الوقت أصبح وجوده أليفًا، لأنه اعتاد زيارة الدار منذ كانت أمه نزيلة بالدار، وبعد وفاتها ارتبط به العديد من نزلاء المكان حبا ووفاء لأمه التي كانت تمثل حالة استثنائية في الدار، إذ كانت تربطها علاقة طيبة بالجميع.

لكن كبرياء لم يكن الاستثناء الوحيد، فقد ظهر أيضًا شاب يدعى ضياء، لكنه كان يظهر ويختفي دون أن يعرف أحد من أين يأتي، وأين يذهب خلال فترة وجوده في الدار، لهذا لم يلتفت إليه أحد باستثناء الحارس الذي كان يعرف أنه سيتأخر إلى ما بعد مواعيد إغلاق الدار أمام الضيوف والزوار. على مدى الفترة التي قلت خلالها زيارات كبرياء لدار المسنين، بسبب انغماسه في مأساة نجوى منذ حملها، ووفاة أمها، بدأ ضياء يتردد على المكان، وقل ظهور فاتن، المتصابية، في جلسات السمر المسائية التي كانت تجمعها بالمسنات من زميلاتها.

بعد إحساسها المفرط بالوحدة واحتياجها للونس، في مرحلة من حياتها أحست فيها بأنها أخيرًا عافت الرجال، و لم تعد ترغب فيهم كما كأن شأنها قبل ذلك، قررت أن تبحث عن دار مسنين، بحيث تجد من

يوفر لها الخدمة والطعام، وبحيث تجد فيها مجتمعًا يخلصها من الشعور المؤلم بالوحدة. استعادت الحياة التي كانت افتقدتها، فعادت إلى سيرتها القديمة. مرت بعلاقة خاطفة مع زائر من زوار المكان، ثم توددت إلى رفيق الذي كان بدوره شخصًا شهوانيًا، حكى لها عن مغامراته، لكنه كان قد أصبح كهلا معتلا أنهكه المرض، فأدركت أنه ليس الرجل الذي تريد، وإن كانت تستمتع بصحبته . أخيرًا أغوت الشاب الثلاثيني الذي يصغرها بنحو عشرين عامًا، والذي أدمن زيارة الدار لأجلها. وجدت في تلك العلاقة ما لم تجده في أية علاقة أخرى على امتداد علاقاتها، واستطاع الفتى أن يؤجج شهوتها التي كانت ساورتها بها الشكوك، إذ كانت قبل ظهوره مباشرة تقنع نفسها بأنها عاشت كما تشتهي وزيادة، وأنها تعاقَب على نزواتها بسنوات الوحدة التي تقضيها في الدار، وبأمراض الشيخوخة التي بدأت تزحف بتمهل لتغزوها تدريجيًا. وكادت تنقاد لائتلاف المتدينات الذي تتزعمه "الست راشدة"؛ أكبر نزيلات الدار سنًا، والتي كانت تلتف حولها مجموعة النزيلات يوميًا ليسمعن منها درسًا في الدين والعبادات.

فقد مثّلت فاتن، مع "عالية"؛ الهادئة الفاتنة الصموت، هدفين رئيسيين لدعوة "الست راشدة" يوميًا، لكي تنضما إلى مجلسها، داعية إياهما للهداية. وكادت فاتن، بالفعل، أن تنضم لهن يأسًا، لولا ظهور ضياء المباغت في حياتها، فانقلبت عليهن، بل وأحست تجاههن بنوع من الكره الدفين فجأة، إذ كانت تردد لنفسها : "هؤلاء الميتات يرغبن في دفني معهن في قبر الملل، وترقب الموت يوميًا". وتماسكت وهي تدعم موقفها نفسيًا

متخذة من عالية مثلاً، فقد كانت تتلقى دعوة راشدة والسيدات الأخريات بابتسامة مهذبة، ولكنها لا ترد بشيء، وتتركهن لتجلس في ركنها المعتاد بقاعة الجلوس الخارجية، لتشرب قهوتها، أو تعود إلى غرفتها.

لكنها كادت أن تفقد صوابها عندما انقطع ضياء عن الحضور إليها فجأة. انتظرته بلا جدوى. حاولت أن تتصل به، فلم يرد على الهاتف. ذهبت إلى حيث تعرف أنه يعيش، وسألت بواب العمارة عنه، فابتسم لها موضحا أنه لا أحد من سكان البناية يحمل هذا الاسم. عادت للانتظار وهي تقاتل مرارتها وغضبها. مرت بحالات عصبية مرة، واختلقت عددًا من المشكلات مع السيدات من زميلاتها؛ بل إنها سبت راشدة ذات مرة، ما أثار غضبًا عنيفًا ضدها من الجميع، واضطر المشرف على الدار أن يتدخل بنفسه، بل وأن يقدم لها تحذيرًا مهذبًا باحتمال اضطراره لأن يطلب منها إخلاء الغرفة لو لم تعتذر فورًا للسيدة راشدة. في هذه الأثناء، وبينما كانت قضية أزمة السيدة راشدة مع فاتن تشغل الجميع، تدور حولها أحاديث جانبية، وتثور لأجلها النمائم، وتهديدات الوعيد، ارتفع صراخ مفاجئ، وثارت بعده ضجة شديدة، كأنها عاصفة هوجاء داهمت الدار بمن فيها، وعندما انقشعت تبين أن الأستاذ رفيق فهمي قد وجد في غرفته ميتًا. ثم علا الصراخ وكادت العاصفة أن تهب مرة أخرى، لتعصف بالمكان، صياحًا وبكاء، وصراخًا، واستنكارًا، بنفس القوة، حينما أكد جرجس أنه لم يمت موتة طبيعية، وإنما وجد مقتولاً.

عندما وصل السيد أحمد عبد الجواد إلى هذه النقطة من حديثه لكبرياء عن وقائع قتل جده، سمعا معًا صوت الجبلاوي مهيبًا، يشق الصمت ينادي على السيد أحمد، فاضطر الأخير للاعتذار من كبرياء، لكي يعرف ما يريده منه الجبلاوي واعدًا كبرياء بالعودة السريعة.

7

انتظر كبرياء عودة السيد أحمد عبد الجواد بفارغ الصبر، مترقبًا أن يعرف بقية حكاية مقتل جده. لكن، عند انتصاف النهار، حضر أحد الحرافيش ليبلغه أن السيد أحمد عبد الجواد خرج من القبو في صحبة عاشور الناجي ومجموعة من سكان القبو ولن يعود قبل منتصف الليل، فعاد إلى غرفته، وهو مندهش مما سمعه. هل يمكن حقًا أن تكون فاتن هي التي دبرت قتل جده؟ ولماذا؟ ما الذي ستستفيده من ذلك؟ كيف مر الأمر على المحققين الذين لم ينتبهوا إلى وجود المدعو ضياء؟ من المؤكد أنها لم تذكر شيئًا عنه لأحد، وبالتالي خططت لقتله عن طريق ضياء، بحيث لا يشتبه بها أحد.

ولكن ما المقابل؟ هل كانت تعرف أنه يخبئ جزءًا من ماله في غرفته ووعدت ضياء بالمال؟ ماذا ستفعل هي بالمال وهي تعيش في دار المسنين

وحياتها بالعالم شبه مقطوعة؟ ربما أنها قررت أن تمتلك المال لكي تترك الدار وتجد لها مسكنًا تعيش فيه. ربما، فقد كانت صحتها جيدة مقارنة بالكثيرين من سكان المكان.

في الغرفة وجد أدواته كلها موضوعة في ركن قصي بجوار الجدار، الأوراق، والأقلام بأسنان مختلفة، والأحبار والألوان كاملة. انتشى، وبدأ العمل فورًا. بدأ بالأحبار ليعدها في أطباق صغيرة وجدها بجوار أدواته، وشرع يدرب يده على الورق بأسماء روايات نجيب محفوظ، يتأملها في خط بعينه، ثم يعيد كتابتها بخط آخر. "بين القصرين" بالثلث، ثم بالكوفي. "الشيطان يعظ" بالثلث. "بداية ونهاية" بالرقعة، ثم اكتشف تماثل الكلمتين ككتلتين خطيتين ففكر في تصميم بخط الثلث بتشكيل الطغراء. قرر أن يدون كل أسماء روايات محفوظ تباعًا، ثم يختار لكل منها الخط الذي يناسبه. فكر للحظة أن اختيار نوع واحد من الخط سيكون أكثر اتساقا، وسيعطي للمكان جوًا واحدًا، لكنه لم يكن متأكدًا من مدى جمالية الفكرة، إذ كانت تحتاج للاختبار في الواقع أولاً. فكر أن يكون نوع الخط له علاقة بموضوع الرواية. اقترح مثلا أن رواية "حضرة المحترم" التي تتناول طبقة الموظفين يناسبها خط رسمي من الذي كان مستخدمًا في الدواوين العثمانية، وهو الخط الديواني. فكر أيضًا أن رواية "الحرافيش" التي تعتبر رواية فلسفية، وبها نصوص كاملة مقتطفة من أشعار الشيرازي تركها محفوظ، كما هي، بلا ترجمة؛ يناسبها الخط الفارسي، وهكذا، غاب عن كل شيء مستغرقًا في عالمه الذي أنقذه من ملل قاتل، ومن أسئلة جديدة عن مقتل جده كادت أن تصيبه بالجنون.

في صباح اليوم التالي، كان نائمًا عندما سمع طرقًا على الباب. سأل عمن يقف ببابه، أتاه صوت كمال عبد الجواد فهب ناهضًا، وفتح الباب. كان يرتدي بنطلونه فقط. اعتذر كمال أنه تسبب في إيقاظه، فنفي كبرياء ذلك، مؤكدًا له أنه استيقظ في الوقت المناسب. "سهرت طوال الليل أدرب نفسي على الخط". ابتسم كمال وهو يتأمل الأوراق المصفوفة بجوار الجدار وهتف: "رائع"، ثم قال: "على أية حال، استعد نشاطك، وعندما تكون مستعدًا ستجدني في انتظارك حيث التقاك أبي أمس".

دار بينهما حديث طويل عن أحوال القبو والحارة. كان كبرياء يشعر بأن هناك أحداثًا غير طبيعية تجري في المكان وأنه وحده الذي لا يعرفها. نظر إليه كمال كأنه يفكر فيما سيقوله، أو كأنه يعرف شيئًا لكنه يتردد في أن يبلغه به. ثم قال: "سأخبرك بشيء، ولكن أرجوك ألا تخبر أحدًا. إذا عرفوا أنني أخبرتك بشيء فسوف يطردونني من القبو". "ثق بي تماما". "لا أخفي عليك أن الأمور في الحارة وصلت حدًا مقلقًا، الوباء الذي أصاب أهل الحارة فتك بكثيرين، ومن نجا منهم يعيش أعمى، فاقدًا لحاسة البصر، ويقال إن الوباء لم يترك أحدًا سوى المراقبين في الغرف السرية المصحوبة بالكاميرات". "معقولة"؟ "هذا ما يقال، لذلك خرج صباح اليوم وفد من القبو للتحقق منه، خرجوا جميعًا واندسوا بين الناس كأنهم عميان وبينهم والدي، لكي يتبينوا الحقيقة. لكن السبب الذي دفعهم هو أمر خطير حدث أمس". "ماذا حدث"؟ "يوجد هنا شخص في القبو ظهر فجأة يقول إن اسمه "سرحان"، وإنه أحد الشخصيات التي ابتكرها الكبير، ولكننا نسيناه". "وكيف نسيتموه"؟ ابتسم كمال ساخرًا "هل صدقت

هذه الأكاذيب؟ نحن لم ننس أحدًا، فالشخص الوحيد الذي يحمل هذا الاسم هو سرحان البحيري، من ميرامار، وهذا موجود في مكان معلوم مع بقية الشخصيات التي لم تظهر هنا بالقبو، ولا يعلم بمكانهم سوى الجبلاوي الذي يخطط لهذه المسألة بالكامل". "إذن"؟ "ألم تفهم بعد؟ هذا شخص مدسوس على القبو، وهذا يعني أن إدارة المراقبة التي تريد أن ترى كل شيء في الحارة، وفي البلد كلها قد عرفت طريق القبو، وأرسلت هذا المدعي ليراقب ما يحدث هنا، أو لكي يزرع كاميرات خفية في أماكن سرية في القبو". "وأين هو الآن"؟ "في صحبة عدد من الحرافيش بقيادة "درويش"؛ الأخ غير الشقيق لعاشور الناجي، لكي يحدوا من حركته في القبو حتى نتبين الحقيقة".

حل الصمت لوهلة فقال كمال: "المهم، ألا تنسى أن هذه الأشياء سرية للغاية، ولا ينبغي أن تظهر معرفتك بشيء منها أيا كانت الظروف، وحتى يحكيها لك والدي أو عاشور الناجي". "لا تقلق". "على أية حال لم أطلب لقاءك اليوم لشيء من هذا، وإنما لأنني مكلف من أبي بأن أكمل لك قصة مقتل جدك التي أسر لي بها، وأوصاني أن أطلعك عليها اليوم، لأنه يخشى أن تتطور الأمور وتضطر للتحرك في المهمة التي سيوكلونك بها، وهو يرى أن معرفتك بهذه الحقيقة أمانة في عنقه".

الجزء المحوري للقصة والذي يعرفه كبرياء بطبيعة الحال؛ أنه بعد اكتشاف مقتل رفيق فهمي وانتقال الشرطة للمكان، تعرض الجميع للتحقيق، وانتهى الأمر بتحديد ثلاثة أشخاص ضاقت حولهم الدائرة، وكان كبرياء واحدًا منهم، بالإضافة إلى جرجس، وشخصية ثالثة من

خارج الدار أيضًا وهي "فيفي" زوجة حسين ابن رفيق فهمي وأبو كبرياء، لكن تم الإفراج عن ثلاثتهم، بعد أن ثبت عدم وجود أدلة قاصعة على التهمة الموجهة لكل منهم. لم يعرف كبرياء اسمها إلا في تلك الفترة، فقد كان رفيق حريصًا على ألا يذكر اسمها أبدًا لكبرياء. أما الذي لم يعرفه أن انتفاء التهمة عنهم، وتبرئتهم جميعًا من التهم التي وجهت إليهم، لم يمنع عملية مراقبتهم، لشهور، وحتى ظهور "فيفي" بصحبة ضياء في إحدى المرات، ثم تعددت اللقاءات، إذ مر يومًا بمنزلها، وكان ذلك هو طرف الخيط الذي قاد إلى حل اللغز. وبإحكام المراقبة، لم يمض وقت طويل بعد زيارة ضياء لها حتى شوهدت ذاهبة إلى منطقة الهرم لتلتقي به سرا في إحدى الشقق التي استأجرها للقائها. وانتهى الأمر بإعادة ملف التحقيق مرة أخرى لتصل الشرطة أخيرًا لحل اللغز، بل وكشف لغز آخر كان قد حير المحققين لفترة.

حين أوقعت الشرطة بضياء تبينت الأمور تباعًا. كشف ضياء بعد مماطلات، ومراوغات، وليال قضاها محبوسًا على ذمة القضية، ثم بعد تهديد بالتعذيب، سرعان ما نفذه زبانية التعذيب، انهار معترفًا بأنه هو الذي قام بقتل رفيق فهمي، لكن ليس بدافع من فاتن، فهي لم تكن تعرف شيئًا عن الأمر، إنما باتفاق مع زوجة الابن، "فيفي"؛ التي عقدت مع ضياء صفقة مقتضاها أن يقوم بقتل رفيق لكي ترث الأموال التي تصورت أن رفيق يحتجزها حتى لا يعطيها لها، مقابل أن تقوم هي بتخليص ضياء من امرأة كانت تتابعه بإلحاح، وتدعي أنها أنجبت منه طفلا. ومن باب الفضول سأل كبرياء كمال عن الظروف التي جمعت بين فيفي، والمدعو

ضياء فقال: "عندما تعرفت فيفي إلى ضياء، حدث ذلك بمصادفة بحتة في أحد المراقص مع عدد من صديقاتها. وفتن بجمالها، فتودد إليها، وتكررت لقاءاتهما، ثم بدأت بينهما علاقة غرامية، وتلاقت رغبة كل منهما في التخلص من هاتين الشخصيتين التي تقف كل منهما عقبة أمام طموحاتهما. فيفي، من جهتها، كانت تطمع في ثروة حميها، حتى تستطيع أن تسدد ديونها التي لا تنتهي، وضياء يريد أن يتخلص من إحدى السيدات اللائي تورط معهن، وباتت تهدد مستقبله، فعقدا صفقة يقوم بمقتضاها كل منهما بالتخلص من الطرف الذي يرغب الآخر في التخلص منه، فلا تحوم الشكوك حول أي منهما".

بدا ما يقوله كمال عبد الجواد أقرب لحكاية من فيلم بوليسي أمريكي. ثم المفارقة أن جده قد قتل على يد زوجه أبيه. شعر بالغبن، والغضب. نادت روحه روح جده بألم، لكنه لم ينطق بحرف. حتى إنه حاول إخفاء حزنه بابتسامة مستخفة، لكنها لم تنجح سوى أن تؤكد آلامه أمام كمال الذي ساوره الشعور بالندم لأنه تسبب لكبرياء في هذه التعاسة التي كانت جلية على ملامح وجهه، لا يمكن لمثل تلك الابتسامة الغامضة أن تزيح ولو قدر طفيف منها.

8

كان كبرياء يشعر بغضب حقيقي. لم يكن سببه تلك الحقائق التي عرفها في تلك اللحظة، ولكن بسبب تراكم شعور مرير بالمهانة جعله يستعيد كل هواجس الرعب الذي يسمع أن المدينة تعيشه. تذكر فاطيما، وهديل، وتساءل عن مصيرهما. أمسك بأقلامه لكنه لم يخط شيئًا، كانت يده مدفوعة، بغضب، للرسم وليس للخط، ربما لأول مرة. رسم وجوها عديدة لأبيه، كما تخيله في تلك اللحظة، ولأمه، ولقتلة جده. ثم عاد وألقى عليها بالألوان مشوهًا إياها حتى طمست معالمها، بينما راوده شعور بأنه أصبح أقدر على معايشة الغضب العميق في داخله، فتمدد في فراشه، متمنيًا أن يبدأ الرحلة التي سيكلفه بها الحرافيش، للبحث عن كتب "الكبير"، وعاد ليفكر في عناوين أعماله حتى هدأت نفسه تدريجيًا. التفت إلى قدرات فنية كان قد نسيها مع تراكم خبرته في الخط العربي

والزخرفة. استعاد تجربته في الورشة الفنية التي التحق بها في ألمانيا، وتذكر تعليقًا لجارته الفنانة الألمانية جوليا: "أشعر كأنك ترسم تشكيلاً، وتجاوره بالمعنى العميق تجريدًا بالخطوط". كان ذلك تعليقها على اللوحة الأولى التي نفذها في الورشة، لكنها كانت بمثابة الفكرة الملهمة للوحات الست التي أنجزها لاحقًا.

في تلك الليلة فكر في أن يقوم برسم عناصر لوحة كاملة حاول فيها أن يستدعي صورة نجوى عارية تتمدد على فراشهما في واحدة من استعراضاتها الاستعرائية. حين كانت تنام على جنبها الأيمن تعرض له ظهرها المصقول الناعم المخملي، بلونه الخمري الفاتن. استغرق ليلتين في استدعاء تفاصيل الظهر والأرداف مع انسياب الوركين بعد منطقة الردف مباشرة ثم تحولهما إلى تشكيل الفخذين البديعين. في اليوم التالي رسم شعر رأسها متهدلاً على ظهرها. صنع خليطًا من اللون الأصفر، ومثبت اللون، ووضع محتوى بيضة إلى المزيج، وهي الطريقة التي كان تعلمها من صديقه وأستاذه الفنان الراحل حامد العويضي، وكان خطاطًا ومصمم أغلفة، عمل بالصحافة لفترة طويلة، لكي يعطي للورق مظهرًا عتيقًا ويحافظ على الورق ضد الزمن في الوقت نفسه. وظل يخفق هذه المكونات معًا حتى أصبح قوامها متناسجًا. غطى الورقة التي سيرسم اللوحة عليها بطبقة من هذا المزيج، وتركها عدة ساعات، حتى بدا اللون لونًا أصيلاً وليس مصنوعًا. ثم بدأ في نقل صورة نجوى على الورقة. في مرحلة لاحقة ظلل الورقة المرسوم عليها صورة نجوى بطبقة أخرى من لون قام بمزجه بين درجات البني والأبيض حتى اتخذ الدرجة المطلوبة من اللون الأصفر. خلع ثيابه

وجلس بشورت قصير، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. ينظر إلى صورة نجوى التي رسمها، ويقاوم البكاء. يفكر في الخطوط التي سيخطها على الرسم والطريقة التي تمكنه من جعل الخطوط جزءًا من التشكيل في اللوحة وليست مجرد عنصرًا زخرفيًا منفصلاً عن الرسم. لكنه فكر أن الرسم الذي وضعه كان المقصود به أن يكون خلفية فقط للخط. أراد أن يجعل من الورق الأصفر العتيق وصورة نجوى العارية المرسومة عليه مجرد خلفية لعناصر تشكيلية من الخط. اختار للخطوط ألوانًا بدرجات طفيفة من البرتقالي والبني الفاتح. لكنه لم يستطع أن يقرر نوع الخط الذي سيستخدمه بسهولة. ولكي يقاوم حالة التوتر التي انتابته بسبب استدعاء صورة نجوى بكل ذلك الثقل شرع يجرب، على ورق غير معالج، ألوانا من الخطوط، لكي يقرر ما يناسب فكرته. فكر، في الأثناء، فيما يمكن أن يختاره من الحروف. فكر في تكرار كلمة عشق في تشكيلات خطية وهندسية مختلفة. لكنه شعر بأنها فكرة خفيفة لا يمكن أن يقدم بها نفسه في مشروع فني كهذا.

لذلك عاد وفكر في استخدام جملة حوارية من أحد أعمال محفوظ، أو مقولة من مقولاته أو عنوان من عناوين أعماله الأدبية. استراح للفكرة فقرر أن يركز أولا في نوع الخط الذي يناسب عمله. استغرقه التفكير في انطباع الشخص الغربي في الإحساس بجمال هذه الحروف التي لا يفهم معناها. بحث في دفاتر يومياته حتى وجد الدفتر الذي يدون فيه أفكاره عن الفن. عاد إلى موضوع كان قد نقل جزءًا منه في ذلك الدفتر: "الخط العربي يُعتَبَر فنـاً تعبيريًا حيث يفرغ الخطّاط فيه عبقريته و شخصيته و خياله؛ فيعطي

به تكوينًا رائعًا يجد فيه القارئ من المعنى الممتزج بالشكل الدال عليه، هذا بالإضافة إلى أن العرب قد أعطوا كل حرف مدلولاً جميلاً خاصًا به؛ فحرف الميم مثلاً تعبير عن الضيق، والسين هي الأسنان الجميلة، والراء صورة الهلال، والعين وحاجبها كعين الإنسان؛ فهذا يوضح أن الحروف العربية نشأت من إحساس صادق بطبيعة الأشياء، وليست رموزًا شكليةً منفصلةً عن مفاهيمها. الخط العربيُّ صورة تتضمن صوتًا ومعنًى وشكلاً مرئيًّا؛ فيستطيع الخطاط تحويل الكتلة الخطية إلى شكل زخرفي هندسي (دائري-وبيضاوي-ومربع-ومستطيل-وشكل طائر... إلخ) وكذلك يستطيع استخدام الحروف سواء منفصلة أو متصلة كأساس أو موضوع للوحة فنية لها شكل زخرفي".

في تلك اللحظة استعاد كبرياء أفكاره عن العلاقة بين الخط العربي والحروف الهيروغليفية التي ابتكرها المصريون القدماء. كان يجد في الفكرة السابقة دليلاً على وجود علاقة ما بين نوعي الخطوط. صحيح أن الهيروغليفية اعتمدت على رموز تبدو كل منها كصورة أو أيقونة صغيرة مستوحاة من عناصر الطبيعة لكل منها مدلولها ونطقها الخاص، ولا يمكن وصلها ببعضها البعض كما هو شأن الحروف العربية، لكنه كان على قناعة بأنه يمكن إيجاد علاقة بين الحروف العربية التي أخذت من عناصر من الطبيعة مثل الراء التي تشبه الهلال، أو السين، ومحاولة عمل علاقة مع حروف من الهيروغليفية.أعجبته الفكرة، فقرر أن يجربها في لوحة لاحقة بعيدة عن لوحة نجوى، حتى لا يُحَمّلها بتفاصيل تزيد على حاجة اللوحة، خصوصًا أنه أراد أن يضيف إليها عناصر من تراث الزخارف العربية. اختار للوحته الخط الأندلسي، ولم يكن بارعًا فيه، شأنه

في الثلث، لكنه قرر أن يخفي ضعفه بمحاولة تغيير طفيفة تضفي نوعًا من الانسيابية إلى الخط الأندلسي مستوحيًا ذلك من الانسيابية المتناهية التي تعلمها من فرط إتقانه لتشكيل الطغراء. ونام من شدة الإرهاق وهو يفكر في بيت الشعر، أو الجملة المناسبة التي سيخطها في اللوحة. استقر بعد معاناة على جملة من رواية "أفراح القبة" جاءت على لسان طارق رمضان الذي كان يصف موت الفتاة التي يحبها "تحية"، بعد أن كان فقدها على يد طالب صغير خطفها منه، إذ شغفت به بدلاً من طارق. وكانت الجملة هي: "عندما رأيت النعش يتهادى من مدخل العمارة، اجتاح جوفي فراغ مخيف، تمادى حتى لفظني في العدم".

كانت الجملة طويلة، وأحس كبرياء بغصة سببها إحساس لحظي بأن الجملة التي اختارها لا تناسب الخط الأندلسي. وقرر أن يعود للثلث. لكن حسًا بالتحدي، والشعور بضرورة عدم الاستسهال أو الاستجابة لقلة الحيلة سيطر عليه، وهزه من الأعماق، فقرر أن يمرن نفسه على الجملة بكل الإمكانات والاحتمالات الممكن خلقها من ذلك الخط، وكانت النتيجة جلية في عيون فتاة من الفنانات الألمانيات المشاركات. عندما استدعاها إلى غرفته لتكون أول من يراها. أفلتت منها صيحة إعجاب، تحركت عضلات وجهها حركة لا إرادية في هيئة اختلاجات عبرت عن انفعالها الشديد، رغم أنها لم تكن تفهم معنى الحروف العربية أمامها، فأسرع كبرياء إلى الحمام بسرعة وأغلق خلفه الباب وانهار باكيًا، للمرة الأولى منذ وفاة نجوى.

9

استعاد كبرياء خبراته، فشحذ ذلك همّتَه. بدأ يخطط لكيفية تحويل جدران غرفته إلى متحف فني كامل عنوانه "نجيب محفوظ"، لكنه في القلب سيكون متحفًا للمشاعر الإنسانية، والأفكار الفلسفية، وأسئلة الحياة والوجود. قسَّم الجدران لمساحات محددة بحيث تكون كل مساحة منها عبارة عن لوحة فنية كاملة. وتراوحت المساحات بين مربعات صغيرة لا تتجاوز مربع أطوالها مترًا واحدًا، وأخرى قد تمتد إلى الأمتار العشرة التي يمثلها طول الغرفة. نظر للسقف، واكتشف أنه لا بد أن يصعد ليعرف طبيعة الخطوط المرسومة عليه بحيث يقوم بتجديدها، أو إجراء نوع من الترميم عليها، ولكي يستطيع أن يوائم بين سماتها الفنية العامة، وبين ما ينتوي أن يقوم برسمه. كانوا قد أحضروا إليه، مع أدواته، السلم الذي طلبه، فوضعه في منتصف الغرفة، وصعد على الدرج، واكتشف أن السقف شاهق بدرجة

لم يكن يتخيلها. استمر في الصعود، خطوة بعد أخرى، وهو يعد خطواته التي بلغت أكثر من ثلاثمائة درجة، واندهش من ذلك العلو الشاهق؛ لأن السلم عندما أمسك به وثبته لكي يرتقيه لم يبد عاليًا لتلك الدرجة. عندما وصل إلى أعلى بقعة يمكن الوصول إليها راوده الشعور بأنه في "لا مكان"، أو كأنه تدلى بحبل في منتصف فجوة كهفية تتسع لمبان شاهقة عملاقة، يفقد فيها الفرد الإحساس بمعنى المكان ومعنى الزمن. تأمل السقف فتلألأت عيناه بالدموع. كان السقف عبارة عن لوحة فنية ذات مساحة هائلة تمتلئ بالتشكيلات الزخرفية والرسوم التي تجسد أشخاصًا وحيوانات، ورموزًا وحروفًا من العربية والفارسية والهيروغليفية واللاتينية. تشكيلات لملامح بشرية: سيدات وفتيات بيضاوات وسمراوات، قمحيات، وشقراوات. ملامحهن مزيج من الشرق والغرب معًا، بعضهن تتداخل مع ملامحها الشرقية لمسة من ملامح آسيوية آياتها ضيق العينين، وسواد الشعر، وبعضهن ذوات فم شهواني واسع، بينما أخريات يتمتعن بفم ذي شفتين صغيرتين مزمومتين. بجوار تلك الرسوم التي جسدت أولئك الفاتنات رسمت أيضًا صور لرجال مفتولي العضلات ذوي بشرة لوحتها الشمس بسمرة محمرة قليلاً، وآخرين بيض البشرة بأجساد قوية مفتولة، أو بأجساد نحيفة عظامها بارزة.

اتسمت بعض صور الرجال بأجساد ترهلت، وتثنت من فرط امتلائها بطبقات الشحوم. بعضهم وقف يحدق للسماء، والبعض الآخر انخرط في صراع دموي مع وحش من وحوش أسطورية، أو مع رجل آخر يماثل جسد الوحش قوة وعملقة. في هذا السقف الأسطوري تناثرت أيضًا،

صور لرجال ونساء عرايا يمارس كل زوج منهما الحب في أوضاع مختلفة. وفي مساحات أخرى أطلت وجوه في مناسبات مختلفة: قديسات يطللن على العالم بنظرات حانية، نظرة عيونهن تضم مزيجًا من معان عدة. تختلط فيها البراءة بالشفافية، والحب بالحسية، والفهم العميق بالسذاجة والبراءة، لكنهن لا يبدون مثل أي قديسات أخريات لأنهن كن عاريات، لا تغطي أجسادهن سوى ورقة الشجر التي تغطي مثلث الرغبة. هل هن قديسات بالفعل؟ أم مجرد عاهرات؟ أم تراهن عاهرات يتمتعن بما تتمتع به القديسات من شفافية؟ تلك أسئلة بلا إجابة، فالمعنى غالبًا في بطن الفنان أو قلبه. هكذا ردد كبرياء لنفسه. وقد كان الفنان مهتمًا بكل التفاصيل، إذ كانت كل تلك الرسوم المبهرة تتجاور، وكل منها يجسد تشكيلاً فنيًا قائمًا بذاته، تحيط بكل واحد منها كتل زخرفية، ملونة، تختلط بحروف عربية أو فارسية، في تشكيلات هندسية مخطوطة بدقة، وبدرجة عالية من الإتقان. من الذي قام بتصوير هذه الرسومات على هذا النحو؟ أي موهوب بارع امتلك القدرة على إنجاز هذه المعجزة الفنية؟ هل هو شخص واحد؟ أم أنه إنجاز عدد من الفنانين من أصحاب المواهب الرفيعة الذين تميزوا بصفات كل فنان عبقري: الموهبة والإخلاص، والإتقان، والتنافس الشريف فيما بينهم كفنانين كبار يقدر كل منهم موهبة الآخر؟

عندما مرت هذه الأسئلة بعقل كبرياء بدأ يتأمل الخطوط مرة أخرى، ليتأكد مما إذا كانت تخضع لأسلوب شخص واحد، أو أنها تجمع سمات أكثر من فنان؟ لم يستطع أن يتبين ذلك بسهولة، رغم أن الخط المستخدم كان الخط الكوفي. لكن كانت هناك تنويعات عديدة له.

كان جليًا أن الرسوم تحمل سمات أكثر من فنان. خاصة تلك التي صورت مشاهد الحب الحميم. كانت الصورة التي يتضاجع فيها رجل ذو ملامح شرقية وجسد قوي ممتلئ بالشعر مع فتاة سمراء رشيقة القوام، تختلف في خطوطها عن التشكيل الذي يضم رجلين من ثقافة آسيوية، كأنهما من عصر المغول، مع امرأة شقراء مدملجة الجسد. لاحظ كبرياء وجود فوارق لافتة في مفهوم التصوير عند من أبدع كلا العملين. فبينما كانت الألوان في العمل الأول صارخة وفنية ودقيقة جدًا، كأنها ألوان الواقع بعد تجميلها، فإن العمل الثاني لم يهتم بالألوان بنفس الدرجة. كما أن الاهتمام البالغ بدقة التفاصيل في العمل الأول، لم يكن سمة مميزة للعمل الثاني الذي بدا أكثر تركيزًا على فكرة النشوة التي تعيشها امرأة يضاجعها رجلان؛ كأن إحساسها بالشبق تضاعف من استمتاعها بفعل الحب، ومن حظوتها برغبة رجلين معًا، بينما بلغت حد الذروة من فكرة أنها تمارس الحب، من جهة، وتمارس الاستعراء من جهة أخرى. أحس كبرياء بصدق الصورة رغم عدم اهتمام مبدعها بالتفاصيل. حاول أن يتقصى لمسات الأسلوب الذي يمتلكه الفنان الذي أبدع هذا العمل في عدد آخر من اللوحات. كأنه كان يتجنب إخفاقه في تمييز الاختلافات بين الخطوط، رغم أنها تبدو للوهلة الأولى، ولمن لا يدقق، أنها صنيعة فنان واحد.

كانت أطراف السقف نائية عن إمكانية رؤيتها بشكل جيد، بسبب ضعف الإضاءة. شعر بالضيق لأنه لا يستطيع رؤية أركان السقف. وإزاء رغبته القوية في رؤية ما هو مخطوط فيها، قرر أن يبدأ رحلة الهبوط من على السلم، ليعدل وضعه قريبًا من إحدى زوايا السقف، ويعاود الصعود.

عندما وصل للسقف مرة أخرى قرأ ما كان مكتوبًا بجوار رسم بديع لرجل عجوز ذي لحية بيضاء كثة، يفيض بالوقار، بنما يقف عاريًا تمامًا، يبدو جسده قويًا رغم عمره الطاعن في السن يتناثر شعر غزير أبيض اللون على صدره وبطنه، بينما وضع كفه المعروقة الملوحة من أثر الشمس يخفي بها عورته. وبجواره كان هناك كلمات خطت بالخط الفارسي "بي مهر رخت روز مرا نور نماندست/ وزعمر مرا جز شب ديجور نماندست". ذكرته الكلمات بما كان قرأه في "الحرافيش".. هتف لنفسه "إنها أناشيد التكية الغامضة التي كان الدراويش يشدون بها". وقريبًا منها لمح بيتًا آخر: "دوش وقت سحر از غصه نجاتم دارند/ واندر آن ظلمت شب آب حياتم دارند". كان قد عرف لاحقًا أن تلك الأبيات التي نقلها محفوظ كما هي كانت أبياتًا للشيرازي بالفارسية. قرر أن يأخذ هذه الأبيات وينقلها كتيمة مكررة في مشروعه الفني على الجدران، بحيث تكون حلقة وصل بين الفن الرائع على السقف، وما ينتوي هو أن يرسمه، وللتأكيد على علاقتها بمحفوظ من جهة أخرى.

تلاحقت أنفاسه، تأثرًا بانبهاره بالأعمال الفنية المرسومة على السقف. امتلأ بشعور قوي لا يعرف كيف يسيطر عليه. انفعال عميق، مختلف، عن أغلب الانفعالات التي مر بها، حتى عن انفعالاته عندما كانت عيناه تقعان على لوحة أو عمل فني أو لقطة جميلة، ليس كالفرح أو الحزن، رغم أنه يثير رغبته في البكاء، إنما إحساس رهيف قريب من الرهبة والإجلال، المختلطتين بالنشوة، وبالصفاء الذهني في ذروته، لدرجة أنه جلس على المنصة التي تقع في قمة السلم، لا يصدق ما يراه، واقعًا تحت تأثير رغبة

أصيلة في أن يظل مكانه للأبد. وبالفعل فكر في أن يهبط للأسفل مرة أخيرة ليحضر وسادة وثيرة يضعها على منصة السلم الخشبي التي تقع في أعلى بقعة في السلم؛ بحيث يتمكن من الاسترخاء عليها متمددًا، ومحدقًا في السقف لكي يمتع عينيه بهذا الفن الجميل بقدر ما تمكنه طاقته. فكر أيضًا أن يعود بسجائره ليدخن وهو في هذه الحالة الاستثنائية من الانتشاء.

بدأ رحلة الهبوط، درجة بعد أخرى، وعندما وصل للدرج رقم 150 سمع صوتًا غريبًا، كأنه جوقة من المغنين من ذوي الأصوات المميزة تغني نشيدًا لا يفهم له معنى. نظر للأعلى، منصتًا، فتناهى إلى سمعه مزيج الأصوات كأنه يشدو بألحان التكية الغامضة.أنصت بتركيز، وهو يكاد يحبس أنفاسه، فميز صوتًا شجيًا قويًا ذكّره بصوت الشيخ مصطفى إسماعيل وهو يتلو من سورة مريم أو يوسف، فانتفض قلبه سحرًا.

وإزاء فقدانه تركيزه، اختلت قدمه فوضعها في الهواء، وبدأ يحرك الأخرى قبل أن يجد موضعًا للأولى، فوجد نفسه، فجأة، معلقًا في الفضاء؛ ثم هوى، بلا حول ولا قوة، وهو يصرخ، قبل أن يرتطم بالأرض جثة هامدة.

10

ظل كبرياء مغشيًا عليه في أرض حجرته بالقبو لساعات لم يعرف خلالها أحد عنه شيئًا؛ لولا المصادفة التي دفعت بزينات إليه، مدفوعة بشعور غامض بأنها تفتقده. وجدته ملقى على الأرض على ذلك النحو، فهرعت إليه. نادت عليه عدة مرات فلم يرد عليها. شعرت بالجزع ونادت على الحرفوشين الواقفين بالخارج فهبّا داخلين. أحضرا له ماء، وأسرعا بالبحث عن طبيب، أو معالج من سكان القبو. أفاق أخيرًا على آلام دامية في ذراعه وظهره ورأسه الذي كان ينزف. وبالرغم من أنهم نجحوا في علاجه، وتجبير ذراعه وتضميد جرح رأسه؛ فإن حالته ساءت كثيرًا عند انتصاف الليل. كان يهذي بكلام غير مفهوم. ذكر اسم نجوى عدة مرات، واسم جده رفيق. ردد أبياتًا من شعر لم تفهم زينات منها شيئًا، لكنها ذكّرتها بأناشيد التكية. عندما وضعت يدها على جبينه المتعرق انتفضت من فرط حرارة جسده.

أعدت له كمادات المياه الباردة، واستمرت تضعها على رأسه على مدى ساعتين كاملتين حتى شعرت بأن حرارته بدأت تستجيب لبرودة المياه تدريجيًا، بينما بدأت أنفاسه تنتظم. بعد قليل سمعت جلبة فأسرعت خارجة من الغرفة. وجدت عاشور الناجي والسيد أحمد عبد الجواد في الخارج. طلبت منهما الهدوء. سألاها عما حدث فأخبرتهما. زفر الناجي بغضب قائلا: "من الذي أحضر له السلم؟ سيعاقب بشدة أيًا كان". لم تفهم زينات سر التوتر البادي عليهما، كما أنها لم تنجح في التنصت على حوارهما الهامس، غير بعيد عنها. بعد قليل حضر شقيق عاشور الناجي، وهمس إليهما بشيء، فظهرت ملامح الجدية الشديدة على ملامحهما. بعد قليل اقترب منها عاشور الناجي، وطلب منها أن تبقى بجوار كبرياء حتى الصباح، وأن تخبره بأن مهمته ستبدأ على الفور، لأن الشخص الذي كان الحرافيش يبحثون عنه ليرافقه قد وصل، وأن هناك تطورات خطيرة حدثت في القبو خلال اليومين الماضيين، والقبو معرض للمداهمة بسبب تلك التطورات. وأكد عليها أيضًا ألا تتردد في أن تطرق بابه إذا ساءت حالته أو إذا شعرت بحدوث أي شيء مريب. لكنه عاد وطمأنها موضحًا لها أن هناك حراسة مشددة على غرفته سيقوم بها عدد من أفضل عناصر الحرافيش منذ اللحظة وحتى الصباح الباكر.

في تلك الليلة كانت الأسئلة تمرق في ذهن زينات بلا إجابات شافية عما يحدث، وعن سر عودة الحرافيش وأبناء الجبلاوي إلى هذا القبو. استعادت سيرة عشقها لجلال؛ حفيد الناجي، وحملها منه سفاحًا لابنها

الذي أعطته اسم والده، معاندة كل التقاليد، وبكت عندما تذكرت معاناة ابنها الذي شاع عنه أنه "ابن حرام". لم يدر بخلدها عندما سممت زوجها وقتلته أنها فعلت ذلك وفي أحشائها جنين من صلبه. كانت تحبه، لكنها أرادت الانتحار بقتله، لكي تنهي عذابها بعشق لا نهاية له، ولا مستقبل. اعترفت له بأنها قاتلته فلم يصدق، وصرخ قائلاً إن الموت قد مات، لكنه سرعان ما أدرك صدقها حين مات في حوض الدواب متمزقًا من الألم والعطش.

بكت زينات، على تلك الأيام، واستعادت حزنها، لكنها سرعان ما أدركت أن الانهيار الذي أصاب الفتونة، والفساد الذي عم الحارة آنذاك شبيه بما يحدث خارج القبو من فساد. وأن اختفاء كتب "الكبير" ليس سوى أحد المؤشرات على الخراب الذي تعيش فيه الحارة، وناسها خارج القبو. لكنها قالت لنفسها إن الحرافيش جميعًا يعرفون أن الفساد يعقبه أمل وفرح، وأن دورات الحياة مثل الأمواج تعلو وتعلو ثم سرعان ما تنقلب للأعماق.

قالت لنفسها إن جلال نفسه كان نموذجًا لما آلت إليه الحارة من فساد:

"لم يكترث لحال الحرافيش ولا عهد الناجي، لا عن أنانية أو ضعف أمام مغريات الحياة، ولكن ازدراء لهمومهم، واستهانة بمشكلاتهم. والعجيب أنه كان بطبعه أميل إلى الزهد، واحتقار مطالب البدن، وكان ما يدفعه إلى الجاه والمال والتملك قوة عمياء مجهولة، جوهرها القلق والخوف، كأنما كان يتحصن ضد الموت، أو يوثق علاقته بالأرض حذرا من غدره". (الحرافيش ص 435).

كانت تعرف أن الحارة ستعرف الأناشيد وسوف تستعيد بأسها

برجال أقوياء مثل آل الناجي المخلصين، وأن الفاسدين مآلهم موت أليم في أحواض الدواب. لكنها تعرف أيضًا أن استعادة الأناشيد وراحة البال، وكل القيم التي ضاعت من الحارة وأهلها تستلزم ثمنًا غاليًا، سيتكبده الجميع شاءوا أم أبوا.

"نعم، سيتكبد الجميع الثمن. لكن الأناشيد تستحق ذلك وزيادة" هكذا همست لنفسها قبل أن تغفو في نوم عميق كانت تحتاج إليه بعد تلك الليلة المضنية.

في أثناء محاولاتها للتنصت على الناجي والسيد أحمد عبد الجواد، سمعت اسم "سماحة" لكنها لم تفهم أي سماحة يقصدون؟ لقد كان واحدًا من سلالة الناجي الذي فسد وأضاع الفتونة، وبالرغم من أنها استعادت حادثين كبيرين في عمر الحارة وهي تستدعي بذاكرتها ما حدث، لكنها لم تتوقف طويلاً عند التفاصيل، التي تذكرتها وهي تردد أن الجميع سيتكبدون الثمن، لكنها حين غفت حلمت بالواقعتين، وجاء حلمها كأنه الواقع. الماضي البعيد داهم وعيها وهي نائمة:

"ووقعت الواقعة. رسبت الهمسات في أعماق الحرافيش فتحولت إلى قوة مدمرة. اجتاح الحارة طوفان لم تعرفه من قبل. هكذا قسم الحرافيش أنفسهم إلى جماعات، وتسللت كل جماعة إلى مسكن رجل من رجال العصابة. تم ذلك قبيل الفجر في ساعة النوم العميق. هوجم الرجال في أسرّتهم، دهمتهم الكثرة، غلبوا على أمرهم، انهزموا، نهبت دورهم، زالت عنهم غشاوة السحر مخلفةً وراءها عاهات مستديمة. ولم يسمع أذان الفجر من صياحهم. خرجوا من دور العصابة

كالسيل، غمروا الحارة، اقتحموا المخازن، نهبوا كل مخزون بها، دمروها تدميرا. وأول هدف لهم كان مخزن سماحة الفتوة. بل لم يترك قائم في المحل كله. نهبت الغلال حتى آخر حبة. ورُئي فتح الباب معلقاً في عرق من عروق السقف، مدلى الذراعين، مغمى عليه أو ميتًا، ففك وثاقه وطرح على الأرض بين الحياة والموت. وسيطروا على الحارة تماماً حتى شعشع أول ضوء للنهار. ذعر الناس في النوافذ والمشربيات وارتفع الصراخ، عند ذاك فتح باب الفتوة سماحة، وتجلى الرجل مثل وحش قابضاً على نبوته". (الحرافيش، ص 532).

كما حلمت بآخر سلالة عاشور الناجي الذي استعاد للحارة مجدها القديم والذي كان قد سمي على اسم جده الأول عاشور، شاهدت عودته للحارة بعد اختفاء طويل: وقوفه في الحارة عملاقًا كمئذنة، تهديده للفتوة وانتصاره عليه وسط تأييد كامل من الحرافيش الذين هبوا من كل صوب وحدب لينتصروا للرجل الذي هدم مئذنة جلال الدين التي هجرت طويلاً بدعوى سكناها بالعفاريت. نعم "التف الحرافيش حول فتوتهم في تفان وامتثال، وانتصب بينهم مثل البناء الشامخ، توحي نظرة عينيه بالبناء لا بالهدم والتخريب". (الحرافيش، ص 594).

الجزء الرابع

حكاية بلا بداية ولا نهاية

10

استلقت جيسيكا على أريكة وثيرة، عصرية، يتألق مخملها بلون برتقالي. انعكس على جسدها العاري ضوء الشمس الساطعة، المتسللة عبر النافذة العريضة المطلة على النيل. إلى يمينها جلست نجوى على الكرسي الوثير الهزاز، تتأرجح، أمامًا وخلفًا، بحركة رتيبة. وضعت جيسيكا الكاميرا على الحامل الخاص بها، بعد أن اختارت كادرًا تظهر فيه الأريكة التي تستلقي عليها والنافذة والكرسي. تأكدت أولاً أن صورة نجوى تظهر بروفيلها إذا نظرت بزاوية مستقيمة للنافذة. كانت جلستهما تلك نتيجة لجدل ومفاوضات طويلة، لكنهما اتفقتا على التفاصيل في النهاية. واعتبرتها كل منهما صفقة. فإزاء إصرار نجوى في الحصول على مخطوط رواية كاتب الكاشف، برقت في ذهن جيسيكا فكرة رأت فيها وسيلة لتحقيق حلم قديم.

كانت تحلم بتصوير فيلم تسجيلي صغير تقوم ببطولته فتاتان من ثقافتين

مختلفتين، تجلسان معًا لمدة ثلاثة أيام، تتحاوران في كل شيء، من العواطف والمشاعر، إلى الانطباعات الذاتية عن المجتمع والأصدقاء، ومن السياسة والاقتصاد، إلى الأزياء والفنون، وصولاً للحب والجنس والتفاصيل العميقة الباطنية الغامضة: الهلاوس والمخاوف، والوساوس الشهوانية، الأحلام والخيالات الجنسية الجامحة، على أن يكون هذا النقاش حرًا من كل الأقنعة، وبينها الثياب التي تستر الجسد. وجدت في شخصية نجوى نموذجًا مثاليًا، فهي، وفقًا لما اطلعت عليه في الرواية، بافتراض أنها رواية تنبؤية، تبدو شخصية تمتلك الكثير من المتناقضات، كما أنها تعبر عن ثقافة مختلفة بالنسبة لجيسيكا، بالإضافة إلى أن تاريخها الاستعرائي أمام كبرياء قد يكون بمثابة جرعة المناعة ضد نفورها من فكرة التعري لأجل هذا الفيلم، مهما تمنعت.

شرحت الفكرة لنجوى بإسهاب. حرصت على اختيار الكلمات بلباقة. تقمصت شخصية بعيدة عن شخصيتها الحقيقية. تخلصت من دماثتها واستدعت رباطة الجأش، واستبدلت رقة ملامحها بعكسها، وثبتت لعينيها نظرة محايدة وباردة.

أعلنت نجوى رفضها للفكرة جملة وتفصيلاً، بلا تردد، فساومتها جيسيكا على نسخة من مخطوط الرواية مقابل تسجيل هذا الفيلم. اعترضت نجوى، ووصفت جيسيكا بالمبتزة. قالت لها إنها لم تعد ترغب في قراءة الرواية، وإنها باتت مقتنعة بأن ما حدث مجرد مصادفة، وأن الجزء الذي قرأته منها، وتصادف تشابهه مع بعض تفاصيل حياتها ليس معناه أن مصيرها معلق بها.

جيسيكا، من جانبها، لم تلح عليها، لكنها نفذت خطتها بإصرار. أقنعت كاتب الكاشف بالخروج من البيت للقاء نجوى، ووضعت أغراضها في الحقائب، وبينها الرواية. مسحت النسخة الوحيدة الموجودة على جهاز الكمبيوتر الخاص به، على اعتبار أنها قامت بنسخها على جهازها الخاص. وانتقلت للشقة الفخمة التي كانت استأجرتها قبل أسبوع في حي الزمالك على النيل مباشرة. تلقت الاتصال المتوقع من نجوى، بعد مرور ثلاثة أيام فقط. استمعت بدقة إلى الشروط التي أملتها نجوى لكي تقبل بتنفيذ الاقتراح: "ألا يظهر وجهها نهائيًا في الفيلم. الحوار سيكون باللغة الإنجليزية. تقوم جيسيكا بالتصوير بنفسها دون الاستعانة بأحد، ولو اقتضت الضرورة، فإنها تقترح كبرياء لأنه الوحيد الذي يمكن أن تسمح له برؤيتها عارية".

وافقت جيسيكا على كل الشروط بأريحية، أكدت أنها ستقوم بالتصوير بنفسها. ثم شرعت، على الفور، في تصوير عدد من المشاهد الخارجية، في شوارع القاهرة، التقطت خلالها مشاهد من الزحام، ووجوه البشر، وصفوف المنقبات. تنقلت بالكاميرا، والتقطت كادرات لثنائيات من الأجانب والمصريين. كانت تريد بذلك أن تمهد لما يشيع عن الفتاة المصرية، وحقيقة هذه الفتاة عندما يسلط عليها الضوء من قرب. كان عليها أن تتخير المناطق التي ستقوم بالتصوير فيها بحرص، خوفًا من مضايقات أمنية سمعت عنها من عدد من أصدقائها. قالوا لها إن الكاميرا بمثابة إنذار حريق يهب إليها مخبرون سريون من حيث لا تعلم. لكنه كان وسيلة لكي تفكر بشكل عملي في كيفية تنفيذ هذا الفيلم. لم تكن تريد فيلمًا توثيقيًا

فقير الصورة، بالعكس كانت تريد أن تجرب نفسها كسينمائية، أن تخلق صورة مختلفة تخصها، في موضوع جريء. فكرة الحوار المكشوف بيني وبين نجوى ستمثل عصب الفيلم، وسيكون ذلك في حد ذاته قادرًا على جذب الانتباه والتركيز من متلقي الفيلم، لكن، أعتقد أن هناك لقطات خارجية يمكن تصويرها بحيث أنتقل إليها في أثناء أجزاء خاصة من الحوار. بالتأكيد سيكون للحوار دور كبير في تحديد طبيعة تلك المشاهد، لكن ربما لو بدأت بتصوير عشوائي لمشاهد من الشارع قد يلهمني ذلك في تطويع الحوار بحيث يخدم تلك الصور بشكل ما. أعتقد أنني أحتاج للتفكير في شخص يجيد عملية المونتاج. عليّ اليوم أن أجري اتصالاً بميشيل لأستشيره في الأمر.

استنفدت نجوى وجيسيكا الليلة الأولى، في الثرثرة، كانتا تحاولان البحث عن المناطق الضعيفة، أو الهشة، في ذلك الحاجز النفسي الشاسع الذي يقف حائلاً بينهما. كانتا تعلمان جيدًا أنهما لو فشلتا فلن يتمكنا من التعري أمام بعضهما البعض لاحقًا. تجرعا قليلاً من البيرة بغية التحرر من التوتر الذي سيطر عليهما. ثم بدأت جيسيكا تدير دفة الحوار باتجاه موضوعات حميمة، حتى أحست أن نجوى قد ارتاحت لها تمامًا. كانت جيسيكا تبحث عن اللحظة المناسبة التي يمكنها بها أن تبدأ في التحرر من ثيابها في توقيت مشجع لنجوى لتقوم بالمثل.

انتهزتْ إحساس نجوى بالراحة، وسألتها: "هل فعلاً كنت تتعرين

لصديقك دون أن تمارسي الجنس"؟ ارتبكت نجوى من السؤال، لأنها تأكدت، عندئذ، أن الرواية التي كتبها "كاتب الكاشف" تعريها بشكل كامل. نظرت إلى جيسيكا نظرة تجمع الاعتراف بالذنب، والاستخفاف بالأمر، في ذات الوقت، ووقفت لتنزع التي شيرت الذي ترتديه، و"الجيبة" الجينز الضيقة. ثم عادت لتجلس وهي لا ترتدي سوى طاقم داخلي أسود اللون، من دون أن تنظر إلى جيسيكا في تلك اللحظات ألبتة.

في أثناء جلوسها، تناولت كأس النبيذ، وتجرعت ثمالته، ثم قالت: "لكي أجيبك عن هذا السؤال أظنني سأحتاج إلى كأس أخرى". ابتسمت جيسيكا، ونهضت على الفور. تناولت الكأسين الفارغين قائلة: "أظنني أيضًا سأحتاج إلى تغيير الكأسين بآخرين نظيفين". تأملت نجوى فخذيها العاريين، وفكرت، في تلك اللحظة، أنها لو كانت مع فاطيما لأمكنها أن تتحرر من ثيابها بلا توتر. فكثيرًا ما تعرت كل منهما أمام الأخرى وهما في حمام النادي، وفي بيت فاطيما، حيث كانتا تقيسان ملابسهما قبل سهرة من السهرات.

استبدلت جيسيكا بفاطيما، فانتابها شعور مريح. وللحظة دار في ذهنها أن تقترح على جيسيكا أن تقوم هي وفاطيما بتصوير الفيلم، لكنها تراجعت؛ إذ إنها لم تكن ترغب في كشف موضوع الرواية لأي أحد. عادت جيسيكا وهي ترتدي ملابسها الداخلية فقط؛ طاقم برتقالي اللون، بدت بشرتها، التي اكتسبت لونًا برونزيًا، صافية باستثناء بعض النمش قريبًا من مفرق نهديها، وبدا كتفاها جميلي التكوين، متناسقين مع جسمها الممشوق الطويل، بلا ترهل؛ مما يقلل الإحساس بامتلاء فخذيها قليلاً.

لاحظت مرور بعض الخطوط الرهيفة الزرقاء بهما. حلت شعرها فانسال حول وجهها كهالة بنية اللون، بدت منسجمة مع لون عينيها المائل للأخضر. لكنه أخفى بوضعيته هذه جانبًا من جبهتها مما أعطى اتساقا لوجهها. لم تستطع نجوى أن تمنع نفسها من الإطراء على جمال لون بشرتها. ثم علقت مبتسمة على تطابق لون ما ترتديه مع لون أقمشة الأريكة، فابتسمت لها جيسيكا بخجل، وهي تهز كتفيها، قالت: "مصادفة غير مقصودة". كانت تمسك زجاجة نبيذ في إحدى يديها، بينما تحمل كأسين خاليين نظيفين في الأخرى. وضعتهما على المنضدة الزجاجية، وصبت في كل منهما مقدارًا ملأ نصف الكأس. جددا النخب، وتجرعت كل منهما جرعة. ذهبت جيسيكا إلى المطبخ مرة أخرى. اختفت لفترة، قبل أن تعود بصينية صغيرة تعلوها مجموعة من الأطباق الصغيرة التي احتوت على مقادير من الجبن الرومي، والزيتون الأخضر، وشرائح الخيار والطماطم، والخبز.

ألحت على ذهن نجوى مجموعة من الخواطر حول العلاقات السحاقية، التي كانت تعرف عددًا من بطلاتها، من صداقاتها الجامعية، وقصص النميمة التي كانت فاطيما لا تتوقف عن سردها، بمناسبة، أو بدون. فكرت أنها لو كانت تعيش قصة حب، أو علاقة مثلية مع جيسيكا لربما كانت المسألة أيسر كثيرًا، لكنها كانت تنفر من العلاقات المثلية بين الإناث، بالرغم من أن مشهد النهدين يسبب إثارتها بدرجة ما.

تحت إلحاح محاولة طرد هذه الخواطر من ذهنها، ومحاولة إخفاء ارتباكها قالت لجيسيكا: "إجابتي عن سؤالك هي نعم، لكنني لا أرغب في تناول تفاصيل ذلك الآن". "لا بأس، طبعا، أنا فقط أحاول أن أتجاوز مساحات

التحفظ بيننا". "ليكن، لكن دعيني أفعل ذلك بطريقتي وأسألك: كيف تعرفت إلى صديقك كاتب الكاشف"؟ صمتت جيسيكا لوهلة، ونظرت إلى السقف وهي تحاول أن تستدعي الوقائع إلى مخيلتها، ثم قالت: "حدث ذلك بمصادفة بحتة، كنت أحضر حفلاً راقصًا في الأوبرا، والتقينا هناك، بدأ بيننا حوار غريب، خرجت في الاستراحة للتدخين، وفوجئت به يقتحمني ليسأل عن رأيي في العرض، استمر حوارنا أكثر من عشر دقائق دون أن نتعرف إلى بعضنا البعض، ولأنني أؤمن بالعلامات والإشارات، لاحظت أنني مرتاحة تمامًا له، وأنه لو استمر يسألني في أي شيء فسوف أستمر في الإجابة عنه، حتى لو انتهى وقت العرض، عمومًا لم يخب ظني فقد عرفت في لقائنا الأول أنه مولع بالفلسفة، أنا أحب هذه الطريقة غير المألوفة في النظر للأمور". "قصة حب مع فيلسوف؟ لا بد أنها مسألة مثيرة". "نعم، بالنسبة لكثيرين قد يبدو للوهلة الأولى متحذلقًا، لكنه بالفعل ليس كذلك". "كيف"؟ "أقصد أنك إذا سألته سؤالاً عن مدى إعجابه بالجو مثلا فلن يجيب إجابة مباشرة، وإنما سيقول إنه شاهد أجواء ضبابية في لندن وأجواء ساطعة في القاهرة ولكنه لم يكن سعيدًا في الحالتين"! ابتسمت نجوى وهي ترفع قدميها إلى الأريكة بحيث أصبحت ركبتاها أسفل ذقنها وقالت: "فهمت ما تقصدينه، لكن ذلك قد يصبح مملاً على المدى الطويل"؟ "ليس تمامًا، في الحقيقة كثيرًا ما تكون إجاباته وتعليقاته مفاجئة، غير متوقعة، وأحيانًا تبدو من فرط جديتها مضحكة، وهو يعرف ذلك جيدًا". "يعرف ماذا"؟ "يعرف أن الجدية الشديدة تعليقًا على أسئلة سطحية وساذجة أحيانًا تحدث مفارقة كوميدية".

شعرت نجوى بوجود مساحات تشابه كبيرة بين شخصيتي "كاتب" و"كبرياء". قارنت بين مظهريهما المختلفين: كبرياء بجسده القوي الفارع وشعره الغزير الطويل وعينيه السوداوين، وكاتب بقامته الممشوقة وعينيه الرماديتين الذكيتين اللامعتين، وشعره الفضي الناعم. كانت الصورة المرسومة لكل منهما مختلفة تمامًا، ومع ذلك ففي حديث جيسيكا عنه شيء ما قريب جدًا من إحساسها بكبرياء. لكن كبرياء يعطي ذلك الإحساس لمن لا يقترب منه بأنه شخصية بسيطة ذات مستوى واحد، لا ينفعل، لكنها تشعر بأن ذلك ليس سوى قناع لشخصية بالغة التركيب. كان هذا هو حدسها، خاصة أنها أثارت انفعالاته كثيرًا بطرقها المستفزة.

قالت نجوى: "لكنك ذكرتِ مرة أنه غريب الأطوار". "هل قلت ذلك فعلا"؟ "بالتأكيد". "لا أحب أن أتحدث عنه بشكل سلبي، لكني اكتشفت في شخصيته عددًا من الصفات التي كانت تحيِّرني، وبينها تأنقه الزائد على الحد والذي كان يجعل منه شخصًا غريب الأطوار، ثم أدهشتني فكرة أنه يكتب باحتراف، ومع ذلك فهو ممتنع عن نشر شيء مما يكتبه، بالإضافة إلى إصراره على التأكيد أنه لا يقع في الحب، وأنه ليس ملتزمًا تجاهي بأي شيء، خاصة بعد أن مارسنا الحب، وفوجئت بأن شعوره بالغيرة منزوع تماما". "رجل لا يشعر بالغيرة، أنت محظوظة". "لا أقصد الغيرة المرضية، لكن الحد الأدنى الطبيعي". "إلى هذه الدرجة"؟ "نعم، ولك أن تتخيلي أنني حكيت له عن لقائي بعشيق قديم هنا في القاهرة مصادفة، أخبرني أنه لا يهتم حتى لو نمت معه". "لا لا، هذا غير طبيعي". "بالنسبة لي، ليس هذا غريبًا تمامًا، لكنني استغربته من قبل رجل شرقي مثله".

حل الصمت لوهلة، وكان وجه جيسيكا محتقنًا، ومحمرًا من تأثير النبيذ، واستدعائها لعلاقتها بكاتب. رشفت آخر رشفة من كأسها، ثم تذكرت شيئًا فقالت: "كان يقول إن هذا جسدي وأنا حرة تمامًا أن أفعل به ما أشاء، كنت أشعر بغضب شديد، لكنه لم يكن يكترث بغضبي قائلاً إنني حرة في اتخاذ أي قرار أراه صائبًا بما في ذلك قطع العلاقة فورًا". صمتت قليلاً. أحسست بأنها لا تستطيع السيطرة على انفعالها.

لكنها استدركت قائلة: "لا أخفيك أنني كنت معجبة، في أعماقي، بقوته الذاتية هذه التي تجعله في حالة مستمرة من الاستغناء عن أي أحد أو عاطفة، إذا اقتضى الأمر، لكني كنت أشتعل بالغضب لإحساسي أنني لم أؤثر فيه بالدرجة الكافية، ربما لأنه صاحب خبرة، وعمره أكبر مني بكثير".

عادت لتصب في كأسيهما قدرًا آخر ثم استلقت على الكرسي مسترخية وقالت: "لكنني اكتشفت في زيارتي للقاهرة أنه أصبح غريب الأطوار بشكل منفر. لا يخرج من الشقة أبدًا، لا يرد على الهاتف مطلقًا، علاقته بالعالم تتم عبر الإنترنت، وباستثناء ذلك فإنه لا يفعل شيئًا سوى الاستماع للموسيقى، قطع صلاته الاجتماعية جميعًا". "هل عزل نفسه تمامًا، بحيث لا يرى أحدًا على الإطلاق، معقولة"؟ "الإنسانة الوحيدة التي كان يسمح لها بدخول الشقة هي السيدة العجوز التي تحضر يومًا بعد يوم لتنظف الشقة وتطبخ له طعامه، لكنه، بطبيعة الحال، لم يكن ليسمح لها بفتح باب الشقة لأي أحد، ولا الرد على الهاتف، بل إنه منعها من التحدث معي منذ استضافني للإقامة معه في النهاية تسبب كل ذلك في

الضغط على أعصابي، لأنني متأكدة من أنه يعاني من حالة عصابية ولا يريد أن يخضع للعلاج". "نعم نعم، أفهمك تمامًا، هذا غريب جدًا بالفعل".

شعرت نجوى بمزيج من المشاعر المتناقضة، بين التعاطف مع جيسيكا، والإعجاب بكاتب، والنفور منه في الوقت نفسه. ابتسمت عندما شعرت بمدى تناقض ما تفكر فيه، ولكنها لم تقل شيئًا. ثرثرتا كثيرًا في أمور شتى. حكت نجوى كثيرًا عن كبرياء، وعن تناقضات علاقتها به، كما لمحت إلى الشخصية الوهمية التي كانت تعرفها والمدعوة أحمد شكري، لكنها صرخت من الدهشة عندما عرفت من جيسيكا أن هذه العلاقة مرسومة بدقة في الرواية.

في تلك اللحظة قررت أن تنفذ خطة بديلة. قالت لجيسيكا: "إذا أردت أن تديري كاميرتك الآن، فسوف يسعدني ذلك فعلاً، أعتقد أنه لن يكون بإمكاني تنفيذ فكرتك المجنونة هذه، والتعري الكامل أمامك إلا إذا كنت في حالتي هذه، بعد كأس أخرى أعدك بأنه سوف يكون بإمكاني التعري التام". "معقولة؟ ظننت بأنك ستحتاجين الكثير من الوقت للتشجع". "كنت أظن ذلك أنا أيضًا لكنني أشعر الآن أنك تعرفين عني الكثير، بحيث يصبح تحفظي إزاءك سخيفًا جدًا". تجاهلت خجلها، وأصرت على أن تبادلها جيسيكا الشراب طالما كانتا متيقظتين، ورغم شعور جيسيكا بالإنهاك، لكنها أحست بأنها أمام فرصة مثالية، فقد استجابت لها نجوى أخيرًا.

لكن شعور جيسيكا بالإنهاك، تحول إلى حال من اليقظة الكاملة حين سمعت سؤال نجوى: "هل أنت مثلية"؟ ارتبكت جيسيكا من السؤال،

لكنها احتفظت برباطة جأشها وقالت: "لا، لا، لست كذلك بالفعل، لم تراودني الفكرة على وجه الإطلاق، وبالعكس أنا تجمعني الصداقة في تورنتو بصديقتين مثليتين، وإحداهما تعتبر أقرب صديقاتي، لكننا لم نفكر في تبادل العواطف إطلاقًا، لكي أكون صادقة معك، فكرة هذا الفيلم ليست فكرتي، وإنما هي فكرة نفذتها مخرجة ألمانية بالفعل على فتاتين مهاجرتين إلى ألمانيا، لكني أحببتها، وأردت أن أنفذها، بشكل مختلف، أي أن تكون حوارًا بين فتاتين من ثقافتين مختلفتين، وسوف أشير إلى ذلك في مقدمة الفيلم إحقاقًا لحق صاحبة الفكرة الأصلية".

أعجبت نجوى بقدرتها على وضع جيسيكا في موضع الدفاع بهذا الشكل، فقالت لها: "أعتقد أن هذا الحوار هو أفضل مدخل لهذا الفيلم، ولو اقتنعت بتكراره من أجل التصوير، فسوف أنفذ كل ما تطلبينه لاحقًا لإنجاح هذا الفيلم".

2

فتح كبرياء عينيه في صباح اليوم التالي لسقوطه من أعلى السلم. شعر بالألم في كل جسده. تأوه حين حاول أن يحرك ذراعه الأيمن، ووجده ثقيلاً بدرجة لا تحتمل. انتبه إلى أن ذراعه قد أحيط بجبيرة من الجبس. أما كاحله، فربط برباط ضاغط، بينما لُفّ رأسه بلفافة من الشاش. التفت حوله ولم يجد أحدًا. تذكر أنه سمع صوت زينات، لكنه لم يتمكن من التحقق مما إذا كان ذلك وهمًا أم حقيقة. كانت الغرفة معتمة مما جعله عاجزًا عن تقدير الوقت. بعد دقائق سمع طرقة خافتة على الباب، قبل أن يفتح ويطل منه وجه زينب دياب. "صباح الخير، هل يمكن أن أدخل"؟ "تفضلي، طبعًا، صباح الخير". حاول أن ينهض فاكتشف صعوبة ذلك، وندت عنه آهة. اقتربت منه زينب، لتمنعه من الحركة. قالت: "لا تتحرك، أنا آسفة جدًا لما حدث". "ماذا حدث؟ بصراحة أنا لا أفهم شيئا". "بعد وقوعك من أعلى السلم أصبت بجروح خطيرة في

رأسك، وكسر ذراعك، وأصيب كاحلك بكدمة خفيفة، لكن الحمد لله، كمال عبد الجواد تمكن من أن يستدعي طبيبًا، لعلاجك". "أكاد لا أصدق. أشعر أن خمس دقائق مرت منذ وقعت، لكن يبدو أنه مر زمن طويل". "نعم، مرت ثلاث ليال، لقد أغشي عليك وظن الجميع أنك – لا قدر الله –.....".

سألها كبرياء: "وأين زينات؟ والآخرون"؟ "لا تشغل بالك سيأتون جميعًا. لكن أخبرني، ماذا حدث"؟ نظر إلى السقف البعيد، وقال لها: "لا أعرف، انظري إلى السقف". رفعت عينيها تتأمل السقف، وقالت: "ماذا به"؟ "هل ترين شيئا"؟ "لا". "هذا ما تظنينه، هناك يوجد عا لم من الرسوم والفنون لا يمكن لأحد أن يتخيل مدى جماله". "ولهذا صعدت إلى هناك"؟ "لو كان الأمر بيدي لتمنيت أن أبقى هناك إلى الأبد". "معقولة؟ لهذه الدرجة"؟ "نعم، بل وأكثر، ليس الأمر مجرد متعة الفن، أو الشغف بجمال الرسوم، لا يا زينب، ثمة شيء أخطر من ذلك بكثير وأعمق، هناك، قريبًا من تلك الرسوم الفاتنة، أحسست أنني أصبحت أقرب لفهم العا لم، أنني أسمو على كل الصغائر، أصبحت قادرًا على أن أتحدى مصيري، أن أعبر عن الشخصيات العديدة المطمورة في أعماقي، التخلص من ميراث شخصيتي التي فرضتها عليَّ ظروف لا يد لي في تدبيرها، لعبتُ، على امتداد حياتي، الدور المطلوب مني، أنا لقيط، هذا قدري، لكنني لم أستطع تجاوز ذلك أبدًا، امتثلت لكل توابع ذلك بجبن، هناك دائمًا شعور يلاحقني بأنني أدنى من الآخرين، ويسم علاقاتي بالجميع، أبتسم رغمًا عني لأخفي آلامي ومرارتي، أتحدث بصوت خفيض، حتى لو شعرت

بالغضب، أمتثل لأنانية الآخرين وشرورهم رغم أنهم الأضعف، أبدو كشخص بلا ملامح، أعيش مستوى واحدًا من المشاعر والحالات، لا أغضب، ولا أنتقم لنفسي ممن يؤذونني، الإنسانة التي أحببتها، قتلتني، وقتلت كبريائي مرارًا، وتكرارًا، لكني لم أفعل شيئًا سوى الاستمرار في حبها كأنه قدر، لكنني، في الأعلى قريبًا من تلك الرسوم اكتشفت أنني أسمو على كل تلك الأشياء وأراها صغيرة".

سمع صوت زينب مقاطعًا : "هون عليك يا كبرياء، لا داعي لأن تؤذي نفسك بهذه الأفكار المريرة". "معك حق، ما فات فات، لكني أريد أن أقول لك إنني عندما كنت هناك في الأعلى، قريبًا من الإبداع في أنقى حالاته، اكتشفت رغبتي في التخلص من كل القيود التي كبلتني، أن أصرخ حين أرغب في الصراخ، أن أرقص حين أشعر برغبتي في ذلك، أن أضرب عرض الحائط بردود فعل البشر وأفكارهم عني". "على أية حال هذه مشاعر إيجابية جيدة، وسوف تحتاج إليها في المرحلة القادمة".

انتابت كبرياء حالة مفاجئة من الارتياب، بلا مبرر. نظرت إليه زينب وقالت: "يبدو أنك لا تثق فيّ كثيرًا، ومعك حق". "لا ليس ذلك صـ....". "دعني أكمل كلامي، فلست مضطرًا لأن تجاملني، وأنا أفهم مبرراتك، لكن ما أحب أن تعرفه أنني لست كما تتصور. ولم أحضر إلى هنا من أجل أن أبيعك للآخرين، فلست كما تظنني، لكن دوافعي هذه لا تبررها فكرة أنني وطنية كما قد تظن، أنا لا أزايد على هذه الفكرة، على الأقل هذا ما خرجت به من تجربتي، فلا أحد يشك في وطنيته، السجان نفسه يؤمن بأنه

يؤدي دورًا لخدمة الوطن، وحتى الشخص الذي اغتصبني يظن أنه فعل ذلك لصالح الوطن، لأنه آذى شخصًا قيل له إنه ضد الوطن، المشكلة أننا لم نراجع أيًا من أفكارنا ومعتقداتنا وتحديد معناه بدقة، هذه هي بالضبط فكرتي، السجان، أو الشخص الذي يغتصب المعتقلات في الزنازين هو شخص منزوع الإنسانية، مجرم، لكنه وفقًا لبعض المعايير قد يعتبر نفسه وطنيًا، ربما يكذب على نفسه ليبرر حقارته أمام نفسه، لهذا لا أهتم بفكرة الوطنية الآن بقدر ما أهتم بفكرة الإنسان، أنا لم أعمل مخبرة، لأنني أصبحت أؤمن بأنني إنسانة وهذا أهم من كل شيء، حتى من الوطنية، ومن الأفكار المتوارثة عن التدين والعادات، عمومًا أنت حر أن تعتقد ما تعتقده عني، فأنت تعرف جيدًا أن الصورة التي كونها الناس عنك لا علاقة لها بما تعرفه أنت عن نفسك، وهذا قدرنا أننا نعيش في عصر الشك، والنمائم، الفاسدون يفسدون لأنهم تعلموا الانتهازية مبدأ لحياتهم، والمتطرفون الذين أصبحوا شغل العالم دخلوا للدين بمنطق انتهازي آخر صور لهم أن التدين يعني اكتناز الحسنات، وليس أن يصبح الفرد إنسانًا، يدرك أنه لا يملك حق قتل روح أخرى، أيًا كان السبب، والذين توجهوا للمظاهر الدينية استسهالا، فعلوا ذلك، حتى لو لم يكونوا مقتنعين، حتى لا يفوتهم شيء، يريدون الحياة الدنيا والآخرة، "زينب". "نعم". "أنا مدين لك باعتذار". "لا تعتذر، أنا فقط أحب أن أوضح لك أنهم اختاروك لكي تقوم بأهم مهمة". "من هم؟ وأية مهمة"؟ "أهل القبو، أحمد عبد الجواد والجبلاوي والناجي، ونحن معهم". "أنا لا أفهم شيئًا". "ستفهم كل شيء

في حينه، المهم الآن أن تعرف ما حدث على مدى وجودك هنا". "ماذا حدث"؟ "خلال الأيام الماضية مر القبو بحالة مريبة، بدأت مشادات بين مجموعات من الحرافيش، انتهت ثلاث منها بما يشبه الموقعة، سال دم كثير، وسادت القبو حالة من التربص، والمكائد، وبدأ الجبلاوي يحقق بنفسه في المسألة، وتبين وجود شخص يوقع بين أهل الحارة جميعًا بنقل معلومات مغلوطة. وتمكن الجبلاوي عبر معونة الحرافيش من تحديد شخص اسمه حسني، لم يكن يعرفه أحد، هذا الشخص كان مدسوسًا من قبل أشخاص خارج القبو".

لاحظتْ ملامح الألم على وجه كبرياء فندت عنها صرخة خافتة، ثم قالت: "يبدو أنني أثقلت عليك، أنا آسفة". وقبل أن ينطق كبرياء بشيء، نهضت وتوجهت ناحية الباب وهي تردد"سأعود إليك حالاً".

خرجتْ، وعادت بعد فترة، وهي تحمل صينية كبيرة، توجهت بها إلى كبرياء في فراشه. وجد أطباقًا من الطعام: فول في الزيت، جبنة بيضاء، عسل أبيض، وخبز وكوب شاي. شكرها كبرياء. فساعدته على الجلوس. حاول أن يأكل بيده اليسرى واكتشف أنه شبه عاجز. بادرت زينب ومزقت الخبز إلى قطع صغيرة. شكرها بامتنان. كان يفكر وهو يأكل هل يمكن أن تكون زينب هي الشخصية التي يمكن له أن يقع في غرامها؟ لكنه سألها: "كيف أمكنني احتمال الجوع لمدة ثلاث ليال؟ أنا لا أذكر أنني تناولت أي طعام". "صحيح، لكن الطبيب علق لك المحاليل على مدى اليومين السابقين". ابتسم لها بمودة محاولاً إخفاء ارتباكه لفرط إحساسه

بالسذاجة. عندما انتهى طلب منها أن تحضر له سجائره فبحثت عنها حتى وجدتها. تعمد أن يتحسس كفها وهو يأخذ السيجارة. نظرت إليه نظرة هادئة وحالمة، وابتسمت. ثم قالت: "لا أظن أن ما تفكر فيه قد يحدث يوما". "وما الذي أفكر فيه"؟ "أنت تريد أن تنام معي"؟ "أنا"؟. "ألم تفكر في أن تقع في غرامي". "هذا وارد لأي شخص في ظروفي أن يفكر في أي امرأة يلتقيها كمشروع لحبيبة أو كعشيقة محتملة". "صحيح، لكنكم تبدون لي مختلفين تماما". "نحن؟ من تقصدين"؟ "أنتم، أحفاد الجبلاوي. هذا الجيل الذي ينتمي لهذا الزمن الذي أكاد لا أفهمه". "ليس الأمر كما تظنين، هل تتصورين أن هناك فوارق بين الجيل الذي أنتمي له وجيلك أنت؟ هل نسيتِ أنه حتى في جيلِكِ كان هناك متحررون على طريقتهم، وكان هناك محافظون تقليديون في الوقت نفسه، والتغير الذي حدث تغير شكلاني فقط، لكن المجتمع امتداد لآفات السابقين". "لكن جيلكم هذا، وأنت على نحو خاص، ستفكر أننا يجب أن نمارس الحب أولا حتى نتأكد من العلاقة". "لا ليس بالضبط، ربما أفكر أنا بهذه الطريقة، لكن ملايين غيري ما زالوا يفكرون بطريقتك، أنا مارست الحب مع زينات مثلا وهي من جيل آخـ...". "أرجوك لا تفعل، لا أريد أن أعرف شيئا عن الآخرين، أنا فقط لا أفهم الكثير مما تفعلونه الآن". "المجتمع يتغير، والدنيا تتغير". "إلى الأسوأ". "هل تعتقدين"؟ "كبرياء، اسمعني الآن جيدًا، فليس لدينا وقت، ولا أريد أن أتهم بتعطيلك عن مهمتك، أريد أن أكمل لك ما حدث، وأوضح أن إدريس كان وراء المشاكل التي مر بها القبو،

خرج خارج القبو وعصى أوامر الجبلاوي ودبر، كعادته مكيدة، لكل أهل القبو، أخبر القائمين على الأمور أن هناك مؤامرة تحاك ضدهم، من داخل هذا القبو، وعدد لهم أسماء الشخصيات الموجودة وبينها اسمك، استرعى ذلك انتباههم لأنك الوحيد الذي لا تنتمي لعالمنا، وهكذا أرسلوا المدعو حسني ليتقصى عنك، لكن الحرافيش جميعًا تضامنوا، وضللوا الرجل بحيث لا يصل إلى مكان غرفتك هذه، وفي الوقت نفسه طلب الجبلاوي من عاشور الناجي أن يختار عددًا من الحرافيش الذين يثق بهم لكي يخرجوا ويبحثوا عن إدريس، وحذرهم ألا يعودوا بدونه". "هل حدث كل ذلك في الأيام الثلاثة الماضية"؟ "لا هذه الأمور بدأت قبل إصابتك بفترة، ولذلك وضعت الحراسة من الحرافيش على باب غرفتك". "والآن ما الوضع"؟ "توصل الحرافيش لإدريس، واستطاعوا أن يقتادوه إلى هنا مقيدا كما أمر الجبلاوي، لكنهم عادوا بأخبار لا تسر، اكتشفوا أن المدينة غارقة في ظلام، بسبب مجموعات من الطيور التي تحلق بأعداد خيالية في سماء المدينة، يقول البعض أن ذلك عقاب من السماء على تفريطهم في كتب "الكبير"، بينما يقول آخرون إن هناك مخططات دولية للسيطرة، تقتضي التخلص من كتب الكبير، ثم قائمة أخرى من الكتّاب، بحيث يكون من السهل السيطرة على مكان لا يعرف أهله كيف يحافظون على تراثهم فيه".

كان كبرياء يتأملها وهي تتحدث. بدت له أجمل كثيرًا مما كان يتصور. أعمته ظنونه وأوهامه فلم يدرك جمالها في حينه. ليس جمال ملامحها، إنما جمال داخلي عميق، كان من السهل أن يتبينه بمجرد أن تبدأ في الحديث.

سألها عن طبيعة المهمة التي سيرسلونه إليها، فقالت له إن أهل القبو يعرفون مآل كتب الكبير، لكنهم لا يعرفون كيفية الوصول إليها، والشخصية الوحيدة المؤهلة لذلك من أهل القبو لم تكن موجودة، وبسبب الحراسة التي فرضت على مدخل القبو، أصبحت مهمة وجودها صعبة، لكنها قالت له إن عليه أن يتماثل للشفاء بسرعة لأن مهمته قد تبدأ أسرع مما يعتقد.

3

نهضت نجوى، وأحست بصداع يدق رأسها بعنف. نضت الغطاء عن جسدها، فبوغتت بعريها. فكرت أن ترتدي شيئًا. لكنها خافت أن تفهم جيسيكا من ذلك أنها تتراجع عن وعدها. لكنها في اللحظة الأخيرة، قررت أن ترتدي "تي شيرت" التقطته من على الأرض قرب الأريكة في غرفة المعيشة. توجهت نحو حقيبتها وعبثت فيها حتى وجدت شريطا من العقار الذي تتناوله عادة كمسكن للصداع. اتجهت صوب المطبخ لإعداد القهوة. بحثت عن أماكن الأكواب وآنية القهوة والسكر. لم تعرف كيفية تشغيل ماكينة القهوة. وضعت ماء في غلاية المياه، وبحثت عن قدح؛ وضعت فيه السكر والنسكافيه، ثم تناولت قرصًا من الدواء المسكن للصداع. بعد دقائق سمعت صوت خطوات جيسيكا التي جاءت خلفها، وألقت تحية بصوت ممتزج بآثار النوم. اقتربت جيسيكا من نجوى وقبلتها على وجنتيها بحميمية.

أعدتا القهوة والإفطار سويًا، وتناولتاه في هدوء على الطاولة الصغيرة التي تأخذ ركنا من المطبخ. كانت جيسيكا عارية. قالت لها نجوى: "هل التعري شرط حتى في غير أوقات التصوير"؟ "لم أفكر في الأمر. هل ما زلت تشعرين بالخجل مني؟. "أعتقد أننا لو عدنا خطوة للخلف فسوف نبدأ مرة أخرى من الصفر". "معك حق، لكن يبدو الأمر في الصباح هكذا غير طبيعي". "نعم أفهم ذلك، لكني فعلا أشعر بأن ما تحدثنا فيه كان أكثر من تعري الجسد بكثير". "معك حق". خرجت جيسيكا من المطبخ ونجوى خلفها تتأمل حركة ردفي جيسيكا الكبيرين المتنافرين مع جسدها الرشيق، قبل أن تقارن بينهما وبين ردفيها الممتلئين وجسدها البض.

قالت نجوى إنها ستأخذ حمامها حتى تفيق. وبعد ساعة أخرى كانت كل منهما قد أصبحت مستعدة، خاصة بعد أن أحست نجوى بانحسار آثار الصداع. ضحكت جيسيكا وهي تقول "صوَّرت كل شيء منذ بدأنا الفطور". "لا.. لا تقولي". "بلى، هذا ما حدث، أظن ذلك سيكون الجزء الأكثر تلقائية في الفيلم، وخاصة حوارنا الخاص بالتعري". "ولكننا اتفقنا أنني لن أظهر بوجهي في الفيلم". صمتا لوهلة ثم قالت نجوى: "لا تعتبري سؤالي هذا ترددًا أو سخافة، لكن ألا يمكن لنا أن نجلس بثيابنا الداخلية فقط؟ أليس هذا تعريًا أيضًا"؟ نظرت جيسيكا إلى نجوى وهي تبتسم لها كما تبتسم أم لابنتها الصغيرة ثم قالت: "أفهمك طبعًا، سيكون ذلك مريحًا لكلينا، لكني أظن أن مقاومة هذا الارتباك سيكون جزءًا من تطور الحدث في الفيلم، ليس مجرد المصارحة، ولكن مقاومة الخجل والارتباك،

ومحاولة تأكيد ذلك بالمزيد من التجرد في الحوار، لا أريد أن أصادر على التجربة ولكني أظن أن هذا هو الوجه الاستثنائي في الفيلم".

طلبت جيسيكا من نجوى أن تقوم هي بتصوير جزء من الفيلم، بحيث تتنقل بالكاميرا على موضع جلوسهما بالأمس، وما تبقى من آثارهما خاصة الملابس، ثم تبدأ في التركيز على حركة جيسيكا في البيت، من ظهرها، وهي عارية تمامًا. وفعلت نجوى ذلك، وأحست بشيء من الاستثارة. فكرت نجوى أن تبدأ هي بالأسئلة. قالت لجيسيكا: "هل لي أن أسألك لماذا تحبين كاتب"؟ التفتت جيسيكا، التي كانت جلست على الأريكة لتوها، فوجدتها تصوب الكاميرا باتجاهها. وضعت يدها على جبينها لتخفي بها وجهها بشكل لا إرادي، بسبب إحساسها المبالغ فيه برغبتها في إخفاء جبهتها. في مراهقتها كانت ترفض التصوير ظنًا منها أن شكل جبهتها يشوه ملامح وجهها.

أبعدت نجوى الكاميرا عن جيسيكا قليلاً، وعادت إليها وهي مسترخية على الأريكة، تنظر إلى النافذة الكبيرة أمامها. قالت: "لا أعرف، أنا أحب بعقلي. الرجل الذي يتعامل مع عقلي هو الرجل الذي أقع في غرامه فورًا. كاتب من هذا النوع. كلماته دائمًا تحمل معنيين. كأنه يختارها بعناية. أحب طريقته التي يبدو فيها شاردًا بينما هو في الحقيقة على وعي عميق بكل ما يبدو شاردا عنه. إذا لاحظت شروده ونبهته فإنه ينظر لي ويعيد كل كلماتي بدقة. لكن لا أستطيع أن أجيب عن سؤالك. أنا لم أشعر أنه جاد في علاقته بي. حتى لو أنه بالفعل يشعر تجاهي بمشاعر عميقة. أدركت أنه متجرد من الالتزام تجاه أي أحد بأي شيء". "هل أفهم من

ذلك أنكما متوافقان في الفراش بشكل يجعل كل الأمور الأخرى تأتي لاحقًا". اعتدلت جيسيكا لكي تحك ساقها بأناملها، بينما تتأمل ساقيها. عدلت جلستها، ووضعت ساقًا فوق أخرى، ثم قالت: "ربما، لكنني لا أفكر بهذا الشكل، الجنس أساسي جدًا طبعًا، لكن، كما قلت لك أنا، الجنس عندي يبدأ من عقلي، الرجل الذي يعرف كيف يمارس الجنس مع عقلي أولاً هو الذي أستجيب له جنسيًا بشكل مثالي، لو أنه يجيد الجنس فقط، لن أستمتع بالعلاقة، العلاقة عندي حوار مستمر، ليست مجرد ثرثرة وحكايات، إنما سجالات عن الحياة ومعنى ردود الفعل وفهم الدوافع وتفسير السلوك، هذا يثري العلاقة لأنه يعمق علاقتي بذاتي، ويجعلها أكثر وضوحًا، ويكشف لي شخص الرجل الذي أحبه، هذا يمتعني إلى حد الاستثارة، وبالتأكيد لو تواصل الحوار في الجنس نفسه، سيكون ذلك مثيرًا بدرجة أكبر، لكنني لن أخفي عليك، وحتى لا يبدو ما أقوله مجرد فذلكة: نعم نحن متناغمان في الجنس بشكل كبير".

وضعت نجوى الكاميرا على مائدة السفرة وحددت الكادر بحيث تظهر فيه جيسيكا في وضعها، وبجوارها الكرسي الوثير الكلاسيكي، ثم خطت خطوتين وجلست على الكرسي. بمجرد جلوسها نظرت لها جيسيكا، وكانت تضع يديها على بعضهما البعض، وتغطي بهما عانتها، قالت: "هل تعتقدين أن النتيجة ستكون مختلفة لو كانت بيننا علاقة مثلية"؟ "لا أعرف، لم أفكر في الأمر قبل ذلك، هذه العلاقات تصيبني بالهلع، لا أستطيع تصورها، طبعًا الآن يمكن أن أنظر للموضوع بشكل مختلف نسبيًا". "كيف"؟ وضعت نجوى ساقها اليسرى على اليمنى، وهي

تتأمل أصابع قدميها، لاحظت خدشًا طفيفًا في طلاء ظفر أكبر أصابع قدمها اليمنى، فحركته تلقائيًا، ثم قالت: "لا أخفيك أنني تأملت الكثير من أجساد الفتيات من صديقاتي على الشاطئ، وأعجبت بها، أنا مثلاً يعجبني جسد فاطيما، وأحب أن نهديها كاعبان، بصراحة عادة يثيرني شكل النهدين، لكنني لم أتوقف عند ذلك، هذا إعجاب عابر، أظن أن له طابعًا جماليًا أكثر من كونه استثارة شهوانية". ضحكت جيسيكا، فرمقتها نجوى بنظرة متسائلة، وهي ترسم ابتسامة بلهاء: "ماذا"؟ "لقد وضعت يديك تلقائيًا على نهديك وأنت تتحدثين عن إثارتك من نهدي صديقتك". "أشعر أن الحوار يأخذ مجرى معينًا". "ليس بالضبط، ما أضحكني فعلاً أنني فكرت أننا عندما نتعرى نصبح أكثر إنسانية، وقابلية للألفة والصدق، تخيلت حوارنا هذا لو أننا نجلس في مقهى نرتدي كامل ثيابنا، ونغلف وجوهنا بالأقنعة، لا أعتقد أننا كنا سنصل إلى نفس الانطباعات التي نكونها الآن".

صمتت نجوى وهي تلتفت إلى اليسار حيث تستلقي جيسيكا على الأريكة. عادت وحدقت في الأفق عبر النافذة المطلة على النيل. شعرت بحكة في ساقها. انحنت لتمرر أظافر إبهامها على موضع الحكة. قالت: "لا أعرف، هذه أول مرة أتعرض لمثل هذا التصور، ربما أن العري يجعلنا أكثر تجاوبا للانتقال بالحوار إلى مناطق حرة، أو حتى داعرة بشكل أسهل، أو على الأقل باستخدام كلمات صريحة ودقيقة. نعم. أعتقد ذلك فعلا. لكنني لا أظن ذلك ينطبق على تعري رجلٍ وامرأة ليس بينهما علاقة. أظن أن التعري في تلك الحالة سيكون مربكا، وموترًا". "لماذا"؟ "لماذا؟

لأنهما سيكونان مشغولين بالهاجس الجنسي، على الأقل من جهة الرجل الذي سيستثيره عري المرأة". "هل تعتقدين ذلك فعلاً"؟ "جيسيكا! هل لديك شك في أنهما سيتجاهلان المشاعر الحسية"؟ "لا لم أقصد ذلك، أعني هل الرجل فقط هو الذي يستثار من جسم المرأة؟ ألم يثرك رجل عار، بمجرد رؤية جسده"؟ ابتسمت نجوى، ورمقت جيسيكا، وهي تقول "أنت تسألين أسئلة صعبة". حل الصمت بينهما لفترة، وأخيرًا قالت نجوى: "دعيني أقول لك، نعم، معك حق، ليست لي تجارب كثيرة، لكني أذكر أنني في النادي كنت أستثار في حمام السباحة كلما رأيت أحد الشباب من السباحين المحترفين، كان صاحب جسد رياضي، في اللحظة التي يتأهب فيها لاتخاذ وضع القفز للغطس كنت أراه مثيرًا، كنت أظن أن لون بشرته البرونزية هو السبب، لكني أظن الآن أن ما أثارني دائما هو شكل صدره وكتفيه في لحظة التأهب لحركة الغطس". "وكبرياء"؟ "كبرياء.. لم أفكر كثيرًا في الأمر، تعرى لي، مرة بعد مناقشة عن الجنس وعن إحساسي بأن الرجال فقط هم الذين يستثارون بجسد المرأة بصريًا. لم أستثر، ما كان يثيرني فعلاً إحساسي بإثارته هو عندما أتعرى له وأنا أعرف أنه لن يستطيع أن يمارس الجنس معي. لكن دعيني أتذكر، آه، لأكن صادقة، أحسست بالإثارة أكثر من مرة كلما تأملت كتفيه". ضحكت جيسيكا قائلة: "كتفيه"؟ "نعم، الذراعين والكتفين، ولا تسأليني عن السبب، وماذا عنك أنت"؟ "ماذا عني"؟ "تعرفين أن هذا هو دورك". ضحكت جيسيكا ثم قالت: "هل تعرفين؟ أنا أشعر أننا في المكان الخطأ". "لا أفهمك". "أقصد أن الحوار بيننا يتطور، ويتطرق لمناطق حميمية، لكنه لا يعكس أننا نعبر

عن ثقافتين مختلفتين، أنت ليبرالية ومتحررة، أي...". "لا لا يا جيسيكا، فكرتك مجنونة حتى لو كنت قمت بها في كندا أو فرنسا، أو أي مكان آخر، حتى لو كنت في منتهى الليبرالية فحتى أفكارنا مختلفة عن التحرر، علاقتك أنت بجسمك في النهاية أكثر تحررًا من فكرتي أنا عن جسدي، أنت تعرفين أن جسمك حر، ويخصك وحدك من صغرك، أما أنا فأبدأ من منطلق آخر يرى جسدي ملكا للمجتمع والأب والعائلة ثم الزوج، و لم أدرك أنني أمتلك جسدي إلا أخيرًا، وكان إصراري على الاستعراء أمام كبرياء في جانب منه محاولة لإثبات ذلك، لنفسي أولاً وأخيرًا". "إذن"؟ "إذن لا تهربي من السؤال، هل يثيرك جسد كاتب"؟ "الحقيقة، نعم، قلت لك إنني أعجبت به من البداية".

لم تعلق نجوى بشيء، عدلت من جلستها على الكرسي الوثير، واستغرقت في التفكير. جيسيكا أيضًا ظلت مسترخية في نومتها على الأريكة. اقترحت نجوى أن تعد قهوة، ووافقت جيسيكا، واقترحت أن تتوقف عن التصوير لبعض الوقت: "هناك بعض الاتصالات الضرورية التي يجب أن أجريها". فكرت نجوى أنها تريد أن تتصل بكبرياء لتعتذر له عن عدم قدرتها على الالتحاق به في منزله كما أعلنت له مسبقًا.

نهضت وتوجهت إلى المطبخ. أحست بأنها أصبحت أكثر ائتلافًا مع عريها أمام جيسيكا. قررت أن تهاتف كبرياء بعد أن تنتهي جيسيكا من اتصالاتها. انتهت من إعداد القهوة في أثناء انشغال جيسيكا باتصالاتها. تجولت في غرفة المعيشة. شاهدت جهاز كاسيت صغيرًا وبجواره مجموعة من الاسطوانات. اختارت إحداها قرأت عليها اسم سيمفونية موسيقية

لشايكوفسكي. وضعتها في الجهاز وضغطت زر التشغيل فانسابت الموسيقى. تنشقت القهوة في القدح الخزفي الذي تحمله، وهي تتجه صوب النافذة، فيما تحرص أن تقف خلف الستارة.

سمعت جيسيكا تُطري على الموسيقى، فالتفتت إليها، واستأذنتها أن تستخدم الهاتف. ذهبت إلى غرفة النوم حيث يوجد الهاتف على الكومود المجاور للفراش. جلست على الفراش. وضعت ساقًا على الأخرى، واتصلت بكبرياء. أتاها صوته بعد لحظات. تأملت فخذها. لاحظت بقعة بنية صغيرة. أزالتها بإبهامها، وقالت لكبرياء: "صباح الخير". وضعت إبهامها على أنفها، فشمت رائحة قهوة مركزة. أدركت أن البقعة تكونت من ذرات قهوة علقت بفخذيها في أثناء إعدادها لها. قالت لكبرياء باقتضاب إنها ستؤجل الحضور إليه للسكن معه في الشقة ليومين آخرين. سألها عن السبب فقالت إنها ستشرح له لاحقا، ثم وضعت السماعة.

خرجت من الغرفة، واعتذرت لجيسيكا عن اضطرارها لاستخدام الهاتف، لأن هاتفها المحمول قد نفد شحنه. قالت جيسيكا: "لا عليك، تعالي فقد فكرت في سؤال جيد". "حقًا؟ ما هو". انتظرت جيسيكا حتى حضرت نجوى، وقالت: "لو أنك أغنية فأي أغنية كنت تفضلين أن تكوني"؟ "ماذا"؟ ابتسمت جيسيكا، ثم قالت: "لو أنك التقيت شخصًا لا تعرفينه لأول مرة، وأردت أن تعرِّفي نفسك بلا كلمات، فأي أغنية ستعبر عن شخصيتك". "أوه، لا، جيسيكا أنت بالفعل تسألين أسئلة صعبة.. دعيني أفكر، امم، لا أعرف".

حل الصمت بينهما، بينما ارتسمت على ملامح وجهيهما محاولة

التركيز. كانت كل منهما تستدعي ما تعرفه من أغنيات. لكن الأمر لم يكن سهلا. استدعت نجوى أغنيات عديدة، أغلبها أجنبية، وبعضها عربية، كلها من أغنيات تحبها، لكنها لا تعبر عنها بالضرورة.

رددت بصوت عال أغنيات للبيتلز، كاربنترز، كوينسي جونز، وأيضًا تذكرت موشحات قديمة سمعتها من فرق، وبأصوات مطربين مثل فؤاد عبد المجيد، لكن لا. لا تعبر أي منها عن نفسها. فكرت أن الموسيقى نفسها هي الأفضل تعبيرًا، وليس الأغنيات. قالت: "هل تعرفين أنا أفضل أن أكون مقطوعة موسيقية، محيرة مثل متاهة، بها لمسة من الشجن، وحادة مثل الحياة". لم تعلق جيسيكا بشيء، لكنها تأثرت من وصف نجوى للموسيقى وحاولت أن تترجم ما تقوله لمقطوعة موسيقية سمعتها هي من قبل. بعد فترة أخرى من الصمت قالت نجوى: "أظن أن أغنية "سؤال" لمحمد منير أغنيتي، إذا التقيت شخصًا لا يعرفني وأنا أغنية سيكون اسمي سؤال". قالت جيسيكا إنها لا تعرف الأغنية. أوضحت نجوى أنها من أغنياته القديمة، وأضافت: "سوف أمنحك فرصة لتسمعيها قريبًا، وأنت، ماذا عنك، لو أنك أغنية". "حسنًا كنت أفكر أيضًا، ولا أعتقد أن هناك أغنية يمكن أن تعبر عني". "هذا ليس عدلا". "ماذا"؟ "أنت تسألين أسئلة صعبة وتهربين من إجابتها". "لا، ليس الأمر هكذا، بالفعل، أنا لا أهرب، السؤال صعب كما تقولين، ربما هناك أغنيات لم نسمعها من قبل هي الأكثر تعبيرًا عنا. هل تفهمين؟ لكن على أية حال أظن أغنية "تَخَيّلْ"،

لجون لينين هي أنا". "آه، نعم هذه أغنية جميلة فعلاً.. لو لم تكن هناك جنة أو بلاد".

صمتا لوهلة ثم قالت نجوى فجأة: "علينا أن نعطي لشريطك السينمائي نوعًا من الحيوية، وإلا سيكون فيلمًا مملاً، لا بد أن نتحرك قليلاً، نشرع في التجهيز للغداء مثلا، وربما نرقص أمام الكاميرا، أو نعبر عن مدى التغير الذي حدث في علاقتنا خلال الليلة الماضية. نهضت جيسيكا، وهي تقول: "أو التغير الذي طرأ على علاقتك بجسدك! معك حق، حان وقت الحركة والإثارة، هيا بنا".

4

لم يصدق كبرياء ما يحدث. و لم يستطع مداراة ذهوله. مر أسبوعان على إصابته، والآن وجد نفسه في قارب فرعوني لم ير مثله في كل حياته، إذ يبدو قاربًا عملاقًا، وفي مواجهته جلست "رادوبيس"، ترتدي رداء أبيض لفّته على جسدها، كشف عن نحرها، وكتفيها. أمسكت بالمجدافين، وشرعت في التجديف، بحركة رتيبة وقوية، بحيث بدأ القارب يتحرك، وتزداد سرعته تدريجيًا. من خلفها كان النيل يتدفق إلى اللانهاية. بدت له المياه كأنها مياه محيط شاسع. الشمس الساطعة في السماء، لا تمنع لسعة برد هينة شابت الهواء الذي كان يلفح وجهه، وترتجف له ياقة قميصه، وتتطاير بسببه أطراف شعر رادوبيس الفاحم الطويل.

قالت له: " لم أكن أتخيل أن يسير الأمر على هذا النحو إطلاقًا". "كيف"؟ "كان من المفترض أن تتولى أنت التجديف بالقارب حتى نصل إلى منطقة الرياح، ونستطيع أن نفتح الشراع". لم يعلق بشيء. نظرت إلى الجبيرة في

ذراعه وكاحله المصاب وقالت: "كيف تشعر الآن"؟ "أشعر بتحسن كبير، لم يعد الألم كما كان". "عندما نصل إلى غايتنا ستنتهي كل آلامك". سألها عما تقصد، لكنها بدت متقطعة الأنفاس بسبب الجهد الذي تبذله في التجديف، بإيقاع واحد، وسرعة ثابتة، وبقوة لم يكن كبرياء يتخيل أنها تمتلك مثلها. قالت له إنها يجب أن تحتفظ بطاقتها للتجديف، وأن تمتنع عن الكلام.

بعد دقائق أخرى، قالت له إنها لا يمكن أن تتوقف عن التجديف. طلبت منه أن يزيح ثوبها من على الكتفين، عندما تهبط بذراعيها، وتلتقي كفيها، بينما المجدافان في الأعلى، اقترب منها، وكأنه يقترب من قربان مقدس، وخلال ثلاث مرات، من حركة التجديف المتواترة، ومحاولة ضبط توقيت حركته مع انسياب الذراعين، تمكن، بذراعه السليمة، من حل عقصة الثوب خلف ظهرها. انساب ثوبها من على كتفيها حاسرًا عن نهديها العاريين. أصبحت جالسة ونصف جذعها العلوي عار. لكن يده المجبرة التي استند بها على عصاه لم تحتمل، فخذلته، وسقط على أرض القارب، وهو يصرخ من الألم. بينما ظلت "رادوبيس" تحدق به في أثناء تجديفها، محافظة على رباطة جأشها، فبدت وكأن لسان حالها يسأل: "ألم يجدوا لي غير هذا التعيس لهذه الرحلة"؟

كانت تعض على شفتيها، تعبيرًا عن إرهاقها الشديد. انسالت قطرات العرق على جبينها، ونحرها، وبين نهديها الكاعبين. عاد كبرياء إلى مكانه، بينما يراوده شعور بالخجل من الموقف، يحاول إخفاء ملامح الألم من وجهه. كان يرقب حركة نهديها حين تعود بجذعها للخلف،

وتفتح ذراعيها، بينما ينسكب الثديان المثاليان متهدلين قليلاً، كل منهما إلى طرف البحر القريب، يسطعان بالأبيض الشاهق بفعل انعكاس ضوء الشمس عليهما، ثم يعودان ليتكورا ويكبرا، ويقتربا من بعضهما البعض حتى يكادا أن يتماسا حين تقرب كفيها اللذين يمسكان بمقبضي المجدافين المضمومين إلى صدرها.

كان كبرياء يشعر بأنه مسحور. يكاد لا يصدق وجوده في هذا القارب الطويل الأنيق المصمم على طراز القوارب الفرعونية القديمة، ولا ما حدث خلال الليلتين الأخيرتين، في القبو؛ حيث ثارت أحداث جلل. اكتشف كبرياء في الأيام الأخيرة أن القبو، الذي يبدو مدخله مجرد كوة صغيرة، ما إن يتوغل الفرد داخله حتى يصبح متاهة بلا نهاية. عندما شعر بأنه يستطيع أن يمشي، وبسبب الجلبة والضوضاء غير الطبيعية التي كانت تتناهى إليه في غرفته، طلب عصا من حراسه وخرج من غرفته يسير متعكزا على عصاته، بينما ذراعه الأخرى محمولة برباط على كتفه. انحرف يمينا فسار في مدق ضيق، معتم، جدرانه الحجرية مقبضة، تفوح منها روائح الغبار والعطن. بعد فترة، سمع صفير ريح، وبدأ المدق يتسع، وتتحول عتمته إلى إضاءة كابية، راحت تتوهج كلما سار قُدُمًا، حتى وجد نفسه في نهاية المدق أمام ميدان فسيح، يكاد لا يرى أطرافه من فرط اتساعه، و لم يعرف أي طريق يختار. في النهاية انحرف إلى طريق مترب تختلط فيه الحجارة بالتراب، على يمينه تتراص محلات ومقاه قديمة، بينما ينكشف يساره على خرابة مقفرة ذات أرضية لها لون أحمر طوبي داكن، تتناثر بها قطع من حجارة، وبعض الشجيرات العشوائية.

كانت المحال مغلقة جميعًا، وبرغم الصمت المطبق على الشارع كان كبرياء يشعر بالوجل. أحس بأنه اختار الطريق الخطأ، وكاد أن يتوقف ليعود، لكنه تمزق بين رغبة اكتشاف الشارع الغريب، وبين العودة. حسم تردده عندما وقعت عيناه على لافتة معلقة على باب أحد المقاهي المغلقة "مقهى حارة الجبلاوي"، فقرر أن يتقدم. سمع صوت رجل كهل ينادي بضعف: "تمر حنة، تمر حنة". فتوقف. أنصت لكي يحدد الاتجاه الذي يأتي منه الصوت، لكنه لم يتكرر. ثم أطبق الصمت بشكل مخيف جعل كبرياء يسمع صوت أنفاسه، وكأنها صوت رياح عتيدة، ومن بعيد تراقصت أصوات أخرى كأنها لحشود تسير في مسيرة.

ورفع رأسه فأدرك أن هذا الجزء من القبو لا تغطيه أسقف أو مظلات.

"وكانتْ ريحٌ باردةٌ تهبُ بشدة باعثةً عواء، وركضتْ السحبُ في السماءِ كأنها مُطاردة، فتساءلوا هل ينهلُ المطر؟ وترامت ضجةُ المتجمهرين في الخارجِ حتى ابتلعت مواءَ القططِ، ونباحَ الكلاب. وهتفت تمرِ حنّة محذرة جاءت الشياطين". (أولاد حارتنا 204).

مر على زقاق جانبي فوجد فيه جمعًا غفيرًا من الرجال والنساء يمسكونِ بالعصي، والأحذية وأواني الطبخ، لكنهم، رغم تأهبهم لا ينبسون بشيء، ووجد في مقدمتهم امرأة عجوزًا، تتشح بالسواد، تطل من عينيها شدتها وقوة بأسها، عرف أنها من تدعى "تمر حنة". أشاروا له جميعًا بلا صوت أن يتجه نحوهم، وأشارت له تمر حنة بغضب إلى الاتجاه الذي يسير فيه، ففهم إشارتها بأنه قد يواجه خطرًا إذا واصل السير في الطريق، فدفع بنفسه صوبهم بسرعة.

قالت له تمر حنة أن يدافع عن نفسه بعصاه إذا اقتضى الأمر. "وتكتل الهاجمون على البوابة وراحوا يدفعونها بمناكبهم بقوة وعزيمة. وواصلوا الدفع بشدة حتى ارتج الباب وتخلخل. وتراجعوا متحفزين ثم اندفعوا نحوه بقوة وصكوه صكة واحدة فانفتح على مصراعيه".

"وما كادوا يتوسطون الدهليز حتى مادت أرضه بهم بغتة وهوت بمن عليها إلى قاع حفرة عميقة. وفي سرعة مذهلة فتحت نوافذ الدور على جانبي الدهليز وانصبت المياه من الأكواز والحلل والطشوت والقرب، ورأى الأعوان ما حل بفتواتهم فلاذوا بالفرار، وترك الفتوات لمصيرهم دون معين. واشتد انصباب الماء، والأحجار، وتهاوت النبابيت بلا رحمة. وترامت إلى الناس استغاثات ندت عن حناجر لم تألف طوال حياتها إلا السب والقذف". (أولاد حارتنا ص 206).

سمع صوتًا نسائيًا ينادي عليه، التفت صوب الجهة التي يأتي منها الصوت، المختلط بالجلبة والضوضاء، فوجد "زينب دياب" وهي تتنقل بين الجموع، وتحاول أن تخلص لنفسها طريقًا بين أكوام البشر، حتى وصلت إليه. "ما الذي جاء بك إلى هنا"؟ "أحسست بالملل، وقررت أن أتمشى قليلاً، فضللت الطريق". "تعال معي". أعطته ذراعها فاستند إليها، وراحا يشقان طريق العودة إلى حيث مكانه في القبو. عندما اقترب من الزقاق المؤدي إلى غرفته شاهد على الأرض المتربة بقعًا من الدم، ومن بعيد سمع صوت عويل لرجل يصرخ بحرقة. سأل زينب عما يحدث، فقالت له أن يصبر حتى يدخلا سكنه. فور أن دخلا الغرفة أسرع كبرياء إلى الفراش، وألقى بنفسه، وهو يشعر بالألم في كل جزء من أجزاء جسده. اقتربت منه، ونزعت حذاءه. تأوه عندما أمسكت بكاحله المصاب. اعتذرت له،

ثم قالت له وهي ترسم ملامح الغضب: "نحن هنا لسنا في نزهة، إليك حقيقة الوضع، لقد أصبحت الحارة في الخارج خرابًا كاملاً، اختلط كل شيء، وأصبح الفساد يعم المكان، الطيور التي تغطي السماء تتكاثر كل يوم، وأغرقت المدينة كلها بسخامها، ناهيك عن ضوء الشمس الذي ضل الطريق إلى أرجاء المدينة فباتت تغرق في الظلام، انتفضت ثورات أحفاد الحرافيش، لكنهم، على عكس أجدادهم، لا يعرفون أصول الفتونة، فتحول الأمر إلى كارثة، الظلام أدى إلى عمى الكثيرين، والآن أصبح القبو حلمًا للجميع، لكن الجبلاوي أمر ألا يقترب من هنا أحد، خاصة وهو يشعر بالغضب من حالة تبديد كتب الكبير، التي تعني ضمنيًا، محو تاريخ الجبلاوي وأبنائه جميعًا، لكن استطاعت أجهزة سرية أن تخترق المكان عن طريق الشخص الذي حدثتك عنه. واليوم حدثت مفاجأة مدهشة، فقد استطاع "زيطة" ، صانع العاهات في "زقاق المدق"، أن يعرف مكان حسني، وغافله وهو نائم واستخدم سيخًا حديديًا ليقتلع عينًا من عينيه، وحسنًا فعل، فلعله لم يفعل شيئًا نافعًا في حياته سوى ما فعله اليوم، لهذا قرر الجبلاوي أن تبدأ رحلتك غدًا، خاصة أن أتباع الناجي قد توصلوا إلى مكان الشخصية التي سترافقك في تلك الرحلة، وهم أيضًا سيكونون غطاءك للخروج من هنا، وحتى مرسى النهر الكبير".

سألها كبرياء: "زيطة؟! وما شأنه بالأمر كله؟ أكاد لا أعرفه". "لله في خلقه شئون، لكن كيف لا تعرفه إذا كنت قرأت زقاق المدق؟ ألم أقل لك إنك مثلك مثل غيرك ممن يتشدقون باسم نجيب محفوظ مدحًا وقدحًا وهم لا يعرفون عنه شيئًا".

أطرق كبرياء، وحاول استدعاء ما يتذكره من زقاق المدق، فاستدعى المعلم كرشة صاحب المقهى، وعباس الحلو، وحميدة، وأم حسين زوجة المعلم كرشه التي ذاقت الأمرين لاكتشافها أن زوجها مثلي يعشق الرجال ويفضلهم عليها، وحتى الشيخ درويش الذي علق ساخرًا عندما ضربت أم حسين شابًا من عشاق زوجها فقال: "يا معلم، امرأتك قوية، فيها من الرجولة، ما يعوز الكثيرين من الرجال، هي ذكر وليست بأنثى، فلماذا لا تحبها"؟ ابتسم كبرياء حين تذكر شخصية الشيخ درويش. سألته عما يضحكه فأخبرها. أغرقت عينا زينب الحزينتين بالضحك لأول مرة، ثم تذكرت ما عقّب به درويش عندما نهره كرشة على ما قاله: "هذا شر قديم يسمونه في الإنجليزية Homosexuality وتهجئتها homosexuality، ولكنه ليس بالحب، الحب الحقيقي لآل البيت. تعالي يا حبيبتي..تعالي يا ست. أنا عاجز يا أم العواجز". (زقاق المدق 110).

ضحكا معًا بصخب. تأملها كبرياء مدركًا مدى تألق جمالها عندما يختفي الحزن من عينيها. التفتت إليه وقالت: "ها أنت تعرف الشيخ درويش، فلماذا لا تتذكر زيطة؟ " فهز كتفيه بعدم اكتراث، فقالت له: " يُرى مرة واحدة كيلا يُنسى بعد ذلك أبدًا، لبساطته المتناهية، فهو جسد نحيل أسود وجلباب أسود، سواد فوقه سواد، لولا فرجتان يلمع فيهما بياض مخيف هما العينان ، كان يصنع العاهات، عاهات صناعية من نوع جديد. يقصده الراغبون في احتراف الشحاذة، يتسلى بالتجسس على القرّان والقرّانة، ولكم يلذه أن يسترق السمع لما يدور بينهما من حديث، أو أن يشاهد من ثقب الباب انهيال المرأة بالضرب على زوجها صباح مساء، وربما قطع فراغه الطويل في تخيل

صنوف التعذيب التي يتمناها للناس، واجدا في ذلك لذة لا تعادلها لذة". (زقاق المدق ص 60، 61).

هتف كبرياء: "تذكرته، الملعون! هل حضر للقبو؟ لقد فاتتني فرصة لقاء هذا الشخص العجيب". ضحكت زينب، وقالت: "لا لم يفتك شيء إطلاقا، فرائحته النتنة كفيلة بأن تجعلك تتجنبه على بعد كيلومتر كامل". ضحكا معًا، ثم صمتا لوهلة، فسألها كبرياء: "إذن بسبب هذا الشخص الدميم، تسارعت الأمور، وأصبح عليّ الآن أن أنفذ المهمة الغريبة التي لا يريد أحد أن يطلعني على سرها"؟ هزت رأسها بالإيجاب. كان كبرياء يلهث، من فرط استثارته مما يسمعه، ومن إحساسه بالمسئولية عن مهمة لا يعرف عن طبيعتها شيئًا، كما كان يشعر بالغضب من إصابته التي تعيقه عن التحرك بشكل سريع.

استعاد ما قالته زينب عما حدث في المدينة التي أصبحت أقرب لمدينة أشباح، يعيش فيها أهلها مفزوعين، مسجونين في بيوتهم، خوفًا من طيور مجهولة تحلق في السماء بلا توقف. انخطف قلبه، وهو يفكر فيمن تبقى من معارفه في المدينة. تذكّر فاطيما بنوع من الحنين، وكذلك هديل. طمأن نفسه بأنهما لا بد قد غادرا القاهرة منذ زمن، لديهما الإمكانات التي توفر لهما الخروج من البلد إلى أي مكان في العالم وقتما تشاءان. ليس لهما يد في ذلك، لكنهما تنتميان إلى عائلتين موسرتين، وهذا قدرهما. تذكر بأسى محيطه الصغير؛ أمه وجدّه، ونجوى. فكر بأن موتهم جميعًا ربما هو الخلاص من هذا القدر اللعين الذي يعيشه.

بدا على رادوبيس، وهي تتأمل كبرياء، دون أن تتوقف عن التجديف، أنها تعرف ما يدور برأسه. قالت له: "لا تقلق، ستكون بخير".

بدأ كبرياء يشعر بالضياع، فقد اختفى من حولهما أي أثر ليابسة، أو حياة. "هل جاء الطوفان مرة أخرى، وجاءت رادوبيس لتخلصني؟ هل سنبدأ مسيرة البشر"؟ ضحكت رادوبيس ضحكة صاخبة كشفت له جمال صوتها، كما كشفت له قدرتها على قراءة خاطره. ثم قالت وضحكتها لا تزال مرسومة على وجهها: "بعد قليل سندخل في مسار الريح، وسأتوقف آنئذ عن التجديف". هز رأسه متفهما، وهو يراقب حركتها الرتيبة التي لا تتوقف، دون أن يستطيع إخفاء إعجابه بفتنتها، وبجمال نهديها. قالت: "كأن قدرك أن تعيش هذه الحالة باستمرار". "أية حالة"؟ "أن ترى محبوبتك عارية دون أن تلمسها، وها أنا أيضًا، عارية أمامك، بينما تعجز عن لمسي أو الاقتراب مني". ضحك كبرياء لأول مرة، وقال لها: "ضعي نفسك مكاني، ماذا يمكنك أن تفعلي"؟

5

استيقظت جيسيكا وهي تشعر بالضيق. استاءت لإحساسها بالاكتئاب في هذا الوقت المبكر من الصباح. تذكرت أن موعد دورتها الشهرية قد اقترب. حسبت الأيام. قالت ربما تأتي غدًا أو بعد غد. نهضت وهي تتأمل نجوى مستغرقة في النوم على جنبها، وقد أزاحت الغطاء عن جسدها.

انتهت من إعداد القهوة، وأحضرت سجائرها، وجلست بجوار الشرفة الواسعة. نهضت ودخلت الغرفة، ثم عادت وهي ترتدي "روبًا" حريريًا أبيض واسعًا، وخرجت إلى الشرفة تمسك بقدح قهوتها والسيجارة. انتعشت للنسمات الباردة التي هبت فور أن فتحت باب الشرفة. جلست وهي تتأمل النيل، ثم وسعت زاوية النظر إلى الأفق، حيث الضفة الأخرى المطلة على حي إمبابة، تحرسها سلسلة العوامات الخشبية المتراصة بجوار بعضها البعض. كان الهدوء سيد المكان، فلم تكن الساعة تجاوزت السادسة.

تصاعد إحساسها بالضيق، وسرعان ما أحست برغبة في البكاء. كانت تفتقد كاتب. تشعر بأنها تخلت عنه في وقت بدا كأنه أكثر أوقاته احتياجًا إليها. فكرت في نجوى، وأحست نحوها بعاطفة عميقة. تأكدت في تلك اللحظة أن التجربة وثقت علاقتهما بشكل عميق في هذا الزمن القياسي. داهمتها وخزات الندم، لأنها ابتزت نجوى بهذا الشكل لكي تعطيها نسخة الرواية.

استعادت تفاصيل نجوى في الرواية، وخاصة لحظات موتها كما وصفها كاتب الكاشف، فشعرت بغصة، وبدأت في البكاء. تساءلت في أوج نحيبها: هل يمكن أن تكون الرواية نبوءة بالفعل. أليست مجرد رواية تصادف تشابهها مع بعض الوقائع في الحياة كما يشيع في عشرات، بل مئات الروايات؟! وإذا أعطيت الرواية لنجوى، وعرفت أن مصيرها هو الموت ماذا ستفعل؟

دخنت سيجارتها بتوتر، وتجرعت قهوتها، وهي تشعر بأنها دخلت متاهة لا تعرف كيف يمكن أن تجد لنفسها فيها طريقًا. قررت أن توقف تجربة تصوير الفيلم، وإتلاف الشريط. قالت لنفسها إن نجوى رغم كل التشتت الذي تعيشه، ورغم العذاب الذي أذاقته لكبرياء، ليست سوى امرأة ضعيفة، وطيبة، ولا تستحق أن تفعل بها ما فعلت. قررت أن تعلن لها ذلك فور أن تستيقظ، وأنها لو أرادت بإرادتها أن تستمر في التجربة يجب أن تفعل ذلك وهي على يقين من أن ذلك بلا مقابل. احتلت ملامح كاتب كل خيالها. أحست بالاشتياق إلى حضنه. استدعت احتمالات ما يمكن أن تكون عليه حالته في تلك اللحظة. فكرت فيما فعلته. عاودها

الندم. هل تأثرت بحالته المرضية، وتسللت إليها بمرور الوقت عدوى أصابتها بحالة نفسية مرضية ؟ أحست باشتياقها له يتكثف في أعماقها. لكنها كانت على يقين من أنها لو أرادت استعادته ستحتاج إلى الكثير من الجهد والوقت. لو فقد ثقته فيها، فلن يمكنها أن تستعيد علاقتهما نهائيًا. على الأقل طالما ظلت حالته النفسية على ما هي عليه. لم يعد لديها شك أنه يعاني من حالة رهاب. أحست بسخف تصرفها، وظلت تصف نفسها بأنها غبية، غبية، غبية.

لم تستيقظ نجوى إلا بعد مرور ما يزيد على ساعتين. لحقت بها في الشرفة، أطلت بوجهها من خلف الباب الزجاجي بنظرة ناعسة ودود "صباح الخير". لاحظت الدموع المترقرقة في عينيها، فأصابها الجزع. سألتها عما بها؟ لكن جيسيكا ابتسمت لها بمحبة وهي تؤكد أنها استدعت ذكريات عدة، وتعاني من الحنين. وأضافت "يبدو أن التجربة تفتح الذاكرة على مصراعيها". "أي تجربة"؟ "تجربتنا هذه". "يبدو مزاجك غريبًا هذا الصباح، سأفيق وأعد قهوتي وأعود إليك".

استمر النقاش بينهما لما يزيد على ساعتين، واتخذا موقفين متضادين. جيسيكا تحاول إقناع نجوى بانتهاء التجربة، وبأنها استفادت منها على نحو شخصي، لكنها لن تستطيع الاستمرار وهي تشعر بأن التجربة مبنية على الابتزاز. ثم صمتت وبدت موشكة على البكاء وهي تقول إنها كلما فكرت في الطريقة التي أقنعت بها نجوى لتنفيذ الفكرة تحتقر نفسها. أما نجوى فقد أبدت تحمسها لاستمرار التجربة، لأنها أعادت من خلالها

اكتشاف مساحات من ذاتها لم يسبق لها أن طرحتها للتفكير. ولأنها تجربة خاصة جدًا، ولا يمكن تكرارها بسهولة. قالت أيضًا إنها لم تعد تكترث للطريقة التي تم بها الاتفاق على تصوير الفيلم، بعد النتائج التي توصلت إليها خلال اليومين الماضيين.

"الغاية تبرر الوسيلة. هل هذا ما تقولينه؟ لم أعتقد يوما أنني سأندفع لأنفذ هذا الكلاشيه الذي احتقرته مدى حياتي، أشعر يا نجوى بأنني تقمصت دور شيطانة لكي أقنعك بالفكرة، ناهيك عن أنني سلبت الرواية من كاتب، أعرف أنه لن ينشرها، لكنها في النهاية روايته التي استغرق في كتابتها خمسة أعوام كاملة. هل رغبتي في تنفيذ فكرتي أعمتني عن كل شيء فجأة؟ أنا خائفة من نفسي يا نجوى، هل تفهمينني"؟ "ليكن، من منا لا يخطئ، أو يسيء تقدير الأمور من وقت لآخر، لكن اهتمامك بالأمر على هذا النحو يكشف مدى صدقك، واعترافك بالخطأ وهذا يكفي، فلماذا تصرين على أن تجلدي نفسك بهذه القسوة"؟ "لن أسامح نفسي إلا بعد أن أعطيك الرواية، وبعد أن تنتهي منها بإمكانك في تلك الحالة أن تقرري الاستمرار في التجربة أو إعدامها، وفي الحالتين سأكون ممتنة طالما أن ما ستختارينه سيكون قرارك الذاتي النابع من إرادتك أنت".

صمتت نجوى لوهلة، ثم قالت لها: "لا بأس، طالما أنت تصرين، ولو أني أرى أننا أنجزنا ثلث التجربة، و لم يتبق سوى القليل. إضافة إلى أننا دخلنا في مزاج ربما لن نتمكن من استعادته لو انقطعت التجربة وحاولنا استكمالها لاحقا". نهضت جيسيكا من مكانها ودخلت إلى غرفة النوم. اختفت لبضعة دقائق، ثم عادت وهي تحمل مسودة مخطوط الرواية المجلدة في

غلاف بلاستيكي شفاف. مدت يدها إلى نجوى فتلقفتها منها وهي تتأمل العنوان، واسم كاتب أسفله. فكرت قليلاً، ثم قالت لها: "حسنًا، ليكن، سأقرأها أولاً، حتى تقتنعي بأنني أريد تنفيذ التجربة بكامل إرادتي".

شرعت نجوى في قراءة الرواية على الفور. اندفعت، مجذوبة بتأثير التشابه الدقيق بين سيرتها الذاتية وبين ما هو مكتوب في الرواية. التطابق مدهش. لا يمكن أن يكون المدعو "كاتب" هذا إلا ساحرًا، أو عرَّافًا. مع استمرار القراءة اكتشفت أنها منجذبة أيضًا لأسلوب كاتب نفسه. ضبطت نفسها وهي تضحك مرات، كما بكت أكثر من مرة. أحست بمدى حبها لكبرياء كلما قرأت عنه. لكنها صدمت عندما وصلت إلى الفقرة التي كتب فيها كاتب عن مصير نجوى وموتها. أعادت قراءة الفصل مرة أخرى. قالت إنه يعتمد أحيانًا على تقنية الحلم، ربما يقصد أن تلك الأحداث كابوس رآه كبرياء في أحلامه، لكن مع إعادة القراءة اكتشفت أن ذلك ليس سوى المصير الوحيد المقدر لنجوى، بطلة الرواية، فبكت في صمت.

أحست بأنها تعيش حالة غريبة، وغير مفهومة. ماذا يحدث؟ كنت سأنتقل لأعيش مع كبرياء قبل يومين، بعد أن قررت الهروب من جحيم الحياة مع أمي. والآن أنا هنا في شقة فتاة مصرية كندية، أعيش معها، عارية تماما، كأنها عشيقتي، وأحكي لها عن كل تفاصيل حياتي بأريحية، ورضا، كأنني أسعى للتطهر، وبين يدي نص رواية لكاتب مغمور، أرى فيها كل تفاصيل حياتي، بينما هو يؤكد أنه لا يعرفني ولم يسمع عني، ومع ذلك فلم يترك شيئًا يجعلني أصدق أنها مصادفة. وصفي الجسدي

وملامح وجهي، موت أبي، صداقاتي، رقصي، وجنوني، وحبي لكبرياء، وعملي بالبنك. لا يمكن أن يكون إلا ساحرًا، أو روحًا شريرة. أعادت قراءة فصول الرواية التي تتناول حياتها، وتوقفت عند الفصل الخاص بموتها، وأحست بتشوش مشاعرها . كأنها وقفت أمام غجرية أو قارئة كف عجوز، أنصتت لوشوشات الودع، ولأشباح خفية، ونظرت بعينيها الذاويتين المحاطتين بالتجاعيد، للأفق، ورأت ما لا يراه سواها، ثم ألقت به كالسم في أذنها: ستعيشين حياة متقلبة، كأنك تمشين على جمرات من نار، وسوف تموتين في ريعان شبابك في حادث أليم.

وضعت مخطوط الرواية على المنضدة المجاورة للكرسي الوثير المتأرجح، في غرفة المعيشة. اتكأت بمرفقيها على فخذيها العاريين ودفنت وجهها في كفيها. لم تعد تحتمل الأفكار التي تعصف برأسها. أجهشت في البكاء. هرعت إليها جيسيكا ركضًا من الغرفة. ربتت على كتفها العاري. مسحت على شعرها الطويل، وطلبت منها أن تهدأ، وأن تهون على نفسها. التفتت نجوى إليها، وعيناها تحملان تعبير سؤال ودهشة، ثم عادت للبكاء. أمسكت جيسيكا بيديها وساعدتها على النهوض. احتضنتها، فاستسلمت نجوى لحضنها. ربتت على ظهرها. حاولت أن تهدئها. قالت إنها أرادت أن توقف تصوير الفيلم، وإنها أحست بتأنيب الضمير. عرضت عليها أن تساعدها في أي شيء ترغب في أن تفعله. لكن نجوى لم تنطق بشيء. أفكارها مشوشة. مشاعرها مختلطة. امتنانها لجيسيكا في تلك اللحظة كان مختلطًا بمشاعر غضب، واحتقار. لكنها كانت على يقين من أن جيسيكا ليست سيئة كما قد يبدو. سمعت

منها الكثير عن حياتها، وعلاقاتها، ورؤيتها للعالم، وللحياة. إحساسها بالمسئولية، ونكرانها للذات.

أحيانًا يكون الصمت أفضل بكثير في التعبير مما تفعله الكلمات المضطربة. لذلك آثرت نجوى الاستمرار في صمتها. والاستكانة إلى حضن جيسيكا، وهما جالستان على الأريكة، يتسلل إليها نوع من الهدوء بينما أنامل جيسيكا تمر على كتفها ووجهها، تسبب لها قشعريرة خافتة، تخفف من توترها تدريجيًا.

بدا الاستسلام لجيسيكا، ومداعباتها اللطيفة أفضل ما يمكن أن تفعله نجوى في تلك اللحظة. خاصة أنها كانت تفكر في الأثناء فيما يتوجب عليها أن تفعله. هل تواجه قدرها، وتعتبر أن ما قرأته مجرد مصادفة أنتجها خيال جامح لكاتب منزوع عنه الحجاب، بالرغم من أنه لا يمتلك أية قدرات خفية تمكنه من التنبؤ بالمستقبل، وتلقي بنفسها في أحضان كبرياء، بعد أن تغلبت مشاعرها وبدت مرتاحة لأن تبدأ معه علاقة كاملة؟ أم أن تحاول تغيير مصيرها. لكن كيف يمكن أن تغير مصيرها؟ إذا كان موتها مرهونا بممارسة الحب مع كبرياء، فما عليها سوى أن تستدعي قواها الباطنية، كما فعلت كثيرا، وتنهي علاقتها به. نعم لعل هذا هو أفضل الحلول. أن تراوغ قدرها، وتنحرف به عن المسار بحيث تتجنب سوء الطالع. أرادت أن تحدث جيسيكا عما يدور بخلدها، لكنها أحست بالوهن الذي جعلها أكسل، وأضعف من أن تنطق بحرف. تسلل عبق لطيف غامض من بين نهدي جيسيكا. كانت نجوى ألقت برأسها على كتفي صديقتها مستسلمة لكفها التي كانت تداعب شعرها ووجنتها وكتفها بلا توقف. ثم عدلت

وضعها بحيث استلقت على جنبها وأسندت رأسها على فخذي جيسيكا وقررت أن تغفو هربًا من الأسئلة المعلقة القاتلة.

6

توقفت رادوبيس عن التجديف أخيرًا، رفعت المجدافين عن المياه، ووضعتهما متوازيين في مكانيهما المتقابلين على جانبي القارب. نهضت؛ خائرة القوى، تكاد لا تشعر بذراعيها من شدة الألم ثم اتجهت إلى الصاري في مقدمة القارب، متجاوزة كبرياء. حلت رباط الشراع، ثم شرعت تجذب طرفًا منه وتشده إلى الأسفل بقوة، بينما كان الشراع يرتفع وينبسط، ويتعملق حتى أصبح مثل جناح طائر عملاق، امتلأ بالهواء، فتسارع القارب يشق المياه، في طريقه الغامض وسط المياه التي كانت تحيط به من كل جانب.

عادت رادوبيس إلى حيث كانت تجلس. ألقت بنفسها واضطجعت نائمة على ظهرها، كاشفة نهديها العاريين وهي تلهث كأنها على وشك الاحتضار. اقترب منها كبرياء، ففتحت إحدى عينيها وقالت له بنبرة خبيثة: "مكانك! إوعى تلمسني، لو لمستني هامشي دلوقت

ومش هاتشوفني هنا تاني أبدًا". ارتعش كبرياء، و لم يعرف هل يضحك أم يبكي؟ كان صوت رادوبيس في تلك اللحظة كأنه قادم من زمن آخر، يكتسي بنبرات صوت نجوى.

قال لها: "أنا لا أفهم". أشارت له مقاطعة، وقالت: "لم تعد لدي طاقة، لقد أنهكت، اتركني لأنام، فقط ابق بجوار الدفة، واحرص على أن يظل القارب في مسار مستقيم، ولا توقظني من النوم أيًا كان السبب".

استلقت على جنبها، بعد أن أحكمت ربط طرفي ردائها العلويين حول رقبتها. وسرعان ما غطت في نوم عميق. تأملها كبرياء بنوع من الحيرة. نظر إلى الأفق البعيد، بينما ينصت لصوت القارب وهو يشق المياه في تصميم. بدا القارب العملاق، وهو ينطلق على سطح المياه بتلك السرعة، كأنه ينطلق بدوره، مسافرًا، في رحلة عبر الزمن. استعاد شريط حياته كاملاً، بكل من مروا بها، عابرين ومقيمين. دق رأسه بالألم، وومض بلقطات لأناس لا يعرفهم، ثم بلقطات لشخصيات من القبو. استعاد الأيام التي قضاها هناك. وتوقفت ذاكرته عند كل شخصية من الشخصيات التي التقاها هناك، كمال عبد الجواد، أحمد عبد الجواد، الست أمينة، عاشور الناجي، الحراس من الحرافيش، زينات، وزينب دياب. توقفت ذاكرته عند صورتي زينات وزينب دياب بنوع من الحنين. تذكر زينات، بجمالها المصري الشعبي، العصري، بشكل ما. استعاد حضورها، وعريها، كنموذج لحضور جسد امرأة مصرية، له نكهة خاصة جدًا، لكنها، على عكس الشائع، لم يكن لها جسد أعمى، وإنما جسد

حي، يفيض بالحيوية، يعرف كيف يرتوي، وكيف يصبح موضعًا لشهوة حارقة، أو موضعًا للحنو والاحتضان والدفء. أما زينب دياب، فقد اكتشف فيها صديقة حقيقية، بإمكانه أن يجلس معها لساعات، يتبادلان الحوار بلا كلل. ذكرته بنجوى، بشكل ما، وأحيانًا، حين كان ينصت إليها يستدعي وجه نجوى بلا سبب، لكنها كانت، على عكس نجوى، تطل على العالم بعينين تفيضان بالحزن. ودعته وداعًا حارًا قبل أن ينطلق متخفيًا من القبو، محاطًا بجموع الحرافيش، لكي يختفي بينهم، وحتى الشاطئ حيث رسا القارب. احتضنها بقوة، واعتذر لها عن سوء الظن.

حاول أن يستعيد صورة الجبلاوي، فلم يستطع. المرة الوحيدة التي رآه فيها، يقف مع الناجي وأحمد عبد الجواد، كان قد أولاه ظهره. بدا مهيبًا شامخًا. لكنه، لم يستطع أن يرى وجهه. داهمه إحساس مخيف بالوحدة. كان يشعر في تلك اللحظة بأنه يواجه العالم وحيدًا تمامًا. ليست وحدة افتقاده لأهله الذين مات أغلبهم، ولا لأصدقائه. بل ذلك الشعور الذي يعرفه كل من حاول أن يتصور الموت. الفصل الختامي من لعبة نبدأها بالوحدة، ونختتمها بالوحشة. لكن بينما العزلة التي تسبق الميلاد هي جل ما كنا نعرفه، أو نفهمه، بلا إدراك، فإن وحشة الموت هي الخروج من دائرة الائتلاف بالآخر، ودخول متاهة الفردية في ذروة تجليها. الأذكياء فقط هم من يتدربون جيدًا على عزلتهم وفرديتهم في مسار حياتهم. لذلك تبدو وحشتهم في مواجهة الموت ليست سوى نزهة كانوا قد اعتادوها.

تهيأ له أن وجود رادوبيس ليس سوى وهم تغلب عليه منذ وصوله إلى القارب، وأن هذه الرحلة ليست سوى خدعة. نعم هذا هو الموت.

ردد لنفسه، بينما اختفت رادوبيس من على ظهر القارب العملاق الذي يمخر في البحر كطارود. أطبق الصمت، وبدت حركة القارب العملاق، كأنها غياب في الزمن. اختفت الشمس، وتلونت السماء بلون أرجواني غريب. سماء بلون الأرجوان، بلا سحب. وأمواج بلون السماء، بلا صوت. نادى على رادوبيس، مرارًا، بلا جدوى. انتابته أفكار سوداوية، ونظر للمياه التي تنساب من حوله، وفكر أن يلقي بنفسه فيها، لينهي هذه الدوامة العبثية التي يمر بها منذ فترة، مدفوعًا لطريق لم يختر السير فيه، كقدر.

هبت ريح باردة فجأة، فأصابه الخوف؛ فقد كانت هبَّات الريح على وجهه، بلا صوت، تبدو كأشباح لا يراها أحد. لكن، بمرور الوقت، استعذب الريح التي هبطت على روحه بحالة من السلام الداخلي العميق جعلته يستعيد رباطة جأشه. ويقرر أن يتحلى بالصبر حتى يرى نهاية الطريق. إلى أين يتوجه هذا القارب، ولماذا اختاروا رادوبيس لتكون رفيقة رحلتي هذه، وما علاقة الرحلة بكتب نجيب محفوظ؟

هل يمكن أن بشرًا لهم قوى خارقة قد انتزعوا النصوص من مكانها، وذهبوا بها إلى حيث ينبغي أن تكون؟ ثم لماذا أنا دون غيري الذي اختير لهذه المهمة الغامضة؟ هل يعني ذلك أنني في طريق لا عودة منه؟

أحس أن الأسئلة ستطرق على معنوياته مرة أخرى بمطارق الشك، وتعيده إلى دائرة المخاوف، فاستسلم. أمسك بالدفة، وضعها تحت إبطه، واسترخى متأملاً السماء.

استيقظ على صوت صراخ، فتح عينيه، فوجد القارب في مواجهة صخرة عملاقة، رأى مئات الوجوه تحدق فيه. مئات العيون بدت كأنها مزروعة في الصخرة نفسها تحدق فيه بابتسامة شامتة. أما الصراخ فكانت رادوبيس هي التي تطلقه بلا توقف. وعندما رأته عاجزًا عن التصرف كالمشلول، ركضت باتجاهه، ودفعته بقوة، ثم أزاحت عصا الدفة العملاقة إلى أقصى طرفها، فانحرف القارب بقوة إلى اليمين، بينما بدت الصخرة العملاقة كأنها تتحرك إلى اليسار. ولكن، وبينما القارب ينحرف ارتطم طرفه الخلفي حيث يجلسان بنتوء صخري لم يكن واضحًا لهما، وسمعا صوت ارتطامه العنيف. بدأت رادوبيس في فاصل من السباب للقدر والحظ، وللاختيار الغبي لشخص غير مؤهل لرحلة كهذه. بعد عدة دقائق كانت حركة القارب قد تباطأت، واختفت الصخرة العملاقة، لتحل محلها جزيرة شاسعة. بينما المياه تتسرب إلى القارب بغزارة.

نظرت رادوبيس إليه قائلة: "ماذا سنفعل الآن"؟ نظر إليها كبرياء مبهوتًا، ولم يدر ماذا يقول. تأملته باستياء وغضب، ثم ذهبت إلى جزء في وسط القارب، وفتحت خزانة ضخمة، عبثت فيها قليلاً، ثم عادت وهي تحمل مطرقة، وإزميلاً صغيرًا دقيقًا.

سألها بفزع: "ماذا ستفعلين"؟ قالت وهي ترسم ابتسامة ساخرة: "سأقتلك طبعًا". أمسكت بذراعه الموضوع في الجبيرة فصرخ. "لماذا تصرخ هكذا"؟ " أنت مجنونة؟ تريدين قتلي". "كفاك غباء، لأنني فاض بي من كل هذا العبث، لقد مر أكثر من 20 يومًا على جبيرتك هذه، ولا بد من أن أكسرها الآن، لأن القارب سيغرق بنا في غضون ساعات قليلة،

ولن تستطيع أن تسبح في المياه بيدك العاجزة هذه، ولن يكون لديَّ أنا الطاقة لأحملك، فلا بد أن أحرر ذراعك، فهل فهمت الآن"؟

بدأت في تكسير الجبيرة، بينما يرسم هو ملامح ألم على وجهه. "ما لي أنا وما ل هذا كله، أنا محظية الملوك والنبلاء وكبار الكهنة والفنانين؛ المرفهة في القصور والمخمل، أترك كل هذا لأحضر إلى عالمكم التعيس الذي تعيشون فيه، بعد أن قطعتم كل صلتكم بنا متجهين للصحراء. بددتم كل شيء: العلم، المعرفة، الحكمة، الفلسفة، الطب، التحنيط، وحتى قوة الأفكار، والفنون، اخترتم الصحراء فأصبحتم مثلها، جفاف وعطش، ورمال تتيهون فيها وضلال كامل. فما شأني بكم؟ بددتم حتى أفكار الرجل الذي أذاع صيتكم في العالم، وهذا هو سبب حضوري إلى عالمكم التعيس، حتى أنت؛ أفضل من اختاروه لمهمة كهذه، لا يرقى لأن يكون في قدر عامل من عمال حضارتنا، ألا تشعرون بالخجل من تفاهتكم وسخافتكم"؟

كانت تتحدث بصوت متهدج، ترتعش نبرات صوتها، وفقًا لحركة يديها، وهي تطرق بدقة وحرص على الإزميل لتحدث به شقوقًا صغيرة تسمح لها بشرخ الجبيرة وإزالتها. وعندما أنهت سؤالها الأخير صرخ كبرياء من الألم، فنظرت إليه بغضب، ثم ألقت بالمطرقة والإزميل، وبدأت ترتعش من الغضب، حتى أجهشت في البكاء من شدة الغيظ. لاحظ كبرياء في تلك اللحظة أصوات المياه التي بدأت تتدفق بقوة إلى القارب، فانتبه. لاحظ أن القارب قد توقف تمامًا. كان الشاطئ المحيط بالجزيرة على مرمى البصر. نزع ما تبقى من الجبيرة عن ذراعه ، ثم حركها في جميع الاتجاهات. أحس بها كالمخدرة، أما الألم فكان محتملاً. تحرك

باتجاه رادوبيس، وربت على كتفها معتذرًا. وقال: "هيا بنا، لنهبط من القارب قبل أن يغرق بنا". نظرت رادوبيس إليه وعيناها ممتلئتان بالدموع. هزت له رأسها، وقالت: "هيا بنا، سنسبح بلا توقف حتى الشاطئ، فالليل اقترب ولا بد أن نصل قبل أن يحل الظلام".

ألقيا بنفسهما في المياه، وسبحا في اتجاه الشاطئ، بصمت. شعر كبرياء بثقل جسده بسبب الثياب التي يرتديها. و لم يكن أمامه خيار آخر. سبحا بكل قوتهما، وكلما سبحا راودهما الشعور بأن الشاطئ يبتعد عن مسارهما. قالت رادوبيس: "لا تستسلم لأية أفكار عن التعب والخوف، لا تستسلم لمخاوفك، ثق في قدرتك على الوصول إلى الشاطئ، عندها ستجد القوة طريقها إليك. فقط لا تستسلم".

7

الفترة التي استغرقتها نجوى نائمة على فخذي جيسيكا أوحت لها بالفكرة التي برقت في ذهنها كأنها وسيلتها الوحيدة للخلاص. لو أن هذا الرجل عرّاف فلا بد أن أقترب منه. ولو أنه يعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي، فلا بد أن أتعرف إليه. أن أقع في غرامه بالأحرى. لو تحقق ذلك فسوف يتغير قدري، أي أنني لن أحمل من كبرياء من الأساس، أو على الأقل سيكون في علاقتي بكاتب الكاشف ما يسمح بتغير المصير المرعب الذي توقعه لي في روايته.

استراحت للفكرة، لكنها اكتشفت أنها ترغب في الاستمرار في تجربتها مع جيسيكا، لأنها أتاحت لها إعادة اكتشاف نفسها، أو جوانب منها. كما أنها رأت في التجربة وسيلة للتعرف أكثر على شخصية كاتب الكاشف، واكتشاف المفاتيح التي يمكن لها استخدامها لكي تقيم معه علاقة. فكرت أيضًا في أنه لو اقتنع بتبديد الرواية، طالما أنه لن ينشرها، فإن

ذلك قد يكون حلا آخر. فتصبح الرواية عدمًا. تسلل النوم إليها بالتدريج، فعدلت جيسيكا موضع رأسها على الأريكة، ونهضت، وقررت أن تشغل نفسها بالعمل حتى تستيقظ نجوى.

أعادت قراءة بعض المواد التي كانت تخص فيلما وثائقيا كانت تعد له، ورتبت أولويات عملها حين تنهي إجازتها بعد يومين. قررت أن تعد لهما شيئًا للغداء، فاتجهت إلى المطبخ. تأملت الثلاجة، وقررت أن تعد طبقين من المكرونة "الإسباجيتي"، واللحم المفروم. كان إعداد الطعام حلاً مثاليًا لتخفف وطأة الأفكار التي تمور بعقلها. مع ذلك لم تستطع أن تبعد صورة كاتب عن ذهنها. ترى ماذا تأكل الآن يا عزيزي؟ هل طلبت وجبة جاهزة كالعادة؟ أم أن عيشة أعدت لك وجبة دسمة مما تحب؟

أحست بالتوتر عندما أدركت عمق مشاعرها تجاهه، وتوقعها لرفضه البات لاستعادة علاقتهما لو حاولت ذلك. فهي تعرف جيدًا مدى عناده، إضافة إلى أنه درب مشاعره طويلاً على الاستغناء الكامل، وعدم التورط العاطفي في أي علاقة. حاولت أن تدعم نفسها، فاستعادت رباطة جأشها. لا بأس، أنا أيضًا قوية. أنت تريد أن تدمر ذاتك بالاستجابة المريضة لرهابك وهواجسك، وتريد أن تجذبني معك إلى الهاوية؟ لا لن أكون ضحية لمرضك، وضعفك. نعم أنت ضعيف يا كاتب، وكل ما تفعله من ردات فعل عنيدة ليست سوى مراهقة متأخرة وعدم نضج. أنانية مطلقة. لا لن أندم على قراري. ربما سأتألم قليلاً. لكن هل لدى أي أحد طريقة ليهرب بها من ألمه. لا أحد. ولا أحد يمكنه أن يزيل لنا آلامنا. علينا أن نشعر بالألم كاملاً، وأن نبرأ منه تدريجيًا. حتى يصبح منتميًا للماضي، ولا يبقى منه

سوى الذكرى. نعم لست مستعدة لأستيقظ يومًا لأجدك تركت الفراش وألقيت بنفسك من الشرفة، أو معلقًا في السقف، مشنوقًا، أو ملقيا على أرض الحمام، وقد نزفت شرايينك حتى الموت. أليست هذه هي الصور التي ستنتهي حياتك باختيارك واحدة منها؟ نعم إذا قررت الاستسلام لألم الروح بلا قدرة على مواجهته بالعلاج فسوف تكون تلك نهايتك، وأنا لن أكون أبدًا ضحية لمنتحر. في النهاية قد تبدو ظنوني هذه مجرد أوهام ربما. لكن ما أشعر به أنك ستنتهي إلى ما لا أحب أن أتصوره.

غمرتْ كيس اللحم المثلج في المياه، ووضعت المكرونة في إناء به ماء ساخن. انتقلت لغرفتها. تناولت سيجارة وعادت بها للمطبخ. جلست على المنضدة الصغيرة التي تتوسطه، واستغرقت في التفكير والتدخين.

استيقظت نجوى فانتبهت حواسها على روائح الطعام. كانت جيسيكا قد انتهت من إعدادها. قالت نجوى: "رائحة الطعام طيبة، لماذا لم توقظيني لأساعدك"؟ "هذه وجبة خفيفة لا تحتاج". "لكنني لا أشعر بالجوع الآن". "لا بأس، لدينا الطعام في أي وقت نشعر فيه بالجوع، أنا أيضًا لست جائعة، سأشرب قهوة معك لو أحببت". "رائع".

جلست نجوى على الكرسي المجاور لجيسيكا في المطبخ، بينما نهضت الأخيرة لإعداد القهوة. قالت نجوى: "فكرت جيدًا، وأريد أن أنفذ الفكرة". "أية فكرة؟". "الاستمرار في تصوير الفيلم"."فعلاً"؟ "طبعًا". ضحكت جيسيكا وسألتها: "لماذا؟ هل يحقق لك الفيلم فرصة للتطهر"؟ "أليس هذا هو نفس إحساسك"؟ "بلى، ولكني فعلاً فقدت حماستي، بعد أن أحسست بمدى الضغط الذي مارسته عليك". "بالعكس، أنا أراها

تجربة فريدة فعلا". "إذن ، هل سنخلع ثيابنا الآن"؟ ضحكت نجوى ثم نظرت إليها نظرة ذات معنى وقالت: "كما تشائين".

في مساء ذلك اليوم قررتا أن تضع كل منهما قناعًا على وجهها، بحيث يطلقان العنان لجسديهما – العاريين سوى من مشدي الصدر والسروالين الداخليين – بالحركة بحرية أمام الكاميرا، أو إتاحة الفرصة أمام كل منهما لتحمل الكاميرا وتصور الأخرى إذا اقتضى الأمر بحيث تضفيان نوعًا من الحيوية على الفيلم. اختارت نجوى قناعًا لساحرة عجوز مستلهمة من أجواء قصص الساحرات الغربية، أما جيسيكا فاختارت قناعًا أسود يخفي وجهها لكنه يكشف عينيها.

قالت نجوى: "ما أكثر خيالاتك الجنسية إثارة"؟ "أوه! هذا سؤال صعب". "أعرف، ولكن أليس هذا ما أردته من الفيلم"؟ "صحيح، ولكن هل تعتقدين أن الخيالات الجنسية يمكن أن تفسر شيئًا؟ إنها الجزء الخرافي من الذاكرة، المكبوت غالبًا، ولا يفسر شيئًا لأنه ضد الواقعية". "ليكن، الفيلم كله مغامرة". كانت نجوى تحمل الكاميرا وتقترب من جيسيكا، تحركت على امتداد جسمها قبل أن تقربها على عينيها المختفيتين خلف القناع في لقطة مركزة. قالت: "أنا أنتظر، فلا تهربي من السؤال". صمتت جيسيكا لثوان، وبدا عليها التفكير ثم قالت: "لا أعرف، ربما أن فكرتي الجنسية الخيالية، أرى فيها نفسي أسير في أحد الشوارع الخالية، أسمع خطوات خلفي فأبدأ في الحركة بشكل أسرع فيتسارع صوت وقع الأقدام الخفيفة خلفي، ثم يقترب مني شخص، ويدفعني إلى الجدار، ويقترب

مني بقوة، و.... تعرفين ما أقصد". "واو، فكرة مخيفة لكنها مثيرة. وماذا أيضًا"؟

اصطبغ وجه جيسيكا محمرًا بقوة، لكنها أخفت توترها هذا خلف القناع، لكن نجوى أصرت على أن يظل الكادر مثبتًا على وجهها. قالت: "لا لا، هذا كل شيء. عليك أنت أن تجيبي عن السؤال". "سأفعل حين تنتهين أنت من إجابتك". "أوكي، إذن دعيني أتذكر. نعم ربما أيضًا أظن أن وجودي مع رجلين في وقت واحد هو أحد خيالاتي". "هذا أيضًا مثير، صديقان يتشاركان كل شيء، حتى المرأة التي يحبانها ولا يمارسان الجنس إلا مجتمعين"! نهضت جيسيكا، وقد احمر وجهها تمامًا، وانتقلت بقع حمراء إلى رقبتها.

"حان دورك"، قالت لها جيسيكا، فأطرقت نجوى، ثم قالت فجأة، كأنها تتخلص من اعتراف يثقل كاهلها: "لا أدري، ربما أفكر في حفل جماعي". "يا ربي! أنت جامحة".

أشارت جيسيكا لنجوى من خلف الكاميرا أن تتحرك إلى المرآة الكبيرة التي تتوسط غرفة المعيشة، وتفصل بين السفرة الصغيرة، فتحركت نجوى إلى هناك. وعندما أصبحت في مواجهة المرآة قالت لها وهي تصور ظهرها المتناسق الجميل، وإليتيها، ووجهها المعكوس في المرآة في الوقت نفسه: "لكن هذه صورة خيالية وعامة بعض الشيء، ألا يمكنك أن تحددي ذلك أكثر"؟ "أظنني أفكر في الأمر على هذا النحو: حفل تنكري راقص، يتبادل فيه البعض النظر عبر العيون، في محاولة للتعرف على كنه الشخصية المختلفة خلف قناع. عيون تلتمع ببريق غريب ومثير، ثم يتسلل البعض

خفية: امرأة، ورجل، ثم امرأتان، ورجل آخر وهكذا. وفي غرفة كبيرة تحتوي فراشًا واحدًا أتسلل لأجد فتى أفطس الأنف، ينام مع فتاتين عاريتين على الفراش، وعلى الأرض يوجد آخرون. أتوجه للفتى، وينضم إلينا آخر حين يلاحظ وجودي، بينما هدفي هو صاحب الأنف الأفطس الذي أعرف جيدًا أنه ينتظرني بفارغ الصبر". انتظري لقد قرأت شيئًا شبيهًا بذلك. أليس ذلك مشهدًا من رواية لأهداف سويف"؟ "ربما، ولكن أليست حياتي كلها مسجلة في رواية لكاتب الكاشف، فلماذا تستبعدين أن أهداف كتبت، دون أن تدري، عن شخصية حقيقية موجودة في الواقع، وتنبأت بممارستها لخيالها الفانتازي بهذا الشكل"؟

ضيَّقت جيسيكا اللقطة لتركز تدريجيًا على عيني نجوى المختفيتين خلف قناعها، عبر المرآة، وسألتها: "أنفه أفطس؟ لماذا"؟ "لا أعرف، هكذا أتصوره". "تقصدين أنه صاحب بشرة سمراء"؟ "بالتأكيد". "ألهذا السبب وقعت في غرام كبرياء"؟ " لا أعرف، أحب ذوي البشرة السمراء بشكل عام، لا أخفيك أنني تخيلت نفسي أحيانًا في أحضان سعيد؛ صديق فاطيما السوداني، من قبيل أحلام اليقظة، ربما بسبب هذه الفانتازيا، كبرياء موضوع آخر، ربما أن سمرته جزء من انجذابي له، لكن بالتأكيد هناك أسباب أخرى، أنا لم أمارس معه الجنس حتى هذه اللحظة".

عاد كل منهما إلى موضعهما على الأريكة، بعد أن ثبتت جيسيكا الكاميرا على كادر يظهرهما متجاورتين. قالت نجوى: "هل تعتقدين أن الخيالات الشهوانية المكبوتة هذه لها علاقة بحقيقة نوازعنا"؟ "هذا سؤال جيد، لا أعرف، هذه منطقة لا يتحدث عنها الكثيرون، لكن بالتأكيد لها

علاقة. صحيح أن الخيال الذاتي جامح وشهواني، وحر، لأنه ليس محدودًا بأي قيد اجتماعي أو أخلاقي، لكن هل له علاقة بالعقد الذاتية أم لا، فهذا ما لا أعرفه. لكنني أعتقد أن الإنسان عندما يحول الهاجس المكبوت من مساحة الخيال إلى الواقع عادة ما يوصف بالاضطراب". "كيف"؟ "أقصد أن هناك علاقات مثل زنا المحارم مثلا، قد تكون موجودة في خيال شخص ومكبوتة، وقد تتحول في الخيال إلى مجرد طيف باهت لفكرة سخيفة لاحقًا، لكن البعض قد يحولونها إلى الواقع، وبالتالي يكونون في عرف المجتمع ليسوا أسوياء". "تقصدين أن البشر جميعًا، في دواخلهم ليسوا أسوياء". "ليس بالضبط، فلا أحد يعرف ما يدور في أذهان الناس، الجميع يخفون هذه المنطقة ولا يتحدثون عنها، حتى لأنفسهم".

فكرت نجوى في تلك اللحظة أنها بدأت تشعر بمشاعر خاصة باتجاه كاتب، دون أن يؤثر ذلك في طبيعة علاقتها بكبرياء، وهي أيضًا، تشعر بأنها على مرمى شعرة من قبول فكرة حسية تهمس لها بأن تجرب ممارسة الجنس مع جيسيكا نفسها. هل معنى ذلك أن الإنسان بطبيعته جامح المشاعر، وأنه يمتثل للقواعد الأخلاقية التي يلزمه بها المجتمع، حتى يؤكد للمجتمع أنه ملتزم أخلاقيًا بشروطه، لكي يضمن الاحترام، لكنه في أعماقه يرفض هذه القواعد، ويكبح مشاعره الطبيعية، وبالتالي يصبح معقدًا؟

نقلت نجوى أفكارها لجيسيكا بسؤالها: "هل سبق لك أن أحببت شخصين، بنفس الدرجة، وفي التوقيت نفسه"؟

صمتت جيسيكا، وظلت تحدق في السقف لوهلة كأنها تستدعي خبراتها، وأخيرًا قالت: "نعم، أظن ذلك، حدث مرة، أحسست بأنني

أحب شخصين معًا، لكن كان علي أن أحسم مشاعري تجاه أحدهما". "لكن هل فكرت في أن تقتسمي المشاعر بينهما"؟ "بمعنى"؟ "بمعنى هل فكرت في أن تبادلي كلا منهما الحب، في الوقت نفسه"؟ "مرت الفكرة على بالي، لكن كنت أعرف أن ذلك مستحيل، ولو فكرت في الفكرة بشكل مجرد، أي لو افترضنا ذلك جدلاً، فأظنني سأطيل الفترة التي أمهل نفسي خلالها لأتخذ قرارًا، ألم أقل لك إن خيالي الفانتازي الأول هو وجودي مع رجلين في الوقت نفسه". ضحكت نجوى بقوة، من الطريقة الكوميدية التي ألقت بها جيسيكا جملتها الأخيرة. استطردت جيسيكا "أظن أن هذا لم يحدث لي كثيرًا، لكني أعرف صديقة كانت تقرر أن تنام مع كل منهما أولاً، حتى تأخذ قرارها النهائي دون شعور بالندم". ابتسمت نجوى، ورفعت حاجبيها "هذه فكرة معتبرة، والحقيقة أنها تذكرني بأعز صديقاتي، لكنها تفعل ذلك ولا تقرر شيئًا في النهاية، وإنما تبحث عن رجلين جديدين". قهقهت جيسيكا، بينما نجوى تلاحقها بضحكة صافية.

انتقل حوارهما إلى العائلة، وعلاقة كل منهما بأمها. أفاضت نجوى بتفاصيل علاقتها المركبة بأمها، بينما بدت جيسيكا على علاقة حيادية بأمها. لكن حديث كل منهما عن أبيها أخذ منحى آخر، ممتلئًا بالتفاصيل، وبالذكريات، وبالتفهم، وبمدى فهم كل منهما لتعقد علاقة الأب بالأم، أو توصيفها عمومًا. كانت نجوى تتحين الفرصة لتنتقل الحوار إلى شخصية كاتب الكاشف. أرادت أن تعرف عنه كل تفصيلة مهما بدت تافهة. ما يحب وما يكره، ذوقه في النساء، وفي الملابس، عطره المفضل، كتبه

الأثيرة، أهم الفلاسفة الذين تجذبه أفكارهم، فكرته عن المرأة، وحتى علاقته بأهله، علاقته النظرية بالأطفال.

جيسيكا التي كانت تدرك مدى تعلقها بكاتب وجدت في أسئلتها فرصة مثالية لكي تتحدث عنه باستفاضة، كما يفضل العشاق أن يفعلوا دائمًا. تدفقت في مونولوج طويل بكل ما تعرفه عنه. علاقته المعقدة بأبيه. حبه المرضي لأمه، وتجاهله لزيارتها في نفس الوقت، وإحساسها بأن مرضه النفسي بدأ بعد موت أمه مباشرة. استدعت أيضًا ما حكاه لها عن عشيقاته، رحلاته لألمانيا للقراءة عن الفلسفة وزيارة بيوت الفلاسفة الألمان. تجربة عمله مع أبيه في المصنع. أفلامه المفضلة، وتفاصيل أخرى استطاعت نجوى من خلالها أن تكوِّن فكرة جيدة عن الطريقة التي ستحاول بها أن تقتحم حياة كاتب الكاشف.

8

سمع كاتب الكاشف طرقات متوالية على الباب، فتوقف عن الكتابة منزعجًا. كان قد فصل الكهرباء عن جرس الباب لأنه يتسبب له في الفزع. توقع أن يكون الطارق جيسيكا، فنهض واتجه صوب باب الشقة بخطوات سريعة. لكنه توقف فجأة: لا لن أفتح لها الباب هذه القحبة. ألم تقرر أن تتخلى عني؟ نعم، الآن تشعر بالندم، وجاءت لكي تطلب الصفح، حسنًا أنا لن أغفر لها. لكن، ربما جاءت لتعيد مخطوط الرواية. تكررت الدقات على الباب ، فاتجه إلى الباب وهو يتوعدها بأن يُسمعها ما لا يخطر على بالها. فتح الباب بعنف، وقبل أن يبدأ سبابه وجد أمامه شامخ، صديقه الوحيد الذي لا يزال يسمح له بأن يزوره في أي وقت، وبلا سابق اتصال لو شاء. نظر إليه شامخ من خلف نظارته الطبية السميكة، ومسح على شعره الأبيض المجعد، بينما تتناثر قطرات العرق وتسيل على

جبهته ووجهه المحمر. "فيه إيه يا كاتب"؟ "أهلاً يا شامخ تفضل، آسف على التأخير، كنت في الحمام".

كان شامخ أحد أصدقاء طفولته، وهو الوحيد الذي استمرت علاقته به من بين الآخرين جميعًا، لأنه احتفظ بقلبه الطفل حتى بعد أن ناهز الستين، فقد كان يكبر كاتب بعدة أعوام. عمل بالطب، وتخصص في أمراض النساء، رغم أنه كان يتمنى أن يصبح جراحًا. من بين ما كان يجمع بينهما غرابة الأطوار، فلم يكن شامخ أقل غرابة في أطواره من صديقه. عاش وحيدًا، قرر ألا يخوض تجربة الزواج. ومنذ تجاوز الثلاثين قرر أنه يريد أن يتفرغ لتحقيق حلمه، ولأنه تخصص في أمراض النساء، و لم تعد لديه فرصة لممارسة الجراحة، قرر أن يصبح جراحًا في الطب البيطري، كعمل إضافي، في غير أوقات عمله في تخصصه الأصلي. حصل على كل الكتب والمراجع الخاصة بالجراحة، وعكف عليها بصبر، في أوقات فراغه، وفي النوباتجيات المسائية حين يخف ضغط العمل في المستشفى التي عين بها في ضاحية القاهرة الكبرى. استأجر مستودعًا ملحقًا بمرآب، وجهزه بأدوات التخدير، وكافة أدوات الجراحة: المشارط، المباضع، الملاقط، ماسكات الإسفنج، ملاقط مانعات النزيف، أداة "باير هايلس" هارسة الأمعاء، ماسكات الإبر، مبعدات الجروح، الشفرات، المقابض، حاملات الفوط، والمقصات بكل أنواعها.

اعتاد الذهاب إلى منطقة الجيزة؛ حيث يدلف إلى حديقة الحيوان، وهناك يبدأ جولاته بجوار البرك المائية، والأماكن الرطبة بحثًا عن الضفادع، يلتقطها بحرص، ويضعها في كيس بلاستيك يحمله لهذا

الغرض، ثم يعود بحمله إلى المرآب. يبدأ في شق بطن الضفادع بالتتالي على ألواح معدة لهذا الغرض، بعد أن يثبت أياديها وأقدامها بدبابيس خاصة. يكتب ملاحظاته حول الخصائص التشريحية: خصوصًا موضع القلب والرئتين، وباستخدام عدساته المكبرة كان يستغرق ساعات في التأمل؛ باستغراق وتركيز كاملين، في مواضع الأعضاء الداخلية الدقيقة. لكنه، لم ينجح في إعادة الضفادع للحياة بعد أن ينهي إجراءات التشريح، فقد كانت تتعرض للموت في أثناء عملياته الجراحية الفاشلة.

لكنه بمرور الوقت بدأ يضبط عمله، أتقن خياطة الجروح، وإعادة ما يستأصله إلى موضعه، لكن الضفادع التي نجت، فقدت أي قدرة على الحركة، وانتظرت مصيرها في عجز تام.

قرر شامخ تغيير نوع العينات التجريبية. بدأ بالفئران، وبعض أنواع الطيور، ووجد في الحمام حلاً مثاليًا. وبعد أن اشترى عددًا من أزواج الحمام ليجري عليها جراحاته، اكتشف أنها ستكلفه مبالغ طائلة، فقرر أن يبني غرفة صغيرة ملحقة بالمرآب، وأطلقها في المكان حتى تتزاوج، ومن أفراخها كون حصيلة جيدة من عينات البحث اللازمة لعملياته التشريحية. كاتب الكاشف من موضع صداقته العميقة لشامخ، قرر تمويل العملية، عندما اشتكى له في إحدى المرات أن عملياته الجراحية تتعرض للفشل بسبب قلة الإمكانات. بعدها بدأ شامخ يغيب بالأسابيع، فلا يعرف عنه كاتب شيئًا، ثم يظهر فجأة ويبحث عن كاتب في كل مكان، لكي يحكي له تفاصيل كشوفه الجديدة، ومغامراته في علم الجراحة.

لكن الطيور كلها نفقت بسبب إصراره على تطبيق عملية زرع قلب

لها. كان يقوم بتخدير زوج من الحمام، ويضع علامة على الطير الذي يفترض أنه يحتاج لزراعة القلب، ويعطي للآخر علامة تدل على أنه المتبرع بقلبه. قرأ أنه في عمليات زرع القلب يمكن للمريض أن يظل في غرفة الجراحة بدون قلب على مدى 45 دقيقة كاملة، بشرط تبريد جسمه إلى أقل من معدل الحرارة الطبيعية بعدة درجات، وضمان استمرار الدورة الدموية بكامل تدفقها.

انشغل بالفكرة بشكل جنوني، وهو يردد لنفسه: "طبيب يحمل قلب المريض لمدة 45 دقيقة كاملة ليعبث فيه كيف يشاء، بينما المريض بلا قلب، وعندما ينتهي يعود بالقلب إلى مكانه، وينبهه بصعقة كهرباء فينتفض، وتدب فيه الحركة فيعود الرجل للحياة، أليست هذه معجزة"؟ نفذ كل الخطوات، كما قرأها، وكما سمع من المتخصصين في جراحة القلب من زملائه بدقة، واستطاع إعادة القلب المنتزع من الطير المتبرع إلى الطير المفترض مرضه، بدقة شديدة، لكن أيا منها لم تستيقظ من خدرها ألبتة.

لكنه، بمرور الوقت أصبح أكثر تمرسًا، وانتقلت خبراته من الطيور إلى الفئران، ومنها إلى القطط، ثم الكلاب. أخيرًا تحول المرآب إلى عيادة بيطرية للجراحة أجرى بها عددًا من الجراحات الخطيرة لكلاب وقطط مملوكة لأثرياء من مقتني أنواع نادرة منهما، وحقق ثروة لا بأس بها، استثمرها كلها في اختباراته التي لا تنتهي. التجارب الأخيرة استغرقت ستة أشهر كاملة، قضاها في موقع الجراحة، معلنًا أنه في إجازة، وها هو يخرج من عزلته ويطير إلى صديقه العزيز ليخبره بآخر ما توصل له.

لكنه فوجئ بالعديد من المتغيرات في الطريق. كانت هناك صور عديدة

لنجيب محفوظ في الشوارع كلها مكتوب أسفلها "معًا من أجل استعادة محفوظ". كان يعرف أن نسبة المحجبات في المدينة قد زادت بدرجة ملحوظة، لكنه اندهش من عدد المنقبات اللائي يسرن في مسيرات صامتة في كل حدب وصوب، بلا هدف واضح.

وجه سؤاله إلى كاتب وهو يبدي تعبيرًا مذهولاً: "هو ايه اللي بيحصل في البلد"؟ "هو أنا عارف حاجة، ما أنا زيك ما باخرجش أبدًا". "بيقولوا كتب محفوظ اختفت". "سمعت الكلام ده فعلاً". "طب وده إيه ده، أكيد إشاعة من اللي بيشغلوا البلد بيها عشان يمرروا قانون جديد ولا كارثة". "يمكن". "بس دي تبقى حاجة خطيرة جدًا". "إنت كتبه اللي عندك موجودة". "لأ أنا تخلصت منها من زمان، لما كنت مشغول بالقراية عن الجراحة قريت كتبه كلها، تخيل ما كتبش ولا مرة عن طبيب جراح، ولا عن عملية، أنا بعت كتبه كلها لبتاع الروبابيكيا لما اتصدمت ومالقيتش فيها كلمة واحدة عن الجراحة". "هو يعني لازم الناس تكتب عن الجراحة"؟ "ما اعرفش، بس آه لازم طبعًا، إنت كمان كاتب فاشل لأنك ما كتبتش عن الجراحة، ده أعظم عمل في العالم".

وشرع فورًا يحكي له عن الجراحة التي أجراها لكلب عجوز زرع له خلالها قلب كلب شاب نفق، في حادث سير. "ما قلتش لأصحاب الكلب العجوز؛ إن القلب المزروع لكلب بلدي، أصل الكلب بتاعهم دوبرمان، كان ممكن يجيلهم سكتة قلبية"، ثم نظر للسقف وانطلق في واحدة من ضحكاته الهستيرية الصاخبة، ودون أن يلتفت لابتسامة كاتب استمر يحكي الكيفية التي استطاع بها أن يبقي الكلب بلا قلب لمدة نصف ساعة

هي التي استلزمت أن يجري خلالها نقل القلب. أبدى كاتب دهشته، وقبل أن يعقب بشيء سمع طرقات على الباب. "إنت مستني حد"؟ سأله شامخ، فنظر له نظرة تجمع بين الريبة، ومحاولة إظهار رباطة جأشه. ثم قال: "لا، يمكن البقال ولا المكوجي".

اتجه كاتب صوب الباب، ونظر من العين السحرية، فوجد وجهًا لفتاة جميلة لم يستطع أن يميزها، لكنه بعد ثوان أخرى أدرك أنها نجوى فخفق قلبه. ما الذي أتى بها إلى هنا؟ هل تريد إقناعي بعدم نشر الرواية؟ أعتقد أن إلحاحها هذا يدفعني للعكس تمامًا، ليس من حقها أن تمنعني من نشر الرواية حتى لو كانت تضم صورًا عارية لها شخصيًا، لاهي ولا غيرها، قراري بعدم النشر قراري أنا وليس قرار أي منهم. عاد باتجاه صديقه، فسأله الأخير: "مين"؟ "ما فيش حد". "معقولة؟ دا إنت ما فتحتش الباب". بدأ كاتب يشعر بالضيق، وقال لصديقه محاولاً تغيير الموضوع: "ما تشغلش بالك ساعات كتير العيال اللي في العمارة بيعملوا الحركة دي ويجروا". وسرعان ما عادت الدقات على الباب أكثر إلحاحًا من المرة الأولى. التفت شامخ جهة الباب وقد بدأ يشعر بالضيق "أقوم أشخط في العيال دول؟". "لأ، ما تشغلش بالك، هما هيزهقوا دلوقت، خلينا في موضوعنا، يعني الكلب اللي عملت له العملية هيعيش"؟ "آه، آه طبعًا".

كان كاتب الكاشف يشعر بتقدير كبير لشامخ بسبب ولعه بفكرة الجراحة وإصراره على تحقيق ما وصل إليه. الحقيقة أنه فاجأني في الرواية بالفصل الذي كتبه عن رفيق فهمي جدّ كبرياء، الذي شرح فيه ولعه بالزخرفة على الخشب، وتركيزه على فكرة اهتمام قرين فهمي بالفنون

وبالبشر في أقصى حالات تركيزهم خلال إنتاج فنونهم. تجاوز ما ألهمته به، وأضاف ذلك الفصل، أظنني لم أنتبه إلى أن شخصية الكاتب وتفصيلاته تحتاج لأن تعلن عن وجودها بين صفحات كتبه، وبين آن وآخر. أظن أن كاتب الكاشف كاتب استثنائي من هذه الجهة. يحتفظ بخارطة كتابه في عقله، ولا يدون أية ملاحظات. على يقين من أن الفكرة الأصيلة ستحتفظ بوجودها، أو تختفي، وتصبح عدمًا إذا نسيها.

هل اختياره لنجيب محفوظ، وشخصياته له علاقة بهذا الشأن؟ لم تكن الفكرة التي فكرت أن ألهمه إياها في البداية لها علاقة باختفاء أعمال محفوظ، لكنه راوغني وفاجأني بها. الآن، أدرك أن شيطان الكتابة لدى محفوظ كانت مهمته أسهل نسبيًا، لأنه بعد أن يلهم محفوظ بالفكرة العامة، أظنه كان يعتمد على الهندسة المبدئية لأحداث الرواية التي يضعها محفوظ ويسير عليها حتى النهاية. محفوظ كان يحدد قدر شخصياته من البداية، يعرف من أين يبدأون وإلى أين ينتهون. لكن كاتب يريد أن يترك لهم الحرية ليفاجئوه هو نفسه بمصائرهم وتغير شخصياتهم.

مع ذلك لا أفهم لماذا اختار لشخصية كبرياء هذا المستوى البسيط، فبالرغم من كل ما مر به من خبرات، لا تبدو شخصيته متطورة مثل شخصية نجوى. كبرياء يبدو شخصية بليدة، سطحية، ولا تتطور على الإطلاق. أما نجوى فهي متطورة وحية لدرجة أنها ظهرت له في الواقع فعلا. هل يكتب الكاتب عن المرأة التي يتمنى أن يلتقيها فتظهر له في الواقع الحي كأنها نبوءة، أم أنه يكتب عن نماذج ممن يعرفهن، ويضفي عليهن ما يتمناه؟

المهم أن كاتب الكاشف احترم دأب صديقه وإخلاصه لمشروعه ومتابعته المستمرة للدوريات الطبية المتخصصة في علوم الحيوان، وفي أمراض الحيوانات، وتلك المختصة بمتابعة الجديد في عالم الطب البيطري. بل إنه اهتم شخصيًا بهذه المسألة لفترة طويلة، وشارك شامخ في حضور عمليات جراحية عدة أجراها في مرآبه الجراحي. لكنه لم يجد مع ذلك ما قد يلهمه شخصيًا للكتابة حول الموضوع.

9

هل وقع كاتب الكاشف في غرام نجوى؟ لست متيقنًا من ذلك. لكن أمامي شواهد، فهو أولاً قرر مواصلة كتابة الرواية، مرة أخرى. ثم إنه شغف بنجوى عندما التقاها في تلك المرة الوحيدة. كما أنه لم يكترث كثيرًا لانصراف جيسيكا عنه. والأهم من هذا كله أنه اعتزم، بنوع من الإرادة، أن ينشر الرواية. بالنسبة لي فإن هذه النتيجة وحدها كفيلة بأن تجعلني أغير موقفي منه بشكل كامل، وأن أعود لدعمه بالأفكار التي يحتاج إليها لإنهاء الرواية. لكنني أظن أنني سأكون متحيزًا، أيضًا، لكي تنشأ بينهما علاقة ما.

في مثل عمره الذي جاوز الخمسين، وبعد كل الشخصيات والفتيات والسيدات اللائي أقام معهن علاقات غرامية عاطفية أو جسدية، لماذا قد يقع في غرام نجوى؟ كاتب الكاشف كان قد قرر الاستغناء عاطفيًا عن أي امرأة بعد علاقة ملتهبة عاشها في باريس، مع فتاة فرنسية كان

يظن أنه لا يمكنه أن يعيش بعيدًا عنها. كانت فتاة لديها أفكارها الخاصة، وفلسفتها عن العالم والحياة، وعن نفسها. أحبت في كاتب بساطته، وتلقائيته، وشغفه بالفلسفة والمعرفة، وأرقه بالأسئلة الوجودية. وإليها يعود فضل قراره بامتهان الكتابة، لكنه قرر ألا ينشر شيئًا منذ انتهت علاقتهما فجأة. قالت إنها ليست مستعدة لأن تعيش علاقة واحدة، وإنها ليست متأكدة من أنه الشخص الذي يمكن لها أن تعيش معه لمدة ثلاثين عامًا. قالت إنها لا تضمن أنها في ذلك العمر ستكون ما زالت تحتفظ بمشاعرها وبالألفة معه.

بعد مرور العامين الأولين على وجوده في باريس، التقى، في أحد المطاعم، فتاة لها بشرة بلون الكراميل، شعرها الأسود الناعم يلتف حول وجهها المتناسق الملامح الدقيق. عيناها السوداوان تلتمعان ببريق مدهش. لم يضع الوقت، كعادته، واتجه إليها، ولم يتردد أن يعبر لها عن إعجابه بها. تلقت لفتته بنوع من المودة، وانجذبت هي إلى ملامحه الوسيمة، أعجبت بجرأته. دعته لأن يجلس لتناول القهوة.

منذ تلك اللحظة بدأت شرارة علاقة عاطفية جمعت بينهما على مدى أكثر من عامين. قالت له إن اسمها "دومينيك". قتلته نظرة عينيها المتألقتين بالذكاء، وبالحيوية. كانت من أصول مغربية من جهة الأب، وهو ما أعطاه الانطباع بأن الزواج المختلط تنتج عنه أطفال متفردون. لكنها كانت فرنسية، وبالرغم من دراستها للأدب كانت تعشق الفلسفة، وهذا ما أوقعه في غرامها فورًا.

الشيء المؤكد أنه إذا كان للكيمياء الدور الأساسي في انجذاب

شخصين لبعضهما البعض، فإن الكيمياء التي جمعت بينهما فورًا لم يختبرها كاتب مع أي فتاة أخرى ممن عرف على امتداد حياته. الكيمياء التي جعلته ينهض من مكانه ويذهب ليتعرف إليها فورًا، وجعلتها تدعوه لتناول القهوة، وتحكي له قصة حياتها في الساعة التي قضاها معها في ذلك المطعم، وأن تستكملها في أثناء النزهة، أو التمشية الوئيدة، التي نقلتهما من مكانهما في ميدان الباستيل، وصولاً إلى الحي اللاتيني. وبفعل الكيمياء نفسها، انتقلا من قصتها، التي كان ينصت لها بتركيز شديد، إلى قصته التي أنصتت لها بنوع من الهيام بينما يتناولان قدحي قهوة آخرين في مقهى صغير قريبًا من ميدان لوكسمبور. بحلول المساء قررا الانتقال إلى مقهى فلور في الحي نفسه لاستكمال مناقشتهما في الفلسفة، وتغيير مزاجهما بكئوس النبيذ. وبعد انتصاف الليل البارد، كانت تتأبط ذراعه بحميمية، في طريقهما إلى البنسيون الذي كان يعيش فيه على تخوم السوربون لتقضي الليلة معه.

أظن أن غرابة أطواره بدأت منذ انتهت علاقته مع دومينيك. كان يشك في أنها قررت إنهاء العلاقة من أجل رجل آخر. بينما قالت له إنها قطعت العلاقة لأنه غيور، ولأنه يردد مقولات نظرية عن التمدن وحرية المرأة وعن امتلاكها لجسدها بينما هو ليس سوى مراهق شرقي متعصب. هذه الكلمات أوجعته تمامًا، لكنه استطاع أن يخفي ألمه تحت قناع حيادي بارد، وعبر علاقات عديدة مع الكثير من الفتيات اللائي تعرف إليهن في السوربون، ووصولاً لعاهرة كان قرر أن يتناقش معها عما تعنيه كلمة "غيرة" بالنسبة إليها. قرر كاتب منذ تلك اللحظة أن يصبح محايدا، يقيم

علاقات حرة، مع من يشاء على أن تتقبل هي ذلك، مع قبوله الكامل أن تفعل هي ما تشاء طالما لا تتداخل علاقاتها بحياتهما الخاصة. أما الفتيات اللائي أغرمن به، ومنحنه عواطفهن الكاملة، لم يخف عنهن قناعاته، و لم يتورط مع أي منهن. حدث ذلك في القاهرة بعد عودته إليها، وفي الفترة التي قضاها في لندن، وصولاً إلى جيسيكا.

حين اختفت دومينيك من حياته، أحس بالألم، كغريق تغمر المياه رأسه، يحاول الصعود إلى السطح ليستنشق الهواء، لكنه لم ينجح في ذلك ألبتة. تقلب على فراشه. ردد الكلمات التي رددتها أمامه في الحوارات الطويلة التي جمعتهما على مدى عامين. كلمات، ألقيت كل منها بمعنى مختلف، وبتعبير وجه محدد وبنبرة صوت خاصة. كلمات كانت توقظه في عمق الليل، وتملأ عقله، وتجعله شاردًا، غير قادر على التركيز. كلمات كانت تجعل النوم وسيلته الوحيدة للهرب من الألم. كلمات جعلته يعبر عن نفسه كما لم يفعل من قبل رغم استخدامه للغة الفرنسية. كلمات قيلت بها المعاني مجردة، ووصفت بها حالات الرومانسية، وشرحت أحاسيس غامضة تهب على الروح، ونوبات اعتلال المزاج، ووصفت فعل الحب بينهما بأنه فعل فلسفي قبل أن يكون جنسيًا، وهي أيضًا كلمات رددتها دومينيك تكرارًا لما كان يصف به جسدها، فلسفيًا وشعريًا، عندما تعرت أمامه لأول مرة. كلمات كانت تذهب بعقله، أو كادت، لولا أنه بدأ يلقي نفسه في أحضان الأخريات هربًا من الجنون.

لم يتعامل مع الموقف، بعد مرور كل تلك السنوات. "خانتني مع عشيق آخر"، هكذا كان يردد لنفسه، وهو يضع جبينه على فراشه محاولاً النوم

لساعات دون جدوى، كأنه لم يفهم شيئًا عن قرارهما بإقامة علاقات حرة، أو كأن تلك المنطقة من علاقتهما سقطت في عتمة النسيان و لم يكن يفعل شيئًا سوى استعادة الساعات والدقائق والأماكن التي جمعت بينهما. المخدرات كانت حلاً وقتيًا، ارتكن إليه حتى عرف الطريق إلى العاهرات، ثم العشيقات.

الآن إذا استعاد الذكرى ستبدو له غائمة، وسيردد لنفسه أنه كان ساذجًا ورومانسيًا. نعم، لكنه لم يشف منها، ورهابه الذي يتنقل من موضوع لآخر، هو دليلي على ذلك.

على أية حال، عندما شرعت أقصُّ لكم حكايته بدلاً من استكمال روايته، كان ذلك بدافع من غضبي الشديد من إصراره على عدم نشر الروايات التي ألهمه إياها، على التوالي، وبما أنه قرر أخيرًا أن ينشر روايته هذه، فعليَّ أن أتوقف عن ذلك: أنا شيطان كتابة في النهاية، ولست واشيًا أو نـمَّامًا. المهم أن ما سوف أشرع في سرده الآن هو حكايته مع نجوى، لأنها تدهشني شخصيًا، ولا أستطيع حتى أن أتنبأ بما يمكن أن تصل إليه آخر فصولها.

10

على رمال الشاطئ الرطبة، في ظلام دامس، وجد كبرياء نفسه نائمًا بجوار رادوبيس. كان ذلك أكثر مما يمكن أن يتصوره يومًا. رادوبيس الراقصة الفاتنة، معبودة رجال مصر القديمة، وعشيقة الملك مرنرع الثاني، الذي استولى على أملاك المعابد وأموال الكهنة، لينفقها على نزواته الخاصة، حتى أطلق عليه شعبه لقب "الملك العابث". رادوبيس، التي سلبت لب كبار رجال الدولة والفنانين، وأقنعت الملك المهيب وحدها، من دون عشيقاته جميعًا، أن ينتقل إلى قصرها كلما أراد أن يراها بدلاً من أن تنتقل هي إلى حريم القصر الملكي، والتي حلت عقدة لسانه فأمطرها بكلمات العشق المعسول وتيم بها حتى أصبح خاتمًا في إصبعها، هي نفسها رادوبيس التي تضطجع بجوار كبرياء في عتمة الشاطئ المجهول.

كانا قد احتميا بتل من الرمال، قريبًا من الشاطئ لأنهما لم يكونا

قادرين على رؤية أي شيء في الظلام الحالك؛ بالإضافة إلى أنهما كانا منهكين تمامًا بعد ساعات قضياها في مياه البحر، عائمين، يواجهان الخوف، والظلام، ويصارعان التعب والأمواج الهادرة. بدت رادوبيس، فتنة نائمة في حضن كبرياء. هذه هي المرة الأولى التي توليه فيها مسئولية حمايتها. شعر بأنهما يتبادلان الأدوار.

أليست رادوبيس أيضًا قريبة الشبه، بشكل ما، من زينات، ومن زنوبة: الغانيات اللائي يرتبطن بالكبار، بالملوك والزعماء والأبطال، فيسقطن بهم إلى الهاوية. الملك العابث، أو الفرعون النزق بالأحرى، ارتبط برادوبيس أيضًا، وانتهت أسطورته بسهم قاتل رماه به أحد أفراد الشعب، كأن المرأة عند محفوظ ليست إلا ضعيفة مستكينة سواء كانت مسالمة تمامًا مثل أمينة أو نزقة مثل نفيسة، أو أن تكون متمردة عنيدة، فاتنة، مثل رادوبيس وزينات و زنوبة.

لكن رادوبيس، من بين نساء محفوظ جميعًا كان لها ألق خاص، كأنها امرأة تجمع بين جمال كليوباترا، وذكائها، وفتنة محظيات الفراعنة، وحنان المرأة المصرية القديمة، وغنجها، ومعرفتها بفنون الجنس والغرام، كما وصفتها البرديات القديمة. فكر كبرياء عميقًا، وهو محاط بوشيش الأمواج الصاخب، وأصوات الريح، في حقيقة المصير الذي يسوقه قدره إليه. قارب فرعوني تقوده رادوبيس، ماذا يعني ذلك، أن مصر التي خانت النيل لصالح الصحراء ستفقد كل قيمة؟ وإذا كانت رادوبيس ستقودني إلى مكان أعمال محفوظ أو على الأقل إلى ما قد يفسر ذلك السر الغامض، فهل يعني ذلك أنها ستفعل مثل محفوظ نفسه الذي وجه شخصيات الكثير من

رواياته إلى مصر القديمة، الحضارة التي علمت العالم، ثم تجاهلها أبناؤها جميعا فراحوا يتخبطون من خراب إلى دمار؟

ألم يذهب كل مرتادي العوامة في "ثرثرة فوق النيل" إلى الهرم في النهاية، كأن هزائمهم وخيْباتهم وحياتهم العبثية كلها لن تستعيد ألقها إلا إذا استعادوا الطريق الصحيح إلى الهرم، أو مركز الحضارة القديمة؟

ربما، ولكن الأقدار دائمًا لها رؤاها، وحتى عندما خرجوا إلى الأهرامات، تعرضوا لحادثة مرعبة. كان عليهم أن يدفعوا الثمن. أنا يكفيني أن أعيش حياتي على هذه الجزيرة مع هذه الفاتنة رادوبيس. في النهاية هي امرأة مصرية بامتياز. أنا بهذا سأكون قد تعلمت شيئًا من محفوظ. وربما معها يمكنني أن أتعلم أيضًا أن أطور فن الخط بمزجه بأصل اللغات، باللغة الهيروغليفية القديمة. ولكي أكون صادقًا مع نفسي، لو لم أستفد شيئًا سوى صحبة هذه الفاتنة، فهذا يكفيني وزيادة.

شعر في تلك اللحظة بكف رادوبيس تمسك بيده، فأجفل، بسبب المفاجأة ربما، وللإحساس الذي داهمه، واقشعر له بدنه. تذكر الحلم القديم، الحلم الذي حلم به في واحدة من تلك الليالي التي كان ينتظر فيها نجوى، بلا أمل، محاطًا بالصراخ الشبقي الغامض.

توقف كاتب الكاشف عن الكتابة، نظر للسقف وسبَّ جيسيكا، بكل ما عنَّ له من السباب. كان يحتاج إلى أن يقتبس الحلم القديم الذي حلمه كبرياء كما هو، لكي يضعه في هذا الجزء من الرواية. لكن الرواية ضائعة

الآن. حسنًا يا قحبة، سأستعيد الرواية كلها من هنا (أشار إلى أعلى رأسه). ترك مساحة خالية بيضاء، وقرر أن يستأنف الكتابة.

"مساء الخير"! صرخ كاتب الكاشف صرخة فزع مدوية، وارتسمت على وجهه ملامح الرعب. التفت إلى باب الغرفة ليجد نجوى واقفة أمامه وهي تمسك بمخطوط الرواية في يدها.

"كيف دخلت إلى هنا"؟ "أنا آسفة جدًا، أنا جيت قبل كده أكتر من مرة وخبطت على الباب لكن عمرك ما رديت". "جبتي المفتاح منين"؟ "من جيسيكا". أحس كاتب بأنه بالرغم من انزعاجه الشديد من اقتحامه بتلك الطريقة، فإن حالة غامضة من البهجة خلت على روحه، في الوقت نفسه، لوجود نجوى بهذا الشكل المفاجئ، وعندما رأى المخطوط الذي تمسك به بين يديها تحولت بهجته إلى نوع من النشوة الغامرة. "هل هذه هي الرواية"؟ مدت نجوى يدها بالمخطوط إليه، وقالت له إنها جاءت لهذا السبب. أمسك بالرواية كأنه حصل على جائزة عمره. طلب منها أن تنتظره في غرفة المعيشة، فأدارت ظهرها له على الفور وانطلقت إلى حيث أشار. قلب الأوراق ليتأكد من أنها كاملة، مداخل الفصول، وفقرات بعينها كان يود التأكد من وجودها. عندما اطمأن تنفس بعمق. غمره إحساس بالنشوة، كأنه دخن عددًا من سجائر الحشيش. لكنه قرر أن ينقل الفقرة الناقصة التي كان يود أن ينقلها أولاً إلى الجزء الذي بلغه في الرواية. قلب في الأوراق حتى وقعت عيناه عليها: "**فتحت عيني، ولمحت ضوءًا خافتًا فنهضت. وجدت فتاة النافذة، شقيقة نيروز، وقد عقصت شعرها ووقفت عارية النهدين، تلوح**

لي. نظرت حولي مرتبكًا، فعادت تشير بيدها بإلحاح، وكانت الإشارة واضحة لا مجال فيها لأي لبس، تدعوني أنا وليس أحد آخر. ارتديت بنطلوني الجينز، وأدخلت ذراعيّ في كمي التي شيرت الذي وجدته أمامي. نزلت الدرج بسرعة، وبعد عدة دقائق كنت أجتاز البوابة الحديدية المغطاة بالزجاج المبرقش في مدخل العمارة المقابلة. وصلت إلى الطابق الأخير، وأنا ألهث. كان باب شقة نيروز مغلقا، بينما باب الشقة التي يفترض أن أصوات الشبق تصدر منها مفتوحًا.

ساد صمت مخيف، لم يتسن لي اختباره من قبل. صمت مربك، يتحول، بمرور الوقت إلى وشيش مربك. وضعت قدمي على عتبة المدخل المظلم. دخلت الشقة بحذر، وأنا أتوقع أن أرى شقيقة نيروز في مكان ما. لكني لم أر شيئًا. كان البيت خاليًا من أي شيء، باستثناء خشب الأرضيات البني العتيق. لاحظت طيفًا شاحبًا من الضوء يتسلل عبر نهاية ردهة طويلة. توجهت إليها بحذر. لم أعد أسمع سوى صوت أنفاسي. لكني أكملت سيري، بتأثير خوف مضاعف من أن أولي ظهري لمصدر الضوء ذاك. أخيرًا وجدت غرفة بابها شبه المغلق يسمح بمرور طيف من الضوء. توقفت قليلاً. تماسكت، ودفعت الباب بحذر. كانت الغرفة خالية إلا من فراش وثير محاط بستائر بيضاء شفافة، تتدلى من عمدان ذهبية معلقة أعلاه. رأيت جسدًا عاجيًا نحيفًا، لفتاة لها قدمان صغيرتان ورشيقتان، وساقاها مزينتان بسوارين من الذهب.

تصورت أولاً أنها شقيقة "نيروز"، لكني اكتشفت أن الملامح مختلفة. ملامحها فاتنة، تمامًا مثل تكوين جسدها العاري المستلقي على الفراش بدلال، وبجوار رأسها كان هناك تاج ملكي فرعوني يلتمع بلون الذهب. بدأ اسم الفتاة يتردد في أذني، كأنها هي التي توحي إليّ بالاسم، باستخدام قوة روحية خارقة.

"رادوبيس"، "رادوبيس". استعدت وصف محفوظ لها، وشعرت بشهوة جامحة، وبأن جسدي متوهج بالحرارة. اقتربت منها بحذر. وضعت كفي على ساقها، لكني رفعتها بسرعة؛ إذ شعرت بمس من السحر بسبب ملمس الساق الذي لم أختبر مثل نعومته. فتحتْ عينيها فهالني جمالهما. ليس لأنهما فاتنتان، وإنما للمعرفة العميقة التي تفيض بهما. بللني العرق. ثم شعرت فجأة بأن روحي تسحب مني. تسللت البرودة إلى جسدي حتى ارتعدت كمريض محموم، ففتحت عيني مفزوعًا. وتنفست الصعداء لأنني كنت أحلم، لكني سرعان ما تكدرت لإدراكي أن وجود تلك الفتاة الساحرة ليس سوى وهمٍ صنعه خيالي في ذلك الحلم الغريب. كنت غارقًا في العرق. فنهضت لأتخفف من ثيابي، ثم أغلقت مفتاح الضوء. تسللت إلى الفراش حاولت استدعاء النوم بينما كان الصمت سيد كل شيء".

انتهى كاتب من قراءة الفقرة التي نقلها إلى موضعها الجديد في الرواية. ثم أغلق الجهاز وخرج إلى نجوى. كان يرتدي شورتًا أبيض جينز يصل إلى أسفل ركبتيه، بينما صدره عار، تمرح على شعيراته الكثيفة قلادة فضية على هيئة مفتاح الحياة. ألفاها جالسة على الأريكة المواجهة للتليفزيون تتصفح نسخة من صحيفة "الإندبندنت"، من بين الصحف المتناثرة على المنضدة، ترتدي جيب بيضاء ضيقة قصيرة تكشف عن ساقيها البضتين، واستدارة فخذيها، وتي شيرت بدرجة زاهية من اللون البرتقالي أعطاها جاذبية وحيوية.

رحب بها وسألها عما ترغب في شربه، فشكرته. أكد لها أنها لا بد أن تشرب شيئًا، واعتذر لها عن مظهره. طلبت عصيرا فاتجه إلى المطبخ،

عبر الردهة التي تقع خلف الأريكة، والتي تقع غرفة النوم في بدايتها. اختفى قليلا ثم عاد بصينية يعلوها كوبان طويلان ممتلئان بعصير برتقال. وضعها أمامها على المنضدة. شكرته وهي كانت تتأمل القلادة التي تدلت معلقة في المسافة بين صدره والمنضدة، وصدره المشعر، ولاحظت أن بطنه هضيم رغم سنوات عمره.

ذهب إلى غرفة النوم، ثم عاد بعد دقائق؛ يرتدي قميصًا أزرق داكنا بكمين طويلين. جلس على الكرسي المجاور لها. سألها: "أنت تعرفين مكان جيسيكا إذن"؟ "طبعًا، هي التي أعطتني الرواية والمفتاح". "ولماذا لم تحضر معك"؟ "الحقيقة أنها تشعر بالخجل من الموقف، وتخشى أن ترفض مقابلتها". نظر إليها متأملاً ملامح وجهها بينما ترتسم على شفتيه ظلال ابتسامة مستخفة، وودود في نفس الوقت. لاحظت في تلك اللحظة أنه يختلف كثيرًا عن المرة التي التقته خلالها في "بينوس". فهو يبدو الآن واثقًا من نفسه، هادئًا، نظرات عينيه عميقة، وليست زائغة ومشوشة كما كانت في تلك المرة.

قال لها: "عمومًا ليس هذا موضوعنا". مد يده إلى علبة سجائره، وقدم لها سيجارة، فالتقطتها منه. أشعلها لها، ثم أشعل لنفسه سيجارة. عاد ليسألها: "أنت مرحّب بك بالطبع، وتسعدني زيارتك، لكن ما سبب هذه الزيارة"؟ "أستاذ كاتب". "أرجوكِ ناديني كاتب". "أوكي، انظر يا كاتب، أنا حتى هذه اللحظة لا أفهم شيئين، كيف تسنى لك أن تعرف كل ما تعرفه عن حياتي، وتصفه بهذه الدقة في روايتك". "والأمر الثاني"؟ "الأمر الثاني هو كيفية توقعك بموضوع نجيب محفوظ،

جيسيكا أخبرتني أنك كتبت هذه الرواية في خمس سنوات، وموضوع محفوظ بدأ منذ أقل من عام". نفث الدخان لأعلى، ثم نظر إليها وهو يستند بظهره إلى الكرسي واضعًا ساقًا على أخرى، ثم قال: "أنا نفسي لا أعرف، فعلاً هذه مسألة غريبة جدًا، لا أخفي عليك أنني شعرت بسعادة غامرة عندما التقيتك لأول مرة، هذه حالة نادرة أن يكتب كاتب عن امرأة من وحي الخيال، تماما، ثم تظهر له في الواقع امرأة تقول له ها أنا ذي فماذا تريد"؟ ابتسمت له وقالت"بالضبط، هذا ما أريد أن أقوله لك الآن". "لا أعرف، هذه الرواية نشأت في ذهني بالمصادفة كانت شخصية كبرياء هي الشخصية المركزية فيها، فكرة أنه لقيط، وأنه يبحث عن امرأة عمره، ثم فكرت في الصوت الشبقي للأنثى التي يسمعها ليلاً. هكذا كنت الفكرة، ثم لا أعرف كيف انبثق وجود شخصية نجوى هكذا فجأة. كانت شخصية مختلقة تماما، في الشكل، وفي المضمون، شخصية غريبة، ردود أفعالها غريبة، تتعرى لكبرياء فقط ولا تمارس الحب، تقول له الأشياء وعكسها، وتعيش قصة حب وهمية في خيالها، ولاحقًا تختلق لنفسها أشخاصًا وهميين من وحي الخيال لتعيش في حكايات غرامية ذهنية لكي تصدقها بكل حواسها. بالمناسبة هل تعرفين شخصًا يدعى أحمد شكري"؟

نفثت دخان سيجارتها، وهي تومئ برأسها إيجابًا وتبتسم: "حتى هذه الشخصية موجودة في روايتك؟ أنت بالتأكيد تريد أن تصيبني بالجنون، اسمح لي لو أنك مكاني كيف ستفكر في الأمر"؟ ضحك قائلاً: "فعلاً مسألة عجيبة، بالتأكيد سأفكر في أنني أواجه عرافًا، أو شبحًا خياليًا".

حل الصمت لوهلة، فدعاها لتناول العصير. تجرعت منه جرعة، وفعل مثلها. قالت له: "أنا خائفة". انتبهت حواسه. لاحظ أن وقع كلمة خائفة أصابه بالتوتر. سألها "مم تخافين"؟ "لا أعرف، من أشياء كثيرة، حتى قبل هذا الموقف أنا مررت بفترات عصيبة من الاكتئاب والمرارات بسبب التجربتين السيئتين اللتين مررت بهما، وبسبب سوء علاقتي بأمي، ولطبيعة علاقتي بكبرياء، وأيضًا بسبب ما يحدث في البلد، تعرف أن موضوع نجيب محفوظ حدث على خلفية وقائع عديدة، فساد، ومجاعات، وأولاد شوارع، وقطاع طريق، وانهيار في كل شيء. والآن نسمع عن ظهور لشخصياته في أماكن متفرقة من البلد، وأنه هو شخصيًا يظهر أحيانًا في أماكن بعينها، ثم هناك هجمة ظلامية تهدد بالعودة إلى الماضي السحيق، ووقائع فتنة طائفية، وجيوش منقبات يستعرضن قوتهن في الطرقات، وطيور غريبة تظهر في السماء بين آن وآخر". امتقع وجه كاتب، وأطفأ عقب سيجارته في المطفأة، ثم قال: "أفهم تمامًا ما تقولينه، أنا نفسي لم أخرج من البيت منذ فترة، ولن أخفيك القول إن شعورًا بالتوتر، هو ما دفعني لذلك، لكنني أظن أن ما أمر به هو حالة من الخوف المرضي، ومع ذلك فله علاقة بما يحدث بالتأكيد".

حل الصمت مرة أخرى بينهما، وبدت الحيرة جاثمة عليهما. اقترح عليها أن تشرب مشروبًا منعشًا فاعتذرت، لكنه ألح، مؤكدًا لها أن ما يمران به يحتاج إلى لذلك، فرضخت مبتسمة. حاولا الانتقال بالحوار إلى مناطق أخرى غير موترة، سألها عما تفضل قراءته، وأعادت إليه السؤال. ثرثرا

في الأدب طويلاً، وانتقلا إلى محفوظ والأعمال التي يفضلها كل منهما. تحدثا عن المشاعر، ومعنى الحب.

قال لها: "لا أعرف ما معنى الحب، في الماضي، انتقلت للحياة في فرنسا في ذروة فترة التحرر والثورة، ألقيت بنفسي أختبر كل شيء، آمنت بوجود امرأة واحدة فقط يمكن للمرء أن يبادلها الحب مدى حياته لو وجدها، لكن التجربة في فرنسا أثبتت أن ذلك ليس سوى وهم، عشقت سيدات كثيرات، وأظن أنني أغرمت بهن جميعًا، لكنني أعرف عن يقين أن هناك امرأة واحدة فقط هي التي أحببتها في حياتي كلها.بمرور الوقت تعلمت أن الحب أشمل من فكرة الغرام بين امرأة ورجل، المهم أن نحب ما نفعله، قد يكون الحب لامرأة أو لفن أو لعمل ما، في الغرفة الصغيرة التي تقع بجوار المطبخ لديَّ عدد هائل من قطع "الميكانو"، أرتبها في التشكيل الصحيح كل يوم، أحاول أن أعلم نفسي الصبر والدقة، هذان هما مفتاح النجاح في كل شيء، لديَّ عملات معدنية بالمئات، أرتبها يوميًا في صفوف، ثم أهدمها لأبدأ من جديد، المهم أن أصبر للنهاية، وأن أنجز الأمر على نحو متقن. لم أكتب أولى رواياتي إلا بعد أن تحليت بالشجاعة وبالصبر.. هذا هو الحب". صمتت نجوى وهي تفكر في كلماته، وتفكر في كبرياء، هو أيضًا يحب الخط، ربما أكثر من حبه لأي شيء آخر. لكن هل يتناقض الحب العاطفي مع حب أشياء أخرى، الطموح، التحقق، الفنون؟

نظرت نجوى في ساعتها فوجدت أنها قضت أربع ساعات كاملة،

دون أن تشعر بمضي الوقت. قالت له إنها تعيش مع جيسيكا، لأنها هربت من بيت أمها، وإنها ستتركه يفكر في أمر الرواية، وما يمكن أن يقترحه عليها، وتمر عليه بعد يومين. هز لها رأسه بالموافقة وودعها، وقبل أن تخرج من الباب مباشرة اقترب منها قليلاً، وقبلها على وجنتيها، ثم ربت على وجنتها بيده. نظرت له بامتنان، ولم تستطع أن تكبح طيف الهيام الذي مر بهما في تلك اللحظة.

11

كان كاتب الكاشف يفكر في كيفية اختتام روايته، محاولاً إقصاء نجوى عن ذهنه. فمنذ لقائهما الأخير وهو يشعر بأنه انشغل بها تمامًا. استعاد صورتها، مندهشًا من تشابهها مع الصورة التي تخيلها لها حين اختلقها في روايته. تساءل هل يمكن أن يُلهم تصورات وتفاصيل كاملة عن شخصيات تعيش في الواقع دون أن يعرفها من قبل؟

في النهاية، جلس أمام جهاز الكمبيوتر، وبدأت الأفكار تتداعى إلى عقله بحثًا عن خيوط حوار جيد بين كبرياء ورادوبيس. قلّب الأوراق، وتأكد من تتابع أحداث الرواية كما كتبها. تساءل: ماذا لو عرف كبرياء بوجود جده قبل أن يموت، ما الحوارات التي كان من الممكن أن تجري بينهما. تداعت أفكاره، وتذكر، بغتة، العلاقة الملتبسة بين جد وحفيد في إحدى روايات محفوظ وهي "قلب الليل". علاقة جعفر الراوي بجده كانت علاقة عكسية.

جعفر الراوي كان ديكتاتورًا، بشكل ما، لم يقبل اختلاف حفيده عنه، ورغبته في التمرد على ما أراده له، شأنه في ذلك شأن الجبلاوي، والسيد أحمد عبد الجواد. لكن رفيق فهمي ترك لكبرياء الحرية كاملة، لم يستخدم إرادته ضد كبرياء، حتى في أن يفرض عليه حقيقة أنه جده.

رفيق فهمي ربما كان عنيدًا، لكنه ليس ديكتاتورًا، بالعكس، كان ليبراليًا، بشكل ما. واقعي، وصاحب نزوات، لكنه مهتم بالتفاصيل، وبالانشغال الإنساني بالابتكار. فكر كاتب في تلك اللحظة أن ابتكاره لشخصية رفيق فهمي، تبدو كأنها محاولة لصياغة نموذج الجد الذي تمنى أن ينتمي له. بدأت الدوامة الضبابية التي يعرف منها أن رياح الأسئلة سوف تهب على عقله عن حقيقة ماضيه، وعن أمه وأبيه الحقيقيين. لكن ماذا عن كبرياء؟ لم يكن لديه سوى سؤال واحد عن هويته وجذوره. أما جعفر الراوي، فأسئلته وجودية، حية، تفتح الباب على اتساعه بين الماضي والمستقبل.

لا شك في أنني عشت حياة أكثر سعادة مما عاشه كبرياء، بالرغم من أنه كان محظوظا لأنه عاش مع أمه، ثم تعرف على شخص أبيه الحقيقي بالرغم من أنه لم يره ألبتة، ولكن لا يمكن لشخص أن يعيش حياته وهو لا يعرف إجابة سؤال واحد، يلح على ذهنه مثل هاجس عصابي: "إلى من أنتمي؟ من هو أبي؟ ومن هي أمي"؟ هل الخوف المرضي الذي أعانيه الآن له علاقة بهذا السؤال، هذه الحالة اللانهائية من الإحساس بالخوف وانعدام الأمان التي تأكل روحي. حياتي كانت مختلفة تمامًا، أظنها حياة مرفهة إلى حد الترف فقد وفر لي أبي وأمي الافتراضيان، قبل موتهما،

حياة لا أستطيع أن أصفها سوى بأنها رغدة، وسعيدة. أمي على نحو خاص كان لها دور كبير في بث الثقة. كانت سيدة متوقدة المشاعر، قادرة على التعبير المستمر عن عواطفها. لعله من قبيل الظلم الفادح أن أدعي أن أمي الحقيقية التي ألقت بي في مكان ما، وقتلت مشاعر أمومتها، تعني لي أكثر من السيدة رقية؛ أمي بالتبني، التي منحتني كل شيء. لكن أليست هذه بالضبط أزمتي. أنا أعيش في الماضي، تمامًا مثل كبرياء، الذي يبحث عن الماضي، عن هويته، عن الأمس. يمارس الخط، الذي ينتمي لتراث يمثل جزءًا من هويته، لكنه لا يعبر عن عمق تلك الهوية. هل ينتمي بالفعل إلى الخط؟ أم أنه ينتمي إلى التحنيط، والنحت، والفنون التجسيدية، والتشكيل وفنون العمارة الجبارة؟

الآن فقط أستطيع أن أفسر النمطية، والموات اللذين يسمان شخصية كبرياء، على عكس نجوى، التي تنتمي، بكيانها كله، للمستقبل. كلاهما يرفضان الواقع، لكن إلام يتطلع كل منهما في المقابل؟ من الذي يبحث في الماضي، ومن الذي اختار طريق المستقبل؟ قرر كاتب الكاشف أن يهرب من تلك الأفكار السوداوية التي تلح على ذهنه، خشية أن تتسرب أفكاره الذاتية إلى النص. دخل إلى غرفته وجلس على مكتبه على أمل أن يهرب من ذاته إلى شخصيات روايته.

في الصباح، وفور أن أشرقت الشمس، استيقظ كبرياء، فتح عينيه. وجد نفسه مستلقيًا على ظهره. التفت إلى حيث تستلقي رادوبيس بجواره، لكنها لم تكن موجودة. هبَّ من نومته ناهضًا، واعتدل جالسًا،

تأمل آثار أقدامها الصغيرة على رمال الشاطئ، فوجدها تتتابع باتجاه مياه البحر، حتى اختفت تمامًا. اقترب من الشاطئ، وبحث بعينيه على امتداد المياه، لكن لم يكن لها أثر. نادى عليها، بفزع، لكن، صوته ذهب أدراج الريح. نظر إلى الشاطئ من خلفه، كانت الصحراء مترامية؛ تلال من رمال صفراء، داكنة، بتول، بكر، لم يطمثها إنس من قبل. وفي الأفق، بدت له كتلة داكنة هلامية من تكوينات لم يستطع أن يحددها بدقة، كأنها واحة بعيدة. كان مشوشًا، لدرجة العجز.

جلس على الرمال مهمومًا. أي قدر تعيس ألقى بي هنا؟ استعاد تفاصيل الرحلة مع رادوبيس منذ بدايتها، وانتبه. قدر؟ ألست أنا الذي غفوت متسببًا في ارتطام القارب بالجبل؟ ألست أنا من قرر الصعود إلى سقف غرفة القبو، حتى زلت قدمي وسقطت؟ نعم، صحيح. لكني لم أقرر الذهاب إلى القبو. لم أختر ذلك. و لم أختر المهمة التي أوكلت إلي. ولا الأشخاص الذين التقيتهم هناك. نعم قدر. قدر لم أختر فيه شيئًا. لا أمي، ولا أبي، ولا مصيري، ولا كل الخبرات التي عشتها، سواء في حياتي كلها أو حتى في القبو، وصولاً إلى المأساة التي أعيشها الآن وهنا.

والآن، ما الذي يمكن أن أفعله؟ هل أنتظر مجيء رادوبيس جالسًا في مكاني مسلوب الإرادة، أم أبدأ بالانتقال إلى تلك الواحة التي تلوح في الأفق؟ أين ذهبت رادوبيس؟ هل تركتني هنا لأواجه مصيري بعد ما سببته لها من متاعب؟ أم أنها سبحت في مياه البحر، وأغرقتها المياه. أم تراها اتجهت إلى تلك الواحة؟

مشي عدة خطوات في الرمال، فالتهبت قدماه من شدة الحرارة.

عاد أدراجه إلى الشاطئ، انتابه التوتر، وإحساس باطني بالفزع، خاصة حين اكتشف عطشه، وتقلص بطنه من شدة الجوع. لم يأكل شيئًا منذ غفا في القارب؛ حيث توالت الأحداث على النحو الذي سارت عليه. اكتشف أنه، وأيًا كانت احتمالات ما تعرضت له رادوبيس، لا بد أن يتجه صوب الواحة. وأخيرًا، وبشيء من حماسة مشوشة، غير مكتملة، مشوبة بالريبة والحذر، واستهوال أن يلقي بنفسه في طريق مجهول، بدأ رحلة المشي في الرمال.

وصل كبرياء إلى الواحة، بعد رحلة مضنية. استغرقت منه فترة الضحى وحتى الظهيرة. التهبت قدماه حتى دميتا، ولولا إحساس باطني أوحى له بأن توقفه، لأي سبب، سيعرضه للموت، لما أمكنه أن يستكمل سيره في تلك الرمال القاحلة الملتهبة. بل كان ذلك بمثابة الدافع القوي الذي جعله يقاوم أي شعور بالإنهاك والتعب. لحظة فريدة من تلك اللحظات التي يدرك فيها الكائن البشري مدى القوة التي يتمتع بها لو استخدم إرادته في كبح كل مشاعره السلبية. قبل ساعة من وصوله إلى هناك كان المشهد يتجسد له أكثر تفصيلا كلما اقترب. كانت المساحة الداكنة هي مساحة من الأخضر، تجسدها مجموعة من الأشجار، التي تحجب الرؤية عما خلفها، لكنها أكدت له وجود حياة ما، والأهم من هذا كله، وسواء وجد فيها بشر أم لا، فعلى الأقل، ستكون فيها مياه. هكذا أكد لنفسه.

كان قد فقد القدرة حتى على ابتلاع ريقه من شدة العطش. وتحول لسانه إلى قطعة لحم جافة، وفقد توازنه، يتفصد العرق من جسده، بينما

التهبت قدماه حتى فقد القدرة على الإحساس من فرط الألم. كان يحمس نفسه، وهو يردد "خلاص هانت، هانت، اصبر بس الشوية دول"، مرتعبًا من أن يتعرض لضربة شمس تفقده الوعي.

بالرغم من ارتفاع قدرة احتماله إلى ذروتها، وتماسكه الذي سيظل يفكر فيه لاحقًا، كمعجزة صغيرة لا يفهم كيفية تحققها، فإنه، في النهاية، وعلى بعد خطوات قليلة من أول آثار الحياة بعد انتهاء حدود الصحراء، وقع على الأرض، مغشيًا عليه. قبل لحظات من سقوطه فقد تركيزه، وزاغ بصره، ولم يعد قادرًا، من خلف عينيه المظللتين بغشاوة العرق وحرارة الشمس، أن يميز ما يراه. رأى مشهدًا لمجموعة من الفتيات العاريات يرقبنه من بعيد، عبر الأشجار.

فكر بأنه دخل في مرحلة الهلاوس. بدأ يجر قدميه جرًا. عضلات ساقيه وفخذيه شبه مخدرة، ثقيلة. أحس بأنه فقد كل قدرة عضلية، لا ليخطو عدة خطوات أخرى، وإنما حتى ليتماسك ويظل واقفًا في مكانه. بعد لحظات أخرى أحس بأن الأرض تمور من تحت قدميه، وأن الرمال تتحرك مثل أمواج البحر، ثم حل ظلام ثقيل مباغت؛ العلامة الأخيرة لجسد استنفد كل طاقته، فسقط على الأرض بلا مقدمات. انهار الجسد، في لحظة، ففقد العقل سيطرته، ليصبح الجسد مجرد كومة يماثل سقوطها، سقوط حجر من مستقر إلى هاوية، بلا إرادة لمقاومة قوانين الجاذبية.

12

توقف كاتب فجأة، رفع يديه من على أزرار جهاز الكمبيوتر، وظل يحدق في الشاشة البيضاء أمامه، تصطف عليها حروف النص التي لم يكن يرى منها شيئًا. ساوره إحساس غامض بأنه لا يريد أن يكمل الرواية. أحبطني كعادته، فبالكاد كنت تصورت أنه سينتهي من الرواية، ويسعى لنشرها. يبدو أنني مغفل وساذج، فهو لن يتغير، كما أنني كان يجب أن أفهم أنه إذا لم تستطع كل تلك السنوات أن تفعل شيئًا حيال تردده، وخوفه وانعدام ثقته بنفسه، فلن يكون بإمكان موقف عناد عابر أن يغيره فجأة. يلتقي امرأة فتطلب منه ألا ينشر رواية لم يكن ينتوي نشرها البتة، فينفجر برغبة عنيدة في النشر حتى لا يرضخ لها. لكنه، بمرور الوقت شعر بأن موقفه ذلك ليس أصيلاً، ولا يعبر عن رغبته الحقيقية فيبدأ بالتراجع.

انتهت محاولاتي كلها لإثنائه عن قراره بالفشل. زيَّنت له العديد

من الأحلام بالتحقق، ونجاحه ككاتب. كان ينتشي لوهلة لكنه سرعان ما ينتقد الفكرة مؤكدًا لنفسه أنه لا معنى للنجاح ككاتب في مجتمع أمي ومتخلف. مجتمع يكره القراءة، وتتبدد ثروته الأدبية بلا أي شعور بالخجل، ليس ذلك مجتمعًا يستحق أن يولد به كُتّاب، بل لا يليق به سوى حفاري قبور. لو كان بإمكاني أن أقتله لفعلت. أظن أن هذا هو الحل الوحيد، فبموته ستنتهي أوهامي عن نفسي، وعن إمكانية تحولي إلى جن كتابة له قيمة بين أقرانه. سأتقاعد، وأجلس مع جموع الفشلة من جن الكتابة، أنعي إحباطي وفشلي، وأنتقد البعض من أنصاف الموهوبين من الجن الذين ألهموا نصوصًا ركيكة لكتاب تافهين فأصبحوا نجومًا لأسباب أخرى غير ما يكتبون. نعم ربما سيكون ذلك أفضل لي بدلاً من التعلق بالوهم الذي يرتفع بي إلى عنان السماء، ثم يسقط بي على الأرض، بلا رحمة. هكذا كانت حالي مع كاتب الكاشف، لكني لم أعد أحتمل.

ما يحيرني فعلاً أنني أشعر أن لديه رغبة حقيقية وأصيلة في الاستمرار بكتابة هذا النص، لكن هناك أسبابًا أخرى تمنعه، أو تشوشه. أشعر بأن ما ألهمه إياه لا يصل إلى ذهنه صافيًا ونقيًا وواضحًا كما أبثه إليه. هل وقع في غرام نجوى؟

أصبحت أشك في هذا بقوة. ثمة تغير واضح في الطريقة التي يفكر بها حيالها. فكل امرأة عرفها، كان يتودد إليها فور أن يشعر بأنه يميل إليها، وعادة ما كانت ميوله جنسية محضة. تعجبه النسوة اللائي يثرنه في المقام الأول. كان هذا هو المعيار الجوهري، ولذلك لم يكن يضع موضوع

المشاعر في حساباته. بل إنه غالبًا ما كان يضع سيناريو الخروج من العلاقة قبل أن يشرع فيها، واثقًا من تحكمه في مشاعره، وفي قناعته بأنه لا توجد امرأة تستحق. لكنه يبدو مختلفًا هذه المرة. ثمة إحساس بالضعف تجاه نجوى، ولعل هذا ما يجعله مشوشًا. يفكر فيها باستمرار. كما أن فكرة أنه كتب سيرة شخصية من الخيال، فإذا بها شخصية من لحم ودم تجربة ليست هينة. فقد أثبت له هذا أولاً أن الواقع أقوى من الخيال مهما بدا جامحًا، وتاليًا تسبب ذلك في شعوره بأن هناك صلة روحية عميقة تجمعه بنجوى. مستحيل أن يكون ذلك حقيقة. فإما أنني عرفتها في حياة أخرى واستدعيت ما أعرفه عنها، أو أنني مسكون بشيطان. هكذا كان يردد لنفسه. ولا أستطيع أن ألومه لأنني نفسي لا أمتلك تفسيرًا لذلك. وهي من جانبها لم تمنحه فرصة لكي يعتبر أن مشاعره حيالها مجرد سحابة عابرة، تسببها الدهشة، والمفاجأة، بالإضافة إلى اضطرابه النفسي، وبلوغه مرحلة بالغة السوء من الإنهاك العصبي، دون أن يحظى بعلاج.

كانت نجوى تلح على زيارته يوميًا، وبالرغم من أنه كان يتملص منها، حتى عندما تباغته بحضورها بلا سابق إنذار، ويسرع إلى الفراش ليتظاهر بالنوم حتى يقطع عليها الطريق إذا كررت تجربة الدخول إلى شقته بلا استئذان، مع ذلك كان يشعر في أعماقه بأنه متواطئ معها، وأنه لا يكره غزوها لشقته على ذلك النحو. وإلا فلماذا لم أغير قفل الباب؟ أو حتى أن أضع المزلاج الداخلي. معقولة؟ هل وقعت بالفعل في حبها؟ هل يمكن أن أحب في هذا العمر؟ ثم من هي هذه الفتاة من الأساس؟ أكاد لا أعرف عنها شيئًا، مهما بلغت دقة ما كتبته عنها على حد ما تقول. المرأة التي

على الورق، في النهاية امرأة افتراضية، خيالية، لا علاقة لي بها، بالرغم من أنني أظن أنني كنت أختلقها وأنا معجب بها. نعم ككاتب. يحدث هذا الأمر كثيرًا يكتب الكاتب عن شخصية، ويتعلق بها. يتمنى أن يكون لها وجود في الواقع، خاصة إذا كانت مختلقة وليست مجرد نموذج منقول من الواقع.

إذن أنا الآن واقع في غرام فتاة رأيتها مرتين، لم يستغرق أي لقاء منهما أكثر من ساعة، لكنني أظن أنني أحبها، أليس هذا دليلاً قاطعًا على أنني أصبحت مخبولاً بالفعل، وأنني يجب أن أرضخ لواقع أنني أحتاج إلى علاج نفسي حاسم وفوري؟

13

بالرغم من إصرار كاتب الكاشف على عدم إتاحة الفرصة لنجوى لأن تلتقيه، وعدم فتح الباب كلما رأى وجهها من خلف العين السحرية لباب الشقة فإنها لم تمل، و لم ترضخ لعناده. اتصلت به ذات مرة، ونجحت في إقناعه بأن يلتقيها. قالت له أنها غيرت رأيها بخصوص الرواية، وإن بإمكانه أن ينشرها لو رغب في ذلك، لكنها أوضحت أنها تريد أن تراه لشأن آخر لن تستطع أن توضحه عبر الهاتف.

رضخ كاتب بعد تفكير. وفي الموعد المحدد، عندما دق جرس الباب اتجه إليه ببرود، وفتح الباب بهدوء. فور أن أطل وجهه عليها تقدمت منه وقبلته كأنه صديق قديم. رحب بها، وهو يتأمل ملامح وجهها مفتونًا.

تأكد من أنه وقع في غرامها، في تلك اللحظة. ضبط مشاعره المتهيجة قليلا، لكنه حاول أن يبدو رابط الجأش. حافظ على ملامح وجهه المتجهمة، وسألها بود عما تريد أن تشرب، فاقترحت البيرة بلا تردد.

عاد من المطبخ بزجاجتين، صب لها قدرًا من إحدى الزجاجتين في كوب وضعه أمامها فشكرته. سألته إذا كان بإمكانه أن يسمح لها بالتدخين، فقدم لها علبة السجائر بأريحية، وأشعل لها السيجارة. عاد وجلس على الأريكة، بينما جلست هي على الكرسي الأزرق الوثير إلى يساره. كانت تتأمله بشغف، ولاحظ أن عينيها تلتمعان ببريق أخَّاذ. حاول أن يتذكر إذا ما كان قد أشار إلى التماعة عينيها هذه في نص الرواية، لكنه لم يكن متأكدًا، فقرر إضافتها إلى الرواية، بينما كان يحاول استدعاء وصفه لها كما كتبه في الرواية:

"بشرتها وسط بين سمرة الأولى وبياض الثانية. كما أن نهديها لم يكونا كاعبين مثل نهدي الأولى ولا مترهلين مثل الثانية، لكنهما كانا متماسكين بارزين مدملجين كما هي أغلب أجزاء جسدها. ووجهها يميل لأن يكون عريضاً عند الخدين بشكل يذكّر الجميع بليلى علوي، لكن عيناها سوداوان، أما شعرها البني الطويل فيبدو منفوشا حول وجهها أغلب الوقت، لكنه في الصورة كان مبتلاً، ملموماً ومعقوصاً خلف ظهرها ".

قال لها: "أنا أعتذر لك عن عدم قدرتي على مقابلتك طوال الفترة الماضية". "لا بأس، أنا مقدرة لمشاغلك ورغبتك في الانعزال، لكني فعلاً أحتاج إلى أن أتحدث إليك". تأملها قليلاً ثم هز لها رأسه بأن تواصل. قالت له إنها تشعر بأنه قريب منها روحيا، سواء كان يبادلها هذا الشعور أم لا، وأيًا كانت المصادفات التي قادته ليكتب عنها رواية دون أن يعرفها. وأوضحت له أن هذا الأمر يجعلها ترغب في أن تستشيره في بعض المسائل الأخلاقية في الحياة. "لا أعرف مدى وجاهة إحساسك بالقرب الروحي

مني، فبالرغم مما كتبته عن شخصية نجوى في الرواية، لا أظنني سأكون قادرًا على التعامل معها في الواقع، وبرغم تأكيدك لي بأن كل الوقائع والتفاصيل التي ذكرتها في الرواية تبدو كتحليل عميق لشخصيتك، لكني في الحقيقة أشعر الآن بأنني أمام امرأة لا أعرف عنها الكثير. وأظنني حتى لو تعاملت معك على أرضية معرفتي الافتراضية المسبقة بك، فلا أظن أن هذا سيمنع مفاجأتي بالكثير من ردود فعلك. فلو صح أنك نجوى كما وصفتها الرواية، فأظنك شخصية استثنائية لا يمكن توقع رد فعلها في أي لحظة". "حسنا، ربما يكون معك حق، وربما أنني بسبب اقتناعي بما تقول أصبحت غير مكترثة بأن تنشر الرواية من عدمه، لكن، مثلاً واقعة مثل واقعة اختفاء كتب محفوظ، كيف تتعامل معها بعد أن تحولت من مجرد فكرة خيالية في رواية إلى واقع". "معك حق، هذا الموضوع هو الذي لا أستطيع أن أفسره ألبتة، تخيلي أن كتبه قد اختفت كلها من مكتبي". "بالمناسبة، ألن تنضم إلى الكتاب الذين يتضامنون الآن لعمل كيان أهلي لاستعادة تراث محفوظ"؟

ضحك كاتب طويلاً، فسألته "ما الذي يضحكك إلى هذه الدرجة"؟ "لا شيء، مجرد الإحساس بالعبثية، ما تخيلته أصبح واقعًا، لكن المأساة أنني لا أستطيع أن أنضم لكيانات الكتاب في هذا البلد، لا أستطيع أن أصدقهم، مفهوم الكاتب عندي مختلف كثيرًا عنهم، وهذه قصة طويلة سأشرحها لك لاحقًا على أي حال، لا يا عزيزتي، لن أفعل شيئًا، ثم إنني لم أنشر كتابًا من قبل، فلست محسوبًا على الكتاب من الأساس، أنا يا عزيزتي لا أشعر بجدوى أي شيء في هذا البلد الذي ينهار بإلحاح".

صمتت نجوى، ونظرت إليه وهي تحدق بعينيه بعمق، ثم قالت: "أنت بالفعل شخص غريب".

رفع حاجبيه مندهشًا، لكنه لم ينتظر منها تعليقًا، فعادت تقول: "هل لي أن أسألك سؤالاً شخصيًا"؟ ابتسم، وأشعل لها سيجارة وقدمها لها، ثم قال وهو يشعل سيجارته: "أنت ضيفتي الآن، وعادة ما أحاول أن أبدو كريمًا مع ضيوفي، ورغم أن الأسئلة الشخصية ممنوعة ألبتة، لكنني سأستثنيك من هذه القاعدة". ابتسمت له ابتسامة ممتنة، وقالت له: "هل انتهت علاقتك بجيسيكا"؟ "طبعًا، ما فعلته لا يغتفر، وحتى لو عادت فإنها لن تلقى مني سوى أقسى ما يمكن أن تسمعه من إهانة". "لماذا أنت قاس هكذا"؟ "أنا قاس؟ لا لست كذلك، بالعكس تمامًا، وسوف تعرفين ذلك إذا اقتربت مني". "أعتبر ده وعد"؟ ضحك، لكنه لم يعقب، ثم صمت للحظة وقال: "إذا كانت هنا قسوة فلا شك أنها تنطبق عليها وعلى ما فعلته معي، والعكس غير صحيح على وجه الإطلاق". شعرت نجوى بارتياح مفاجئ، أحست بأنه أزاح قناعًا من على وجهه فتحول من شخصية باردة جامدة متجهمة وشكاكة إلى شخصية أخرى لا تعدم الدماثة. بدأت تحكي له عن مشكلاتها في الإحساس المتناقض الذي يلاحقها ويجعلها دائما تقع في غرام أكثر من شخص معًا، وتعيش في صراع الاختيار بينهم.

"لماذا تشغلين نفسك بهذا الصراع الدائم؟ اتركي نفسك على سجيتها، الروح تنتقل في النهاية لما تحب". "أنا لا أتكلم عن الروح، أنا روحي هي التي تسبب لي التشتت والحيرة، لا، أنا أتحدث عن العقل". "أي عقل"؟ "العقل، المنطق". "الروح هي التي تقود العقل، في الحقيقة،

أما العقل فدوره، فقط تبرير ما ترغب فيه الروح". "معقولة"؟ "طبعًا، أي عقل هذا الذي تشغلين نفسك به؟ العقل يبحث عن المنطق الأخلاقي في الحياة، الكل الآن ألغى الدور الحقيقي للعقل، كبلوه بكل الكوابح والقيود، وأقنعوا الناس بأن العقل هو الرضوخ لكل الثوابت الاجتماعية، بينما كل تلك الثوابت الأخلاقية إذا شئت، أو الاجتماعية أو أيًا كانت هي قواعد وضعها بشر، لخدمة سلطات كهنوتية أو ملكية ووفقًا لظروف معينة، اكتسبت قوتها من التراكم، لكنها، تسببت، في الوقت نفسه في آلاف من حالات الجنون، والآلام الروحية العميقة، بسبب الكبت والصراع الدفين بين النوازع الداخلية الغريزية وبين سيطرة العقل الذي يستقي مصادره من اللافتات والقوانين الموضوعة". "هل تقول إن الإباحية هي الحل"؟ "هذه كلمة سخيفة لا أستخدمها من الأساس، هذه كلمة أخلاقية من صنع الطبقة الوسطى البرجوازية المتناقضة، المقموعة، والمكبوتة". "إذن"؟ "لا شيء. ليس لدي ما أقوله، فقط دعي قلبك يقودك".

صمتت، ووضعت ساقًا على الأخرى. كانت ترتدي جيب قصيرًا، فالتفت كاتب يتأمل ساقيها، والجزء من فخذيها المنساب بعد ركبتيها، وأحس بشيء من الإثارة. بدت مشغولة بالتفكير فيما يقوله. سألها إن كانت ترغب في مشروب آخر، فأجابت بالإيجاب. حاولت أن تبتعد عن الموضوع قليلا حتى تمنح نفسها فرصة أكبر في التفكير فيما يقوله. سألته عن الفلسفة وما تعني بالنسبة له، فأسهب في حديث مطول عن علاقته بالفلسفة، وسبب اهتمامه بها، وأهم الفلاسفة الذين يرى أنهم

نماذج مهمة في تاريخ الفلسفة، بينما كانت هي شاردة، تتابع ما يقول بنصف عقل.

كانت تفكر فيما يقوله لها، وتردد الكلمة في وعيها "دعي قلبك يقودك"، قالت إنها ستحسم أمرها وتحافظ على علاقتها بكبرياء، وكاتب الكاشف معًا. فكرت أن كاتب لن يمانع في ذلك، خاصة أنه يرفض الأفكار الأخلاقية. لكن ماذا عن كبرياء؟ كيف سأشرح له؟ لن يتفهم المسألة. الحل الوحيد أن أحكي له عن كاتب الكاشف، كصديق حكيم، ورجل أرتاح إليه كصديق، فتبدو آنئذ أن هناك شفافية ما. لكني لن أحكي عنه بصفته هذه، فأنا حتى لا أفهم طبيعة مشاعري تجاهه. لكني لا أستطيع أن أصدق ما أشعر به حياله الآن. منذ جلست أمامه ولدي رغبة في تقبيله، أو ربما لدي رغبة عميقة في احتضانه. نعم ثمة إحساس حسي ما تجاهه. على عكس كبرياء الذي استغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى أشعر بذلك معه. استمر الحديث بينهما طويلاً، و لم ينتبها لمرور الوقت، ولكن كما كانت مشاعرها تتحرك باتجاه كاتب، كان هو أيضًا يتأكد، بمرور الوقت، أن ثمة مشاعر عميقة تنمو في أعماقه حيالها. كان مندهشًا، لكنه استسلم للحالة. طلب منها أن تسترخي وتقترب منه. خلعت حذاءها الصيفي الأسود الخفيف، ورفعت قدميها البضتين الصغيرتين، المعتنى بأناملهما، والمطلية أظافرهما بلون قرمزي متوهج، إلى الأريكة وتربعت بجواره.

استمر حديثهما طويلاً، حول حياته، سفراته لأرجاء أوروبا، علاقاته المتعددة، فهمه لمعنى الحرية، في علاقاته، والنساء اللائي أثرن فيه أكثر من غيرهن. حكى لها عن الفترة المتوهجة من حياته في باريس. حكى لها

أيضًا، باقتضاب، عن أمه وأبيه. كانت تستمع إليه بشغف، وتعلّق بين الآن والآخر على ما يقوله. تعمد أن يربت بخفة ورشاقة على فخذها أو كتفها، كأنها حركات تلقائية غير مقصودة، لكنها كانت تستقبلها بإحساس قوي، وكأن كل لمسة منها كانت تزيح سنوات من الغربة بينهما. لم تكن تشعر بحاجة للتحدث عن نفسها، فقد كان يقينها الراسخ أنه يفهمها أكثر من نفسها.

قالت له في نهاية السهرة: "دعي قلبك يقودك، أليس هذا ما تقوله، أنا الآن أشعر بالرغبة في أن أقبلك". اقترب منها على الفور، وقبلها قبلة مباغتة، ليست رقيقة، ولا عنيفة، لكنها شهوانية، حسية. سرت نشوة عميقة تملكتها لدرجة أنها بدت لها مماثلة لإحساس ما قبل بلوغ الذروة. ابتعدت عنه وهي تبتسم، دون أن تغمض عينيها، ولاحظت تهدج أنفاسها. كانت مذهولة من هذا الإحساس، فتجرأت وقالت له هامسة: "أشعر أنني أريد أن أتعرى". ابتسم كاتب واحتضنها، لكنه أوضح لها أنه ينتظر صديقه غريب الأطوار شامخ. دخل إلى مكتبه واختفى للحظات، ثم عاد إليها وهو يمسك بورقة صغيرة، تأملتها فوجدته كتب فيها عنوانًا. "بإمكانك أن تأتي غدًا لنلتقي في هذا العنوان. هناك لن يضايقنا أحد".

14

قضت نجوى ليلتها تلك عند جيسيكا، لكنها لم تحك لها شيئًا مما حدث. كانت تشعر بسعادة، وتعتريها حالة من النشوة، هل تحب كاتب؟ لكن كيف يمكن أن تحب شخصين في اللحظة ذاتها؟ "لا شك في أنني معجبة بكاتب الكاشف، وأظنني مأخوذة بمعرفته بي، وربما بأنني ملهمته، بشكل ما، حتى لو لم يكن قد عرفني قبل أن يكتب عني".

كان قلبها يخفق سريعًا كلما مرت عليها ذكرى من الحوار الطويل الذي دار بينهما على امتداد اليوم، أو كلما تخيلت ما يمكن أن يحدث في اليوم التالي. استعادت قبلته، أكثر من مرة. أغمضت عينيها، وتذكرت مذاق، وملمس لسانه الرطب ومداعبته لسانها بقوة. شعرت جيسيكا بشرودها، لكنها لم تشأ أن تتطاول على عزلتها. شاهدتا التليفزيون معًا، متجاورتين على الأريكة. مرت بينهما حوارات وتعليقات عابرة. بحسها الغريزي شعرت جيسيكا بأن نجوى لا ترغب في التطرق لموضوع الفيلم

على أي نحو. بدا أنها مشغولة تمامًا، وتعيش في عالمها الداخلي بشكل عميق. لم تحاول جيسيكا أن تفرض عليها حالة من الضغط تكشف لها بها أنها تريد أن تقتحم عالمها الداخلي. إذا كانت لا ترغب في التحدث عما يشغلها فسوف يكون سؤالي محرجًا وبلا معنى. وعلى غير المعتاد أبدت نجوى رغبتها في النوم مبكرًا، كأنها كانت تعبر عن رغبتها التي سيطرت على كيانها كله أن يبدأ اليوم التالي، اليوم الذي كانت ترى فيه سبيلاً لتغيير مصيرها، كما تنبأ به كاتب الكاشف.

لم تنتبه نجوى إلى العنوان إلا في اليوم التالي. راعها أن الشقة التي أعطاها كاتب عنوانها تقع في حي المنيل. شعرت بنوع من تأنيب الضمير، فقد قررت أن تمارس الحب مع كاتب الكاشف بسهولة. فكرت فيما يمكن أن يحدث لكبرياء إذا عرف بذلك. قضى شهورًا، وتطورت العلاقة بينهما عاطفيا، لكنها لم تسمح بتطورها إلى تخوم الجنس. اكتفت باستعرائها، وبخبرة التعري من أجله، وتعذيبه بالشهوة، وتقبل الأمر راضيًا. فماذا يفعل إذا عرف أنها مارست الحب مع كاتب بعد أقل من أسبوع من تعرفها إليه. نفضت الأفكار عن رأسها، وارتدت ثوبًا مثيرًا، جيب جينز ضيقة قصيرة، "بودي" أسود، بلا أكمام، واختارت جاكيتًا صيفيًا أسود للطريق. وجهزت نفسها بالاستحمام والتعطر، والتأكد من نعومة جسدها كاملاً.

كانت تعبر الطريق، كأنها مخدرة بنشوتها، لا تفكر سوى في كاتب الكاشف، وفي الرغبة العميقة التي تسيطر على حواسها أن تمنحه نفسها

كأنها ستزرع نفسها فيه لكي تقضي على كلِ هواجسها للأبد. رحب بها كاتب الكاشف مرتديًا قميصًا أسود وبنطالاً بنفس اللون. لكن الشقة بدت لها معتمة. همس لها بأن الشقة كلها تخلو من الإضاءة تمامًا. وهمس لها بكلمات غزل أثارتها على الفور. اقتربت منه وقبلته، بينما نشوتها تقارب الذرى.

على بُعد عدة أمتار قليلة، كانت نافذة الغرفة التي وقفت فيها نجوى عارية تمامًا في حضن كاتب الكاشف، تواجه نافذة أخرى أليفة بالنسبة إليها، لكنها، لم تنتبه لمدى قربها في أوج النشوة، والرغبة، والخاطر الملح بأنها تقذف بروحها في أتون النشوة لكي يقع كاتب الكاشف في غرامها، فتجد لنفسها مستقبلاً أكثر سعادة مما تنبأ لها به. في تلك النافذة القريبة كان بإمكاني أن أستمع، أنا شيطان كتابة كاتب الكاشف، لمونولوج كنت قد ألهمته لكاتب على لسان شخصية من شخصيات روايته، وكدت أصعق عندما سمعته كطنين في رأسي، لكني التقطته وكنت أعرف مصدره جيدًا: "شقت الصرخة صمت الليل، فانتفضتُ. صرخة كئيبة ملتاعة، مثل ومضة في سماء معتمة. انتبهت حواسي جميعًا، وسرعان ما رعَدَت الصرخة مرة أخرى. لكنها بددت انطباعاتي الأولى عنها. ليست صرخة ألم، بل لغة شهوانية لروح ترفل في نشوتها، إشارة حسية تكتسي صوت امرأة، شهقة جسد يكتشف لذته، متوسلاً صوتًا بدائيًا ضاربًا في القدم، تعود جذوره إلى بذرة اللذة الأولى. نعم ليس هذا الصوت سوى آهات حارة تطلقها امرأة في أوج لذتها. من أين يأتي الصوت؟ من جهة

نافذة غرفة النوم على الأرجح. توجهت صوب الغرفة، ببطء، بينما أسترق السمع. اختلست النظر عبر فتحات الشيش المتتابعة. نوافذ البناية المقابلة كلها مغلقة، ومعتمة. كيف استطاعت هذه السيدة أن تتخلى عن خجلها وأصول اللياقة، مطلقة العنان لشهوتها الفضائحية على هذا النحو؟

لكن أليست نبرة الصراخ هذه مألوفة على نحو ما؟ أليس هذا هو صوت....؟! لا، لا. الأصوات تتشابه، خاصة تأوهات النساء في غلمتهن". أكاد لا أصدق ما أسمعه، صوت كبرياء الذي ألهمت به كاتب الكاشف ليفتتح به روايته، يطن في أذني، بالتوازي مع صرخات الشبق التي تعلو تدريجيًا بجنون، من حولي، وتتسبب في جنون كاتب الكاشف والتياثه بالشهوة. أنصت مرة أخرى حتى أقطع الشك باليقين، وصدق حدسي، فقد كان كبرياء مستمرًا في مونولوجه الداخلي:

"شهيق وزفير، آهة مكتومة، ثم صرخة، بدت إعلانًا جليًا عن نشوة جسد يحاول التخلص من خرسه، عبر الظلام والغرف المغلقة. أين يكمن هذان العاشقان، ولماذا يلوذ "صانع الحب" بالصمت بينما رفيقته لا تكف عن الصراخ مثيرة جوًا حسيًا شبقيًا، يستيقظ له الجيران جميعًا؟ ترتطم نوافذ غرف نومهم بالجدران. يتألق بياض عيونهم في الظلام. قبل أن تتفجر كرات من وهج أحمر، ينفثون خلفها سحب الدخان من تبغ، يحاولون به أن يهدئوا نيران الرغبة؛ إذ تتحول شقق البنايتين المتقابلتين إلى كتلة من الشبق، كل يعبر عن شهوته التي تلح على الأجساد تنشد الذرى. نهضتُ من الفراش وتوجهت إلى النافذة، مرة أخرى. نظرت عبر الشيش، فلم أر شيئًا لافتا للنظر. فتحت النافذة بحرص. تسللت بنظري.

كانت أغلب نوافذ الجيران مغلقة، والغرف غارقة في الظلام. أصختُ السمع. بدا الصوت قادمًا من صوب نافذة شقة الجيران المهجورة في العمارة المقابلة. ما زال صداه يتردد، بعد متوالية الصراخ؛ التي أحيت الجيران جميعًا من موت المشاعر، وصمت الأرواح، ورتابة الملل، وأقنعة الزيف، ومرارة الواقع الذي كانوا يعيشونه قبل دقائق قليلات".

تمت

القاهرة – الكويت

2006 – أكتوبر 2008

إشارات واجبة.. وشكر

لا يفوتني هنا أن أشكر عددًا من الأصدقاء على ملاحظاتهم الدقيقة على المخطوطة الأولى للرواية، وبينهم الصديق ياسر عبد الحافظ، الذي كان لملاحظاته دور كبير في الكثير من التعديلات التي أجريت على النص، كما أشكر الأصدقاء مهاب نصر، وجيهان عبد العزيز، اللذين لم يبخلا بوقتهما، أو بملاحظاتهما الدقيقة، وأيضًا، الصديق حاتم حافظ.

كما أشكر هايدي عبد اللطيف، الصديقة والحبيبة، ورمانة ميزان اتزاني، والملهمة أحيانًا، وربما كثيرًا، على العديد من ملاحظاتها التي واكبت المراحل الأولى لكتابة النص.

النص يتضمن مقتطفات عديدة من أعمال نجيب محفوظ جاءت جميعًا بين أقواس، كجزء من نسيج السرد، أحيانًا، أو كمقتطفات في أحيان أخرى، اقتطفت من طبعات كتبه المنشورة لدى مكتبة مصر، وبعضها نسخ من كتبه الصادرة عن دار الشروق. هناك فقرة عن الخط العربي مقتبسة من موقع الخط العربي على الإنترنت.

وأظنني لست في حاجة للإشارة إلى أن النص كله بمثابة إهداء إلى روح "نجيب محفوظ"، وفاء لمعلم كبير، لا أظنه كاتبًا واقعيًا كما يشاع، قدر ما أعتقد أنه كاتب الفلسفة المتكئة على شخصيات تسير بها وتطوف، والذي أضاء لنا طريقًا لبناء الرواية، باللغة والفلسفة، فمنحنا المعاول لنعرف كيف نضرب بها المبنى الروائي بأزاميل الحداثة، دون أن نهدم – كما يظن البعض بالخطأ– أو نخرب، وإنما لكي نشيد مباني تناسب العصر الذي نحياه.

المؤلف في سطور

إبراهيم فرغلي

- كاتب روائي وصحفي مصري.
- من مواليد المنصورة في سبتمبرعام 1967.
- يعمل صحافيًا ثقافيًا بمؤسسة الأهرام منذ عام 2000، والآن يعمل في مجلة العربي بالكويت.
- له مجموعتان قصصيتان: "باتجاه المآقي"، 1997، و"أشباح الحواس"، 2001. وعدد من الروايات هي: "كهف الفراشات"، 1998، "ابتسامات القديسين"، 2004 ، (ترجمت إلى الإنجليزية ونشرت عن دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة 2007)، "جنية في قارورة"، 2007، بالإضافة لكتاب رحلات (مداد الحوار، وجوه ألمانية في مرايا مصرية) عن دار العين 2006.
- ترجمت بعض قصصه وأجزاء من رواياته إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والدنماركية.
- له تحت الطبع كتاب نقدي بعنوان"شهوة الكتابة بين نجيب محفوظ وأحفاده".